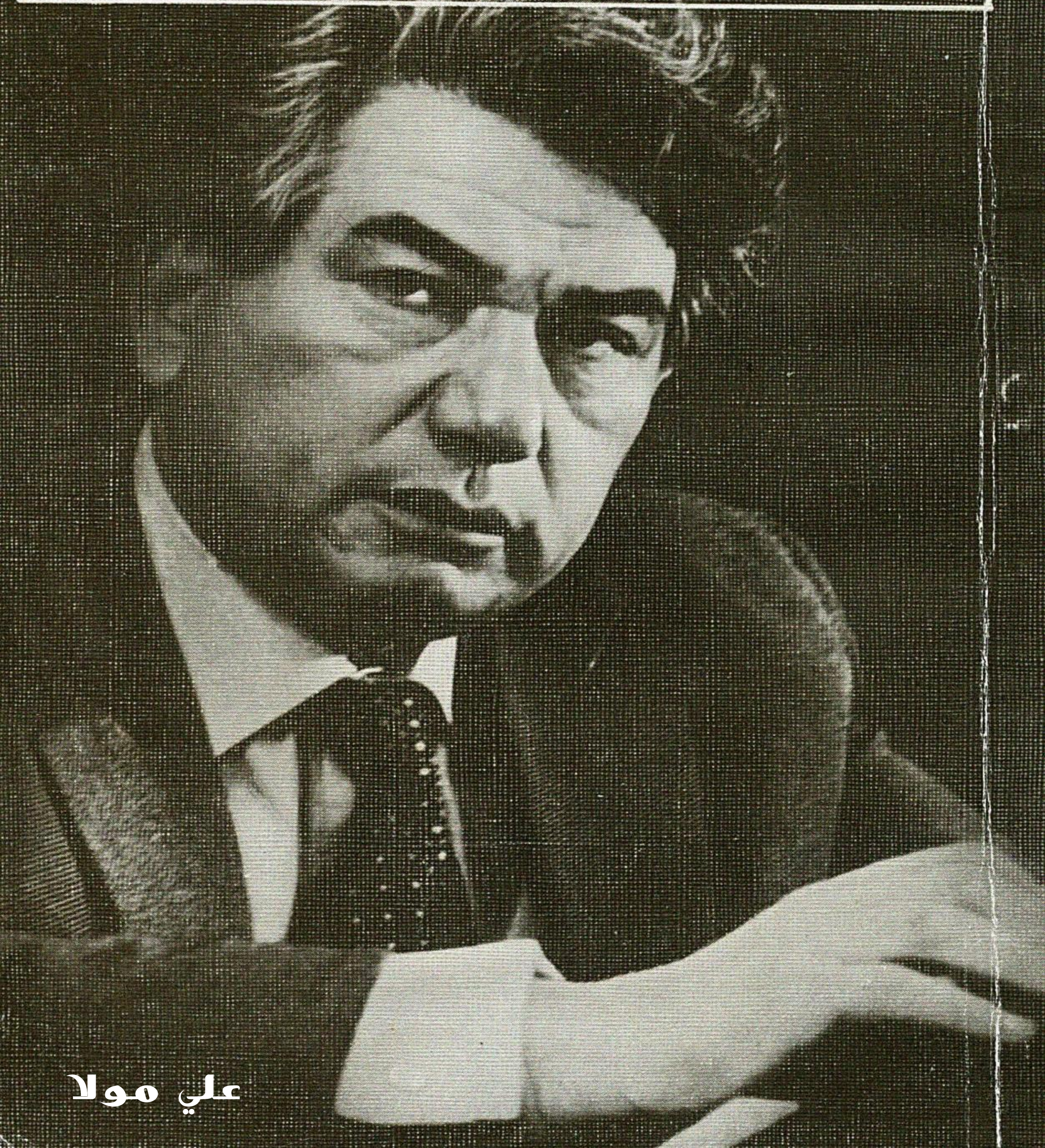
جنكيز ايتماتوف

الرياح تطهر الارض



الرياح تطهر الارض

جنكيز ايتماتوف

مقالات ومقابلات

ترجمة خيري الضامن

دار التقدم
موسكو

Чингиз Айтматов

ВЕТРЫ, ОМЫВАЮЩИЕ ЗЕМЛЮ

На арабском языке

طبع فى الاتحاد السوفييتى

$A \frac{4702010200-082}{014(01)-89} 193-89$

ISBN 5-01-001348-8

العصر والكاتب

مسؤولية الانسان
عن المستقبل

الانسان يتحدث عن الانسان من سالف الزمان . ولعل هذا الحديث المتجسد فى اغنية او حكاية او كتاب او لحن او مسرحية يحكي للعالم من قديم الزمان بمختلف اللغات واللهجات عن شيء واحد بعينه : عن مصير الانسان ، عن الناس واعمالهم واحلامهم ، عن الفضائل والرذائل ، عن الصراع والحروب ، عن الواجب والضمير ، عن جمال النساء والرجال ، عن الحب والفراق ، عن الولادة والموت — عن كل مقومات الحياة . والانسان طوال كل تاريخه يصغى الى هذا الحديث بتعطش لا يرتوى .

وكلما مر الزمن اشتد تعطش الانسان الى معرفة نفسه وحاضره وماضيه . وكلما مر الزمن ازداد ولعه بالفن وراح يطالب الراوية بالمزيد من الصدق والحكمة والتبحر فى اكتناه الروح البشرية ، فيمدح الموهبة ويقدح الضحالة . فى هذا التعطش الذى لا يرتوى الى الاستيعاب الفنى تكمن واحدة من خصائص الانسان الجذرية التى تميزه عن سائر الكائنات الحية . ولذا فلا حدود ولا نهاية لحديثه عن نفسه ، ولذا فان قضية الانسان هى محور قضايا الادب .

ومن هذه الناحية يواصل ادبنا السوفييتى نفس ذلك الحديث السرمدى ، حديث الانسان عن الانسان ، ويسير

حاملا خبرة حياة الاجيال على نفس ذلك الطريق الطويل ، طريق معرفة الجمال اللانهائى وتناقضات العالم اللانهائية . انه يواصل افضل تقاليد الادب الوطنى والعالمى التى كدستها البشرية فى مسيرة تطورها الثقافى ، فى النضال من اجل الحرية والتقدم .

لكننا نحن الكتاب السوفييت ندرك بوضوح فى الوقت ذاته مهماتنا المتميزة الخاصة ، بل الاستثنائية ، فى الابداع الفنى والنابعة من التطور الهائل فى اساس الكيان الاجتماعى ومن المبادئ الجديدة للوجود الانسانى ، تلك المبادئ التى يرتكز عليها النظام الاشتراكى السوفييتى منذ نصف قرن .

لقد نبت الادب السوفييتى فى تربة حرثتها الثورة عميقا . ولذا فان القضايا التليدة للنزعة الانسانية والخير والشر وقضايا الفرد والجماعة والمسؤولية المدنية وحب البشر ، كل القضايا الكبيرة والصغيرة التى تشكل جوهر الابداع الفنى قد برزت امام الادب السوفييتى بشكل جديد : بمعناها الثورى ، وهو المعنى الانسانى الحقيقى كما بين التاريخ . ومن صفحات مؤلفات الكتاب السوفييت برزت شخصية تاريخية جديدة هى الانسان الشغيل ، بطل العصر الجديد الملهم بافكار النضال وتحويل الحياة . انه نموذج انسان القرن العشرين الذى حطمت الثورة قيوده ، نفس ذلك الانسان الذى كان فنانو الماضى يبكون على مصيره ويؤبنون ويشيعون فيه القدرة الانسانية العظمى التى سحقها العنف الازلى والظلم المستديم .

لقد عرض الادب السوفييتى على البشرية حقيقة العالم الجديد ، حقيقة الانسان الجديد . ولم تكن ولادة هذه الحقيقة يسيرة . وانا عندما افكر «بالعصر والكاتب» واتطلع من

ذروة العصر الى الطريق الذى اجتازه البلد والشعب استنتج من كل بد ان اكبر مكسب للثورة هو الناس الذين ربتهم وحرصت على تنشئتهم . فقد حالفهم الحظ بان يعيشوا فى عصر درامى معقد ويذللوا صعوبات جمة فى منعطفات التاريخ ، لكن النضال فولذهم ورفعهم الى علياء الابداع التاريخى البناء وغرس فى نفوسهم البسالة والشعور بالكرامة الانسانية .

ان الثورة وقوتها التجديدية ودراميتها المنعكسة من خلال مصائر الناس هى ، فى رأيى ، الموضوع الاساسى للفن السوفييتى . وانا لا اريد ان اتحدث عن منجزاتنا بخفة وطيش . فالانتصارات كلفتنا غاليا . وعلى الادب ان يعبر بلغته الخاصة عن المؤشرات المنقطعة النظير لنمو الاقتصاد والثقافة ورفاه الشعب خلال خمسين عاما ثوريا .

اننى مهتم دوما اعمق الاهتمام بمصير شغيلة الريف — الفلاحين . ويخيل الىّ ان الحياة الشعبية فى الادب المعاصر منعكسة باوسع شكل فى النتاجات التى تتناول القرية التى تعرضت فى سنوات الحكم السوفييتى الى تغيرات جذرية . وهذه التغيرات ملحوظة بخاصة فى السنوات الاخيرة حيث تهتم الحكومة دوما بقضايا الزراعة وتبحث بلا كلل عن سبل تحسين الحياة فى الريف وتساعد على اطلاق المبادرات الشعبية الى اقصى حد . ان هذا النشاط الواسع الذى اعطى ثمارا غير قليلة لا يخلد الى الهدوء وتعليل النفس بالآمال . فلا يزال هناك كثير من القضايا غير المحلولة ، وينبغى تحليل خبرة الحاضر والماضى بلا انقطاع . . . ان هذا الجانب بالذات من الواقع المعاصر ، من عملنا التطبيقى وحياة شعبنا هو الاكثر اهمية وجاذبية بالنسبة للكاتب .

وليس هناك ما يسئ الى ادبنا اكثر من الغرور . فالادب لا يكتفى بتسجيل التغيرات المثمرة فى حياتنا وتقدمنا الى الهدف المنشود ، بل هو مدعو الى دراسة عمليات التطور الاجتماعى من خلال مصائر الناس وتبيان المجهود البشرى الذى يتطلبه ترسيخ الجديد . الا اننى لم اتوصل رأسا الى هذا الفهم لمهمات الادب .

لقد اجتاز الكتاب من ابناء جيلى عتبة الادب فى السنوات العسيرة التى اعقبت الحرب العالمية الثانية . فقد صدرت كتبنا الاولى بعد ست او سبع سنوات من انتهاء الحرب . ونحن ننتمى الى جيل من الناس الذين عانوا من ويلات الحرب ، فقد كنا فى تلك الفترة احداثا يافعين . وتركت الحرب ضد المانيا الفاشية تأثيرها على نمونا وتطورنا ، واغنتنا بخبرة حياتية معقدة وعسيرة جدا . وفيما بعد منحنا ذلك ميزة فريدة بالمقارنة مع الكتاب الاصغر منا . وكما هو حال كل جيل من الادباء كانت لديهم مزاياهم وافضالهم ، لكنهم احيانا يفتقرون الى معرفة صعوبات الحياة معرفة فعلية .

فما الذى اخذناه عن اسلافنا ؟

لقد كان الادب السوفييتى ابان الحرب الوطنية العظمى ايضا مع الجنود فى الخطوط الامامية . وكان يربى المشاعر الوطنية ويساعد فى دحر الفاشية وايديولوجيتها . ففى افضل كتب الحرب التى صدرت فى السنوات الاولى بعد ان وضعت الحرب اوزارها كان الكتاب المقاتلون «المعبأون» بانطباعات تلك الحقبة البطولية قد جسدوا ، بقدرة فنية كبيرة ، مأثرة الشعب المنقطعة النظير . وتنطوى تلك الكتب على حقيقة الحياة القاسية وعلى الحماسة الوطنية السامية .

الا ان الحرب مضت والحياة تسير قدما . وواجهت البلاد مهمات وقضايا جديدة صعبة ، لكن الادب لم يشهد نتاجات تنطوى على اكتشافات فنية وتجسد واقع ما بعد الحرب بمثل ذلك العمق وتلك القوة . فقد اخذت تصدر كتب كثيرة ذات صبغة بهيجة اكثر من اللازم وخواتيم مفرحة جدا . كل ذلك فى سنين تعانى من افدح عواقب ونوائب الحرب المدمرة ، ويدارى كل منزل وكل عائلة احزانه وآلامه بفجيعة لا يخبو اوارها . بديهى ان هذه الكتب التى لا تتناول المواضيع الاساسية لحياة الشعب وقضايا الواقع المعقدة ما كان بوسعها ان تعلمنا ، نحن الكتاب الشباب ، لا فن اكتناه الحقيقة الرفيع ولا المهارة الحقيقية . ولكنى أجانب الصواب لو قلت باننا الكتاب الشباب كنا آنذاك نرى كل ضحالة وبؤس تلك النتاجات التى كانت تكتفى بعرض الحقائق الشائعة وكانت مبنية وفقا لمخططات بدائية وكليشهات جامدة . وعلى اية حال فلم نكن نجيد دوما التمييز بينها وبين الادب الجاد ، فى حين صدرت فى تلك السنوات مثلا قصة ليونيد ليونوف «الغابة الروسية» .

ظهرت اولى قصصى ومقالاتى فى الصحف فى مطلع الخمسينات . وكانت تلك نتاجات كلها محاكاة وهى بعيدة جدا عن الحياة الواقعية . فقد كانت احداث القصة الاولى تجرى فى . . . اليابان . وكانت القصة الثانية تتحدث عن قناة الفولغا–الدون وبخاصة عن الجارفات النهرية التى كانت الصحف آنذاك تبدى اهتماما كبيرا بها . لقد كنت استقى «الوقائع» اللازمة من كتابات الجرائد . . .

وانا اتذكر ذلك الآن لأؤكد على تلك التغيرات الجذرية التى حدثت فى اذهان الكتاب بفعل التطورات فى حياتنا

الاجتماعية وكان لها افضل الاثر فى تقـــــدم الادب لاحقا .

ويعرف كل منا كم نحن مدينون الى الحزب الشيوعى الذى بدد عبادة الفرد بعد ان كانت تقيد مبادرات الشعب وتعيق التطور السليم والطبيعى للحياة الروحية فى البلاد . واذا كنا نريد الالتزام بالموضوعية التاريخية تماما فيجب علينا ان نكشف عن نطاق العمل الهائل والتوتر الروحى الشديد اللذين تحملهما شعبنا بشكل مشرف . لقد عشنا دراما تأريخية معقدة ، لكننا بقينا متمسكين باهدافنا الطبقية والحزبية وبالمثل العليا للثورة . ولذا فان ادبنا لا يعرف اطلاقا التشاؤم اللامسؤول الذى لا يلزم احدا بشيء ، كما لا يعرف اللجاجة والتشكيـــــك بالمستقبل .

ان انتصار المبادئ اللينينية للحياة وجو الهمة الاجتماعية العالية الذى حل بعد مؤتمرات الحزب التى نتذكرها جيدا قد ساعدانا نحن الكتاب الشباب ايضا فى فهم مهمات الادب الوطنية الكبرى وضرورة التدخل النشيط فى الحياة . ولقد اتسع الى ما لا يقاس ميدان الواقع الذى يجسده الفن . وبدأنا تدريجيا نفهم اهمية القضايا الاخلاقية والسلوكية التى تظهر فى علاقات الانسان مع الآخرين ، مع المجتمع ، واقتنعنا بعظم مسؤولية وتعقد مهمة التربية الاخلاقية للناس .

وكانت مقالات فالنتين اوفيتشكين وقصة ميخائيل شولوخوف «قسمة انسان» وملحمة الكسندر تفاردوفسكى «الآفاق المتلاحقة» وقصص فالنتين تيندرياكوف قد حملتنا نحن الكتاب الناشئين على التفكير جديا بالحياة وبرسالتنا .

وفجأة اندفع الادب اندفاعة هائلة الى الامام . وصدرت

نتاجات موهوبة لكتاب غدوا مشهورين ، كما ظهرت اسماء جديدة .

وكانت الاسماء الجديدة على القارئ كثيرة جدا . ولن آخذ بتعدادها هنا ، بل اكتفى بذكر عدة كتاب تركت مؤلفاتهم فى نفسى انطباعا عميقا بخاصة . (ولعل كاتبا غيرى يذكر اسماء اخرى ، فلدينا الكثير والحمد لله) . ومنها مؤلفات الحرب لكتاب جبهويين من الجيل المستجد — يورى بونداريف وغريغورى باكلانوف وفلاديمير بوغومولوف . وهم اعزاء علىّ خصوصا لأننا دخلنا محراب الادب فى وقت واحـــد تقريبا .

وكان السيل الجديد من كتب الحرب قد جاء بخاصية جديدة . فقد صار الكتاب يتوخون عرض الحرب بصعوباتها ، وبذلك كانوا يرتبطون بالموروث من افضل كتب الحرب التى صدرت فى السنوات السابقة . الا ان كل فترة تتعامل مع الماضى وتحكم عليه بطريقتها الخاصة . وتلك عملية حتمية مثمرة للغاية تمليها مصالح الحاضر وضرورة حل القضايا العصرية الهامة . نعم لقد حاول بعض الكتاب فى مؤلفاتهم ان ينسبوا الى الماضى ببساطة معارفنا الحالية عن احداث تلك السنوات ، لكن ذلك لم يكن فى رأيى هو الامر الحاسم فى مؤلفاتهم . فهم بعد ان اغتنوا بخبرة التاريخ حاولوا ان يتمعنوا لدرجة اعمق فى فهم تلك الخبرة ونقلها الى القارئ دون ان يفرضوا عليه حلولا جاهزة ، وبذلك هيأوا له الفرصة كى يفكر ويتأمل بنفسه . ولعلى اقول ان الكثير من الكتاب المشهورين يستعيدون شبابهم . ومنهم نيكولاى آسييف وفلاديمير لوغوفسكوى ونيكولاى زابولوتسكى وبافل نيلين . واثار الشعراء والكتاب الشباب ضجة وحظيت

نتاجاتهم بمناقشات واسعة . وعلى العموم ساهم ادب النصف الثانى من الخمسينات وبداية الستينات بقسط كبير فى تطورنا الوطنى والفنى .

ولم اكن على معرفة شخصية مع اى من الكتاب المشهورين آنذاك ، لكننا فى الجمهوريات ايضا ، بعيدا عن موسكو ، كنا نتابع باهتمام كل جديد يظهر فى الادب ونتجادل حوله بحرارة ، وكانت تلك المجادلات حافزا لتفكيرنا وعاملا مساعدا لزيادة الهمة فى نشاطنا الابداعى .

فى عام ١٩٥٦ وصلت الى موسكو والتحقت بالدورة الادبية العليا . وكان نهوض الرأى العام قد ادى الى انتعاش الحياة الادبية فى البلاد . وصدرت مجلات «صداقة الشعوب» (بدلا من الحولية) و«يونوست» («الشباب») و«موسكو» و«نيفا» و«مسائل الادب» ، وصدرت مجددا مجلتا «الادب الاجنبى» و«الحرس الفتى» . كما ظهرت مجلات جديدة فى الجمهوريات والاقاليم والمحافظات . وصدرت مؤلفات كتاب الماضى الذين لم نكن مطلعين جيدا على نتاجهم . وآنذاك بالذات اطلعت لاول مرة ، مثلا ، على كتابات ايفان بونين الرائعة . وملأنا «المواضع الخالية» فى تعليمنا الادبى واغنينا فكرتنا عن الادب السوفييتى وتقاليده . وصرنا نطلع بشكل افضل على ما كدسته الشعوب الاخرى .

واتذكر الانطباع العميق الذى تركته فى نفسى قصة همنغواى «الشيخ والبحر» ببساطتها وقوتها . واعجبت كثيرا بنتاجات الكتاب البولونيين الذين سعوا الى الكشف عن جوهر العمليات الاجتماعية والسيكولوجية المعقدة وعرض درامية نشوء الجديد فى ذهن الانسان المعاصر .

في عام ١٩٥٧ قرأ فيودور بانفيروف قصتي «وجها لوجه» ونشرها في مجلة «اكتوبر» التي كان رئيسا لتحريرها . وهذه القصة مهمة بالنسبة لي لانها اشارة اختيار الطريق في الادب ، ذلك الطريق الذي رسخت اقدامي فيه بكتابة قصة «جميلة» التي نشرتها مجلة «نوفي مير» («العالم الجديد») عام ١٩٥٨ . وقد لعبت دورا كبيرا في مصيري الادبي آنذاك المترجمة والمحررة آنا دميتريفا المتشددة جدا ازاء النواقص والعيوب . وخلقت في نفسي الثقة بامكانياتي اللقاءات مع الكسندر تفاردوفسكي والمقالة الطيبة المشجعة جدا التي نشرها مختار أويزوف في «الجريدة الادبية» ، وكذلك الحادثة المفرحة للغاية في حياتي عندما ترجم لويس اراغون «جميلة» الى الفرنسية وكتب عني في كتابه «ادباء سوفييت» .

كنت قد الفت قصتي «وجها لوجه» و«جميلة» وغيرهما استنادا الى انطباعاتي الشخصية . فانا اعرف جيدا مصاعب سنوات الحرب ليس في الجبهة فقط ، بل وفي المؤخرة . ولاول مرة آنذاك تلقيت امتنان القراء . وكانت كل رسالة منهم عيدا سعيدا بالنسبة لي . ولكنني في نفس تلك السنوات واجهت لاول مرة الصفحة العكسية من الحياة الادبية . فعندما صدرت «وجها لوجه» حاول بعض النقاد في الجمهورية ان يشككوا في واقعية الاحداث التي تصورها واعتبروا القصة «اهانة للشعب القرغيزي باجمعه» ، لانها تتحدث عن هارب من الجيش وخائن للوطن ، بينما تقول المخططات الادبية بانه لا وجود لمثل هؤلاء . وقالوا انني بالغت كثيرا في صعوبات الحياة ، فلو كان اهالي القرية جياعا فهل كان بالامكان الانتصار على الهتلرية ؟ لقد كان لشعبنا ابان الحرب كل ما يحتاجه ويزيد .

بديهي ان عملية التجديد وانتعاش مجمل الحياة الابداعية فى البلاد لم تجر دون صعوبات أليمة . فقد كان هناك «شطط» ، وخصوصا فى نتاج الشباب . وكانت هناك قساوة كبيرة فى النقد . الا ان الحياة تبين بكل اقناع ان الخط العام لتطور فننا يرتبط دوما بالشعب ، بالحزب . وان الاهتمام البالغ بالمواضيع الاجتماعية الحادة يعود الى تعمق وطنية الادب .

ولقد شعرنا نحن الكتاب بمسؤوليتنا الشخصية عن الانسان . فالحزب يعلمنا باننا مسؤولون جميعا عن مصير الوطن ومصير الشعب . وقد عاد ذلك بنتائج مثمرة فى جميع آداب شعوب الاتحاد السوفييتى . فان نموها فى المرحلة التاريخية الجديدة ملحوظ ومحسوس بخاصة . فقد ظهر فى الآداب الفتية تماما ، فضلا عن الآداب الناضجة ، كتاب يقدمون نتاجهم الى القارئ فى الاتحاد السوفييتى وفى العالم بشكل لائق من حيث المهارة والنزاهة وعدم التهادن مع الباطل ومن حيث الوطنية الحقة . ولن آخذ من وقتكم بتلاوة القوائم ، ولكنى لا استطيع الا اذكر هنا اسماء رسول حمزاتوف ومستاى كريم وكايسين كوليف ودافيد كوغولتينوف .

وصار التفاعل بين آداب شعوب الاتحاد السوفييتى اكثر عمقا ووثوقا . واريد هنا ان اشيد بذكر مختار اويزوف الذى لعب دورا كبيرا فى تطوير النثر عند الشعوب الناطقة باللغات التركمانية . فقد كان كاتبا موهوبا ومثقفا كبيرا ابدى اعظم الاهتمام ليس فقط بجيل الشباب من الكتاب الكازاخيين ، بل وبممثلى الآداب الاخرى . لقد ترك اويزوف اثرا عميقا فى آداب كازاخستان وآسيا الوسطى . وكان لشخصيته ، فضلا عن

نتاجه ، اثر كبير . فقد كان يبدى اهتماما بالغا بكل ما يستجد فى فنون جميع الشعوب ، كما يبدى حبا جما واحتراما عميقا للتقاليد الفنية الوطنية التى ألم بها اروع المام وعمل عــــلى مضاعفتها فى مؤلفاته الرائعة .

وذلك ، فى رأيى ، هو اساس التجديد الحقيقى ، اى الالتحام العضوى بين ما جمعه الشعب وبين خيرة منجزات الخبرة الفنية السوفييتية والعالمية . وهذا ما يؤكده مجمل طريق ادبنا السوفييتى المتعدد القوميات . فان التجديد الذى جاء به كتاب من امثال الاوكرانى ايفان دراتش والليتوانى يوستيناس مارتسينكيافيتشوس والمولدافى ايون دروتسى والكاتب المسرحى الاذربيجانى ايمران قاسموف او الشاعر من الجيل الاقدم رسول رضا انما يدل على عدم انفصام التقاليد الوطنية والاممية فى الابداع الفنى .

اننى اسافر كثيرا الى مختلف ارجاء العالم وقد شاركت مرارا فى المؤتمرات الدولية . ورأيت فى الخارج فظائع وشرور العنصرية والشوفينية وكيف تشوهان نفسية البشر وكم تحملان من ويلات وعواقب مرعبة . وانا اتذكر بامتنان دوما النعمة العظيمة التى منحتنا اياها ثورة اكتوبر ، واعنى المساواة بين الشعوب والحب واحترام بعضنا البعض وافكار الاممية البروليتارية . ان كون المسألة القومية فى بلادنا قد حلت على اساس المساواة والتكافؤ انما يلعب دورا مثمرا عظيما فى تطوير جميع آداب وثقافات شعوب الاتحاد السوفييتى .

ان قضايا الفن القومية تثير الآن جدلا كثيرا فى العالم اجمع . فان سمات الشعب القومية تضفى على الأدب ملامح الوجه الخاصة . فالارتباط بارض الوطن ، بالشعب ، بالقضايا

الملحمة للوجود القومى يغذى النتاج الادبى بنسغ خصب حى ويساعد الكاتب فى الخروج الى الرحاب الانسانية العامة العريضة ، ففى حياة الشعوب واستيعابها للعالم امور مشتركة كثيرة جدا . ولذا لا يجوز باية حال مجابهة الوطنى بالاممى . ولكن الخصائص القومية (الوطنية) تتحول احيانا الى قانون جامد ، مما يترك اسوأ الاثر فى تطور الآداب ويقيد مسيرتها الى الامام : فالحياة القومية والثقافة القومية تتعرضان لتبدلات دائمية .

لقد اجتاز الادباء السوفييت الشباب الآن مرحلة التقليد ، وهم يستوعبون بصورة ابداعية خبرة الآداب الاخرى والتقاليد المشتركة فى ادب الواقعية الاشتراكية . الا ان بعض الكتاب والنقاد لا يزالون حتى الآن يبالغون فى اهمية التقاليد الفولكلورية بالنسبة للآداب الفتية . وكانت اولى المؤلفات النثرية عندنا فى قرغيزيا تتسم بسمات واضحة من الفولكلور : حبكات الحكايات وابطال يجسدون الخير او الشر بالكامل ومبالغة فى الصور وجمود فى الطباع . . . وكان ذلك امرا طبيعيا فى تلك السنوات ، الا ان الواقعية الناضجة تتطلب شيئا آخر . وفى هذه الحالة تتسم خبرة الآداب الاخرى الاغنى ، وخصوصا الادب الروسى ، باهمية كبيرة جدا ، عندما تنعدم التقاليد الادبية القومية المتطورة . ان هذه الخبرة بعد استيعابها ومعالجتها الابداعية تساعد فى تطوير التقاليد الادبية القومية تطويرا نشيطا .

وانا اتذكر هنا طريقى الخاص . فقد واجهت ، انا الكاتب الشاب ، ممثل الادب الفتى الذى ولد بعد ثورة اكتوبر ، معضلة جدية هى اللغة . وغالبا ما نسمع رأيا يقول بان لغة الشعب الذى تخلص مؤخرا من الحالة الاقطاعية

العشائرية كالشعب القرغيزى سابقا عاجزة عن التعبير عما يعتمل فى نفوس المعاصرين وعن المنظومة المعقدة لآرائهم بخصوص العالم والمجتمع . وانا واثق من العكس . فالكاتب الحقيقى يستطيع مهما كانت لغته ان يصف حياة الشعب المعاصرة والعمليات الاجتماعية الخطيرة الجارية فيها . . . انا اكتب باللغتين القرغيزية والروسية . وكنت منذ نعومة اظفارى اقرأ بالروسية مؤلفات الاعلام الروس والكتاب السوفييت .

ولعل قصة «وداعا يا غولسارى» هى القصة التى منحتنى فرحة ابداعية غامرة وسببت لى اكبر المصاعب الفنية . فقد حاولت ان اجسد فيها شيئا جديدا بالمقارنة مع مؤلفاتى السابقة . وان الصحافة والرسائل الكثيرة من القراء السوفييت والاجانب تجعلنى اشعر بالارتياح العميق وتحملنى على التفكير اكثر بالحياة وبالطريق الذى اخترته فى الادب .

وهذه القصة عزيزة علىّ شخصيا لاننى تمكنت فيها ، على ما اعتقد ، من ان ارسم لوحة الحياة القومية المعاصرة . لم احاول ان ارسم «نقشا» قوميا ، بل حاولت ان اطرح القضايا الجوهرية فى الوجود القومى واتفهم الصراعات والتناقضات الاجتماعية .

ومع ذلك اعتبر هذه القصة مجرد توطئة لموضوع هام جدا بالنسبة لى . فامامنا جميعا مهمة رسم صورة لمعاصرنا انسان الستينات . وهو انسان معقد ذو نظرة واسعة الى الحياة ، يتأثر اعمق التأثر لكل قضايا العصر ويتحمل بوعى عبء المسؤولية عن الماضى والمستقبل .

ومعروف من زمان ان الاهتمام بالماضى يرتبط بالمسؤولية عن المستقبل . ولدينا الآن امكانية لالقاء نظرة على الماضى

بشكل جديد . ولقد تحسست ، بشكل خاص ، اهمية ثورة اكتوبر عندما استعادت حقائق هامة كانت منسية فى السابق . وقد حان الوقت بالنسبة لنا جميعا لكى ندرك بالعمق اللازم مقدار ديننا لذلك الحدث الذى غير مصائر العديد من الشعوب قبل خمسين عاما . فنحن لم نقل بعد كلمتنا الفنية التى تستحقها الثورة العظمى . ويجب ان لا تكون تلك بالطبع كلمة مديح بلاغية ، بل فهما لجوهر الجديد الذى جاءت به ثورة اكتوبر لآبائنا ولنا . وبودى ان اؤلف كتابا فى اغلبه سيرة ذاتية : عن والدى سكرتير اللجنة الحزبية فى مقاطعة قرغيزيا الذى قتل عام ١٩٣٧ وعن نفسى ، عن جيلنا ، عن خصائص هذين الجيلين والروابط المتعاقبة بينهما . فان آباءنا كانوا روادا فى كل شىء . اول مدرسة تفتتح واول فتاة تلتحق بالمدرسة واول عالم يبرز — كل شىء يفتتح لاول مرة ، وكل شىء يبدأ بكلمة «اول» . وكان ذلك يثير حماسا منقطع النظير . بودى ان اتحدث عما ورثناه وطورناه وعما ضيعناه .

ان اكتناه ترابط الازمان وتبيان عظمة تقاليدنا الثورية وتعميم خبرتنا الخمسينية فنيا وبالتالى كشف القضايا الملحة للتطور الاجتماعى المعاصر بمزيد من الوضوح مهمة تتطلب منا نحن الكتاب شعورا وطنيا ساميا وثورية هادفة .

ان المعالجة الشاملة للملابسات التى ينشأ فيها الابطال والعلاقات المتبادلة بينهم لا تعنى لزاما ان ادب السنوات الاخيرة فى افضل نتاجاته يلقى بالمسؤولية على الظروف وعلى «البيئة» . ان النزعة الانسانية الاشتراكية فعالة ، فالفنانون لا يشعرون بالطيبة فقط ازاء الناس ، بل يتشددون ايضا فى معاملتهم ، لانهم يؤمنون بقدرة الانسان على تحويل العالم

وتحويل نفسه . والبطل فى مؤلفات كتابنا يتحلى بالهمة والنشاط ، فهو يسعى الى التأثير على «الملابسات» . وتلك ، فى رأيى ، واحدة من المزايا الرئيسية للادب السوفييتى .

لقد تسنى لى ان اكتب واتحدث عن الاهمية التربوية لصورة البطل الايجابى ، ذلك الانسان القوى روحيا والمناضل غير الهياب فى سبيل الحقيقة والعدالة وفى سبيل مثلنا العليا .

الا ان هذا الحكم يفهم احيانا بشكل مبسط وكأنه موعظة جامدة واطار للطباع . لا يمكن دس الحياة فى اية اطر ، لا سيما الاطر الادبية . وعندما نتكلم عن البطل الايجابى المعاصر يجدر بنا ان نتطلع الى الواقع المحيط بنا ، لا ان نسترشد بصياغات تأملية ، حتى وان استخدمت فى هذا النوع من الصياغات اسماء الابطال الذين نحبهم جميعا فى ادب العشرينات والثلاثينات .

لقد ازداد تعلم الشعب وارتفع مستواه الثقافى . ولهذا وحده على الاقل كان لا بدّ وان تتغير وتتسع تصوراتنا عن البطل الايجابى . اننى اميل الى الكتاب الذين يبحثون عن البطل القدوة ، عن الانسان الهمام المتميز بالارادة والحماس فى اثبات الحقيقة التى يذود عنها . ولكن هل يجوز ان ننسى بان النتاج الفنى يمارس تأثيره ليس فقط بالقوة المباشرة للقدوة ، بل وبطرق اكثر تعقدا وتفننا ؟ فلنتذكر تشيخوف على الاقل .

ان النزعة الانسانية ، وبالتالى الدور التربوى لفن الواقعية الاشتراكية ، يتجليان بشكل معقد متعدد الوجوه . والفن عندما يذود عن اصالة الشخصية وتفردها ويسعى الى الكشف عن

غناها الروحى باكمل صورة انما يهتم من خلال ذلك بنمو مجتمعنا كله وبازدهاره .

اننا نتوخى تربية انسان نشيط اجتماعيا ومتطور بتناسق ومن جميع الوجوه فى الوقت ذاته . وبودى ان اعيد الى الاذهان ما كتبه بحماس وشاعرية دوفجنكو وليونـــــوف وباوستوفسكى وسولوخين ودوروش فى مؤلفاتهم ، عن تعزيز ارتباطات البشر الاصيلة بالطبيعة والارض وعن حبهم لها . ان غرس حب واحترام ارض الوطن والطبيعة وكل ما هو حى يعنى ايضا تربية الانسان وتنمية «قدرته الاخلاقية» .

ما اروع اسلوب بونين فى تصوير طبيعة اواسط روسيا ومروجها وغاباتها وامطارها وثلوجها . ان محاولات بعث هذه الارتباطات الاصيلة بالارض الام ليست على الدوام فى مقدور كتابنا ، وغالبا ما تفوح منها رائحة الالتزام الشكلى . فلا نجد بين سطور وصف الطبيعة نقاوة المشاعر وعدم التكلف والوشائج المتينة بين هذا الوصف وبين مزاج الفنان .

ان اشاعة الديمقراطية فى حياتنا وارتفاع مستوى الحضارة المادية والثقافة الروحية قد رفعا كثيرا مستوى متطلبات الانسان السوفييتى من نتاجات الفن . وان مهمات الادب التربوية تزداد تعقيدا . ولكى يلبى الادب متطلبات الانسان المعاصر المتنامية هذه عليه ان يقدم المزيد لتغذية المشاعر والعقول ويعلم كل انسان على التفكير المستقل ويربيه كمواطن وفاعل واع . والفنانون يفعلون ذلك بطرق متباينة .

ان تربية الشخصية تتطلب من الفنان نفسه ان يكون شخصية ، ان يكون انسانا راسخ المعتقد يتحلى بالبساطة والجرأة والنزاهة . وعليه ان يجيد التعبير عن رأيه الخاص بشأن العالم

فى نتاجه ، فان وحدة مثلنا العليا الاجتماعية لا تضفى التجانس على العالم الداخلى للفنانين ولا توحد رؤيتهم المتباينة للواقع . وفى سياق المعرفة الفنية المعقدة للعصر تغتنى شخصية الكاتب وتتسع قدرته التأملية . وهو عندما يربى القارئ يتعلم دوما من الشعب ويستوعب بحس رهيف الخبرة الروحية الماضية التى كدسها الشعب وحاجاته الجديدة .

١٩٦٧

صفحات من حياتى

كتابة السيرة الذاتية كي يقرأها الآخرون وتنشر مطبوعة امر صعب جدا . فمن يدرى ما هو الافضل : الاسهاب في وصف الحياة ام الايجاز ؟ فاذا كتبت الكثير سيقول البعض : انظروا ، اطال واسهب . واذا كتبت القليل يقولون : ما الداعى للكتابة اذا لم يكن فيها ما يثير الاهتمام ؟ وعلى العموم ، الافضل عدم الكتابة . . .

وطالما يتعين على ان اكتب انا ايضا فلأحاول . لقد ناهزت الاربعين ، وربما يوجد في حياتى شيء يستحق الاهتمام .

كان اهالى قريتنا يعتقدون بان من واجب المرء ان يعرف اجداده من سابع ظهر . وللشيوخ موقف صارم بهذا الخصوص . فهم عادة يختبرون الصبيان قائلين : «حدثنا يا فتى من اية عشيرة انت ؟ من هو جدك ؟ ومن هو ابوه ؟ ومن ابو ابى جدك ؟ من اى الرجال كان ؟ اى عمل مارس ؟ وماذا يقول الناس عنه ؟» . واذا اتضح ان الصبى لا يعرف اجداده فالملامة تبلغ اسماع والديه . فاى اب ذاك الذى لا يعرف فخذه وعشيرته ؟ وماذا ينتظر ؟ وكيف يترعرع الانسان الذى لا يعرف اسلافه ؟ وما الى ذلك . وهنا نجد مغزى لتعاقب

الاجيال والمسؤولية المعنوية المتبادلة فى العشيرة . ولعل البعض قد انتبهوا الى اننى حاولت فى «السفينة البيضاء» ان اتحدث عن ذلك على لسان صبى اثناء حوار مع سائق قادم .

وبوسعى انا ايضا ان ابدأ سيرتى الذاتية من ذلك واقول بانى من عشيرة شكر . وشكر هذا هو مؤسس عائلتنـــــا . ابى اسمه توريكول وجدى اسمه ايتمات ، وابو جدى اسمه كيمبيلدى ، وابو كيمبيلدى اسمه كونتشوجوك . ولكن كفاية . فبعد ذلك يأتى تعداد بسيط لاسماء لا اعرف عنها شيئا على الاطلاق . ولم يعد هناك من يستطيع ان يحدثنى عنها بشىء . فان جد جدى كونتشوجوك وصلنى ليس باسمه بل بكنيته . وكان قد قضى عمره كله فى نعل جلدى خشن ، ولذا نعتوه بكنية كونتشوجوك التى تعنى «بلا جزمة» . ويستنتج من ذلك اننا احفاد اناس «بلا جزمات» ، وليس لدينا ما نفتخر به . ولكن لا مجال لتغيير ما كان . . .

وبالمناسبة فان كل ذلك وما ساذكره فيما بعد بلغنى ليس بواسطة ابى . فالوقت لم يتسع به ليخبرنى بذلك ، ثم انه كان فى شغل شاغل عن هذه الامور .

اننى مدين بذلك فى المقام الاول لجدتى ام ابى ايمكان ساتان-كيزى وابنتها — عمتى كاراغيز ايتماتوفا . فما اشد الشبه بين الأم وابنتها من حيث الملامح والطباع والمزاج . لقد كانتا بالنسبة لى شخصا واحدا كأنه جدتى فى عمرين ، فى الشيخوخة والفتوة . وانا ممتن للاقدار لانها مكنتنى من ان ارى واعرف هاتين المرأتين الرائعتين الحكيمتين الجميلتين . لقد كانتا جميلتين حقا . . . وكانتا مرشدتين لى فيما يخص اخبار عائلتنا وتاريخها .

لم يتسن لى ان ارى جدى ايتمات . فقد توفى فى بداية العشرينات ، بينما ولدت انا فى ١٢ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٢٨ .

على اطراف قريتنا شكر (فى وادى طلس بناحية كيروف) يوجد حتى الآن عند منعطف نهر كوركوريو حجر طاحونة قديم غائص فى الارض . وهو يتفتت من عام لآخر ويغوص فى الارض الى اعمق . ذلك هو موقع طاحونة جدى .

ويقال انه كان صانعا ماهرا يجيد الخياطة ، وكان اول من جلب ماكنة الخياطة من المدينة فاطلقوا عليه كنية الخياط ايتمات . وكان جدى يجيد صنع السروج ويجيد اللحام ويعزف جيدا على آلة الكموز ، بل كان يقرأ ويكتب بالابجدية العربية . لكنه رغم مهاراته عاش عمره فى بؤس وفاقة غارقا فى الديون ، وكان فى بعض الاحيان يبقى «حضريا» لانه لا يمتلك ماشية يترحل لرعيها .

وقد قام جدى بمحاولة مستميتة للتخلص من براثن الفقر ، حيث عزم على بناء طاحونة ماء على امل ان تساعده مواردها فى الاثراء . وانفق هو واخوه بيريمكول كل ما لديهما على الطاحونة . وطوال صيف ذلك العام عملت الاسرة كلها فى حفر ترعة متفرعة من كوركوريو تصب الماء على الطاحونة (ولا يزال اثر لا يكاد يلحظ باقيا من تلك الترعة) . وعملت الاسرة كلها فى تشييد جدرانها وسقفها . ومر عام وشرعت الطاحونة بالعمل . الا ان ايتمات التعيس جانبه الحظ هذه المرة ايضا . فقد شب حريق التهم الطاحونة واحالها رمادا ولم يبق منها الا حجر الرحى . وبعد الافلاس النهائى توجه جدى مع ابنه توريكول (والدى الذى كان فى الثانية عشرة من العمر)

للعمل فى شق نفق السكة الحديدية قرب محطة مايماك . ومن هناك التحق ابى بمساعدة الادارة الروسية الموجودة فى تلك المنطقة بالمدرسة الروسية القرغيزية فى مدينة اوليه — آتا ، جامبول حاليا .

وانا اكتب عن ذلك ليس لقتل الفراغ . فما من شيء فى العالم الا وله سبب . ولو لم تحترق تلك الطاحونة المنحوسة لما مضى جدى الى السكة الحديدية ولما توفرت الفرصة لابى كى يتعلم فى مدرسة بالمدينة . لقد تسنى لابى منذ السنوات الاولى للثورة ان يكون انسانا متعلما (وفيما بعد درس فى موسكو مرتين) وصار من اوائل الشيوعيين القرغيزيين وشغل مناصب قيادية وابدى اهتماما كبيرا بالسياسة والادب . ثم ان امى نجمة حمزيفنا ايتماتوفا كانت ايضا امرأة متعلمة وعصرية تماما . وقد ساعدهما ذلك فى تعليمى اللغة الروسية والثقافة الروسية ، وبالتالى الادب الروسى ، ادب الاطفال طبعا .

ومن جهة اخرى كانت جدتى تأخذنى معها دوما الى الجبال فى موسم الترحال الصيفى . وكانت امرأة ذكية وجذابة للغاية ، يحترمها جميع اهالى القرية . وكانت بالنسبة لى كنزا من الحكايات والاغانى القديمة والروايات ما هو واقعى منها وما هو خيالى . وقد رأيت الترحال الرعوى كما كان عليه فى السابق . والترحال ليس مجرد انتقال بالقطعان من مرعى الى آخر ، بل هو مسيرة معيشية طقوسية كبرى . وهو معرض فريد لافضل عدد الخيل وافضل الحلى وافضل الجياد وافضل هوادج الابل واغطية الاحمال ، واستعراض لاجمل الفتيات وافضل المنشدات اللواتى يؤدين ارتجالا مناحات تشييع الاقرباء وترك الطلال او اناشيد السفر . وكنت قد رأيت هذه المشاهد الساطعة

فى آخر لحظاتها ، وبعد ذلك اختفت مع الانتقال الى حياة الحضر . .

ولعل جدتى قد غرست فى نفسى دون قصد حب اللغة الام . اللغة الام . . . ما اكثر ما كتب عنها . ان معجزة الكلام باللغة الام لا سبيل الى توضيحها . ولا ترتوى النفس بالشاعرية النابعة من خبرة الشعب الا عن طريق الكلمة الاصلية التى يستوعبها المرء من الطفولة ، وليس هناك غير الكلمة ما يستطيع ان يبعث فى الانسان المنابع الاولى للعزة الوطنية ويمنحه المتعة الجمالية بتعدد ابعاد ومعانى لغة الاسلاف . ان الطفولة ليست مجرد عهد رائع . فالطفولة تنطوى على نواة شخصية الانسان اللاحقة ، وفيها ترسى المعرفة الحقيقية للغة الام . ففى ذلك العهد بالذات يتحسس الانسان انتماءه للآخرين وللطبيعة المحيطة به ولثقافة معينة .

ولعلى اقول ، انطلاقا من خبرتى الخاصة على الاقل ، ان الانسان فى الطفولة يمكن ان يتقن بعمق عضوى لغتين تأتيانه فى وقت واحد ، وربما اكثر من لغتين ، اذا كانتا تؤثران عليه بصورة متعادلة من سنيه الاولى . وبالنسبة لى تعتبر اللغة الروسية لغة ام لا اقل من اللغة القرغيزية منذ الطفولة ومدى العمر .

كنت فى الخامسة من العمر عندما تسنى لى ان اؤدى دور المترجم . وكانت قطعة لحم مسلوقة اول «اجرة» اتقاضاها . وحدث ذلك فى موسم الرعى الصيفى فى الجبال حيث كنت ارافق جدتى كالعادة .

كانت الكولخوزات آنذاك فى طور النشوء وفى بداية الطريق . فى ذلك الصيف حدثت مصيبة فى مرعانا . فان حصان الانسال

الذى اشتراه الكولخوز قبل قليل قد نفق فجأة . سقط فى وضح النهار منتفخ البطن واسلم الروح . وعم الهرج والمرج الرعاة ، فالحصان ثمين من خيول الدون ، وقد جاءوا به من روسيا البعيدة . بعثوا رسولا الى الكولخوز ، وبعث الكولخوز رسولا الى الناحية . وفى اليوم التالى جاءنا فى الجبال رجل روسى طويل القامة بلحية شقراء وعينين زرقاوين ، يرتدى سترة جلدية وتتدلى من جنبه حقيبة ميدانية . وقد بقيت اتذكره جيدا . ولم يكن يعرف كلمة واحدة بالقرغيزية ، كما لم يكن رجالنا يعرفون الروسية . وكان من اللازم تفقد الامور وايضاح اسباب هلاك الحصان وتحرير وثيقة بهذا الخصوص . ولم يطل الرعاة التفكير فقرروا ان اكون مترجما لهم . وكنت آنذاك بين حشد من الصبيان نتطلع الى القادم .

وقال لى احد الرعاة وامسك بيدى :

— تعال . هذا الرجل لا يعرف لغتنا ، فترجم لنا ما يقول وترجم له ما نقول .

وشعرت بالخجل واستولى علىّ الفزع فتملصت وهربت الى خيمة جدتى . وتبعنى حشد اترابى يتأكلهم الفضول . وبعد قليل جاء نفس ذلك الشخص يتشكى منى . كانت جدتى حنونا دوما ، لكنها هذه المرة قالت عابسة :

— لماذا لا تريد ان تتكلم مع القادم وقد طلب منك الكبار ذلك ؟ الا تعرف الروسية ؟

ولذت بالصمت . واخذ الصبيان يتربصون وراء الخيمة منتظرين ما سيجرى .

— هل تستحى من الكلام بالروسية ؟ ام انك تستحى من لغتك ؟ كل اللغات من عند الله . فلا تمانع ، هيا —

واقتادتنى من يدى . وتبعنا الصبيان .

كانت الخيمة التى يطبخ فيها لحم الضأن تكريما للضيف مكتظة بالناس . كانوا يحتسون لبن الخيل . وكان البيطرى القادم جالسا مع الشيوخ . واستدرجنى باسما :

— ادخل يا صبى ، تعال الى هنا . ما اسمك ؟

تمتمت ذاكرا اسمى ، فمسد رأسى وقال :

— أسألهم لماذا هلك الحصان ؟ — واخرج ورقة ليسجل فيها .

صمت الجميع مترقبين ، بينما انعقد لسانى ولم اتمكن من النطق . وجلست جدتى مرتبكة . وعند ذاك اخذنى شيخ من اقربائنا فى حضنه . ضغطنى الى صدره وهمس فى اذنى قائلا بمنتهى الجد والثقة :

— هذا الرجل يعرف اباك ، فماذا سيقول له ؟ سيقول له : ان ابنك من أردأ القرغيزيين . — ثم اعلن بصوت عال : — سيتكلم . اخبر ضيفنا بان هذا الموضع اسمه اوساز . . .

— يا عم — بدأت مترددا — هذا الموضع اسمه اوساز ، اى المرج المسموم — ثم تجرأت عندما رأيت الفرحة على وجه جدتى ووجه القادم وعلى وجوه كل من فى الخيمة . وبقيت عالقة فى مخيلتى تلك الترجمة الفورية لهذا الحوار الذى نقلته كلمة كلمة بكلتا اللغتين . واتضح ان الحصان اكل العشب المسموم . وسأل الرجل لماذا لا تأكل الخيل من غيره هذا العشب . واجاب الرعاة ان الخيول المحلية لا تمس هذا العشب لانها تعرف بانه لا يصلح للاكل . وترجمت هذا وكل ما قيل من كلام .

وامتدحنى القادم واعطانى الشيوخ قطعة كبيرة من اللحم المسلوق الساخن الفواح ، واندفعت من الخيمة بمظهر المنتصر. واحاط بى الصبية فى لمح البصر . وقالوا مبهورين :

— عظيم . انت تتكلم الروسية بسرعة ماء النهر الجارى بلا توقف . — وفى الواقع كنت اتكلم متلعثما ، لكن الصبية ارادوا تصوير ذلك كما يحلو لهم . والتهمنا اللحم وهرعنا نواصل لعبنا .

هل تستحق هذه الامور ان تذكر فى سيرة الكاتب ؟ اعتقد انها تستحق . فيجب البدء بأول ما يتذكره الانسان فى حياته وبالمكان الذى حدث له والكيفية التى جرى فيها . فالبعض يتذكرون انفسهم عندما كانوا فى الثالثة من العمر ، بينما لا يكاد البعض الآخر يتذكر ما حدث له قبل العاشرة . وانا واثق من القيمة الكبيرة لهذه الامور .

لذلك فانا اذكر هذه الحادثة من طفولتى . كانت جدتى راضية عنى كل الرضا ، وراحت فيما بعد تتحدث بمناسبة وبغير مناسبة عن ذلك الحادث الذى اثلج صدرها .

كانت قد زينت طفولتى بالحكايات والاغانى واللقاءات مع الرواة والمنشدين ، وكانت تأخذنى معها من كل بد حيثما تذهب : فى ضيافة احد او وليمة ميلاد او مأتم او عرس . وغالبا ما كانت تقص علىّ احلامها . وكانت هذه الاحلام ممتعة لدرجة جعلتنى اوقظها حالما تغفو واطالبها بان تقص علىّ ما رأته فى المنام . ولم تكن الاحلام القصيرة الصغيرة ترضينى . وعند ذاك كانت تذهب الى الجيران «لتقترض» منهم حلما ما . وفيما بعد فهمت انها كانت تؤلف تلك الاحلام من اجلى .

وسرعان ما توفيت جدتي . وصرت الازم البيت في المدينة دون ترحال . وبعد ذلك التحقت بالمدرسة . وبعد عامين جئت من جديد الى قريتي ومسقط رأسي . لامد طويل هذه المرة ولاسباب خارقة .

ففي عام ۱۹۳۷ تعرض ابي للاعتقال ظلما وعدوانا ، وكان مسؤولا حزبيا يدرس في معهد المعلمين الحمر في موسكو. وانتقلت عائلتنا الى القرية . وعند ذاك بدأت بالنسبة لي مدرسة الحياة الحقيقية بكل تعقيداتها .

في تلك الحقبة العصيبة آوتنا عمتي كاراغيز آبا . ومن حسن الحظ انه كانت عندي عمة كهذه . فقد حلت بالنسبة لي محل جدتي . وهي مثل امها خياطة ممتازة وراوية مطلعة على الاغاني القديمة ، وكانت تتمتع في القرية بنفس الاحترام والتقدير . جاءت والدتي الى القرية وهي مصابة بمرض عضال ، وظلت مريضة سنين طويلة ، وعندها اربعة اطفال انا اكبرهم سنا .

كانت حالتنا عصيبة للغاية ، لكن كاراغيز آبا اثبتت لنا ان الانسان لن يهلك مهما كانت المصائب التي تنهال عليه اذا كان بين اهله وذويه . ولم يتركنا في محنتنا ليس فقط ابناء قريتنا شكر بل وكذلك الجيران وحتى الغرباء . لقد تقاسموا معنا كل ما لديهم من زاد ووقود وثياب . . .

وذات مرة عندما كنت مع شقيقي ايلغيز — وهو الآن عالم ومدير معهد فيزياء وميكانيكا المعادن لدى اكاديمية العلوم القرغيزية — نجمع الهشيم للتدفئة في احد الحقول عرج علينا فارس على ظهر جواد وفي ثياب جيدة وقال :

— من ابوكما ؟

كانت عمتنا كاراغيز آبا تؤكد علينا دوما بان لا نطأطئ رؤوسنا فى مثل هذه الحالة بل ننظر فى عيون السائلين ونذكر اسم ابينا . كنا انا واخى متألمين جدا لما كتب آنذاك عن ابينا ، بينما كانت كاراغيز آبا تخجل من عارنا . فقد ادركت هذه المرأة الامية على نحو ما بان كل ذلك افتراء لا اساس له من الصحة . ولكنها لم تكن تستطيع ان توضح اعتقادها ذاك . كنت آنذاك اقرأ كتبا عن استطلاعيى اللجنة الاستثنائية ومكافحة الجاسوسية وكنت احلم فى سرى بان يرسلونى لاقبض على جاسوس ما فاقبض عليه واموت لاثبت براءة والدى ازاء السلطة السوفييتية .

عرج علينا هذا الشخص وسأل عن ابينا . ومع ان ذلك مؤلم جدا ذكرت اسم ابى دون ان اغض بصرى . فسأل الرجل :

— ما هذا الكتاب الذى عندك ؟

كان ذاك كتابا مدرسيا ، اذكر حتى الآن انه كتاب الجغرافية الذى كنت احمله تحت الحزام . تطلع فى الكتاب وقال :

— هل تريدان ان تتعلما فى المدرسة ؟

كيف لا ؟ هززنا رأسينا ونحن نعض على شفتينا كيلا نبكى .

— طيب . ستتعلمان . — قال وانصرف .

وبعد اسبوع صرنا نتردد على المدرسة . واتضح ان ذاك الرجل كان من معلمى المدرسة . واسمه اوسوبالى تيناليف . وكانت مرشدة صفنا المعلمة اينكمال جولويفا قد اشفقت علىّ كثيرا فى تلك الفترة .

بدأت العمل مبكرا . ففى سن العاشرة ذقت طعم الفلاحة .

وبعد عام انتقلنا الى مركز الناحية وهو بلدة كيروفسكويه الروسية . فقد عملت امى هناك عدادة . والتحقت بالمدرسة الروسية من جديد .

وبدأت حياتنا تنتظم بعض الشىء ، وفى تلك الاثناء اندلعت الحرب ضد الفاشيين .

فى عام ١٩٤٢ اضطررت الى ترك المدرسة ، فلم يكن بوسع امى ان توفر لنا جميعا التعليم ابان الحرب .

وها انا اعود الى قريتنا شكر المثقلة باعباء الحرب وويلاتها . وعينونى سكرتيرا لمجلس القرية بوصفى اكثر الاحداث تعلما . فلم يكن هناك شخص راشد يمارس هذا العمل . وكنت آنذاك فى الرابعة عشرة .

ولكن رب ضارة نافعة ، كما يقول المثل .

فلئن كنت فى الطفولة قد عرفت الحياة من جانبها الشاعرى الوضاء فقد برزت امامى الآن بصفحتها العارية القاسية المريرة والبطولية . لقد رأيت شعبى فى حال آخر من احواله ، فى زمن اعظم خطر يتهدد الوطن واعظم توتر للقوى الروحية والبدنية . وكنت مضطرا وملزما بان ارى ذلك . وكنت اعرف كل عائلة فى اراضى مجلس القرية وكل فرد من افراد تلك العوائل ، وكنت اعرف تمام المعرفة الموجودات البسيطة فى كل دار . لقد عرفت الحياة من شتى جوانبها ومن مختلف مظاهرها .

وبعد ذلك عملت ابان الحرب جابيا للضرائب فى شعبة المالية فى الناحية . لكننى ما كنت اعرف بمدى صعوبة

جباية الضرائب من الاهالى فى زمن الحرب ، زمن المجاعة . كان ذلك يعذبنى اشد العذاب حتى تركت هذا العمل من تلقاء نفسى فى آب (اغسطس) ١٩٤٤ ، اى بعد عام واحد . وكاد هذا التصرف يؤدى الى احالتى على المحاكمة . ثم عملت عدادا فى فريق الجرارات اثناء جنى غلال القمح .

كانت الحرب مستمرة ، والحياة تفتح امامى ، انا الشاب ، صفحات جديدة متزايدة من احوال الشعب . وقد تجلى ذلك كله فيما بعد ، بالقدر الذى تمكنت منه ، فى قصص «وجها لوجه» و«ارض الام» وجزئيا فى «جميلة» و«الحور فى المنديل الاحمر» .

وفى عام ١٩٤٦ ، بعد الصف الثامن ، التحقت بثانوية البيطرة فى جامبول . واجريت كل التدريبات البيطرية فى قريتى فى ١٩٤٧ — ١٩٤٨ ، وصار بوسعى ان اراقب عن كثب التغيرات التى جرت فى حياة اناس اعزاء علىّ فى فترة ما بعد الحرب .

وبعد التخرج بامتياز من هذه الثانوية قبلت فى نفس العام فى المعهد الزراعى القرغيزى . وبالمناسبة فقد انهيت هذا المعهد بامتياز ايضا .

وقد احببت الادب منذ الطفولة . وفى المدرسة كنت اهوى كتابة الانشاء فى موضوعات اختارها بنفسى . وخلال الدراسة فى المعهد اتضح لى ان الادب يجتذبنى اقوى فاقوى . وكنت ابحث فى افضل نتاجات الادب آنذاك عن اجوبة على الاسئلة التى تشغل بالى . وكم كانت رغبتى شديدة فى رؤية مؤلفات رائعة مؤثرة عن الحرب وعن مأثرة الشعب ابان الحرب . فان الادب القرغيزى آنذاك لم يكن يتناول موضوع الحرب

تناولا عميقا . وكنت اريد للقراء القرغيزيين ايضا ان تتوفر لهم فرصة مطالعة افضل الكتب عن الحرب . وكنت مندفعا بهذا الشعور عندما جازفت بترجمة قصة كاتايف : «ابن الفوج» ورواية بوبينوف : «البتولا البيضاء» دون ان تكون لى فكرة عن ترجمة الادب ولا عن طباعة الكتب . وفيما بعد ، عندما جئت بترجمتى الى دار النشر اخبرونى بان هاتين القصتين ترجمتا من زمان وستصدران قريبا . . .

وقد شعرت بأسف شديد آنذاك ، الا ان ذلك بالذات كان بداية نشاطى الادبى . وعندما كنت طالبا كتبت مقالات قصيرة فى الجرائد .

وبعد المعهد عملت مهندسا لتربية الدواجن . وفى تلك السنوات كتبت قصصا . وفى عام ١٩٥٦ وصلت الى موسكو والتحقت بالدورة الادبية العليا . وقدمت لى السنتان الدراسيتان ، انا المهندس الزراعى ، الكثير جدا ليس فقط فى العلوم الانسانية والاعداد النظرى ، بل فى التطبيق العملى ايضا . فان السمنارات والمناقشات فى الدورة كانت مدرسة ابداعية جيدة . وقد حاولت بنفسى ان اطلع على افضل ما فى الحياة الثقافية فى موسكو — فى الادب والمسرح . وبعد التخرج من الدورة ترأست تحرير مجلة «قرغيزيا الادبية» ، ثم عملت خمس سنوات مراسلا خاصا لجريدة «البرافدا» فى قرغيزيا . وساعدنى ذلك ايضا على توسيع اطلاعاتى ومعرفة الحياة بشكل افضل .

بديهى ان الكاتب يجب ان يمتلك بالفطرة قابلية التفكير الفنى ، الا ان نشوء موهبته وشخصيته يرتبط ببيئة اجتماعية معينة وبالخبرة الروحية والتقاليد الثقافية لتلك البيئة ، وبنظامها

العقائدى والسياسى . وهذه البيئة بالنسبة لنا هى المجتمع السوفييتى والنظام الاشتراكى والمعتقد الشيوعى . وهذا هو نقطة الانطلاق فى ابداع الكتاب السوفييت .

فهل من داع للقول بان منحى جائزة لينين عام ١٩٦٣ على كتاب «قصص الجبال والسهوب» كان حدثا عظيما مفرحا فى حياتى ؟ اننى ممتن للشعب على هذا التكريم الرفيع .

ان الكاتب لا يغدو كاتبا من تلقاء ذاته . فان خبرة الاسبقين تدخل العالم الابداعى للفنان قبل ان ينتبه الى وجود ميول ادبية لديه بامد طويل . صحيح انه لم يقدر للجميع ان يحققوا الاكتشافات فى طريق الفن العسير . فان ذلك يتوقف على الموهبة وعلى سعة الرؤية فى الحياة . فنحن غالبا ما نراوح فى مكاننا ، واحيانا نتراجع من حيث المهارة وعمق المعنى وقوة الصور . ويبدو ان تلك هى سنة تطور العملية الادبية . وهو تطور معقد طويل الامد ومتفاوت ، يصعب تفسيره احيانا . . .

ان التفكير بمصير الادب والطريق الابداعى الذاتى يتكرر غالبا وبمختلف المناسبات . ولما كنت اتحدث عن نفسى بودى ان اذكر هنا فكرة عن «السفينة البيضاء» التى اثارت جدلا بين القراء . ان هذا الجدل من طبيعة الاشياء . فالجدل فى الادب لا بد منه . الا ان اكثر ما اثار قلقى بهذا الخصوص هو خطر الانتقاد الذى هو ، ويا للغرابة ، حسن النية جدا ونزيه منتهى النزاهة على طريقته الخاصة . فالبعض من القراء الذين اعجبتهم ، مثلا ، «جميلة» و«المعلم الاول» و«ارض الام» وغيرها من مؤلفاتى يريدون لى ، انطلاقا من تصوراتهم عن الفن ، ان استمر فى الكتابة على هذا المنوال فقط . اننى لا انوى التنكر لنفسى ولا انكر الاهمية المعينة التى تميز بها

ما كتبته قبل «وداعا يا غولسارى» و«السفينة البيضاء» ، ولكننى لست عازما على التوقف عند ما اعتبره مرحلة منتهية . فالادب يجب ان يحمل صليبه بنكران ذات ويتدخل فى مصاعب الحياة لكى يعرف الانسان كل ما هو طيب وجيد ولائق فى نفسه وفى الآخرين وفى المجتمع ويحبه ويقلق من اجله . وفى ذلك ، على ما اعتقد ، تكمن الرسالة الحقيقية للفن . واظن ، بل اعتقد ، ان الحال سيظل كذلك الى الابد ، وبلا نهاية ، لان الانسان يبحث فى الفن عما يؤكد افضل طموحاته ، ويلغى الظلم والباطل وكل ما لا يستجيب لمثله العليا الاجتماعية والاخلاقية . ولا بد فى ذلك من النضال والشكوك والآمال . ويبدو ان الحال سيبقى على هذا المنوال دائما وابدا . ولذا يتعين على الفن دوما ان يحدث الانسان عن تعقد الحياة وجمالها .

اننى لا اعرف ما يخبئه لى المصير الادبى ، ولا ادرى هل ساوفق فى كتابة شىء مهم . فمن يعش ير كما يقول المثل . . .

١٩٧٢

ثلوج ماناس آتا

انني اتردد على شكر مرتين او ثلاث مرات في العام لاداء بعض الشؤون او لحضور حفل زفاف او مأتم . . . واحاول ان اغرس في نفوس اطفالي ، وهم من سكان المدن الاقحاح ، حب ابناء قريتي واقربائي . ولا اعرف مدى توفيقي في ذلك . فالزمن ليس على ما كان عليه ، كما يبدو .

شكر قرية قرغيزية كبيرة متينة الجذور . فيها اكثر من ثلثمائة عائلة . وكلما اصل اليها ارى دورا تبنى وسطوحا تقام هنا وهناك . المنازل في ازدياد . والقرية تتوسع . وهي واقعة في موضع بارز ، عند «رأس الماء» ، كما يقال عندنا ، اي على النجد تحت ظل سلسلة جبال طلس ، بين احضان القمة المحلية العالية ذات الرأسين ، مقابل رأس ماناس . لقد تسلق ماناس على ظهر جواده هذا الجبل العالي ليلقي نظرة حواليه ويتأكد : هل الاعداء قادمون ؟ (وليس صعبا ان نتصور مساحة الاراضي الشاسعة التي يجول فيها بصر ماناس من قمته تلك . انها مساحة ملحمية حقا . على هذه الصورة اراد الشعب في قديم الزمان ان يرى ابنه وبطله ماناس) . وعلى اية حال فمن هناك ، من تحت ثلوج ماناس الابدية يهبط الى الوادي نهر كوركوريو البارد السريع الجريان حاملا المياه ، ومعها الحياة ، الى كل الكائنات في هذه الاراضي . . .

انني انفعل واتأثر كلما اقترب من شكر وارى من بعيد

ثلوج ماناس البيضاء الزرقاء التى تتوهج متلألئة فى عنان السماء . واذا تجردنا عما حوالينا وتطلعنا طويلا الى هذه القمة ، الى السماء وحدها ، فان الزمن كأنما يفقد خواصه ، ويتلاشى الاحساس بالماضى ، ويخيل للمرء ان شيئا لم يحدث ولم يتغير ، كل ما فى العالم بقى كما كان عليه قبل عشرة او عشرين عاما ، وربما قبل مائة او الف عام . ماناس ينتصب على الارض مثلما كان . والغيوم ، نفس الغيوم ، تسبح فوقه كما هى ابدا . وانا ايضا ، نفس ذلك الصبى الذى يهرع من البيت كل صباح ويتطلع الى هذا الجبل المطل على القرية ويفرح له . ولكن مع الاسف ، لا يستطيع المرء ان ينساق وراء الاحلام سوى دقيقة او دقيقتين . . .

هذه المرة ، وانا متوجه الى شكر ، اشعر بالانفعال اكثر من المعتاد . ولذلك اسبابه . فقد كلفتنى هيئة تحرير مجلة «اوغونيوك» بان اكتب مقالة عن اهالى قريتى فى زمن الحرب . فى البداية كنت مرتابا : ما الذى يمكن ان اكتبه ؟ فالمؤخرة هى المؤخرة . والحرب هى الجبهة والمعارك ، وكل ما عداها يأتى فيما بعد ، فى المرتبة الثانية . ولم اتخلص من هذه الشكوك اثناء الطريق . ولكننى عندما اقتربت من القرية واجلت بصرى فى ثلوج ماناس الازلية تذكرت امورا كثيرة .

وكان هناك ما يستحق التذكر . طفولتى وسنوات الحرب وما بعدها مضت هنا ، فى هذه المنطقة . وتذكرت الناس فى تلك الحقبة .

انهم كسائر البشر ، شغيلة ، فلاحون ، نشطاء مكافحون كالذين يراهم المرء فى اى كولخوز او سوفخوز . والآن ، عندما افكر فى الحرب يلوح كل منهم امامى كانما فى صورة فوتوغرافية

مكبرة تسلط عليها اضواء شديدة عميقة من احداث سنوات الحرب . وتستعيد الذاكرة الاجتماعات الحاشدة فى اولى ايام الحرب ، حيث غدت المسؤولية العامة عن مصير البلاد مسؤولية شخصية . وكان الرجال يتوجهون من تلك الاجتماعات فى مركز الناحية رأسا ضمن طوابير المتطوعين الى الجبهة . وكل جوهر القضية في ذلك . ويحضرنى الآن ان كل شخص كبير او صغير ، فى الجبهة او المؤخرة كان له مكانه التاريخى فى هذا الكفاح العظيم ، كفاح الشعب بأسره . . . اجل ، مكانه التاريخى . وليس هناك نعت آخر اوفى من هذه الكلمة . . .

ولذا فعندما نقول : «قبل الحرب» ، «بعد الحرب» ، «ابان الحرب» لا نرى فى ذلك مجرد عبارات وكلام . ففيها ، باعتقادى ، شيء اكثر من السجل الزمنى المعيشى . فى هذه الكلمات ، باعتقادى ، زمن المعرفة القاسية للحياة ، زمن اكتساب مجتمعنا خبرة صارت ملكا ذا قيمة عالمية . فالحرب لم تكن مجرد عصر تاريخى شامل يشطر القرن العشرين شطرين ، ويشير الى مرحلتين فى تطور البشرية قبل وبعد الحرب ، بل كانت كذلك مصيرا وقسمة لكل انسان عاش فى تلك الحقبة ومعيارا لتصرفاته وقيمه الاخلاقية . لقد واجهت الحرب كل فرد من الناس ، ولا اعرف احدا لم تمسه الحرب بشكل او بآخر . ومن حاول ان يتحاشاها واجه الشعب نفسه من كل بد ، لان الحرب كانت مصيرا مشتركا للشعب لا توفر احدا ولا تستثنيه . (وهذا ما اردت ان اتحدث عنه فى اول قصة طويلة لى بعنوان «وجها لوجه») . لقد قدمت الحرب حساب العصر بكامل رصيده الى كل فرد فى طريقه الحياتى . . .

وهنا لا بد من الاستشهاد بالتجربة الشخصية . عندما

اندلعت الحرب كنت فى الثالثة عشرة . وبذلك بدأ اكتشاف عالم كبير بالنسبة لجيلى . وانا نفسى لا اصدق الآن باننى عملت سكرتيرا لمجلس القرية وانا فى الرابعة عشرة من العمر، وكان علىّ ان ابت فى مسائل اجتماعية وادارية معقدة لدرجة كبيرة ، وهى مسائل تمس مختلف جوانب الحياة فى قرية كبيرة ، لاسيما فى زمن الحرب . ولكن ذلك لم يكن شيئا خارقا للعادة آنذاك . فالصبية الذين انهوا الصف السابع فى عام ١٩٤١ ، من امثال بايزبيك مومبيكوف (عمل معلما طوال حياته ، فى غضون ثلاثة وثلاثين عاما) والمدير الحالى لثانوية شكر سيتالى بيكمامبيتوف ، قد عملوا آنذاك معلمين فى الصفوف الاولى فى المدرسة . وبعد الحرب حصلوا على التعليم العالى . شقيقى ايلغيز — وهو الآن مدير معهد فيزياء وميكانيكا المعادن لدى اكاديمية العلوم القرغيزية — اصغر منى بثلاث سنوات . كان يتعلم فى المدرسة ويعمل ساعى بريد فى الوقت ذاته . واستمر على ذلك طوال الحرب . وانا افتخر به . كان ساعى بريد ممتازا ونزيها فى تلك الحقبة المريرة . صبى نحيل حافى القدمين فى الحادية عشرة من العمر (ربما لا يسمحون لامثاله الآن بالذهاب الى شارع آخر دون مرافقة الكبار) يقطع كيلومترات كثيرة ويعبر النهر الى البلدة المجاورة التى توجد فيها دائرة بريد لاحضار رسائل الجنود والجرائد التى يقرأها بصوت عال على الناس اثناء الاعمال الحقلية . وعندما بلغ الخامسة عشرة رشحه الاجتماع العام لاعضاء كولخوز «جيدى» لاستلام مدالية «العمل المجيد ابان الحرب الوطنية العظمى ١٩٤١ — ١٩٤٥» ، وقلد هذه المدالية عن جدارة واستحقاق . وانا ايضا اشهد بذلك .

لكن القضية لا تنحصر فى ذلك . فالحقيقة هى اننا ، مثل الكثيرين من الفتيان ابان الحرب ، مدينون بافضل ما فى نفوسنا للكبار الذين سهروا على تربيتنا بالكلمة الطيبة والقدوة الحسنة .

اذكر انهم استدعونى من المنزل فى شتاء ١٩٤٢ . فقد وصل رسول مجلس القرية كينيش على ظهر حصان :

— اصعد يا ابنى واركب الحصان خلفى . فالرئاسة تدعوك . ربما كانت هناك قضية هامة . — اطلق رجله من الركاب وسحبنى الى ظهر الحصان وذهبنا معا .

وهذه شخصية مرموقة فى قريتنا . اسمه الحقيقى ابراهيم ، لكنهم جميعا كانوا يطلقون عليه نعت «كينيش» المشتقة من كلمة «مجلس» بالقرغيزية ، وكان يقصد بهذا النعت «السلطة السوفييتية» . ولما كان من اكثر الناس فقرا فقد كان اول من رفع فى القرية نداء السلطة السوفييتية ، سلطة الفقراء . واشتهر هذا العامل الزراعى الامى بانه كان طول عمره يدعو فى كل الاجتماعات صغيرها وكبيرها الى نصرة السلطة السوفييتية . وكان يعلن دوما بانه لا ينشد اية منفعة شخصية : «لا اريد غير قطعة خبز لى وحفنة قش للحصان . وسأعمل من اجل السلطة السوفييتية ليل نهار الى ان اسقط من على السرج» . بهذه الصورة عمل هذا الرسول والداعية المتطوع حتى آخر يوم من حياته ، ويمكن القول انه بالفعل مات على السرج . وحتى اليوم يذكره الناس فى سفوح ماناس بكلمة طيبة . ولا يزالون حتى اليوم يذكرونه مندهشين . كان كينيش عجوزا ابان الحرب ، الا ان طبيعته المتحمسة النشيطة لم تضعف ولم تهن . وقد شهدت مرارا خطبه «الارتجالية» فى الاجتماعات العامة . كان

يتكلم بحرارة من صميم القلب ، وكانت كلماته تلهب المشاعر . . .

اوصلني هذا الشيخ الى مجلس القرية . جلس ثلاثة اشخاص فى بناية باردة خالية من وسائل التدفئة وذات ارضية ترابية ونوافذ من هشيم الزجاج . احدهم يرتدى معطفا فرائيا وله لحية رمادية وهو راع عجوز فارع القامة من قرية ارتشاغول المجاورة وراء النهر . واسمه كابيلبيك توردوبايف ، وقد عين رئيسا لمجلس القرية بدلا من رئيسه السابق الذى التحق بالجبهة . والآخران يرتديان معطفى الجنود ، وهما من الجرحى العائدين من الجبهة . احدهما على شير ايداروف رئيس كولخوز عاد مؤخرا من الجبهة ويده لا تزال مضمدة ، والآخر سكرتير مجلس القرية كالى نوكييف وجنبه عكاز يستند الى الجدار .

وقال لى توردوبايف آنذاك :

— ستضطر الى ترك المدرسة . وستتعلم فيما بعد . بعد الحرب . فان كالى — واومأ صوب نوكييف — سيعمل رئيسا لفرقة . الافضل له طبعا ان يبقى هنا بعكازه هذا . ولكن الكولخوز لا يستطيع ان يستغنى عن رئيس للفرقة . وانت تعرف ذلك جيدا . ولا احد غيره يستطيع القيام بهذا العمل . فانا غير متعلم قضيت عمرى فى رعى الماشية . وانا بحاجة الى معاون فهيم . ولذا قررنا انك تصلح لهذا العمل . . .

هكذا صرت سكرتيرا لمجلس القرية . وكانت قرية ارتشاغول الواقعة وراء النهر منسبة الينا ايضا . قريتان كبيرتان فى زمن الحرب العصيب ، والرئيس كان راعيا لا اكثر ، والسكرتير صبى اخذوه من المدرسة رأسا . ذلك هو الموقف . فى حين

كانت الحياة تسير وتطرح قضايا لا تقبل التأجيل . وكانت الاشغال كثيرة . ولم اكن متعلما بالشكل المطلوب . فقد كانت احدى وثائق اللجنة التنفيذية للناحية تنص على اجراء «تطعيم» للخيول فى منطقة مجلس القرية ، اما انا فقد فهمت كلمة «التطعيم» على انها «التعبئة» . واخبرت توردوبايف بان من اللازم «تعبئة» كل الخيول . امتقع لونه وانسحبت غلالة سوداء عليه : «كيف نستغنى عنها فى عمل الكولخوز ؟» . وتوجهت معه على عجل الى مركز الناحية ، الى بلدة كيروفسكويه على مسافة اربعين كيلومترا . توجهنا فى منتصف الليل ووصلنا وكنا فى قلق شديد . لكنهم اوضحوا لنا جوهر الامر . وارتبكت كثيرا . زد على ذلك اننا خرجنا من مبنى اللجنة التنفيذية وكان حصانى مرتفعا وانا قصير القامة ارتدى معطفا فرائيا وحزاما وقبعة ، فالوقت شتاء ، ولم اتمكن فى كل هذه الثياب ان ابلغ الركاب بقدمى . وكان علينا ان نسرع الى البنك . وعندما كنت احاول ان امتطى ظهر الحصان رفعنى توردوبايف ، وهو قوى ، واجلسنى فى السرج . فشعرت بخجل ما بعده خجل . فاى سكرتير هذا الصبى الذى يحملونه حملا ويجلسونـــــه على السرج . واعلنت بشىء من الحدة :

— لن اعمل اذا كان بهذه الصورة .

— لم يرنا احد — هدأنى توردوبايف — اما العمل فلا بد منه . ولكن عليك ان تدرس ايضا . حالما تنتهى الحرب اذهب الى المدرسة رأسا . هيا .

والآن ، بعد مر السنين ، اجد نفسى ممتنا للمصير الذى جعلنى منذ نعومة اظفارى ، كما يقال ، اقابل اناسا متميزين بالنباهة والكرامة الشخصية . وكان من هؤلاء رئيس

مجلس القرية الشيخ الحكيم توردوبايف الذى كان راعيا فى السابق . بعد عام ونصف ، عندما ظهر اناس متعلمون ، من الضباط الجرحى ، عاد من جديد الى مهنته الاصلية . وقد تقابلنا ذات مرة بعد وقت طويل فى مأتم شخص عزيز علينا ورحنا نتحدث ونتذكر بالطبع عملنا المشترك فى مجلس القرية . ظننت ان الشيخ سيضحك ويقول ، كما يقال عادة فى مثل هذه الاحوال ، ان شيئا لم يحدث ، ولم تكن هنـــــاك مفارقات ، لكنه تكلم بجد واكد بانه غالبا ما يتذكر عملنا ويتساءل : هل فعلنا اللازم آنذاك .

واللازم فى تلك الحقبة العصيبة القاسية كثير . كانت وجبات التعبئة تتعاقب الواحدة اثر الاخرى : الى الجبهة ، الى جيش العمل ، الى المناجم ، الى تخزين الاخشاب ، بل وحتى الى قناة تشويسكى التى استمر العمل فيها أثناء تلك السنوات ايضا . لم نكن نكتفى بتسليم الاشخاص الاشعارات وتسجيلهم حسب الاصول . فقد كان توردوبايف يرى من واجبه التكلم مع كل واحد منهم ومع عائلته فيقنعه ويساعده بالاقوال والافعال ، وكان من كل بد يودع الراحلين بتمنيات السلامة وغالبا ما يرافقهم الى مركز الناحية والى دائرة التجنيد ويظل معهم حتى لحظة الرحيل . وقد كلفنى مرارا باداء هذه المهمة مع ان من المستبعد ان اكون قد اديتها بالشكل المطلوب . فمهما حاولت ان التزم بمظهر جاد ، فالصبى يبقى صبيا .

ذات مرة حدث ان راعيا استدعى للانخراط فى جيش العمل فلم يصل فى الوقت المحدد الى مجلس القرية لارساله الى مركز الناحية . وقد رد على الرسول بالرفض . وتعين عليّ ان

اذهب اليه . استقبلنى الرجل على العتبة بعينين متقدتين بالشرر والانفعال . وفى الواقع كان محقا . فطوال العام كان يرعى القطيع ويترحل مع اسرته واطفاله . واشتغل هو وزوجته بدلا من اربعة رعاة كما هو المقرر . ولم يستلم شيئا مقابل عمله الاضافى . وها هم الآن يجندونه . هبط من الجبال الى منزله المهجور فى القرية ، فلم يجد شيئا على الاطلاق ، لا وقودا ولا ثيابا ولا علفا للبقرة .

— كيف اذهب ؟ كيف اتركهم ؟ — قال مشيرا الى الاطفال الصغار والى زوجته المريضة التى كانت راقدة فى الركن ملتحفة بمعطف الفرو .

وتحيرت . لكننى افهم ان القانون لا جدال فيه ، ولا بد من تنفيذه .

— التحق بالجيش وسنعتنى بهم نحن — قلت له صادقا مع اننى لم اكن اتصور كيف وماذا استطيع ان افعل لمساعدة هذه العائلة . وابتسم الراعى بحزن :

— انت ستعتنى بهم ؟

— نعم انا ، ومجلس قريتنا . . .

— طيب — قال متنهدا — اذهب يا صبى ، وسأدبر الامور بنفسى . اذهب . لن اهرب . سادبر امورهم على نحو ما واذهب حتى ولو ارسلونى الى آخر الدنيا .

عدت الى مجلس القرية مثقلا بالهموم . وحدثت توردوبايف فعبس واكفهر وراحت قبضته تضغط على لحيته بين حين وآخر . فذلك من عادته .

— ماذا تقترح ؟ — سأل بصوت ابح مكبوت .

— ساعدهم . فهم بحاجة الى وقود وعلف ، وحتى

الدقيق عندهم قليل . الاطفال مستبردون ، ومظهرهم يدل على انهم جياع .

— انا اعرف بان المساعدة ضرورية . لكنك انت الذى وعدت ، وعدت باسم مجلس القرية ، يعنى انك انت يجب ان تفى بوعدك . والا فالناس لن يثقوا بنا . راجع رئيس الكولخوز واطلب منه عربة قش للعلف وهشيما للوقود . واطلب منه ان يخصص لهم قمحا وبطاطس . فهذا الشخص الذاهب غدا الى جيش العمل يجب ان يرى ان السلطة السوفييتية موجودة هنا . ومع ان فيها شيخا وصبيا فقط ، فهى سلطة على اية حال .

واتضح ان اقناع رئيس الكولخوز بتقديم اللازم لم يكن امرا يسيرا . فقد جئت فى وقت غير مناسب . فالكولخوز نفسه غارق فى المشاكل والاحتياجات . الكل يطلبون منه : نفذ الخطة ، اعطنا هذا ، اعطنا ذاك . ولا احد يقول له : خذ . الكل يقولون اعطنا . ولكى يعطيهم يجب عليه ان يعمل . فمع من يعمل ؟ ومن الذى يعمل فى الكولخوز ؟ لا احد . ولا وقت لتوزيع القش والهشيم على المنازل . اذا كان هذا الشخص ذاهب الى جيش العمل فليذهب . فليس هو الاول ولا الاخير. البلد كله يقاتل . وكل العوائل محتاجة ، والفقر لا يوفر احدا . . .

ما اسوأ حظى العاثر . لماذا جئت الى الرئيس فى ذلك الوقت غير المناسب ؟ لقد تكدست عليه الهموم حتى جعلته يكاد ينفجر . لكننى الحفت فى الطلب وبذلت جهدى لاثبت له ضرورة تلبيته . وكنت من شدة يأسى مستعدا لالتقاط المذراة. حدث ذلك فى اسطبل الخيل . وعندما قال لى : هذه هى الخيول وهذه هى الاعنة . والقش قرب البيدر فى الحقل وهذه هى

حزم الهشيم ، ولا احد هناك لنقلها . فافعل ما تشاء ، — هرعت لاشد الحصانين والقيت فى العربة مذراتين واندفعت بصخب الى الدرب . وكان علىّ ان اسرع . فنهار الشتاء قصير . وتوقفت قرب منزل ابن عمى بايزبيك مومبيكوف الذى كان يقيم عند اقرباء لنا . فابوه فى الجيش وامه توفيت . وكان بايزبيك ، كما اسلفت ، يعمل معلما فى المدرسة ، وكان فى الخامسة عشرة من العمر . ومن حسن الحظ اننى وجدته فى المنزل . وذهبنا الى الحقل لاحضار القش . وملأنـا العربة . وانقلبت العربة فى الطريق . فربطنا الحصانين اليها من جديد ، ووجدنا مشقة فى وضع هيكل العربة على عجلتيها من جديد . وحملنا القش ثانية . ووصلنا قبل حلول الظلام الى منزل الراعى . كنت جالسا على العربة عندما رأيت الكثير من اشجار بستانه مقطوعة من اصولها . لقد قطعها جميعا لاعداد الحطب . وافرغنا العربة ، وكان هو لا يزال يعمل بالفأس . ثم جاء الينا والبخار يتصاعد من ظهره المبلل بالعرق . وكنـا صامتين ، فقال :

— شكرا لكما . لكننى قطعت اشجار الحور حطبا . ستنشف وتنفعهم فيما بعد بدونى . اسفى عليها ، فهى اشجار فتية . ولكن لا بأس . بعد الحرب سنغرس غيرها ان شاء الله .

وسلمته ورقة فيها امر رئيس الكولخوز بمنح عائلته دقيقا وبطاطس . واتذكر على وجه التحديد : ٨ كيلوغرامات من الدقيق و٢٠ كيلوغراما من البطاطس . واخبرته باننا سنجلب الهشيم صباح الغد .

— اعذرنى يا اخى على خشونة كلامى — قال الراعى مرتبكا — كنت خائفا فزعا . الاطفال صغار جدا وزوجتـى

فى الفترة الاخيرة لا يزايلها المرض . اخذت بردا فى الجبال . ولولا ذلك فهل كنت ساتفوه بكلمة . . .

احضرنا منشارا واخذنا انا وبايزبيك ننشر جذوع الحور ثم نقطها بالفأس حطبا . وبقينا نعمل فى ذلك المساء امدا طويلا .

عدت متأخرا وانا اهش على الكلاب فى الشوارع . ولم اذق طعم النوم فى الليل . كنت اخشى الا استيقظ فى الوقت اللازم . ففى الصباح الباكر ينبغى مراقبة تحشد وارسال المجندين الى مركز الناحية . وليس ذلك وحده هو الذى قض مضجعى . فقد انهالت علىّ مختلف الافكار . كنت افكر فى الحرب . فى السابق كنا نتصورها مجرد اطلاق النار المتواصل من الرشاشات ومجرد مآثر متواصلة ، والاعداء يتناثرون كحزم القـــــــش ، بينما لا يصيب رجالنا اذى . . . لقد تبدد هذا الوهم الطفولى الساذج بشكل قاس للغاية . فكل يوم تصل الى مجلس القرية «الوريقات السوداء» ــ اشعارات الوفاة من الجبهة . سقط هذا شهيدا ، وسقط ذاك ، وسقط ثالث ورابع . . . ومن افظع الامور ابلاغ عوائل القتلى بذلك . ومع ان الشيوخ كانوا يبلغون بهذا النبأ المرير وفق ما يستحقه من تكريم واجلال ومع ان القرية كلها تعزى بمقتل الشهيد ، الا اننى كنت مكلفا بنقل هذه الورقة «نذير الشؤم» الى منزل الشهيد . ليس فى الحال ، بل بعد فترة قصيرة ، بعد تفجر اليأس والمناحة والآلام . ومع ذلك فمن المرعب اخراج هذه الوريقة من الحقيبة الميدانية الرسمية التى ورثتها عن السكرتير السابق . وهى وريقة مطبوعة صغيرة بحجم راحة اليد ومختومة بالختم العسكرى وموقعة من قبل ميجر او كابتن او احد مسؤولى الاركان . وفى الوريقة بضعة

سطور ، أقرأها بصوت خافت واترجم كلماتها الى اللغة القرغيزية ثم الوذ بالصمت . واسمع تنهدة ثقيلة يتحطم لها الصدر وكأن صخورا تناثرت من الجبل مخشخشة وزحفت متدحرجة الى اسفل . ويصعب عليّ ان ارفع بصرى ، مع اننى لست مذنبا فى شيء . واسلم الورقة واقول «خبئيها» . وفى تلك اللحظة يتمزق بكاء الام المخنوق فيتحول الى نحيب متشنج ثم الى عويل مرير طويل الى ما لا نهاية . فهل يعقل ان هذه الوريقة بديل عن الابن الحى ؟ !

واغلب على امرى فلا استطيع ان انهض او اذهب او اعبر عن المؤاساة . فكيف استطيع المؤاساة ، وبأية كلمات ؟ فى مثل هذه اللحظات بودى ان اهرع من الباب والتقط الرشاش ، نعم الرشاش بالذات واركض به دون توقف الى هناك ، الى الجبهة التى وصلت منها هذه الوريقة . وهناك اصرخ مهتاجا غاضبا واحصد الفاشيين بصليات من رشاش لا يسكت ولا ينتهى . لكن ذلك مجرد احلام . فمن يعطينى رشاشا انا الصبى ، ولو كانت قامتى اطول لهان الامر . . .

واخيرا انصرف مسحوقا بمصيبة اناس اعزاء عليّ . انصرف حاملا عبر الكتف الحقيبة الميدانية ، حقيبة مجلس القرية ، وفيها «اشعارات وفاة» اخرى .

ذات مرة حدثت ابن قريتى الكاتب القرغيزى المعروف هاشم يعقوبيكوف كبير المحررين فى استوديو «قرغيز فلم» السينمائى عن هذه الحقيبة الميدانية التى هى من حقائب ما قبل الحرب . وكانت تلك حقيبة اخيه الاكبر آية الله (كان هاشم آنذاك تلميذا صغيرا) . وكان آية الله فتى نشيطا ينظم الالعاب الحربية ويقودنا فى الحملات ، وبعد ذلك اخذ ينمو

بسرعة وغدا راشدا فجأة ، وعمل سكرتيرا لمجلس القرية قبيل الحرب . وعندما جاء دورى لاعمل سكرتيرا للمجلس سألنى نوكييف اثناء التسليم والاستلام : «عندك حقيبة ؟ كيف ستحمل الاوراق ؟» . بديهى انه لم تكن عندى اية حقيبة . فنحن عندما كنا نتردد على المدرسة نشد الكتب باحزمتنا . وعند ذاك اخرج هذه الحقيبة من قاع الدولاب حيث كانت بين الاضبارات العتيقة . «خذ ، هذه حقيبة آية الله . فهى هنا منذ ان التحق بالجيش ولم تمسها يد . خذها واستعملها . فليس ملائما ان تحمل الاوراق بيديك . . .» .

هكذا وقعت الحقيبة فى يدى . وقد وجدت فيها مختلف التسجيلات الخاصة بالعمل والايصالات والاشعارات التى لم تسلم الى اصحابها بخصوص ضرائب العقارات . وبين هذه الاوراق كانت هناك رسالة منظومة شعرا ، وهى قصيدة غزلية تتضمن اعترافا بالحب . ويبدو ان الوقت لم يتسع بآية الله كى يسلمها الى الفتاة المخصصة لها . ولم اكن اعرف ما افعل بالرسالة . فاسم الفتاة لم يكن مكتوبا عليها . ليس هناك غير الحرف الاول . وتصورت ان من غير اللائق عرض الرسالة على احد . ولذا مزقتها بسبب سذاجتى وقلة معرفتى . ثم اسفت على ما فعلت اشد الاسف . فعندما احتوت هذه الحقيبة اشعارا بمقتل آية الله فى الجبهة ادركت حماقة تصرفى . . .

وكان من واجبى ان اوزع على عوائل المقاتلين بموجب قوائم معينة شدات من عيدان الثقاب من صنع محلى مع صابون من صنع محلى ايضا مقطع الى عدة قطع وخيوطا وكيروسينا — قنينة بربع لتر لكل عائلة . . .

وكنت افكر : هل تنتهى المصائب والحرمان والآلام ؟

اليس ذلك امتحانا للانسان ؟ ومع ذلك فان اصعب امتحان ليس هذا . فالشعب ابدى بسالة عظيمة تعجز الكلمات عن التعبير عنها دون ان يطأطئ رأسه امام الحرب الرهيبة . ومهما كانت الصعاب ، ومهما بدا وكأنه لم تبق اية قوى لتحمل المزيد من المصائب والويلات ، وكأن الصبر البشرى قد نفد فان الناس لم يفقدوا القدرة على النضال وكانوا مرارا وتكرارا يبذلون قصارى جهودهم ليفعلوا كل ما يتوقف عليهم .

لقد كتب الكثير عن المرأة ابان الحرب . وتغنى بها الشعراء عن جدارة واستحقاق اما وكادحة . ومع ذلك فلو كنت نحاتا او رساما لكرست حياتى لابداع صورة المرأة ابان الحرب ولحاولت ان اعبر فى نفس واحد عن كل مشاعر الامتنان والاعجاب والاعتزاز بها والتألم لها ، لشخصية القرن العشرين العظيمة هذه .

اذكر مرة ان رساما جوالا جاء الى مجلس القرية . كان هذا الرجل الكهل يرسم صورا للطليعيين مقابل دقيق يتلقاه كاجرة . وكانت الحسناء آسيا دوبانايفا المرحة الحبابة وافضل عاملة عندنا قد ظهرت فى الصورة بشكل مغاير تماما . فالصورة تشبهها ولا تشبهها . ولا ادرى هل ظلت هذه الصورة محفوظة ام لا . وجه فتى جميل بعينين مفعمتين بالقلق والاسى . وكنا واقفين قرب الرسام نراقبه اثناء العمل . وقال احد من الحاضرين للرسام بان الصورة لا تشبه آسيا . فاجاب الرسام :

— انها تشبه كل اللواتى ينتظرن ازواجهن .

ومن المؤسف ان زوج آسيا لم يعد . وقضت سنى العمر تنتظر وتعمل ، تعمل وتنتظر .

المراهقون اطفال على اية حال وان بدوا كبارا . ولكنهم

هم بالذات تحملوا الى جانب النساء عبء الاهتمام الفلاحى بالخبز ، بالعيش الكفاف ، تحملوا ذلك العبء على اكتاف شبه طفولية لم يقو عودها بعد . . . وغدا الصبيان آنذاك ، وهم فى الثانية عشرة او الثالثة عشرة ، حارثين وحاصدين . فى عام ١٩٤٢ قرر كولخوزنا فى قرية شكر ان يحرث مساحة اضافية تتجاوز ٢٠٠ هكتار من الاراضى الجديدة للحنطة الربيعية . «خبز للجبهة» . ايجاز فيه اغنى المعانى . ان حراثة مائتى هكتار من الاراضى حسب مفاهيمنا الحالية ليست مشكلة اطلاقا . فحالما يتقدم الجرار الى الحقل يؤدى المهمة . اما فى ذاك الزمان فان حرث هذه المساحة زيادة على الخطة يعتبر مأثرة فى ظل العمل بخيل الجر حيث لا يوجد لدى الكولخوز سوى محاريث تعد باصابع اليد . نعم ، تلك هى الحقيقة . فخلال اليوم الواحد لا يتجاوز ما تحرثه اربعة خيول تجر محراثا بسكتين نصف هكتار من الاراضى البور او البكر . فاحسبوا بانفسكم . . .

واضطر الصبية الحارثون الى ترك المدرسة لسبب قاهر ، فقد بدأ اعداد الخيول من الشتاء . حصان الجر يحتاج الى رعاية يومية لا تكل ، والا فهو يعجز عن العمل منذ الايام الاولى للبذار . ان جر المحراث اصعب عمل فى الزراعة . وهذا امر يعرفه كل من عاش فى الريف .

ولكى تتم الحراثة والبذار فى الوقت اللازم خرج العاملون فى تلك السنة الى الحقل حالما بدت تباشير الربيع . كانت التربة قد التقطت اولى انفاسها ، ويمكن القول ان الشتاء لا يزال مخيما . واتذكر بوضوح ان ذلك كان فى اواخر شباط (فبراير) .

ومنذ الايام الاولى توجهت الى رفاقى فى الحقل فى سهب كوك–سايسك . عندما توجهت فى الصباح كان الجو رماديا مكفهرا . وعندما وصلت تساقط الثلج كثيفا عاصفا على حين غرة . وحول كل شيء الى بياض . ومنذ ذلك الحين ظلت عالقة فى ذاكرتى صورة الحارثين الصغار فى الثلج السابح فى الهواء . كان الثلج يتساقط بحبات كبيرة كثيفة سريعة الذوبان . وكان يغطى مساحات شاسعة خالية على مدى البصر حتى آخر الدنيا . والسكون مخيم فى كل مكان ، ولا احد من البشر سوى الثلج يتساقط بصمت ، والحارثين يستحثون الخيول بلا كلل . كانت المحاريث تسير الواحد تلو الآخر على امتداد خط اسود من التربة ينسبط عبر التلة وكأنها سفن فى الضباب على دوامة الماء . كانت تختفى وراء التلة وكأن الامواج تبتلعها . وآنذاك لا يسمع غير اصوات الصبية تتهادى من هناك . وعلى اطراف تلك الارض المحروثة توجهت للقاء الصبيان .

بدت المحاريث سابحة فى زوبعة الثلج . وتلاصقت الحصن الاربعة وهى تتنفس بتعطش وتوتر باذلة جهدها فى جر المحراث . وكان الثلج يذوب فى الحال على ظهورهم الساخنة ويتحول الى بخار ابيض . وكان الامر صعبا على الخيول . فالارض تحت قوائمها بليلة ناقعة والعدة رطبة . ثم ان حال الصبية الذين يستحثونها ليست افضل . فهم صغار هزيلون غطوا رؤوسهم باكياس الجنفاص المبللة . وفى مثل هذا الجو يجدر بهم ان يقبعوا فى ركن دافئ . لكنهم ابناء الحرب ، وهم يعرفون بان هذا هو نصيبهم ومسؤوليتهم .

الثلج يتساقط . . . وفى غلالة الثلج البيضاء تسبح محاريث سوداء تجرها الخيول . والمحاريث تسير بلا توقف .

وعرفت الصبيان من اصواتهم : بايتيك وتايربيك وستار واناتاى وسلطانمراد . . . وهم من صفى فى المدرسة . وانتظرت برهة دون ان اقترب منهم ، فانا لا اريدهم ان يرونى باكيا . . .

وفى الشتاء شهدنا حادثا فظيعا . فى الليل سمعت طرقا شديدا على النافذة . وانحنى شخص من السرج وراح يصيح .

— انهض ، اسرع الى الاسطبل . اقتادوا الخيول .

ارتديت ثيابى بلمح البصر وخرجت راكضا . وهرع الناس من البيوت وهم يرتدون ثيابهم على عجل . وعندما بلغت الاسطبل سمعت اصواتا مرتفعة منفعلة . واتضح ان مجهولين اقتادوا اثنين من افضل الخيول من المربط القريب من الباب فى منتصف الليل عندما غفا السائس المناوب . وظن السائس فى البداية ان وثاق الحصانين قد حل بالصدفة ، ولم ينتبه الا عندما رأى السرجين يختفيان مع الحصانين . وقفز خارجا ، ولكن بعد فوات الاوان . . .

وكان يجب مطاردة اللصوص ، فقفزنا على الخيول بلا سروج وانطلقنا فى جهات مختلفة للحاق بهم . ولا احد يعرف ماذا كنا سنفعل لو اننا لحقنا بهم . فاى لصوص يمكن ان يخافونا نحن الصبية ؟ . . بقينا حتى الفجر نجـــــوب المنخفضات والوهاد والمواضع الشتوية المهجورة ، ولم نعثر لهم على اثر . لقد كانوا لصوصا مهرة . وكنا متكدرين جدا . فقد اعددنا الخيول للحراثة وتركنا المدرسة من اجل ذلك ، ولكن كان هناك اشخاص لا يهتمون بشىء . . .

اننى احاول متعمدا ان اكتب عن ذلك كله باكبر قدر من الايجاز وضبط النفس ، لاننى لن اتمكن من التقيد باطر المقالة لو تحدثت بالتفصيل عن كل ما جرى فى قريتنا شكر

فى تلك السنوات . وسأحاول تصنيف الناس والاحداث بشكل ما . وبوسعى ان اتحدث عن اترابى من ابناء القرية الكثير مما يثير الانتباه ويستحق الاهتمام ، لاننا كنا جيلا من الاحداث الذين خطوا رأسا ، فى اليوم الثانى للحرب ، من عالم الطفولة الى معمعان الحياة الحربية ، الى واقع المؤخرة التى عانت الامرين وتطلبت منا نضوجا ورجولة لا علم للطفولة بهما .

وعندما افكر الآن فى اترابى آنذاك استنتج بان جيلى كان صلب العود ومتكاملا ربما بفضل ذلك الوضع العصيب . ولا يعنى هذا طبعا ان الظروف الراهنة للرفاه المادى لا تساعد كثيرا على تصلب عود الشباب . بالعكس . فلا يحول الخير الى شر الا المعتوه . ولكل زمن متطلباته من الانسان ، وله مشاكله وحاجاته ، ولذا فالحياة لا تنساق امامك بيسر اذا حملتها محمل الجد واذا تحليت بالجرأة والطموح ولم تبحث عن عيشة مطمئنة وادعة . فالانسان اذا كسب العيشة المطمئنة فقد طبيعته المتكاملة . واذا اردنا الحقيقة فان فرص تطور الشخصية المتوفرة الآن لم تكن تراودنا حتى فى الاحلام . ولكن ليس هذا بيت القصيد . كل ما اريد ان اقوله هو انه لم يكن بين اترابى فى سنوات الحرب شخص اشعر الآن بالخجل بسببه . كلا ، لم يكن بينهم احد من هذا النوع . وهم جميعا الآن اناس متزوجون ، ولديهم جميعا تقريبا ابناء كبار يمارس كل منهم عمله . ومن دواعى سرورى ان اقول بان طريق حياتهم هو طريق اشخاص يتحلون بالكرامة الانسانية العميقة . ولو اخذنا ايا منهم نجده موضع ثقة واحترام . فالاخوان تايساريف ــ «الحارثان» بايتيك وتايربيك ــ منذ تلك

الايام وحتى الآن شغيلان وشيوعيان يتمتعان بالاحترام فى القرية . بايتيك من زراع التبغ المشهورين فى الجمهورية ، مسؤول فرقة . وتايريبيك شخص لا يستغنى عن خدماته فى الزراعة وتربية الماشية على حد سواء . اما بايزبيك مومبيكوف فقد عمل ، كما اسلفت ، معلما ٣٣ عاما وتوفى قبل عامين . وقطع توكتوغول اوسوباليف الطريق من وظيفة العداد حتى رئيس الكولخوز . وهو الآن رئيس فى كولخوز باكاير المجاور . اما عبد الله نورعلييف المسؤول الكومسومولى السابق فهو الآن من نشطاء الكولخوزيين . ومنذ سنين طويلة يعمل توكتوغول مامبيتكولوف وفاطمة اوروزماتوفا فى تعليم الاطفال فى المدرسة . اما نورية جولوييفا واوروزغول اوسوباليفا فهما معلمتان ايضا فى منطقتين بعيدتين . ويعمل عليمسيد دوولبيكوف ممرضا بيطريا منذ سنين . ويعمل جباربيك دوساليف فى النجارة . ويرأس تورغونباى كازاكبايف واحدا من اكبر الكولخوزات القرغيزية . ففى كولخوز «روسيا» من الاغنام وحدها ٦٠ الف رأس . وتعمل ميرزاباى جولدوشيفا رئيسة محاسبين فى كولخوز كبير جدا ايضا فى ناحيتنا ، ناحية كيروفسكى . وغدا جبار ميديتبيكوف من ابرز فنانى مسرح نارين الدرامى . . .

تلك هى مصائرنا . انها مصائر صعبة وعسيرة جدا ، ولكنها ليست بدون هدف .

يقول الشاعر الكازاخى العظيم اباى ان الحياة كتحركات البحر ، يعقب صف من الامواج صفا آخر ، وتعقب موجة «الجيل السابق» موجة جديدة ، وتأتى خلفها موجة اخرى وهكذا الى ما لا نهاية . . . والبحر يحيا ويعيش . . .

وعندما افكر بسنوات الحرب يترسخ اعتقادى بان «الموجة

السابقة» ، الجيل الاقدم ، جيل الجبهويين ، قد لعب دون شك الدور الحاسم فى تكوين اخلاقياتنا . ويمكن الكلام عن ذلك كثيرا جدا . طبيعى ان كل الاجيال مترابطة ومتواصلة دوما . وفى الحياة السلمية تجرى هذه العملية فى سيرها الطبيعى ، فى تواصل الخبرات والتقاليد . اما فى زمن الحرب فقد تحرك كل شىء بسرعة كبيرة . فان قريتنا الهادئة شكر الرابضة وسط الجبال على سفح ماناس الخالد قد انجرفت فجأة فى تيار الاحداث العامة التى هزت العالم . رجالنا الذين جندوا للذود عن الوطن اندفعوا الى الجبهة ، وانداحت الينا موجات من النازحين . ووراء الجبال ، عن طريق محطة مايماك التى كانت تربطنا بالعالم الخارجى وعن طريق المدينة الاقرب الينا كانت القطارات تسير ليل نهار ذهابا وايابا ، الى الغرب والى الشرق . فهنا كان يدق نبض متوتر للبلد المكافح . . .

وكان مغنينا الشهير الشاعر ميرزاباى اوكويف من اوائل الذين ادركوا ذلك من خبرتهم الخاصة وحدثونا عن الحرب والجبهة وعن المناوشات مع الدبابات وعن انفجار القنابل وعن حرائق الغابات وعن الانسان فى القتال وعن المستشفيات والجراحين العسكريين ، عن الموت والبسالة . ولم يعد اوكويف على قيد الحياة من زمان ، لكن اغانيه محفوظة تنشد فى ارجاء ماناس حتى اليوم .

كان ميرزاباى اوكويف اول جبهوى جريح استقبلته قريتنا كلها بفرحة وارتباك شديد . فقد انزلوه من العربة على مرأى منا ودسوا العكاز تحت ابطيه . كان مبتور الرجل . ولم نكن قد شهدنا مثل ذلك اطلاقا . كان عندنا اشخاص بارجل عرجاء او معقوفة ، لكننا نحن الصبيان على الاقل لم نر شخصا

بترت رجله بالكامل من فوق الركبة . وانتابنا الفزع . . .

كان فى زمن ما معلما شابا وسيما يمتطى جوادا رماديا ، وكان جواده يسمى «حصان ميرزاباى» . كان ميرزاباى يحب الاغانى ويؤلفها بنفسه عازفا على الربابة . وها هو يصل مبتور الرجل شاحب الوجه بشكل غير معتاد بعد المستشفيات والقطارات . وقف متعكزا وسط ابناء القرية باسما باكيا مع الجميع .

فى تلك الامسية تجمع حشد كبير وانشد ميرزاباى اغانيه الجبهوية التى ألفها فى المستشفى . وكان ذلك حدثا كبيرا بالنسبة لنا ، نتذكره مدى العمر . كنا جميعا متأثرين باغانى ميرزاباى وحديثه الشعرى عن الحرب . استمع اليه الناس محبوسى الانفاس متذكرين اقرباءهم الذين توجهوا الى الجبهة ، استمعوا اليه وهم يكفكفون دموعهم . . . كان يغنى عن نفسه وعن رفاقه الجنود ، لكنه كان يغنى عن كل فرد منا ، عن الشعب بأسره .

ان الشعر الارتجالى غير المكتوب امر تتعذر ترجمته او نقل فحواه . ذلك لان روعة شعر المنشدين تتجلى فى لحظة الابداع ، فى تواقت التأليف والاداء . ومع ذلك احاول ان اترجم : «نحن ابناء الشعوب المختلفة — روسى وكازاخى واوزبكى وقرغيزى — صرنا فى الجيش اقرب الاقرباء . عندنا ام واحدة هى بلادنا التى ارضعتنا جميعا اللبن الابيض . فكيف يتحمل قلبنا ، يا فرسان ، ان تتعرض امنا لمصيبة ؟ اليست هى سندنا عندما نرتقى الجبل العالى ، اليست هى املنا عندما نهبط من الجبل العالى . فلنقسم مثلما اقسم الابطال اذا داهمنا الموت نرقد فى حقل واحد واذا حالفنا النصر نقف

على جبل واحد . هكذا كنا نقول لبعضنا البعض ونحن نقترب في الغابات من اماكن القتال ضد الفاشيين . وكانت الارض تميد تحت الاقدام كأن زلزالا عظيما هزها . وتساقطت القنابل من عل تطرد بزئيرها المفزع الارواح من الابدان وترفع الغبار الاسود الى عنان السماء . واشتبكنا في معركة قرب لينينغراد . . .» .

هكذا غنى لابناء قريته . وقد تأثرنا خصوصا لموقف من قصة ميرزاباى حيث كان قطار حربى قد غادر نوفوسيبيرسك متوجها الى الجبهة وغيّر اتجاهه على ما يبدو فوجد نفسه فجأةً على الخط الذى يمر بمحطتنا مايماك . عند الفجر مر القطار مسرعا دون ان يتوقف في محطتنا واجتاز النفق في شعب مايماك على امتداد سلسلة جبال طلس قرب جبل ماناس . وعند ذاك ، على ما يبدو ، ولدت الكلمات التى هزتنا في اغنية ميرزاباى وغدت من ذلك الحين انشودة لقريتنا . كانت تلك كلمات الوداع يخاطب بها الابن جبال الاتو :

بعيدا عن الانظار ظل الاتو
بثلوجه الزرقاء ومياهه الصافية
بعيدا عن الانظار ظل جبلنا ماناس
بقمته البيضاء كرأس أبينا
وداعا يا الاتو الثلجى الازرق
وداعا يا أبانا ماناس .
تمنَ لابنائك النصر على الاعداء
ساحتفظ بكما في حدقة العين
يا الاتو الثلجى الازرق الصافى
ويا ابانا ماناس ذا القمة البيضاء . . .

كم مرة انشدنا هذه الاغنية فيما بعد اثناء اللقاءات والافتراقات ؟ وما اكثر تلك اللقاءات والافتراقات . . .

في شتاء ذلك العام ودعنا الشبان الذين بلغوا الثامنة عشرة . وقبل حين كنا «نلعب» معا . فمع انهم اكبر منا قليلا ، لكنهم كانوا من اصدقائنا ورفاقنا الذين تعودنا عليهم . وها نحن نودعهم الى الجبهة . ومن بينهم صديقي وقريبي جومابای اورونبيكوف . كان فتيا تماما . تعلم في المدرسة ثم عمل في الكولخوز . وهذا كل شيء ، كل ما في تلك الحياة التي ضحى بها في ساحة الوغى . واتذكر انه كان اول من انشد تلك الاغنية عندما صعد الشبان الى العربة :

ساحتفظ بكما في حدقة العين
يا الاتو الثلجي الازرق الصافي
ويا ابانا ماناس ذا القمة البيضاء . . .

وتحركت بهم العربة في الشارع عبر القرية . وركض المودعون خلف العربة . ولم يبق الا ميرزاباي واقفا على عكازه ينصت الى اغنية وداع مسقط الرأس تتهادى من الطريق .

كان ميرزاباي اوكويف يحظى بالاحترام الكبير حقا والتقدير البالغ في قريتنا . وكان اوكويف على الدوام ، في افراح القرية واتراحها انسانا عزيزا محبوبا . فقد كان بالكلمة الحكيمة والاغنية يغرس الامل في افئدة الناس ويحملهم على الايمان بالنصر والنضال من اجله .

كان جميع اهالي قريتنا ، صغارا وكبارا ، يفتخرون به ويعرفون سيرة حياته الجبهوية . يعرفون اسماء الذين خدم معهم

فى الجبهة ، ويعرفون الكثير عن الضباط الذين كان تحت قيادتهم . فقد تحدث عن ذلك كله فى الملحمة التى انشدها عن الحرب . ويعرفون الملابسات التى جرح فيها كما يعرفون اسم الفتاة التى انقذته .

حدث ذلك فى ضواحى لينينغراد ، فى الغابات ، صيف او خريف ١٩٤١ على ما اعتقد . ففى احدى المعارك انفجرت قذيفة قربه . وهو يتذكر ان ركبته اصيبت . وعندما عاد الى رشده كانت المعركة لا تزال مستمرة ، وازيز الرصاص وهدير الانفجارات فى كل مكان . ظل راقدا ينزف دما ولا يستطيع التحرك . كان قد يئس من الحياة عندما زحفت الممرضة اليه . وهى فتاة روسية اسمها تانيا . كانت قريتنا كلها تعرفها وتعجب بها وتحبها . ومع الاسف اننا الآن لا نعرف عنها شيئا لان ميرزاباى لم يعد على قيد الحياة . لقد تمكنت من ان تضمده على عجل وتحمله من ساحة المعركة . وعنها بالذات انشدنا ميرزاباى قائلا :

ما اروع الام التى ولدت تلك الفتاة
لن تجد فى العالم كله اكثر منها طيبة . . .
تلك المرأة اصبحت اعز عليّ من امى
ما اروع الاب الذى ربى تلك الفتاة
لن تجد فى العالم كله اكثر منها شجاعة . . .
ذاك الرجل اصبح اعز عليّ من ابى

اذكر هذه الابيات طبعا فى ترجمة تقريبية بعيدة عن الاصل . وربما لا داعى لكتابة الشعر الشفوى المرتبط كليا بلحظة

الاداء الحى من قبل ناظمه بحضور المستمعين . فهذا الشعر يذوى على الورق كزهرة تجف بين طيات كتاب .

كان شبان شكر فيما بعد الحرب مدينين كثيرا للجبهويين من امثال ميرزاباى اوكويف . فقد تألم كثيرا لاننا اضطررنا ان نقطع دراستنا فى المدرسة . وفى عام ١٩٤٤ عندما انداحت الحرب صوب الغرب واخذ افراد جيش العمل والكثير من الجبهويين الجرحى يعودون الى الديار اخذ ميرزاباى يستعجلنا فى العودة الى المدرسة . وعاد بعضنا آنذاك الى رحلات الدراسة . وعندما وضعت الحرب اوزارها ارتحلت الى جامبول لادرس فى الثانوية البيطرية . واقول صراحة ان الوقت كان عصيبا للغاية وكانت المجاعة شديدة . ذات مرة نادانى احدهم فى الفرصة وقال : يبحث عنك شخص بعكاز . هرعت الى الباحة فرأيت ميرزاباى يبتسم ويمسد شاربيه . وشعرت بفرحة غامرة مثله .

— جئت الى جامبول لقضاء بعض الشؤون فقررت ان اعرج عليك لارى كيف تغترف من مناهل العلم .

وحدثته عن عيشتنا ودراستنا . فشعر بالارتياح .

— تعال نذهب الى الشارع — وتحرك على عكازه من الباحة — فقد جلبت لك شيئا ما فى العربة .

وتوجهنا صوب البوابة . فقال لى :

— اعرف ان اموركم هنا صعبة ، صعبة جدا الآن . ولكن لا تفكر بترك الدراسة . فليس لدينا الآن حق فى ذلك . الحرب انتهت . واذا ضاقت بك الدنيا خبرنا . وسنبحث مع اهالى القرية عن وسيلة ما . فادرس ولا تهتم . . .

كان الشيوعى القديم واول سائق للحاصدة الدارسة فى قريتنا تويلوباى اوسوباليبف زميل ميرزاباى اوكويف وصديقه ،

وكان بالنسبة لى ايضا مرشدا آنذاك . اما الآن فنحن نسميه الشيخ تويلوباى ، جد الاحفاد الكثيرين . ابنه ساطع تويلوبايف راعى القطيع المختار فى سوفخوز «كوك-ساى» . ولدى ساطع اولاد كثيرون . والاحفاد يكنون مشاعر الاحترام الجزيل لجدهم تويلوباى اوسوباليف . ولكننى فى عشية الذكرى الثلاثين للانتصار على الفاشية اريد ان اذكر اولئك الشباب ، زيادة فى الاحترام ، بان تويلوباى كان فى سنوات الحرب من القلة الذين لم يرسلوا الى الجبهة رغم طلباته المتكررة . فقد كان سائق الحاصدة الدارسة الوحيد لعدة كولخوزات . وقد غدا عمله فى الحاصدة اسطورة الآن . ولا احد يصدق بان ذلك كان ممكنا . فالآن لا احد يأخذ على عاتقه حتى تصليح مثل هذه الحاصدات . انهم يلقون بها فى المزابل وكفى . اما هو فقد غرس حياته فى انقاض هذه الماكنة وارغمها على العمل . . . وقد كتبت انا عن حاصدته فى قصة «جميلة» . ففى صيف ١٩٤٤ ، اثناء حملة الحصاد ، عملت معاونا له . وعندما كانت الحاصدة صالحة لم نكن نسمح لانفسنا بالراحة لا فى الليل ولا فى النهار . . . فالجبهة تستعجلنا ، والقمح يستعجلنا . . . كان ذلك هو الصيف الاكثر بطولة فى حياتى . ولن انسى تلك الايام مدى العمر . . .

وها هى الاغنية من جديد . العشب اخضوضر على جانبى الطريق ، والقطعان مع صغارها ترعى على السفوح والانجاد . والحقول تنبسط كالمرآة مفلوحة تارة ومزروعة تارة اخرى . . . وظلت خلفنا جامبول التى تنمو بشكل جامح وتتشبع بوتائر التمدن الحديثة بعد ان كانت مجرد موقف للقوافل . ومن هنا نقلت القطارات ابناء قريتى الى الجبهة ، والى هنا

الى محطة القطار نقلنا القمح ليرسل الى الجبهة . . . ولاحت امامنا ، تحت الغيوم ، ثلوج ماناس . . .

ذات مرة قال لى حسن بيكتورغانوف السكرتير الاول للجنة الحزبية فى محافظة جامبول والمرشد السياسى لسرية جنود الاسكي اثناء معركة موسكو الدفاعية ان كل جندى مكلف من قبل الشهداء من افراد فصيله بان يبنوا الحياة بحيث يتذكر الناس الشهداء باعتزاز وبنقاوة ضمير .

ويمكننا ان نقول الشيء ذاته عنا ، عن جند الشعب الذين لا عد لهم ولا حصر فى المؤخرة ابان الحرب .

فكرت فى ذلك وانا ، فى الطريق ، اتطلع الى ثلوج جبل ماناس اتا .

١٩٧٥

نتغنى بالصداقة والانسانية

في ربيع هذا العام بلغني خبر مفرح . فقد صدرت قصتي «جميلة» في فرنسا . وبناء على طلب هيئة تحرير «نوفيل دي موسكو» يتعين عليّ ان اتحدث عن نفسي بعدة سطور ، ولكني قبل ان ابدأ الحديث اريد ان انتهز هذه الفرصة لاعبر من جديد عن شكري الجزيل وامتناني لصديقنا الكبير لويس اراغون الذي هو من اكبر كتاب فرنسا المعاصرة والذي ترجم قصتي وقدم لها بتوطئة مؤثرة . وبودي ان اعبر كذلك عن شكري على الرسائل الرقيقة والكلمات الطيبة التي نشرتها في الصحف ايلزا تريوليه واندريه فيورمسير وغيرهما من الرفاق وابعث تحية اخوية الى الكتاب الفرنسيين .

لقد ترك صدور «جميلة» في فرنسا انطباعا كبيرا في نفوسنا في قرغيزيا . وهذا ما تشير اليه الكتابات في الصحف ورسائل القراء ، وصار يطلق على القصة نعت مازح «جميلة الفرنسية» . ان هذه الحقيقة التي قد تبدو صغيرة ساهمت بقسط في جو الصداقة والثقة وجعلت الفرنسيين رأسا اقرب الينا . وظهر لدينا باب للتعاون في ميدان الادب .

وبهذه المناسبة اريد ان اقول بضع كلمات ، وان كانت

معروفة للجميع ، عن الدور الذى يتعين على الادب ان يلعبه فى الحياة المعاصرة للشعوب السائرة على طريق التقارب والمناضلة فى سبيل السلام والتقدم . عندما ترجمت «جميلة» الى الفرنسية خيل اليّ ان ذلك صدفة سعيدة ، الا ان الكتابات التى تظهر فى الخارج وفى صحافتنا وكون «جميلة» تعد للطبع فى لغات اخرى قد جعلتنى اعتقد بان ذلك ليس مجرد صدفة . فالعالم اليوم — واعنى القوى الخيرة — يشعر بميل لا يقاوم الى التفاهم والى التبادل الثقافى . وهذه الحاجة الحياتية الملحة تزداد من يوم لآخر وتغدو سمة مشهودة لعصرنا .

فلكى نعيش فى ظل الصداقة والاحترام يجب ان نعرف بقدر اكبر وبشكل افضل كيف يعيش جارنا فى بيته ونطلع على طموحاته الروحية وآرائه الجمالية واخلاقياته وعاداته ونتبادل معه افضل المنجزات والخبرات . والكتب فى هذا المجال وسيلة جبارة .

لقد حمل ادبنا السوفييتى منذ خطواته الاولى الى اذهان الناس وافئدتهم نور النزعة الانسانية والخير والايمان بالانسان وتغنى بالجميل السامى فى الحياة بقوة جديدة وكان من اكثر انصار العدالة الاجتماعية حرصا وغيرة . وهذه الخاصية تكمن فى طبيعة خدمته للشعب بلا منازع . وبحكم هذه الخاصية بالذات حظى الادب السوفييتى ، من خلال افضل ممثليه ، بالاعتراف المستحق من اوساط القراء العالمية .

والآن تشق آدابنا القومية ايضا طريقها على الصعيد العالمى . ولم يظهر ادب الشعب القرغيزى الا بعد ثورة اكتوبر العظمى . ويمكننا ان نعلن باعتزاز ان افضل مؤلفات على توكومبايف وتوغيلباى صديقبيكوف وقاسم على باياليـنوف قد صدرت فى

بلدان عديدة وبلغات عديدة . ان الادب القرغيزى ينمو ويترعرع . ولدينا ما نتحدث عنه وما نعرضه على الشعوب الاخرى فى كتبنا .

ولا يندر ان يزور بلادنا صحفيون اجانب متحيزون فيصورون الحياة فى جمهوريات آسيا الوسطى بمظهر خاطئ متعمد ويحاولون تشويه افضل ما فى حياتنا . والانفع كثيرا لو تهيأت للقراء الاجانب فرص اكبر للاطلاع على مؤلفات كتاب آسيا الوسطى انفسهم . ويخيل اليّ ان القراء الغربيين سيبدون اهتماما لا جدال فيه بمؤلفات كتاب قرغيزيين مثل اوميتالييف ومالكوف وعبد المأمونوف وايراليف وبايتيميروف وبيشينالييف وغيرهم ممن تحظى كتبهم بشهرة واسعة عندنا .

فليطلع الناس فى هذه الكتب على روح شعبنا وقواه البناءة التى تمارس التحويل العظيم للارض . وليسمع الناس اغانى اصقاعنا الجبلية وسهوبنا ، اغانى الحرية والحب والفرحة والانتصارات فى بناء الحياة الجديدة .

ان الاهتمام المتبادل بالثقافة والفن اللذين يثيران «المشاعر الطيبة» فى افئدة الناس ويرسخان الصداقة والنزعة الانسانية سيؤتى أُكله بلا ريب .

وسأكون سعيدا جدا لو ان قراء «جميلة» وجدوا فيها صدى لهذه الافكار وأحبوا جميلة ودانيار اللذين يعتبران السعادة هى العيش والعمل فى ارضهما وحب تلك الارض كما يحبان بعضهما البعض .

غالبا ما يسألوننى من اين استقيت صورة جميلة ودانيار . يصعب الجواب بالتحديد على هذا السؤال . لقد اخذت عن الناس الواقعيين الاحياء الذين عشت وعملت معهم فى الكولخوز،

وهم بالنسبة لى موجودون فى الحياة نفسها ، وانا التقى بهم يوميا .

وعلى مرأى منا يترعرع اناس جدد مثل جميلة ودانيار . . . انهم اناس رائعون بودى ان اكرس لهم افضل الصفحات واكثرها اشراقا .

١٩٥٩

عليكم تتوقف امور كثيرة

رسالة مفتوحة الى تلاميذ في جمهورية المانيا الديمقراطية

اعزائى الفتيات والفتيان ، استلمت منكم ٢٢ رسالة دفعة واحدة ، وسررت لذلك مع اننى ، كما تحدسون بانفسكم ، شعرت ببعض القلق . فالرد على كل هذه الرسائل ليس بالامر الهين . ولذا اكتب رسالة واحدة لكم جميعا .

يفرحنى طبعا ان قصة «عين الجمل» * قد ادرجت ضمن المنهج التدريسى للمدارس الالمانية ، يفرحنى انها ستساعدكم بقدر ما فى الاطلاع على حياة الشعب القرغيزى ويفرحنى ان اسمع منكم كلمات طيبة . ولكن اكثر ما يعز عليّ هو اقوالكم عن انفسكم وعن الحياة وعما «نفكر فيه ونريده» على حد تعبيركم فى رسائلكم .

حقا ، فما الذى «نفكر فيه ونريده» ؟ كل جيل جديد يجتاز عتبة الحياة ومعه هذا السؤال الابدى .

ان كلا منكم ، على قدر فهمى ، يجد شيئا ما ممتعا بخاصة بالنسبة له فى الواقع المحيط به ، وهو مستعد لتكريس قواه وقابلياته للصعيد الذى يختاره .

---

* فرغ ايتماتوف من كتابتها فى عام ١٩٥٦ . — **المترجم** .

اثنتان وعشرون شخصية ، اثنتان وعشرون طبيعة ، اثنان وعشرون رأيا مستقلا بخصوص اهم ما يمكن ابداؤه لخير المجتمع وما يشكل سعادة الانسان ، وما يعنيه ، مثلا ، مفهوم الحياة الجميلة (ارتداء الثياب الجميلة وغرس الزهور والبستنة وحب الطبيعة وممارسة الرياضة والاهتمام بالنحافة وهلمجرا) — لن تمكنني من تأييد رأى دون الموافقة على الآراء الاخرى . والمهم ان كل تلك الطموحات طبيعية . ويبدو ان كلا منكم محق بطريقته الخاصة . وهذه الاختلافات بمجملها تعبر عن تنوع جوانب المتطلبات العصرية للانسان .

الا ان فى الرسائل اقوالا اثرت فيّ اعمق التأثير واريد ان أؤيدها بالكامل .

فانتم تقولون : «اننا الآن فى نفس العمر الذى كنت فيه عندما هجمت المانيا الهتلرية على وطنكم السوفييتى» . نعم ، هذا صحيح . فقد كنت آنذاك اتعلم فى المدرسة . ولعل من الصعب عليكم الآن ان تتصوروا مدى الفناء الذى عادت به تلك الحرب المدمرة ومدى الجهود والتضحيات التى تكبدها الشعب السوفييتى لدحر النظام الفاشى فى المانيا . لقد كان حقدنا على العدو عظيما لدرجة اننا كل تلاميذ الصف ، بسبب سذاجتنا الطفولية قد رفضنا دراسة اللغة الالمانية . فهل كان بوسعى ان اتصور باننى بعد سنين عديدة استلم رسالة من الشبيبة الالمانية فيها الكلمات التالية : «نحن نشكر بلادكم على الحرية والسلام . . .» .

ان هذا فى منتهى الاهمية بالنسبة لكم ولنا على حد سواء . وبذلك يكمن الآن مغزى النضال العظيم فى مصير البشرية ، ذلك النضال الذى حمل للعالم السلام والحرية

والسعادة للشعوب . ان آباءنا واخواننا المنتصرين قد بذلوا قصارى جهدهم من اجل ذلك . وقد مر ربع قرن على ذلك ، واجتازت اجيال جديدة عتبة الحياة . وقد جاء دوركم ، حيث تتوقف امور كثيرة على نمط تفكيركم ونمط افعالكم كما على نمط تفكير وافعال اترابكم فى البلدان الاخرى .

وعندما قرأت رسائلكم تصورت بوضوح الملامح الجديدة لالمانيا ، المانيا الاشتراكية . وعندما قرأت رسائلكم وجدت نفسى افكر بانه لا وجود لقوة تفك عرى صداقتنا ، عرى التحالف الاشتراكى . وانا افكر بالصعوبات التى تواجهها الشعوب على طريق السلام والوفاق ، وبالتضحيات التى تكبدناها من اجل ذلك (تقول ايديلتراود فى رسالتها : «عندما سقط ابى من السطح فهمت قيمة الأب وفهمت اولئك اليتامى الذين حرموا من الآباء . . .» . فى حين ان ألم الفقدان والضياع اعتصر قلوبنا ملايين المرات . . .) . ولذا فان من واجب كل انسان نزيه ان يحرص على مكتسباتنا فى طريق السلام وعلى صداقتنا وتمسكنا بافكار الاشتراكية مثلما يحرص على حياته الشخصية .

اننى اتفهم قلقكم بخصوص الاحداث الدموية المستمرة منذ سنين فى الفيتنام بفعل العسكريين الاميركان . ان نفوسكم طاهرة ولذا تتألمون بشدة لكل اجرامية ولاانسانية ابادة السكان المسالمين الذين يذودون ببطولة عن حرية وطنهم . وقد رسمتم خطا بالحبر الاحمر تحت الكتابة باللغة الروسية : «انهوا الحرب فى الفييتنام» . وهذا هو نداؤنا المشترك الى ضمير وعقل البشرية ، وهو مطلبنا من المعتدين الاميركان .

كتب مانفريد يقول انه زار الفيتنام فى عام ١٩٥٨ مع

ابيه الذى كان يعمل فى بناء السفن هناك . وقد قصفت احواض بناء السفن ودمرت بالقنابل الآن . وهو يتساءل بحق : «الا يحتاج ترميم الاحواض وتصليح السفن الى وقت طويل ؟» .

حبذا لو اقتصر الامر على الاحواض والسفن . فان شرور القوات الاميركية فى الفييتنام ليس لها ما يماثلها فى التاريخ المعاصر . انها تقف فى صف واحد مع الجرائم الفاشية بحق البشرية ، تلك الجرائم التى وقعت عليها اللعنة الى الابد . ان نهاية كل من الشرور فى العالم لا بد وان تحل آجلا ام عاجلا . وستحل نهاية الحرب الاميركية فى الفييتنام . والضمانة الكفيلة بذلك هى ارادة الشعب الفييتنامى غير الهياب والتضامن والمساعدة بلا كلل للفييتنام من جانب كل البلدان وكل الناس المتعطشين الى العدالة والاستقرار فى الارض .

يا اصدقائى . اننا نعيش فى زمن معقد ، زمن الصراع المتوتر بين قوى التدمير وقوى بناء الجديد . ومما يساعد على انتصار القوى التقدمية ، اضافة الى كل العوامل الاخرى ، ذلك الحماس الروحى النبيل الذى تلمسته فى رسائلكم . فقووا هذا الحماس فى نفوسكم .

تلك هى الافكار التى خطرت على بالى بفعل رسائلكم ، وشعرت بحاجة لاعرضها عليكم فى رسالة مفتوحة .

فالى اللقاء . اما بخصوص مجيئى اليكم ففى اول فرصة اصل فيها الى جمهورية المانيا الديمقراطية ساحاول ان ازوركم فى مدرستكم . تحياتى الحارة الى معلم الادب عندكم .

١٩٦٨

حوار مع الناقد
فكتور ليفتشينكو

ف . ل . ـــ مر اكثر من ثلاثين عاما على انتهاء الحرب العالمية الثانية ، فى حين تعج مؤلفات الكتاب المعاصرين بصخب المعارك الحربية ودوى المدافع بلا انقطاع . وقصتك الاخيرة «الكراكي المبكرة» مكرسة للحرب ايضا . فلماذا عدت الى هذا الموضوع ؟ هل كان اختيارك له متأثرا بقضايا العصر ؟

ج . أ . ـــ حقا ، القارئ المعاصر غالبا ما يجد امامه نتاجات روائية ووثائقية وتاريخية عن الحرب ، وهو ، فضلا عن ذلك يتفرج على التلفزيون ويتردد على المسرح . ان نصيب موضوع الحرب فى الفن المعاصر كبير جدا . بديهى ان الانسان لا يعيش فقط على ذكريات الحرب . ولكن طالما لم تصل البشرية بعد الى التفكير **الكواكبى** الشامل ، وطالما لا يفكر كل شخص بغيره بعد كما يفكر بنفسه ولا يريد ان يلتفت الى ان الآخر ايضا يخشى الموت ويتألم ويعانى ويحب الحياة ايضا مثلما يحبها هو ، وطالما لا تزال التناقضات والقوى المتعارضة فى تطور المجتمع العالمى موجودة تهدد بالحلول من خلال الاحداث الحربية ، يظل موضوع الحرب واحدا من اكثر المواضيع حيوية وجاذبية بتجربته المرعبة ، ولعلى اقول واحدا

من اكثر مواضيع الوقاية قوة (اذا كان النتاج مكتوبا بالطبع من موقف انسانى) .

ان خطر الحرب لا يزال قائما .

اذا تناولنا هذا المؤلف الصغير بمثل هذه المقدمة فيمكن فعلا وضعه فى صف المؤلفات الخاصة بموضوع **الانسان والحرب** . وواضح ان بالامكان دراسة هذا الموضوع من مختلف الجوانب والوجوه : الانسان فى الجبهة ، وفى المؤخرة ، وفى مؤخرة العدو وفى فصيل الانصار . ومن المواضيع الشائعة بخاصة فى الآونة الاخيرة جهود الاستطلاعى بين الاعداء .

اما انا فقد اردت فى **قصتى** ان اعرض الانسان ليس فى مواجهة **مباشرة** مع الحرب ، فقد كتب الكثير عن ذلك قبلى ، بل فى مواجهة **غير مباشرة** ، مثلما فى «ارض الام» * . فقد اندلعت الحرب فى مكان بعيد ، الا انها مست مصير تولغوناى فى حقل القمح .

ف . ل . — بالمناسبة ، ففى «جميلة» ** تلك القصة الخاصة بالحب نحس بالحرب بكل حدة : «توجه الرجال الى الجبهة ولم يخلفوا سوى دروب مريرة . . .» .

ونجد الحرب «قائمة» فعلا فى قصة «وجها لوجه» *** . فنحن لا نعرف بعد عم يدور الحديث ، وما ان نقرأ العبارات الاولى التى تفيد بان اشجار الحور المستقيمة كالحراب اخذت تنزع اوراقها حتى يستولى علينا القلق .

---

* كتبت فى عام ١٩٦٣ — **المترجم** .

** كتبت فى عام ١٩٥٨ — **المترجم** .

*** صدرت فى عام ١٩٦٠ — **المترجم** .

ج . أ . — عندنا تشبيه شائع يقول مستقيم كالحربة ، ولم ابتدعه بنفسي . وربما يثير ذلك تداعيا معينا ، الا ان ما حصل حصل بالصدفة ، بدون اية حسابات او نوايا مسبقة . ولكن لا اهمية لذلك . ففي «جميلة» وفي الكثير من مؤلفاتي الاخرى نجد للحرب حضورا بالفعل . واعتقد ان هذا الموقف الآن هو الاكثر خصبا واهمية بالنسبة للادب العالمي كله ، لكي نتمكن بعد كل تلك السنين من استيعاب خبرة الحياة البشرية بالذات من هذه الناحية (غير السافرة ان صح القول) . فالمعارك موجودة طبعا ، وستظل دوما في المقدمة . ولكن هناك الكثير من الجوانب والوجوه كما اسلفت .

وساحاول توضيح الجانب الذي يخصني . كانت لدى رغبة لاشعورية ، ان لم تكن متعمدة ، للتحدث عن الانسان المراهق وكيفية مواجهته للحرب . انه جزء من المجتمع ، ولذا يقع عليه هو ايضا عبء معين . هذا اولا ، وثانيا — كانت نصب عيني مهمة اوسع هي ان ابين بان مفعول الحرب مهما كان تدميريا لا يستطيع ان يدمر الانسان . الحرب تغير عادات الناس ونمط حياتهم والعلاقات بينهم وتعود عليهم بالحرمان المادي . والحرب تجعل قلوب الناس جاسئة قاسية . ويمكن ان تجعلهم يصارعون من اجل انفسهم فقط . واذا ظهر مثل هذا الموقف فان قوى القسوة ترتدي اسوأ لباس . ولكن الروح الانسانية تزدهر آنذاك بالذات ، كأنما خلافا لطبيعة الحرب وكأنها تتحدى قوتها التدميرية . فهي تدفع بافضل قواها الدفاعية لتصد الشرور . . .

وبالمناسبة فان قضية القسوة تحتل الآن في الفنون الاجنبية (وخصوصا السينما والمسرح) واحدة من المراتب

الاساسية وهى من المقولات الاكثر انتشارا . فالفن الرخيص يحاول ان يغازل غرائزنا بتجسيد القساوة البدنية — القتل والتعذيب والدماء . . . فهذا يستثير المشاعر دوما ويثير الفزع ، وهو اسلوب مجرب للتأثير فى نفوس الناس ومحاولة لجعل الفن وسيلة للتنويم والايهام . وليس الادب المبتذل هو وحده الذى يغازل الغرائز . فالكتاب الكبار ايضا يصورون القسوة ، ولكن ليس بالمعنى البدنى ، بل بمعنى اكثر تعقيدا ، انهم يصورون القسوة النابعة من حوافز الانسان الداخلية ومن قوانين الوسط الاجتماعى ومن نفسية الفرد ، حتى ظهرت نظريات تحاول تبرير الشر الذى تكاد تعتبره وراثيا فى الطبيعة البشرية .

ولكننى اعتقد ان الفن يجب ان ينطلق من الحياة الانسانية الطبيعية . انا انادى بالفن الطبيعى ، وليس بفن البلطجية والهوس . فالشىء الرائع فى الانسان هو **مدى** انسانيته . وانا احاول ان اعرض ذلك .

كان بوسعى ان اصور بطل قصتى سلطان مراد على نحو آخر ، حيث ابين بالوان زاهية كيف يسعى الى احقاق العدل عن طريق العنف مثلما ينتقم من لصوص الخيل او بالعكس كيف يتعرض هو للعنف . ولكننى كنت اتوخى شيئا آخر ، كنت اريد ان اكشف عن الخصال التى تتجلى فيها ماهية الانسان الطبيعية الحقيقية . وتلك مهمة اصعب . فـــان عرض صراع الخير مع الشر فى هذه الحياة ليس بالامــر اليسير .

ف . ل . — ربما ليس لزاما تحاشى عرض القساوة فى مؤلفات الكاتب الذى يكافح القساوة .

ج . أ . — هذا صحيح اذا استثنينا القساوة الجارية بالقوة

البدنية . ففى الحياة العادية آلاف من مظاهر القسوة . وتحتاج رؤية هذه المظاهر الى بسالة ومهارة . فالانسان ، مثلا ، يمكن ان يكون سويا تماما لكن روحه فى اعماقها تنطوى على القساوة . فكيف يتصرف فى المواقف الحرجة ؟ وما الذى ينتصر فى دخيلته ، اهو الخير ام الشر ؟ وهل هو شرير ام طيب ؟ وهل الطيبة فيه وقتية ؟ هذه القساوة الخفية المحتملة تثير اهتمامى اكثر من العراك والقتل . مع اننى ، واكرر هنا ، لا ادرسها بالذات . اننى احاول ان اكشف فى الانسان عن احتياطى القوى **الانسانية** التى تكافح الشر .

اما الآن فاريد ان اتحدث بشىء من التفصيل عما اذا كان اختيارى مرهونا بقضايا العصر ام لا . نعم ، بالطبع . فحتى فى الظروف السلمية تواجه البشرية القساوة مع انها تتجلى ليس فى المعارك الرهيبة ، بل فى الامور المعيشية السلمية . وكلما كان المجتمع اغنى واكثر شبعا يزداد اختبار طبيعة الناس بالشبع والرفاه . فعندما يفتقد الناس مغزى وفرة الخيرات غالبا ما تثير فيهم تلك الوفرة الغضب والقساوة . وهذا واضح على الخصوص فى المجتمع الغربى . وعندنا ايضا ، مع الاسف ، غير قليل من حالات قساوة الناس ، وتأليه الحاجيات .

تجولت اليوم فى ضواحى المدينة ورأيت على حافة الطريق سيارتين جميلتين جديدتين من طراز «جيغولى» ، يتخطر امامهما عدة شبان بمظهر الاستعلاء لا بل التحدى (وكأنهم يريدون ان تلتقط لهم صورة تذكارية) . فهم يرتدون ثيابا على الموضة ويدخنون نافثين الدخان فى الجو ويتطلعون الى السابلة بنظرة تكاد تكون مليئة بالاحتقار . وفكرت : ليتهم لا يتباهون بسياراتهم قائلين : «قطعت كذا كيلومترا . . . نصبت فى سيارتى

كذا وكذا . . .» . ليتهم لا يتباهون بامتلاكهم السيارات ولا يتصورون بان امتلاكها يميزهم عن سائر الناس . فذلك جيد . اما اذا كانوا لا يتحلون باهتمامات جوهرية اخرى وليسوا سوى توابع لسياراتهم فذلك امر سيئ يدعو الى الاسف ويثير الشفقة . انهم يقفون بكبرياء : «انظروا نحن محظوظون ، ما اسعدنا . عفارم علينا» . ولو كانوا يهتمون بامور اخرى ، ولو كانت تربط بينهم معلومات متبادلة تغنيهم روحيا ، ولو كانت افواههم وعيونهم غير مملوءة بالسمن — كما يقول المثل الشائع عندنا — لما كان في مشهد السيارتين الذى رأيته صباح اليوم ما يثير البال طبعا .

ف . ل . — هناك بلا ريب صلة غير بسيطة ومتعددة الجوانب بين التقشف والغنى الروحى . وذلك يزيد فى اهمية امتحان الشبع بالنسبة للانسان ، مع ان جوهر القضية بالطبع لا يكمن فى السيارة ، بل فى الموقف منها .

ج . أ . — ينبغى ان يكون الموقف من السيارة كالموقف من زر المعطف . ولا بد من ان نفهم ان السيارة ليست هى الغرض من وجود الانسان على وجه البسيطة .

الرخاء الذى يساعد على تنشئة الناس كشخصيات للمجتمع **الاشتراكى** هو الهدف الذى نعمل من اجله . ولكن اذا كان الانسان يعتبر الخيرات المادية هدفا لوجوده ، واذا كان غير محمى ومعصوم من الاشياء فان ذلك يغدو سببا للفساد ، والانسان فى هذه الحالة يفقد ماهيته .

ولذا اردت ان اتحدث فى «الكراكى المبكرة» (طبعا للقراء الذين تعجبهم القصة) عن الخصال **الروحية** التى تبقى رائعة دوما ، وخصوصا فى الازمان العصيبة .

ف . ل . — والتى يمكن ان تجعل الانسان سعيدا حقا حتى فى الازمان العصيبة ؟

ج . أ . — ينبغى فهم تلك السعادة . اعتقد انه كانت هناك لحظات من السعادة البشرية فى الجبهات التى واجه فيها الناس الموت . فالمقاتلون كانوا يحتلون الربايا التى لا تحمل مسميات ولكنهم كانوا فى الوقت ذاته يرتقون ذرى الروح البشرية .

ف . ل . — عندما نقول ان «الكراكى المبكرة» مكرسة للحرب نقول ذلك اصطلاحا . وربما الاصح ان نقول بانها تعكس انطباعات شبابك فى سنوات الحرب . ولما كانت انطباعات الطفولة والشباب ذات اهمية بالغة بالنسبة للابداع بودى ان أسألك بهذا الخصوص : اليست هى التى تجعلك الآن ايضا ، وبعد ان زرت نصف الدنيا تقريبا ، تبقى روحا وقلبا فى مسقط رأسك شكر وتكتب عما عانيته بنفسك فى زمن ما ؟

ج . أ . — انطباعات الطفولة والشباب ذات اهمية بالغة فعلا فى الحياة الابداعية للكاتب . فهى النبع المقدس او البئر التى يستقى منها دوما الافكار والصور والوجوه . الطفولة والفتوة عهد يجعل المرء ميالا الى استيعاب جمال الكـــون وتصويره .

ف . ل . — نظم الشاعر التركى فاضل حسنى داغلارج قصيدة رائعة على ما اعتقد فى هذا الموضوع . وهى قصيدة «المنزل المفتوح» :

الاطفال
منزل

ابوابه مفتوحة دوما
تدخله الابل
والقطط
والسحب والطيور .
مدن كاملة
تدخل هذا المنزل المفتوح .

ج . أ . — اعرف هذه القصيدة وناظمها ، ويسرني جدا انك تذكرته . فانا في علاقة طيبة معه . واذا عدنا الى موضوعنا يمكننا ان نقول بحق ان مدنا كاملة تدخل باب الطفولة . ففيما بعد تظهر صعوبات كبيرة حيث لا وقت للتمتع بجمال الطبيعة ويندر ان تجد لحظات من الاطمئنان النفسي التام . وفي الطفولة يبقى للانسان وقت كثير ليختلي بنفسه ، ولديه فرص اكبر للمشاعر والاحاسيس .

ف . ل . — عندما قرأت «الكراكي المبكرة» و«السفينة البيضاء» و«جميلة» غالبا ما كنت اجد نفسي افكر بان الكثير من التفاصيل في هذه القصص والكثير من خصائص الحياة المعيشية المؤثرة ، لا بل ليس الحياة المعيشية وحدها ، لا يمكن ابتداعه او ابتكاره ، فانت في اغلب الظن استقيته من «نبعك المقدس» .

ج . أ . — مثلا ، صخرة «السرج» التي كنت امتطيها واتصور نفسي سابحا عبر. نهر كوركوريو الشديد الجريان لا تزال قائمة حتى الآن في مكانها . بديهي ان الخيال الطفولي قد اضاف لمسات الى لوحات الواقع ، لكنني استخدمتها فيما بعد بشكلها الموشى بتلك اللمسات . ولعل الكثير من التفاصيل

الاخرى مأخوذ من هناك ، من عالم الطفولة .

وبالمناسبة فقد كتب الكثير عن اهمية سنوات الطفولة بالنسبة للكاتب ، ولن نجيء بجديد فى هذا المجال . فانطباعات الطفولة تبقى مدى العمر . ولقد زرت بلدانا غريبة كنت احلم بزيارتها فى الطفولة ـــ زرت افريقيا والهند وبذلت جهدى لارى وافهم اكثر ما يمكن . ولكننى الآن عندما احاول ان اتحدث عما رأيته اجهد الذاكرة وارسم الصورة مجددا . طبيعى ان هذه الصور الغريبة التى رأيتها فى سن النضج يمكن ان تصبح هى الاخرى عزيزة علىّ ، ولكنها كان يجب ان تحيط بى من الطفولة . يجب ان تكون وطنا .

والآن حالما اسمع كلمة «الوطن» يظهر فى وعيى بصورة لاارادية وطن طفولتى . يظهر هذا الوطن عفو الخاطر رأسا . وبعد ذلك اتصور ، ذهنيا على الاكثر ، وطننا كله ، من البلطيق حتى كامتشاتكا ، واتصور كل اراضى الاتحاد السوفييتى . اننى لا امل ابدا من وطن طفولتى ، وانا اتذكره دوما عفو الخاطر دون ان ابذل جهدا .

ف . ل . ـــ ربما يتسم بأهمية بالغة بالنسبة لك ككاتب ان وطن طفولتك هو قرية شكر وليس مدينة تقيد حياة الطفل وتخضعها اكثر لمتطلبات الكبار ؟

ج . أ . ـــ كتبت فى «الجريدة الادبية» مرة ان ابنى لا يفرق بين بيضة العقعق وبيضة العصفور . ومع ان حياة المدينة تعطى المزيد من حيث التطور **الذهنى** فان اهاليها فقراء من بعض النواحى . انهم يعرفون العالم المعقد ، لكنهم مع ذلك لا يعرفونه بالكامل .

فالطبيعة والاعشاب والغابات والجبال والطيور والحيوانات

تظل بعيدة عنهم فى المرحلة التى يكون الانسان فيها شديد التأثر بالعالم . وفيما بعد لا يندر ان ينمو الانسان حاملا اللامبالاة ازاء الطبيعة .

ف . ل . — ويدعونه الى حماية الطبيعة والحرص عليها .

ج . أ . — ليس هذا ما اعنيه (مع ان حماية الطبيعة لم تكن قائمة فى زماننا كمشكلة) . اننى لا اتحدث هنا عن حماية الطبيعة ، بل عن ضرورة تعلم **استيعاب وفهم** كل ظاهرة من ظواهر الطبيعة والتمتع بها . مع انه فى زماننا ايضا عندما كنا نقتل الطيور كانوا يقولون لنا : «حرام» . وقد انغرزت هذه الكلمة فى الاذهان ، ليس لان ذلك حرام من وجهة نظر المتدينين ، بل لان قتل الطيور شيء **لااخلاقى** . .

وهكذا لدى كل انسان عالم طفولة خاص به . وهو بالنسبة لى قرية شكر وضواحيها والجبال ونهر كوركوريو الذى نضب واختفى مع الاسف . وهذا يؤلمنى جدا .

ذات مرة تجادلت مع رفيق . ولا ادرى من المحق . انا اعتقد ان الانهار يجب ان تجرى بصورة طبيعية فى مجاريها الخاصة ، بينما يعتقد رفيقى ان الانهار ، مثل البشر ، يمكن ان توجه حسب الاوامر . فاين هى الحدود الفاصلة ؟

يوجد مصطلح «تفريغ» النهر ، اى حرمانه من المياه كليا بعد توجيهها الى اماكن اخرى لاغراض اقتصادية . اعتقد ان الانسان فى هذه الحالة يتجاوز الحدود الطبيعية المسموح بها ، فى حين يقول جليسى انه يحق للانسان ان يتحكم بالنهر على هذه الصورة ايضا .

ف . ل . — من الغريب انه صار من المخجل فى عصرنا القول بان الانسان كان دوما يتكيف للطبيعة ويجب

عليه ان يتكيف للبيئة المحيطة . طبيعى ان الصيغة الاجمل هى ان يخضع الانسان الطبيعة . الا ان تلك الانتصارات تنقلب الى هزائم احيانا .

حدثنى بعض متسلقى الجبال من معارفى انهم ذات مرة تفقدوا جليد جبال تيان شان ليدرسوه من حيث امكان تذويبه . يمكن تغطية الجليد بطبقة ما من مادة قاتمة تجتذب اشعة الشمس فيذوب الجليد وينساب الماء غزيرا الى الوديـــــان والانهار . . . ولا احد يدرى الى م سيؤدى ذلك . فنحن نغير الطقس ونخل بالتوازن فى الطبيعة ، اننا ننشر التعسف فى الطبيعة .

ج . أ . ـــ اجل ، تلك قضية معقدة . وانا اشعر بالخوف من هذه النزعة النفعية . بفضل المياه نمتلك قطنا وبنجرا وبطاطس وقمحا وتبغا ، لكننا نجازف بتضييع الانهار والاعشاب والثروات الطبيعية الاخرى ، وهذا ليس افضل ما نستطيع القيام به على الارض . يجب التفكير الآن بكيفية الحفاظ عليها . فالنهر هو الجمال بعينه . ولا يجوز تحويله الى روث . يجب البحث عن طرق اخرى واستخدام الطبيعة باساليب متنوعة .

وتثير قلقى ايضا تبدلات اخرى . فقد تغيرت شكر وسادها العمران . ازداد عدد المنازل وجدد بعضها . والمنازل الآن ذات ارضية خشبية وهى مزودة بافران التدفئة . وفى قريتى اليوم كهرباء واجهزة تلفزيون وسيارات . وهذا على العموم شىء جيد ، ولكنه لم يتم بدون خسائر . فقد تقلصت الاريحية والمشاطرة والتضامن فى نفوس الناس . ونحن الآن نفهم التضامن بمعناه السياسى ، بينما اعنى انا النخوة العائلية القروية .

الجديد يسرنى طبعا ، لكن فيه جوانب تثير الاسف .

ومن الامور الجيدة طبعا ان ابناء قريتى صاروا متعلمين يتقنون التكنيك ، ولكننى متألم ، اولا ، لانهم ينسون التقاليد الشعبية الطيبة ، وثانيا ، لانهم لا يعتزون دوما بثقافتهم الروحية الاصيلة .

ولقد صادفت فى حياتى اناسا اميين لكنهم يتمسكون بالمبادئ الانسانية الى اقصى حد . وهذا هو الاهم . ولذا اعتمد فى عملى على اولئك الذين اعرفهم واتذكرهم ، اولئك الذين تركوا فى ذاكرتى صورة انسان يتحلى بطبيعة متميزة ويتمسك بالمبادئ الاخلاقية الرفيعة .

ان القرية القرغيزية الكبيرة هى المأوى الابداعى بالنسبة لى . والكثير من الحبكات والشخوص والصور استقيتها من حياة هؤلاء الناس . ولذا فان قريتى شكر بشكلها السابق قد ادرجت ضمن الطائفة الروحية للقضايا العصرية ، وهذا لا بد وان يثير الفرحة ، مع ان هناك ، كما اسلفت ، شعورا خفيا بالحزن على ما كان وما ظل .

الا اننى مهتم بقريتى بشكلها العصرى ايضا .

ف . ل . — هل تزور شكر كثيرا ؟

ج . أ . — مرتين او ثلاثا فى العام .

ف . ل . — وهل تقدم لك انطباعات هذه الرحلات مادة للكتابة ؟

ج . أ . — لم اكن افكر ولا افكر فى الكتابة مباشرة عن شكر ، لان الفن يجب ان **يحول** المادة ويهضمها دوما . وعندذاك فقط يكون فنا .

ف . ل . — لا اقصد مادة لتأليف كتاب بالمعنى المباشر للكلمة فقط ، بل وبالمعنى المجازى ايضا — لرسم ابعاد زمانية

تاريخية . لتكون هناك نقطة انطلاق .

ج . **أ** . — اعتقد بانه يجب ان تكون لدى كل كاتب نقطة انطلاق خاصة به ، **نقطة التقاء** بالارض . وطبيعى ان الخبرة يجب ان تكمن فى التركيب ، فى الاجمال : حياة المدينة والرحلات وكثير غيرها . واذا تكلمنا بلغة المحاسبين يمكن القول بان شكر هى رأسمالى **الاساسى** ، اما «الكثير غيرها» فهو اموال مستحصلة اضافيا . ومن المحتمل ان تكون هذه الاموال بمر الزمن هى الاساسية فى نتاجى .

ف . ل . — كل شيء محتمل طبعا . ولكنك الآن ايضا عندما تصور قريتك شكر توفق دون شك فى طرح قضايا انسانية عامة فضلا عن القضايا «المحلية» . ويكفى ان نتذكر مدى اعجاب لويس اراغون الذى ترجم قصتك «جميلة» الى الفرنسية ونعتها بانها اروع قصة فى العالم عن الحب . ثم ان مؤلفاتك الاخرى قوبلت باهتمام كبير ليس فى بلادنا فحسب ، بل فى الخارج ايضا . «فالجسر» الذى يربط شكر بالعالم كله متين تماما . فهل كنت تتصور ذلك عندما الفت «جميلة» ؟

ج . **أ** . — هل كنت اتصور ؟ انا واثق دوما من ان «قضايا شكر» يجب ان تمر من خلال روح الكاتب ، والا فلن تكون انسانية عامة . وفى كل حالة معينة **توجد** قضايا يمكن ان تفسر بالمعنى **الانسانى العام** .

واليكم مثالا يعرفه الجميع . فلولا دوستويفسكى بعقله الجبار وحرصه على الانسان ومؤاساته له وتألمه عليه لما ارتفعت «الجريمة والعقاب» الى اعلى من مستوى حادثة جريمة جنائية . لقد اضفى دوستويفسكى على الاحداث **الجنائية** مغزى **فلسفيا** عميقا . وعندما يبرر راسكولنيكوف نيته ، ويفكر بانه لا يزال

شابا وانه سيقدم للبشرية نفعا اكثر مما تقدمه المرابية التى لا حاجة لاحد بها ، تظهر قضية العنف والانانية .

ف . ل . — ان القضايا الجزئية الخاصة تكتسب شمولية وشاعرية وصبغة فلسفية طبعا بفضل عقل الفنان وموهبته . وبقلم علم من اعلام الادب تغدو قرية ما موضعا تحل فيه اعقد القضايا الشاملة ذات الاهمية الانسانية العامة .

ج . أ . — وحتى لو طرح الكاتب قضايا ليست شمولية كما فعل دوستويفسكى ، لكنه يترك فيها شيئا من روحه ، فانها يمكن ان تغدو شمولية ايضا .

ف . ل . — ومع ذلك ربما يعتبر «جسرا» اضافيا لك ما يسميه النقاد اصطلاحا بالاساطير . فهى تضفى على السرد مزيدا من الشمول ، اليس كذلك ؟

ج . أ . — لماذا الاساطير ؟

ف . ل . — لان بنيتها تنطوى على موديل شامل للعالم . ومنها يمكن ان تستخلص الاستعارة والرمز .

ج . أ . — كلا ، ليست الاساطير هى التى تضفى الشمولية على السرد ، بل معرفة السنن العامة . فما هو عيب من يسمون بالكتاب المحليين ؟ انهم يمكن ان يكونوا مطلعين افضل اطلاع على الحياة المحلية ، لكنهم لا يستطيعون دوما ان يتجاوزوها ويرتقوا الى ما فوقها . وتظل تلك الحياة تفتقر الى الالهام والى دفء حماسة الفنان . وعندذاك تظهر فى الادب النزعة المحلية الضيقة . والكثيرون «يحترقون» فى هذا الموقد . والكثيرون يحاولون تصوير ما كان وما هو كائن الآن . لكن نتاجاتهم لا تمس شغاف القلوب ولا تأسر النفوس ولا تسمو بها . والحاصل هو مقالة وثائقية عادية لا صلة لها بالفن .

فالكاتب بحاجة الى نمط حديث من التفكير وسعة الاطلاع ، وعليه ان يعرف التاريخ والعلوم المتقاربة . فالنقد الادبى ، مثلا ، هو ايضا وسيلة لمعرفة الحياة . اذ انه يساعد الكاتب فى فهم واستيعاب الحياة وفى ادراك قوانين الجمال . فانا ، على سبيل المثال ، اقدر رفيع التقدير كتابات ميخائيل باختين وبيوتر باليفسكى ، لانها تستثير تأملات طريفة وهامة .

والحقيقة هناك اناس مطلعون افضل اطلاع على الكثير من الحكايات والروايات الشعبية والاساطير ، ويحفظون كل التفاصيل وكل صغائر الحياة المعيشية ، لكن الكاتب بحاجة ايضا الى اعداد **عصرى** ، اى معارف حديثة ومجمل الخبرة السابقة للحضارة العالمية . فهذا هو سنده . واذا لم يتوفر لديه هذا السند لن يتمكن من رفع القضايا المحلية الى المستوى اللازم . ويخص ذلك الكتاب الشباب الناشئين الذين يمكن ان يكونوا من حيث تكديس المعارف شبيهين بالكتاب المحليين القليلى الشهرة . بديهى ان الخبرة تأتى فى سياق الحياة ، حيث تنشأ الثروة الروحية للانسان وتنمو ثقافته . ولو الفت «جميلة» او «عين الجمل» الآن لكتبت كل شيء بصورة اكثر تعقيدا .

ف . ل . — فى «عين الجمل» لا تتحاشى صراعات وتناقضات الحياة ، لكن طابع حلك لها يختلف ، عما فى «السفينة البيضاء» * . فالصراع فى «السفينة البيضاء» اعمق واكثر مأساوية ، وربما تغدو القصة نفسها بفضل ذلك فى آخر المطاف اكثر تفاؤلا من «عين الجمل» . فلماذا ؟ لانها

---

* كتبت فى عام ١٩٧٠ — **المترجم** .

بمأساويتها تشفينا وتطهرنا ، لانها تمارس التطهير بالمعاناة على حد تعبير ارسطو .

ويمكن قول الشيء ذاته عن «جميلة» . وربما كان ذلك اهم من «تشريح» الحياة المعيشية الموغل فى التفاصيل دون هدف محدد ، والذى يولع به بعض كتابنا اشد الولع مع انه يضر بهم كثيرا . فالمرء يقرأ كتابا وكأنه يبص من ثقب المفتاح . ويقال ان هذا البص ايضا يعلمنا شيئا ، ولكنه فى رأيى ، يطمن فضولنا لا اكثر .

ج . أ . — ربما . . . ولكن طالما تطرق الحديث الى الادب **عموما** فانا اعتقد بان العشوائية تلحق به ضررا اكبر ، فالكاتب فى هذه الحالة يتناول ما لا يعنيه . والادب يفقد قوته عندما يتناول قضايا الصحافة مباشرة ويمارس حل المشاكل الاقتصادية الصرف . . .

ولكن فلنعد الى موضوعنا . الاساطير مادة خام . انها عجينة الوعى الشعبى التى ينبغى الاستفادة منها فى الابداع .

ف . ل . — هناك طرق مختلفة للاستفادة من الفلكلور فى النتاج الادبى .

ففى «وداعا يا غولسارى» * ، مثلا ، يمكن ان نعتبر التقارب فى مصير تاناباى ومصير غولسارى وسيلة شاعرية على الاكثر . اما الحكاية المؤثرة عن انثى الايل — الام فى «السفينة البيضاء» فيتصورها القارئ عفويا بمثابة دعوة اخلاقية ونداء لاحترام تقاليد ووصايا الآباء التى يهلك الانسان اذا اخل بها او عجز عن فهمها .

---

* كتبت فى عام ١٩٦٦ — **المترجم** .

خبرني ما رأيك في الملاحم الشعبية ؟ هل هي ، في المقام الاول ، بالنسبة لك سبيل لاقرار الاسس الانسانية العامة الابدية الثابتة التي احتفظت بقيمتها حتى الآن ام هي وسيلة شاعرية تمكن من الانتقال من السرد الملموس الى اللوحات الرمزية ؟

ج . أ . — انني افكر بالملاحم دوما . فهي نتاج متعدد الوجوه والطبقات للحكمة الشعبية . لكنني لا ادرج الملاحم ببساطة في مؤلفاتي ، بل احاول الاستفادة منها بعد هضمها واستيعابها .

الحبكات الملحمية متنوعة كثيرة ، وهي تتخذ كوسيلة في حالة واحدة . فان اغنية الصياد في «وداعا يا غولساري» وسيلة لتجسيد الجانب المأساوي في حياة البطل وتصوير حالة الهزات النفسانية العميقة . اما في «السفينة البيضاء» فهي نظرية ومبدأ ، وهي الصعيد الاساسي في القصة .

ولا يمكن التخطيط مسبقا للاستفادة من الملاحم ، فكل حالة معينة تتطلب اسلوبا خاصا بها وحلا ينطلق ، على ما يبدو ، من احساس الشخصيات بالعالم ، حيث تعتبر الملاحم بداية ثقافية لهم وحيث يعرفون هم واجدادهم وجداتهم وآباؤهم «ماناس» * ، وحيث تندرج الملاحم في فلكهم الروحي وتتجاوب مع امزجتهم وميولهم وتربيتهم . ولو ألفت رواية عن الاكاديمي كورتشاتوف فلربما لا يتطرق الكلام عن الاستفادة من الملاحم الشعبية .

---

* ملحمة شعبية قرغيزية عن البطل ماناس وابنه وحفيده ودفاعهم عن الوطن — **المترجم** .

وفى بعض الاحيان ادرج فى مؤلفاتى طبقات **غير شخصانية** من الوعى الشعبى ليس نيابة عن الكاتب ، ناهيك عن الشخصيات . ويحدث ذلك فى الحالات التى احتاج فيها الى ان اقول كلمة تعميمية .

ف . ل . ـــ ومع ذلك فرغم انك تهضم الملاحم وتعالجها جوهريا نجد عندك فى حالات كثيرة استعارات ملحمية مباشرة . ويعنى ذلك ان من المناسب طرح السؤال التالى : ما هو فى رأيك الطريق الامثل والاكثر مردودا للاستفادة الادبية من الفلكلور : اهو اضفاء اسلوب اللهجة الشعبية على السرد او ادراج الشخوص الفلكلورية ومستلزمات الحكايات فى نسيج النتاج الادبى ام استخدام التراكيب الميثولوجية التى تساعد على كشف المنابع الاولى للوجود البشرى فى الاوضاع الراهنة والصراعات الحديثة ؟

ج . أ . ـــ الطريق الثانى هو الاكثر مردودا . ولعل الكتابة باسلوب الاساطير اكثر غرابة اما التراكيب الميثولوجية فهى تمكن من استيعاب الاحداث والعثور على الترابط المعقد الخفى ، واحيانا المتناقض ، بينها والذى يقود بالفعل الى منابع الوجود واصوله .

وبمناسبة حديثنا هذا اريد ان الفت الانظار الى كتاب الناثر الكازاخى الموهوب ابيش كيكيلبايف «اناشيد السهوب» ، حيث تمكن المؤلف ، بواسطة التراكيب الميثولوجية الاسطورية ، ان يتناول قضايا جوهرية من التاريخ والعصر الحاضر .

ان هذا الكتاب ـــ على المستوى الرفيع جدا من التفكير ـــ سبيكة من الاساطير والحكايات وروح العصر ، انه سبيكة من الخبرة التاريخية والمعاصرة . وفى رأيى ان كل هذه العناصر

(بالاضافة الى موهبة الكاتب طبعا) قد جعلت الكتاب غنى المضمون لا بل جعلته ذا شأن كبير من الناحية الفنية .

ف . ل . — فى قصة «جميلة» يذكرنا خروج دانيار وجميلة من القرية بخروج آدم وحواء من الجنة . فكيف استخدمت هذه الوسيلة يا ترى ؟ هل اوحى لك بها كتاب ما ؟ ام اننى تصورتها ونسبتها اليك اعتباطا بالاعتماد على انطبـــاعاتى كقارئ ؟

ج . أ . — ما تقوله يثير الاهتمام كثيرا . وربما تلعب معرفة الميثولوجيا المسيحية دورا فى اغناء مطالعة «جميلة» ، ولكننى لم اكن افكر فى ذلك عندما ألفتها . هل قرأت كتاب غاتشيف عن «جميلة» («الحب والانسان والعصر») ؟ لقد قرأته انا باهتمام كبير ، فقد عرفت منه امورا جديدة كثيرة .

ف . ل . — يعنى ان هناك مجرد توافق فى حبكتى الاسطورة الانجيلية و«جميلة» اليس كذلك ؟

ج . أ . — يبدو انه مجرد توافق . وهذا يصادف كثيرا .

ف . ل . — يخيل الىّ اننا نواجه مرة اخرى القضايا «الابدية» فى سيكولوجية الابداع واستيعاب الفن . فى بداية الحديث عندما تطرقنا الى قصة «وجها لوجه» قلتَ بانك عندما شبهت الحور بالحراب لم تكن تلمح بذلك الى موضوع الحرب ، فى حين خيل الىّ ان هناك تلميحا . ومن الصعب القول من المحق فى هذه الحالة . ولكن تصادف حالات الكتاب فيها «يقولون ما لا يفعلون» ، ولا يعرفون حتى النهاية دوما مغزى ما يبدعونه . ومع ذلك فليست نادرة حالات الفراسة المزعومة عند القراء ، والتى يغرسها الادب الرمزى . وليس من قبيل الصدفة ان قال هومبولدت ان الفهم لافهم . ولعل من

اللازم هنا ان نتذكر الحادثة الكلاسيكية المعروفة حيث اخذ النقاد يبحثون عن تلميحات كثيرة فى الجزء الثانى من «فاوست» مع ان غوته نفسه لم يورد فيه اية رموز او استعارات .

ج . أ . ــ تصادف حالات شتى . ذات مرة سألونى لماذا صدرت القصة فى المجلة بعنوان «السفينة البيضاء (بعد الحكاية)» ، بينما صدرت فى كتاب بعنوان «بعد الحكاية (السفينة البيضاء)» ؟ الا ينطوى تغيير موقع العنوان الاصلى والفرعى على تلميح خفى الى تحول التركيز المعنوى من الرمز الى النتيجة ، من الحلم الى الواقع ، من الحكاية الى ما حدث لابطالى بعد الحكاية ؟

فى حين ان سبب التغيير ابسط من ذلك بكثير . فان الكسندر تفاردوفسكى قال لى عندما جلبت القصة الى مجلة «نوفى مير» انه يتصور عنوان «بعد الحكاية» عاديا وتقليديا تماما . واقترح على عنوان «السفينة البيضاء» . اما انا فأميل اكثر الى عنوانى ، لانه ادق .

ف . ل . ــ ذلك حدث ذو عبر بالنسبة للنقاد : أيجوز لهم بعد ذلك ان يفكروا فيما اذا كان الكاتب قد غير شيئا فى مؤلفه ولماذا ؟

ولكن فلنعد الى حديثنا عن الملاحم . فمع اننا تحدثنا هنا كثيرا عن التقاليد الشفوية فى نتاجك وعما اخذته عن «ماناس» ، بودى ان اؤكد على نقطة اخرى : فالفلكلور يتشابك عندك تشابكا عضويا مع الحياة العصرية لدرجة تجعل المرء لا يفرق بين ملامح الواقع القاسية وبين المرآة الرمزية للاسطورة التى تعكس هذا الواقع . واذا عدنا مجددا الى حكاية انثى الايل ــ الام افلا يجوز القول بان الواقع ، فى الحقيقة ،

يكرر الحكاية التى يقصها مأمون على الصبى ؟ الا ان الحكاية الرمزية فى الحياة تغدو ، فى رأيى ، ليس قولا مأثورا وعظيا بل مأساة : فالشيخ نفسه يفعل ما تحذر منه حكايته . وافظع شيء هنا هو لماذا تطاول مأمون على ذكرى الاجداد وعلى ضميره ووصاياه ؟ من اجل ابنته المنحوسة ومن اجل حفيده ؟ . . وهكذا تكتسب المأساة ليس فقط مغزى انسانيا عاما ، مثلما فى مسرحيات سارتر الفلسفية ، بل وفى الوقت ذاته طابعا انسانيا كما عند بوشكين او شكسبير . وهى تأسر قلوبنا وتلهب مشاعرنا وتجرنا بقوة الى حومة قضاياها . ان هذا الخليط من الفلسفة والمشاعر الشكسبيرية حقا يميّزك كمجدد وككاتب يواصل فى الوقت ذاته تقاليد الواقعيين الكبار . . .

مَن مِن الاعلام والمشاهير اعز عليك من حيث الاسلوب والمزاج ومن حيث مبدأ التغلغل فى عالم البطل ؟ ومن الذى تعتبره معلما لك ؟

ج . أ . — لعلك اسرفت فى الحديث عن التقاليد الشكسبيرية وعن التجديد . واذا اردنا الجد فسأتكلم فى البداية عن مأمون . انا لا اتفق معك . فان مأمون تطاول على ذكرى الاجداد وعلى ضميره ووصاياه ليس فقط من اجل حفيده وابنه . فانا ارى فى ذلك جانبا **اجتماعيا** ايضا ، اذ ان مأمون يواجه خيارا بين امرين . فاما هذا واما ذاك .

ف . ل . — وهل استبعد الجانب الاجتماعى عندما اتحدث عن المأساة البشرية ؟ افلا يدخل ذلك الجانب ضمن المأساة ؟

ج . أ . — لقد اردت ان اعرض تشابك كل الدوافع ، بما فيها الاجتماعية . اردت ان ابين تبعية مأمون . اردت

ان اقول : لا يزال امام المجتمع عمل كثير ليجعله مستقلا سعيدا حرا . هذا اولا .

وثانيا — يصعب على ان اخصص احدا من الاعلام . ويبدو انه حان الوقت الذى يندمجون به جميعا فى تجربة كبيرة واحدة : تولستوى وتشيخوف ودوستويفسكى والاعلام الغربيون . ولذا فانا اعتبر الاعلام كالشمس . وهى تبعث اشعتها (ففى شمس واحدة بالنسبة لى توماس مان وشكسبير ودوستويفسكى) ولا تهمنى كثيرا الطريقة التى تبلغنى بها تلك الاشعة .

ف . ل . — لكنك نفسك تقصد معنى ما عندما تتكلم عن «التقاليد» و«التجديد» .

ج . أ . — يخيل اليّ ان هذا سؤال لا داعى له . فالتجديد يجب ان يكون متوفرا اذا كان النتاج جيدا .

يعجبنى راسبوتين اشد الاعجاب ، وانا اقرأه بارتياح ، لكننى لا ادرى هل هو مجدد ام لا . لعله مجدد .

ف . ل . — فيم يتجسد التجديد اليوم ؟ فى الشاعرية ؟ فى اختيار الموضوع ؟ يبدو ان كل شيء فى هذا المجال قيل منذ عهد الادب اليونانى والرومانى .

ج . أ . — الادب اليونانى والرومانى يجتذبنا بسبب حبنا للمعرفة . ثم اننى لا اعتقد بان القارئ يطالع «الاوديسة» محتبس الانفاس . فان توضيح تصرفات الناس بمعونة الآلهة يبدو لنا غريبا . والذى يجرى هو تعقد الادب مع تعقد الحياة . «دونكيشوت» تعتبر كالمسخرة . . .

ف . ل . — القصة كتبت اصلا كمسخرة للاستهزاء بروايات الفروسية . . .

ج . أ . — نعم . هذا شئ معروف . لكننى اقصد شيئا

آخر ، اقصد ان الكاتب المعاصر لن يكتب بهذه الصورة .

ف . ل . — مع انه ربما لن يكتب افضل .

ج . أ . — نعم ، ربما يكتب اسوأ ، ولكن بطريقة اخرى . الادب الحديث بالنسبة لى اكثر متعة . ففيه تجديد . وهذا امر ملحوظ الآن ايضا .

بديهى اننا لا نكتب بعبقرية ، مثل بوشكين ، ولكن ظهرت جوانب جديدة ومواقف جديدة ازاء القضايا الجمالية والاجتماعية . وقد اتسعت مادة الادب مع ان القضايا الرئيسية الابدية ظلت كما هى .

فلنتأمل : هل كان الكتاب السوفييت فى العشرينات يواجهون نفس القضايا الاجتماعية والفنية ؟ من جهة ، نعم ، فالقضايا **الابدية** نفسها ظلت باقية فى الظروف الاجتماعية والتاريخية **الجديدة** . ولكن من جهة اخرى ، الحياة تتطور وتتعقد وتظهر **قضايا** جديدة لم تكن معروفة **فى السابق** ، لكنها حيوية ملحة بالنسبة للسبعينات . وعلى اية حال فان القضايا التى يتناولها تريفونوف لم تواجه كلها سيرافيموفيتش . وهذا مفهوم ، فالظروف آنذاك كانت غير الظروف ، والناس غير الناس . وكانوا يفهمون الخيرات المادية بشكل مغاير ، فى ظل الصراع الطبقى . وليس من قبيل الصدفة ان العدو الطبقى عند سيرافيموفيتش نمط معين ونموذج مرسوم بوسائل معينة . وكذلك عند شولوخوف : هل تتذكر ليسنيتسكى ؟ ضربه غريغورى ميليخوف بالسوط ، اما نحن فلم نعد ننبش فى روحه ، اذ لم تعد بنا حاجة الى ذلك . ولنأخذ الاعداء الطبقيين فى «الارض البكر حرثناها» . كل شىء بخصوصهم واضح من النظرة الاولى . ولكننا نرى زاليغين يعود بعد سنين الى نفس

تلك الحقبة ويعرض ما لم يعرض ولم يكن بالامكان استيعابه آنذاك .

ف . ل . — ورواية فاسيلي بيلوف «قبيل الاحداث» جاءت هي الاخرى بعد مرور الزمن ، وهي ايضا محاولة للتأمل في اشاعة التعاونيات الفلاحية من ذرى عصرنا وقوانينه ، بمراعاة المستقبل . . .

ج . أ . — ربما ستظهر بمر الزمن نتاجات افضل مما نكتب الآن . فالماضي كالماء الذي ترك ليترسب . والماء العكر يغدو اكثر نقاوة : شيء ما يترسب في القاع ، وشيء يذوب . باختصار ، كل الامور تعود الى نصابها .

واذا تناولنا الحاضر ففي رأيي ينبغي هنا بالدرجة الاولى ان نراعي **التقييدات** التي يفرضها الواقع على الكاتب . وليس التقييدات وحدها . فيجب ان نأخذ بالاعتبار نوعية المهمات التي تواجه الكاتب .

وعندما اقول ان الحياة تتطور اعني امورا متنوعة للغاية . ولنأخذ على سبيل المثال برنامج السلام * . انه ليس مجرد قضية سياسية . انه صفحة جديدة في تاريخ البشرية تجعل الناس يعيدون النظر في طائفة كاملة من القضايا التاريخية والفلسفية والاجتماعية . ومنها فهم النزعة الانسانية . فمن جهة نعارض الآن ايضا الفهم التجريدي اللااجتماعي للنزعة الانسانية ، ومن جهة اخرى لدينا تصور عن النزعة الانسانية اوسع بكثير من الماضي .

---

* وضعه المؤتمر الرابع والعشرون للحزب الشيوعي السوفييتي عام ١٩٧١ — **المترجم** .

ويخيل اليّ ان ذلك يفهمه الآن ايضا كثير من زملائنا الاجانب ، ومنهم كتاب كبار من امثال كورت فونيغوت وغبريل غارسيا ماركز . فهم ايضا يستحثوننا للبحث عن نقاط مشتركة للالتقاء والتماس . بديهى ان ذلك لا يعنى باننا نتحول ايديولوجيا وان عصر التقارب وانعدام التناقضات قد حل . كلا . فقد حلت مرحلة تاريخية جديدة . وتمت الخطوة الاولى : فنحن اذ نذلل كل الفوارق الدولية والاجتماعية والقومية نحاول ان نجد موقفا مشتركا من القضايا **الانسانية العامة** ، ومنها على سبيل المثال قضايا الحرب والسلام . فالخطر الآن يفهم ليس فقط بمعنى احتمال هجوم دولة على اخرى ، بل وبمعنى تقوض حضارتنا كلها . وبودى ان اعبر عن حالتنا بمثل ربما كان فيه بعض الاسهاب : اذا وجد عدة اشخاص انفسهم فى البحر وكل منهم على خشبته فسوف يهلكون . وعليهم ان يتقاربوا ويربطوا اخشابهم فى كلك . وعندذاك تتوفر لديهم فرص اكبر للنجاة . وتتقلص تلك الفرص بالنسبة لكل منهم اذا اخذوا يتنازعون على تلك الاخشاب لينتزعوها من تحت بعضهم البعض .

واكرر ان العالم يبنى الآن على اسس مغايرة ، وتولد مبادئ جديدة فى الاختلاط الثقافى . ولذا تظهر جوانب جديدة فى نتاج اى منا .

فى العام الماضى زرت تركيا . وبالمناسبة فقد ترك الادب التركى انطباعا عميقا فى نفسى . فلعل الادب التركى فى الشرق ، وخصوصا بالمقارنة مع الادب العربى والفارسى ، يمر الآن بمرحلة من النهوض والازدهار . فما السبب ؟

لقد تطرقتَ فى بداية الحديث الى داغلارج . انه شاعر كبير ، ومناضل . فى تركيا طائفة كبيرة من الكتاب

7–578

الذين يتجلى فى نتاجهم اتجاه اجتماعى يعبر عن روح المثقفين والشباب .

ورأيت اناسا هناك ينادون بالاشتراكية على انها الطريق الحتمى لتطور جميع الشعوب ، لان الرأسمالية استنفدت قاعدتها . وهم يرون المستقبل فى الاشتراكية . ومن هؤلاء كتاب اتراك مثل ياسر كمال وعزيز نيسين وبكر يالديز . . .

وطالما تنشر الجرائد التركية رواية ياسر كمال الجديدة مسلسلة كاملة فان ذلك يدل على ان الادب غدا حاجة حيوية للشعب . وانا اعزو هذا الازدهار الى ظهور الصراع فى المجتمع والى كون هذا المجتمع مكهربا بالافكار الاشتراكية . ولا نجد مثل ذلك فى ايران . كما لا نجده فى الاقطار العربية . فالقضايا القومية هناك تشغل مكانة اكبر من الصراع الاجتماعى .

وانا اعتبر بابلو نيرودا وناظم حكمت من شعراء عصرنا العظام . وهما يشكلان ظاهرتين مشهودتين فى الادب العالمى المعاصر . وفى مصيرهما عبر كثيرة .

وقد مرت فترة معينة ، وصارت مؤلفات ناظم حكمت تنشر على نطاق واسع فى تركيا ايضا . وهو الآن من اعلام الثقافة الوطنية المعاصرة . وليست هناك جرائد او مجلات لا تعتبر نشر المقالات عن ادبه شرفا لها . ان شعره ملك مشترك لنا . ولا تستطيع الثقافة التركية ان تستغنى عن اسمه . ولا تستطيع ذلك حتى اكثر الجرائد رجعية .

واعتقد انه يتعين علينا ان ندرس اكثر وبشكل افضل الادب التركى الذى يمثل حياة شعب من اربعين مليونا وتاريخه الغنى وهو ادب يعرى اكثر المشاكل الاجتماعية حدة .

ف . ل . — هل تزور تركيا كثيرا ؟

ج . أ . — تقابلت وتحدثت كثيرا مع رجالات الثقافة التركية . لكننى زرت تركيا مرة واحدة . وكثيرا ما ينشرون مؤلفاتى هناك ويعيدون طبعها . وهم يعدون هناك «تسلق فودزياما» للمسرح ويطبعون «الكراكى المبكرة» . وصدرت مؤلفاتى اجمالا بثمانى طبعات .

ف . ل . — هل تجيد التركية ؟

ج . أ . — نعم . اقرأ بالتركية وارد على الرسائل . لكننى اقرأ الجرائد (قراءة الجرائد لا تعنى قراءة الروايات) ، وهذا يكفى تماما للتخاطب اثناء اللقاءات ولاخذ فكرة عن الادب وعن البلد وعن الصراع الاجتماعى الجارى هناك .

ف . ل . — اذا عدنا الى صورة الشمس التى ترمز الى مجمل الخبرة الثقافية الشعبية التى اثرت عليك فيمكن اعتبار ادبك حصيلة لاممية الثقافات ، لاسيما وانت تكتب بلغتين .

ج . أ . — اذا تحدثنا عنى شخصيا فانا بالفعل امثل اندماج ثقافتين ، وكلما مر الزمن يترسخ اعتقادى بان الادب الروسى واللغة الروسية بالاقتران الى الثقافة القومية التى لدىّ قد اثرا علىّ . لقد كان الادب القرغيزى — المسرح والنثر — قائما قبل ان اجتاز عتبته ، وخصوصا الابداع الشعبى الشفوى — الاساطير والحكايات . وقد اندمج هذان المجريان ، هاتان الثقافتان — **الروسية والقرغيزية** ، فى تيار واحد على ما يبدو .

ومن المعروف ان ظواهر هامة كثيرة تبرز عند التقاء الميادين . وعند التقاء الثقافتين ظهر الكتاب الذين يكتبون **بلغتين** ويجيدونهما بقدر واحد . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى تجرى عمليات ربما كانت اقل اهمية ، لكنها تثير

الاهتمام ، وهى ظهور الكتاب القوميين الذين يكتبون باللغة الروسية ، مثل اولجاس سليمانوف .

صحيح ان اولجاس سليمانوف لو كتب ليس بالروسية فقط ، بل وباللغة الكازاخية الفصحى لكان ذلك ذا اهمية مضاعفة . وليس هذا ملامة او مطلبا . فكل شيء يتوقف على مجرى الحياة . ذلك على الاكثر تأملات نظرية . فبودنا لو كتب بالكازاخية ايضا شاعر ناضج يتحلى بمثل هذه الموهبة ، شاعر وطنى واممى من حيث تفكيره .

ان ظاهرة اللغتين تبرز الآن فى ادب بعض الشعوب . وينبغى ان تحظى هذه الظاهرة بتفهم كبير ويجب العمل على تطويرها بقدر متكافئ كامل . فهى تتطلب اجادة تامة للغتين المستخدمتين فى الحياة اليومية وفى الكتابة ، ويمكن ان تعطى ثمارها عندما تتطور اللغة القومية بنشاط وتستخدم الى جانب اللغة الروسية .

ان ظاهرة الازدواج اللغوى شكل جديد للثقافة القومية . ولا مجال للكلام عن تطور الثقافة القومية وعن الثقافة المستقلة اذا ضيعنا لغتها .

ويجب العمل هنا بحكمة وتعقل بمراعاة مصالح الناس واهتماماتهم المتنوعة للغاية . وينبغى للازدواج اللغوى ان يساعد على تطوير الثقافات القومية ولكن يجب الا يقمعها ، فان لغة اى شعب هى ثروة فريدة ابدعتها عبقرية الشعب . واللغات يمكن ان تنقرض ، وقد انقرض كثير منها ، ومن المستبعد ان تظهر مجددا . فالفترة التى ظهرت فيها اللغات مرت دون عودة . ويجب الحفاظ على ما هو موجود . فهو ملك للبشرية جمعاء .

ان **الامية** هى بالدرجة الاولى تعاضد ومساعدة متبادلة على اساس الوحدة الفكرية . فالثقافة الاكثر تطورا تأخذ على نفسها طواعية التزاما بمساعدة الثقافات الاخرى .

ومن امثلة المساعدة العملية الدقيقة الواضحة تطوير السينما القرغيزية . فقبل حوالى خمسة عشر عاما جاءنا اخصائيون شباب من موسكو ولينينغراد وبدأوا الاعمال السينمائية بالاشتراك معنا . وبفضل الخبرة والتأهيل فى معهد السينما لعموم الاتحاد السوفييتى وبفضل مساعدة المخرجين السينمائيين الروس توفر لدينا الآن فن سينمائى ناجز .

وهناك مثال آخر للمساعدة العلمية هو قصة نشر معجم المفردات التركمانية القديمة . فقبل بضع سنوات اصدر العلماء اللينينغراديون مؤلفا ضخما هو معجم المفردات التركمانية القديمة فى القرون السابع — الحادى عشر . ويمكن القول دون مبالغة ان تلك مأثرة حقيقية للاخصائيين الروس فى الشؤون التركمانية .

مر زمان كانت تعيش خلاله فى رحاب سيبيريا الشاسعة شعوب تركمانية لها ثقافتها وابجديتها التى ظلت محفوظة فى كتابات اورخون رينيسى وفى السجلات والكتب . وبعد الغزو المغولى — التترى تشتت كل تلك الشعوب فى ارجاء المعمورة . واحتاج العلماء الروس الى مائة عام كاملة ليجمعوا ويفكوا رموز الكتابات القديمة . ويضم المعجم اكثر من ٢٠٠٠٠ كلمة وعبارة مترجمة الى اللغة الروسية . واعاد الينا العلماء الروس لغة الاجداد المفقودة . وذلك عمل يتسم بالامية العميقة . فقد اعيدت الينا ثروتنا : تراجم لنصوص بوذية ولكتب مانوية ومسيحية وتراجم من مصادر صينية وفارسية الى اللغة الاويغورية القديمة ، ونصوص زرادشتية كثيرة وملحمة يوسف بالاساغونى

«فرحة المعرفة» التى ارست بداية الشعر التركمانى المكتوب ومعجم محمود الكاشى من القرن الحادى عشر . ذلك ، فى رأيى ، هو مثال الامية . فك رموز كل حرف . فاين نجد مثل ذلك ؟

ف . ل . — الفت «ارض الام» و«وجها لوجه» بالقرغيزية ثم ترجمتها بنفسك الى اللغة الروسية ، فى حين الفت «السفينة البيضاء» و«وداعا يا غولسارى» و«الكراكى المبكرة» بالروسية رأسا . فلماذا تكتب فى بعض الحالات بالروسية وفى بعضها الآخر بالقرغيزية ؟

ج . أ . — تعلمت فى مدرستين . فى مدرسة قرغيزية اولا ، ثم فى مدرسة روسية ، وبعد ذلك درست فى الثانوية المهنية وفى المعهد وفى موسكو . وكانت دراستى للغتين تجرى بتعاقب .

ولذا فما اكتبه الآن بالروسية استطيع فيما بعد ان اترجمه الى القرغيزية .

ف . ل . — ما هى المشاكل (اعذرنى على هذا الانتقال غير المتوقع) التى تواجهها فى ترجمة مؤلفاتك الى لغة السينما ؟ ما الذى يجتذبك فى السينما ككاتب ؟ الا تضيع شيئا جوهريا هنا ؟

ج . أ . — ابدأ بتوطئة . اذا كان المقصود هو الثقافات القومية فلا يمكن ان تكون اى منها كاملة الآن بدون **السينما** . ولا يمكن تصور تلك الثقافات بدون السينما .

فبفضل جماهيرية السينما وجعلها الادب مرئيا يؤثر الادب على الانسان مباشرة .

ف . ل . — يقال ان للسينما قوانينها ، لكن هذه

الكلمات تتخذ فى الغالب وسيلة لتبرير تعسف المخرج . فان اخراج المؤلفات الادبية سينمائيا يشوه جوهرها دائما تقريبا . وبالمناسبة فان ذلك لا يقتصر على الاخراج السينمائى . ففى المسرح نجد الآن افراطا فى مسرحة النثر الكلاسيكى . فما السبب ؟ هل هو غياب المسرحيات الحديثة الجيدة ، ولذا يأخذ المخرجون ما يقع تحت ايديهم متصورين ان الحدود التى تفصل بين الانواع الادبية والفنية مائعة يمكن تجاوزها بجرأة وبدون خسائر ، فيحولون القصة الى مسرحية ، ويحولون الملحمة الى باليه ، ويحولون الرواية الشعرية الى اوبرا ؟ فقبل حين ، مثلا ، حول بنجامين بريتين ، كما هو معروف ، قصة توماس مان «الموت فى فينسيا» الى اوبرا (والكلام هنا عن المبدأ وليس عن التقييم) . ثم هناك معالجة لويس آرمسترونغ لموسيقى باخ . انا موافق على ان ذلك فى منتهى الابداع ، ولكن ما علاقة باخ بالموضوع ؟ !

كان ليسنج قد حذرنا فى كتابه «لاوكون» من هذا النوع من الجرأة عندما قال ان الشاعر يقترف خطأ فظيعا حين يقتبس الحبكة من الرسام ، ويخطئ كذلك الرسام الذى يقتفى فى لوحته اوصاف الشاعر . فهناك حبكات للوحات وحبكات للقصائد . وعلى هذا النحو بالضبط توجد حبكات وملابسات لا تصلح للمسرح مسبقا . ولذا فان «صب» النتاج الفنى من قالب فى قالب آخر من المستبعد ان يجرى بدون خسائر . فمن المستبعد ان يتمكن احد من التعبير بالاصباغ عما تعبر عنه الكلمات بقدر واحد . وانت تعرف بالطبع كيف عارض غوغول وفلوبير حتى الصور التزيينية فى كتبهما . . . فما كانا سيقولان عن السينما ؟ !

ج . أ . ـــ وانا ايضا اعارض الصور التزيينية . فانا اعتبرها ضرورية للاطفال على الاكثر ، وانا لا اعتبر السينما صورا تزيينية . فالمهم ان الانسان **الحي** يمثل فيها . والمهم ان يتحمس ويعرض **جوهر** النتاج .

ف . ل . ـــ عندما يقرأ المرء بنفسه يتصور البطل دوما على نحو ادق ، اما السينما فهي تفرض عليه حتى مظهر البطل . . .

ج . أ . ـــ ربما يكون تصوري عن البطل مختلفا ، لكن الامر الرئيسي هو عرض الجوهر . ولانني اتصور البطل على نحو يختلف عن تصورك له لا يجوز لنا ان نرفض السينما .

واذا اعتبرنا السينما المعاصرة سفينة لها صواريها ومقودها وعدتها فان الأدب هو محركها . وخصوصا الآن .

ربما تصادف مئة حالة فاشلة للاخراج السينمائي ، لكن حالة واحدة يمكن ان تومض كنتاج فني . وانا آمل في هذا الوميض .

ف . ل . ـــ ما الذي تعتبره اكثر نجاحا مما انجزته في السينما ؟

ج . أ . ـــ «السفينة البيضاء» و«التفاحة الحمراء» .

ف . ل . ـــ كيف تعبر عموما ، يا ترى ، عن نظرتك الى العالم وعن ميلك ونفورك ؟ هل تفكر في ذلك عندما تكتب ؟ ام ان محكمتك ككاتب تجري بصورة لاشعورية ؟

ج . أ . ـــ من المستبعد ان يتفهم الكاتب ابطاله بالعقل الخالص وحده . ومع ذلك فاذا تكلمنا عن طريقة تفهمهم يخيل اليّ الآن ان الطريق الاكثر نضجا هو وصف البطل

بصيغة الغائب حيث يستطيع الكاتب ان يقيم بطله . وهذا يجعل تصوير الواقع مكتملا . فان صيغة المتكلم ذات امكانيات محدودة .

ف . ل . — ما هو مقدار خبرة الكاتب الحياتية الضرورى لجعل الابطال يتصرفون وفقا للحقيقة السيكولوجية ؟

ج . أ . — ذلك يعتمد على نوعية البطل .

ف . ل . — واذا كان مثل اسماعيل فى قصة «وجها لوجه» ؟

ج . أ . — فى هذه الحالة لا بد من الاستفسار من اناس كثيرين ومقارنة ما يدلون به ولا بد من التقصى .

ف . ل . — متى تستعين بالخيال ؟ عندما لا تتمكن من تقصى شىء او تجريبه ؟

ج . أ . — الكاتب يجب ان يكون ممثلا فى دخيلته . ويجب ان يتحلى بدقة الملاحظة المتطورة . لكن الكاتب ليس قسيسا ولا ملاكا . فان طباعه وتصرفاته يمكن ان تنطوى على الكثير من التلاوين الحياتية . لكنه يسعى بفنه الى الكمال . وهذا هو الشىء الرئيسى . بديهى ان توافق حياة الفنان **الفعلية** مع الحياة **المثلى** شىء رائع . ولكن ذلك ليس قانونا لا جدال فيه . فتلك قضية فى منتهى التعقيد . والحساب يجرى هنا وفقا لمبادئ الرياضيات العالية .

ف . ل . — ماذا يمنحك الفن بالدرجة الاولى : فرصة الاعتراف ام فرصة الوعظ والتبشير بحقائق وافكار ومعتقدات ما ؟ بديهى ان هذا وذلك مترابطان ترابطا وثيقا ، فالاعتراف يمكن ان يربى الآخرين ، ولكن بودى ان اعرف شيئا عن الحوافز الداخلية التى تدفعك الى الكتابة .

ج . أ . ـ اعتقد ان الاعتراف يجب ان يكمل الموعظة والعكس بالعكس .

انا احب الموسيقى كثيرا . فهى تثير مشاعر رهيفة شفافة يصعب توضيحها والتعبير عنها بالكلمات . ولذا تبقى ، على ما يبدو ، فى منأى عن تهجمات النقاد . فمهما كان الذى يحكم على الموسيقى تبقى احكامه مستندة الى الحدس والاحساس ، فلا يستطيع ان يقول فى آخر المطاف غير شيء واحد : تعجبه او لا تعجبه . اما الادب فمن الاسهل التعبير عنه فى مصطلحات علمية وتعاريف وكلمات . وكل انسان تقريبا يعتبر نفسه عالما خبيرا فى الادب . اما الموسيقى فالناس يعاملونها باحترام اكبر .

لكن للادب ايضا مزاياه . ففيه يعبر الانسان عن نفسه باكمل شكل ومن جميع الوجوه . واقول اكثر : ان النثر وحده يستطيع ان يجسد **الحياة والتاريخ** . وخصوصا الواقعية . فهى قمة كل فن . وهى عموده الفقرى . والواقعية توفر مزايا كبيرة لان للمناهج الاخرى فى الفن كثيرا من الاشتراطات الشكلية (فهى توقع معنا عقدا) ، والنثر الواقعى وحده خارج على **التعاقد** . ففى هذا النثر لا يمكن للمرء ان يتكلم عن نفسه فقط ، فهو دوما يتكلم اكثر عن العالم حتى وان كان يعترف . ومع ذلك فعندما اكتب اريد ان اوحى للآخرين افكارى انا عن الحياة ومشاعرى واريد للذين يقرأون كتابى ان يتعرفوا على انفسهم ويجدوها فيه .

ف . ل . ـ ما هو دور «البطل الايجابى» فى اثبات افكارك وآرائك ؟ يعتقد بعض النقاد الآن انه يلاحظ فى الادب اتجاه نحو دراسة اسس الخير والشر فى الانسان اكثر مما

نحو المجابهة بين الابطال الايجابيين والسلبيين . واذكر على سبيل المثال بطليك مأمون وتشورو . . .

ج . أ . — اننى اغرس افكارى فى بطلى ، وهو يعجبنى وليس ذلك وحسب ، بل علىّ ان اكافح من اجله . لكن جوانب متنوعة كامنة فيه ، ويجرى فى دخيلته صراع معقد . ولذا فان قدح او مدح المهندس الزراعى الجيد او رئيس الكولخوز السيئ ، او العامل الطليعى او السكير العربيد فى كلمات وعظية ليس من مهمة الادب فى رأيى . هذا اولا ، وثانيا — ان ما يقصده النقاد غالبا من مصطلح «البطل الايجابى» شىء فيه جمود وخشونة .

انا لا انوى مجادلة النقاد ، لكن ما يحيرنى ويربكنى اننا نطلق كلمات عادية وفجة وممجوجة على ما هو حميم جدا وعزيز على قلوبنا .

وهذا الشعور العزيز على افئدتنا يمكن ان يتجلى كل مرة بصيغ متنوعة ، وكل مرة ننعته بنفس النعت «البطـــــــل الايجابى» . فهل هذا تصرف لائق ؟ فالمشاعر الحميمة يمكن ان تكون مختلفة تماما ، وهى بالنسبة لى يمكن ان تتخذ شكل المرأة والحب والبطولة والنزاهة والتحدى .

ف . ل . — من المستبعد ان يطلق نعت «الابطال الايجابيين» على عطيل ومانفريد وفاوست واونيغين وبيتشورين ، لكننا معجبون بهم . . .

ج . أ . — اذا لم يكن البطل **شخصية** فلن يحظى بتعاطفنا مهما خلعت عليه من نعوت . وفى افضل الاحوال نحصل على ايقونة جميلة لا غير . فى حين ان الابطال شخصيات متناقضة قوية مفعمة بالغنى النفسانى .

فالى جانب الابطال الذين لا جدال فيهم او ، كما يقال ، الابطال المثاليين كان هناك ولا يزال اناس لم يتمكنوا — لهذا السبب او ذاك — من تحقيق امكاناتهم بتلك القوة ، مع انه كان بامكانهم ان يفعلوا ذلك . ان الأدب مدعو لدراسة الشخصية فى قطاع من الحياة الاجتماعية ، فى مجمل الظروف الاجتماعية والاقتصادية . ومن هذه النماذج البشريـــــة «الحباحب» * . فقد اجترح مأثرة وهو يدعو الناس بقدوته الى اجتراح المآثر .

ف . ل . — ولعل من هذه النماذج بطلك دويشين . طبيعى ان دويشين من قصة «المعلم الاول» قدوة لا شائبة فيها ، ولكن ، فى رأيى ، يمثل بطلك توناباى نموذجا ليس اقل من ذلك ، للتأملات ان لم نقل للاقتداء . فهـــــو «ايجابى» (واذكر ان الكاتب غيورغى رادوف نعته بالبطل المثقف) مع انه ليس مثاليا الى هذا الحد . وربما كان لهذا السبب احب الينا واكثر انسانية . . . اما دويشين فهو ، ان شئت ، بعيد المنال بالنسبة لنا مثل الجبار الاسطورى ماناس الذى يتجسد فيه ما يفتقر اليه عامة الناس .

ج . أ . — كل القضية هى ان فى الادب نموذجا آخر مثل ميليخوف ** او ميشكين *** . ففيهما ايضا يجرى تبلور الطيبة والنزاهة وعدم التساوم . ولذا فان رسالة الفن ، كما

---

* بطل رواية بنفس العنوان للكاتبة الانجليزية ايتيل فوينيتش (١٨٦٤ — ١٩٦٠) . **المترجم** .

** بطل رواية شولوخوف «الدون الهادئ» — **المترجم** .

*** بطل رواية دوستويفسكى «الابله» . — **المترجم** .

يخيل اليّ ، تتلخص فى ابداء اهتمام مركز بالانسان ولفت الانظار اليه واثارة الرغبة فى فهم الانسان واحترامه فى كل تنوعه اللانهائى .

وبهذا الخصوص اريد ان اتحدث عن **تطور** البطل . فما كان ملازما للسنوات الاولى من الثورة وكان يعكس الحماسة الرومانسية فى تلك الحقبة ويهز المشاعر ويخلب الألباب قد انحسر ، كما يخيل اليّ ، الى المرتبة الثانية (مع انه لم يختف دون اثر) بتقدم مجتمعنا وتعقده اجتماعيا وتاريخيا .

وانتقلنا من الرومانسية وابطالها المثاليين الاشداء الذين لا يقر لهم قرار الى الواقعية العميقة الحياتية الصرف . وليس محقا ذلك النقد الذى يحاول العودة بنا الى الوراء .

وليسوا محقين كذلك اولئك القراء الذين يعتزون بتصوراتهم السابقة فقط . فالكاتب لا ينبغى ان يجاريهم . فى «صفحات من حياتى» كتبت ان بعض القراء الذين اعجبتهم مثلا «جميلة» و«المعلم الاول» و«ارض الام» وغيرها يريدون ، انطلاقا من تصوراتهم عن الفن ، ان استمر على الكتابة بهذه الروحية فقط . انا لا انوى التخلى عن نفسى ولا ارفض ما كتبته قبل «وداعا يا غولسارى» و«السفينة البيضاء» ولكننى لا انوى ايضا التوقف عند مرحلة اجتزتها . يجب على الادب ان يحمل صليبه بنكران ذات ويقتحم مصاعب الحياة ليعرف الانسان ويحب كل ما هو عزيز عليه ويعتز بافضل واروع ما فى نفسه والناس والمجتمع . ويجب ان لا يكتفى بالحب والاعتزاز بل ينبغى ان يقلق ويناضل فى سبيل ذلك .

بديهى ان توجيه اللوم الى القراء شيء صعب ، لان اذواقهم تكونت بتأثير ملابسات كثيرة . ومع ذلك فان التطور

اللاحق لادبنا يتطلب ان يبذلوا هم ايضا جهودا معينة . فنحن ننتقل من الشكل الارشادى الوعظى الى الطابع التحليلى للسرد ، الى التعقيد . ويجب التغلغل الى اعماق الطبيعة البشرية للكشف عنها بشكل افضل دون حجب تناقضاتها ونقاط الضعف فيها . وقد يقول لنا البعض مع الاسف اننا نفهم تطور البطل بشكل غير صحيح ، لكننا فى كل الاحوال لن ننجو من كل التهجمات وليس بمقدورنا ان نرضى الجميع . ولا يبقى لنا سوى ان نمسك بالقلم ونواصل الكتابة .

١٩٧٦

الانسان والعالم في السبعينات

قصة هذا الحديث كالآتى : وصل الى فرونزه هينس بلافيوس احد ابرز النقاد فى جمهورية المانيا الديمقراطية ليجرى حديثا مع واحد من الكتاب السوفييت الاكثر شهرة فى المانيا الديمقراطية لحساب مجلة «وايماريز بايتريغه» الادبية النقدية . ويمكن القول ان مؤلفات جنكيز ايتماتوف معروفة فى هذا البلد على نطاق واسع مثلما عندنا . ففى دار نشر «فولك اوند ويلت» وحدها — وهى اكبر دار نشر المانية — صدرت ثمانية من مؤلفاته بعدد من النسخ بلغ ٤٣٨٧٠٠ نسخة . ومن بين هذه المطبوعات كتاب رائع الاخراج بمجلدين . وبالاضافة الى ذلك صدرت مؤلفات ايتماتوف بترخيص من «فولك اوند ويلت» فى ١٥ طبعة عن دور «ريكلام» و«فيرلاغ دير ناتسيون» و«كينديربوخ — فيرلاغ» بـ ٧٦٠ الف نسخة .

واستغرق الحديث ساعات طويلة (فى غضون بضعة ايام) . وقد تناول الحديث ، كما سيرى القارىء ، ليس فقط نتاج ايتماتوف نفسه ، بل تطرق الى طائفة واسعة من القضايا المتعلقة بالادب السوفييتى والالمانى الديمقراطى ، لا بل الادب العالمى المعاصر . وكان من السهل على الرجلين

ان يفهما بعضهما البعض ، فان هينس بلافيوس مؤلف عدة كتب ومقالات فى آداب اللغة الالمانية وعلم الجمال ، وقد درس عدة سنين فى الاتحاد السوفييتى . ونشر اول كتاب له — عن هيجل — عندنا فى الاتحاد السوفييتى . وطبيعى انه يتكلم اللغة الروسية بطلاقة ، ولديه اطلاع واسع على ادبنا .

وقد ترجم هـ . بلافيوس الحديث من المسجل الى اللغة الالمانية لحساب مجلة «وايماريز بايتريغه» ، ونشرته المجلة كاملا فى عددها المكرس للذكرى الستين لثورة اكتوبر العظمى . ونظرا لاهمية هذا الحديث للقارئ السوفييتى ايضا رأت مجلة «نوفى مير» ان تترجمه بترخيص من الطرفين المساهمين فيه من الالمانية الى الروسية ببعض التلخيص .

هـ . ب . — فى بداية حديثنا اريد ان انقل اليك التحايا وافضل التمنيات من «الجالية» الكبيرة للمعجبين بايتماتوف فى جمهورية المانيا الديمقراطية . والدليل الواضح على ذلك هو مجموعة الاسئلة التى سنعود اليها اثناء الحديث والتى طلب منى ان اطرحها عليك زملائى الكثيرون ، ومنهم العاملون فى هيئة تحرير مجلة «وايماريز بايتريغه» . وانا استشهد بزملائى لأؤكد بان ما حدا بـى ليس الاهتمام السطحى بل الاعتقاد الراسخ بان وحدة الثقافة والادب بين بلدينا قد ازدادت لدرجة جعلت قضاياكم تغدو قضايا لنا . واذا تمكنت فى سياق الحديث ان اجعل قضايانا تغدو على قدر الامكان قضايا لكم فسيعود ذلك بالنفع على الطرفين .

اسمح لى فى البداية ان احدد موضوع حديثنا : قضايا النشر وحالته الراهنة والعوامل المؤثرة فيه خلال السبعينات .

يسود مناقشاتنا الادبية رأى (او تلاوين عديدة لرأى) يقول ان عدة تغيرات جوهرية تجرى فى الادب الحديث ، ومنه بالطبع النثر . ومع ان الكلام سيتطرق الى ادباء متباينين تماما فانى اسمح لنفسى بذكر بعض الاسماء والمؤلفات ليغدو حديثنا اكثر تحديدا . الى جانب مؤلفاتك اذكر من الادب السوفييتى كتب تريفونوف وراسبوتين وتيندرياكوف وغرانيـــن واستافييف . ومن الادب فى جمهورية المانيا الديمقراطية اذكر كريستا وولف وغيرمان كانت وشتريتماتير وويلم وبيتشمان وكيلير . انا لا انوى جمع هؤلاء المؤلفين فى مجموعة واحدة . لكن التغيرات الجارية تترك اثرها بوضوح فى مؤلفاتهم .

وعندما يدور الكلام عن خاصية السبعينات الحالية يشار عادة الى سيل المعلومات ونتائج الثورة العلمية التكنيكية وهلمجرا .

ولكنى اعتقد ان عمقا اكبر يلازم النتائج المترتبة على تغير طابع العمل بسبب الزيادة الكبيرة جدا فى حصة التكنيك فى عمليات العمل . وبالارتباط بذلك تحدث تغيرات كذلك فى نمط الحياة وتظهر سيكولوجيا جديدة ، الامر الذى يتسم بأهمية مباشرة بالنسبة للادب . ويتغير اسلوب الانتاج ، ويتحول ارتباط الانسان المباشر مع الواقع الملموس المحسوس ، ذلك الارتباط الملازم للعمل اليدوى ، الى ارتباط غير مباشر اكثر فاكثر . وتظهر حاجة الى عوامل جديدة للوساطة بين الشخصية وبين العالم الحى المحيط بها .

وربما كانت السياحة ، مثلا ، رد فعل لاشعوريا على هذه العمليات لانه يتجلى فى هذه الحالة ليس فقط تأثير ازدياد الرفاه والحاجة الى الراحة ، بل وكذلك الرغبة فى

الاقتراب من المادة . وعلى هذا النحو يستجيب الفن لهذا الموقف الجديد الذى يواجه الانسان . فالفن يشير على الانسان بضرورة الاتصالات الوثيقة مع العالم الفسيح الحالى ومع عالم التقاليد ، ويشير عليه ، من خلال عناصر الانعكاس ، باستخدام الاساطير وباللجوء الى الفن كثيرا كمادة للتصوير .

والمجموعة الاخرى من القضايا التى اسفرت عن تغيرات ملحوظة فى النثر تنبع من الدور المتزايد للعلم الذى يغوص اكثر فى القضايا الاجتماعية التى لا يقوى عليها «غير المطلعين» . ويخص ذلك اغلبية القضايا التى يعالجها الفلاسفة والبيولوجيون وعلماء الاجتماع . وبنتيجة هذا التطور ، كما يخيل الى ، ظهر فراغ معين . فان بعض المسائل الاساسية تماما والمتعلقة بحياة او موت الانسان العادى تظل خارج حيز الاهتمام . وكانت هذه المسائل فى القرون الوسطى تحل من قبل الدين ، وبمجىء عصر التنوير شغلت الفلسفة محل الدين . وينشأ لدى انطباع وكأن مثل هذا الدور الذى يضطلع به الفن ، ومنه النثر ، يزداد كثيرا فى الوضع الراهن .

ج . أ . — اذا سرنا بحديثنا فى هذا الاتجاه سيكون ممتعا ، لان الادب الحديث او الفن ينطوى على كل ما يشغل بال الانسان تقريبا اليوم : حياته اليومية ووجوده الروحى وعالمه الاجتماعى . ويخيل الى ان ملاحظتك صائبة بشأن الخصائص الهامة للحياة الفكرية المعاصرة . فالعلم فى الآونة الراهنة تخصص لدرجة لم يعد معها فى متناول الجميع . وفى الوقت ذاته ظهرت وتشتد اكثر فاكثر الحاجة الى رؤية العالم فى وحدة متكاملة تترابط فيها حتى الميادين المتباعدة ويعتمد بعضها على بعض . ولئن كانت دراسة هذا النوع من الترابط

المديد فى الماضى قضية تهم الدين والفلسفة ، فان ذلك يغدو اليوم اكثر فاكثر رسالة للادب ، وللنثر بالدرجة الاولى ، ولكن ليس للنثر وحده ، فهنا لا يجوز طبعا وضع حدود ضيقة ، ولا يجوز نسيان المسرح والسينما والدراسات الادبية والنقد وغيرها .

وتشغل مرتبة الصدارة مهمة ادراك حياتنا نفسها : فنحن بالذات ، وليس الذين سيأتون بعدنا ، ينبغى ان نجيب على تساؤلاتنا : من نحن وما هى هويتنا فى السبعينات الحالية ، وما هو المجتمع البشرى وما هى دينامية هذه الوحدة المتكاملة فى ظل التعايش بين النظامين الاجتماعيين المتعارضين وما هو ديالكتيك الاشتراكية الحى ؟ واخيرا ما هو او من هو الانسان ؟

وبالمناسبة فالادب كان دوما يسعى الى التفكير بصورة شمولية ، لكنه لا ينسى بان حجر الزاوية فيه هو الشخصية الانسانية . ذلك هو جوهر الجواهر .

ان شخصية الفرد يمكن ان تقارن ببؤرة تتجمع فيها كل تأثيرات الواقع وتهيـئ لنا دراستها فرصة معرفة مضمون العصر وجوهره واتجاهاته من خلال الانسان . وربما يبدو ما قيل هنا شيئا تجريديا ، لكن النثر الجاد الذكى موجه الى ذلك بالذات . وتتجلى الاتجاهات الاساسية الحاسمة لتطور الفن بمنتهى الوضوح فى نتاجات الفنانين الكبار ، مثل بريخت . وانا لم اذكره هنا صدفة ، بل لانه تقبل العصر الجديد ، عصر الاشتراكية ، بتفهم انسانى عميق وتمكن من تجسيد الدرامائية الداخلية لهذا العصر فى نتاجه .

الا اننى اريد فى البداية ان ابتعد عن المسائل العامة

واقول بضع كلمات عن قارئ من جمهورية المانيا الديمقراطية . امامى انسان معيــن واسع الاطلاع محب للكتب . وعلينا كلينا ان ننطلق من ان جمهورية المانيا الديمقراطية تمثل ظاهرة تاريخية جديدة تماما كدولة وكمجتمع . فان المانيا الديمقراطية متواجدة على الحدود بين عالمين . ولذا فان النظرة المشتركة الى العالم تتسم هناك بسمات خاصة بها . وان افضل ابداعات الروح الانسانية ترتبط بالشعب الالمانى ، بالتالى بجمهورية المانيا الديمقراطية . ومع ظهور جمهورية المانيا الديمقراطية بدأت مرحلة التحويل الاجتماعى التاريخى . وان الهدف الواحد — بناء المجتمع الجديد — هو اليوم سبب تقاربنا ، فنحن نقف فى صف واحد . ولكن من جهة اخرى لا اريد لكم ان تشبهونى بصورة مطلقة . فنحن بحاجة الى الفوارق ، لانها تغنينا وتضاعف قدراتنا الروحية .

ويستنتج من ذلك انه يجب علينا نحن الفنانين ان نفكر معا بمنتهى الجد فى الامكانيات الجديدة لفننا وادبنا وبما يستطيعه الفن وما نتوقعه منه ، وما يجب ان يتحدث عنه وكيف يتحدث عنه لنعرض الاهمية الفريدة لعصرنا ، ونستوعب ما لم نتمكن من استيعابه فى السابق لهذا السبب ، او ذاك .

وما من مجتمع ، حتى المجتمع الاشتراكى ، بقادر على تهيئة ظروف مثلى لا شائبة فيها لتطور الفن . ويجب ان يرتوى العطش الابداعى بماء طبيعى حى وليس بماء مقطر .

اننا نرى بوضوح الفوارق الجذرية بين النظام الغربــى ومجتمعنا الاشتراكى . ويتلخص اهم تلك الفوارق فى كون الانسان عندنا يتميز بشعور متطور من الكرامة الانسانية .

وقد نوافق بانه لم يبلغ بعد ، من حيث الرفاه المادى ، مستوى الشخص المتوسط الحال فى بلد رأسمالى متطور . لكنه ليس بحاجة الى التزلف لثرى ما . وهو يعرف ان المجتمع يعتمد عليه بالدرجة الاولى ، وان اى مدير او رئيس لا يستطيع ان يفعل شيئا بدونه .

هذا هو الامر الرئيسى ، وهو جيد طبعا .

ان القدرة الحيوية للادب والفن تقاس ، فيما تقاس ، بمدى تغلغلهما فى جوهر تناقضات التطور الاجتماعى ، بما فيه تطور مجتمعنا الاشتراكى . . .

هـ . ب . — اسمح لى هنا ان اقطع حبل افكارك . فانا اريد ، اولا ، ان اشكرك على الكلمات التى قلتها عن جمهورية المانيا الديمقراطية . وانا سعيد لان لقاءنا الاول يوافق ذكرى تأسيس جمهورية المانيا الديمقراطية .

ج . أ . — وهذا مبعث للمزيد من السرور . فتقبل تهانى .

هـ . ب . — كنا نتحدث عن الترابط بين الادب والفلسفة ، وبالضبط عن تغلغل الفلسفة فى الادب . ويخيل الى ان هذا الترابط قد ضعف بشكل ملحوظ عندنا ، مما يعنى تراجعا عن واحد من تقاليدنا الطيبة . لقد كانت هناك اتصالات وثقى بين الادب والفلسفة فى عصر التنوير ، والعصر الكلاسيكى وعصر الرومانسية . واذا لم نوغل فى اعماق تاريخ الادب استشهد ببريخت . فهو ليس مجرد كاتب مسرحى او شاعر ، انه مفكر ايضا ليس فقط فى مؤلفاته النظرية ، بل وفى مسرحياته ونثره .

واذا تناولنا نظامنا الاشتراكى فكيف ترى الصلة بين الادب والفلسفة ؟

جـ . أ . ــ اعتقد ان الوقت لا يزال مبكرا للكلام عن ذلك بوصفه مسألة محلولة . فالقضية ، كما افهمها ، ليست بسيطة اطلاقا . فان ظهور الصلات المتينة بين الادب والفلسفة يتطلب زمنا تاريخيا معينا . فمع كل ثورة تبدأ حياة المجتمع على اساس جديد تماما . ويتبدل كل شيء . ويبدأ مفعول سنن جديدة وتظهر ارتباطات جديدة .

وفي هذه المرحلة الاولية يتسم الادب ، والنثر منه ، بحماس شعوري اكثر من الصبغة الفلسفية ويميل الى الوصف التأثري ، والاعلاني فى الغالب . وهو يقتفى اثر الجديد ويعجب بالانفصام والبطولة التى يمتزج فيها الجانبان العفوى والواعى ، ويسجل تدمير القديم والخطوات الاولى فى بناء الجديد .

وكل ذلك ــ الوقائع الفعلية وانعكاسها الادبـى ــ ينتظر ان يدخل فى فلك التأملات الفلسفية الواسعة .

ومن جهة اخرى ففى فترة ميلاد الجديد تكون الامور اكثر وضوحا : هذا هو الصديق ، وهذا هو العدو اللدود الذى يجب التغلب عليه . وتواجه المرء مهمة التصنيع العاجلة ، فعليه ان يبنى المصانع والمعامل . . .

اما نمط الحياة المستقر الراهن فهو اكثر تعقيدا . ويتفتح امام الانظار تشابك مبرقش لوقائع يتعين تحليلها ودراستها . ويتوصل الانسان من جديد الى السؤال عن نفسه ، الى السؤال عما جعله يغدو وكيف غدا على ما هو عليه فى السبعينات .

وعندما يواجه الادب مثل هذه الاسئلة لا يعود يكتفى بما كان لديه فى البداية من وسائل فنية . اننى لا اقدح تلك الفترة الاولية اطلاقا ، فانا افهم سننها تمام الفهم .

هـ . ب . — بدونها ما كنا سنصير الى ما صرنا اليه اليوم .

ج . أ . — طبعا . فتلك هى سنة التطور . بديهى اننا حافظنا بكل حرص على المبادئ الفكرية التى اعلنت فى البداية والتى هى اساس مجتمعنا كله . فقد بقيت وتطورت الافكار الاجتماعية العزيزة على كل منا ، ولكن يجرى على خلفيتها تمايز وفرز فى الحياة كلها وفى كل ميادين المجتمع . ويغدو الكيان الروحى للانسان المعاصر اكثر تعقيدا . ولنأخذ مثالا بسيطا . قبل ثلاثين عاما (ولا اقول خمسين) لم يكن هناك مصطلح «حماية البيئة الطبيعية» . ولم يكن احد يرى ذلك حتى فى المنام . فقد كانت الطبيعة والارض والمياه تكفى وتزيد . ولم يكن الانسان عرضة للشكوك والقلق مثلما هو عليه اليوم . واذا اخذنا المدرسة ، وقضايا التربية . . .

هـ . ب . — فى الطريق قرأت قصة تيندرياكوف «الليل بعد التخرج» .

ج . أ . — انها تتناول هذه القضايا بالذات . فاليوم يتشابك بوثوق كل ما يخص التربية والتعليم ، وحتى التلميذ يؤثر على المربـى . فلنواصل . ان الثورة العلمية التكنيكية تقترن بما يسمى بالانفجار الاعلامى . ولم يكن اى جيل آخر قد بلغ مثل هذه الدرجة الرفيعة من الاطلاع .

ولم نكن نعرف حتى الآن مثل هذه الدرجة من تطور الاتصالات الدولية . واليك مثالا واحدا : قبلك جاء الى هنا انطونيونى ، وقبله المجريون ، وقبلهم اليابانيون . وحتى فى قرغيزيا ، جمهوريتنا الصغيرة ، نتحسس من يوم لآخر نبض العصر ونتحسس ارتباطنا بالعالم ونختلط به .

كل ذلك لا بد وان يتطلب من الادب طبعا توسيع نطاقه الفلسفى . فالادب اليوم لا يمكن ان يستغنى عن الاستيعاب المعقد للموجودات وعن التجسيد التفصيلى الضافى لنفسية معاصرينا .

وعندما يوفق الادب ، النثر ، فى ذلك يكتسب سلطة فعلية على القارئ واعتقد ان مؤلفات توماس مان واحد من افضل الادلة على ذلك .

واريد ان اقول بانى احب قراءة مؤلفاته ورسائله ايضا . فان توماس مان ينتمى الى رعيل الكتاب الكبار الذين كأنما يتجاوزون كل المقاييس . وكان من المنطقى ان يأتى بعده فنان فى مرتبة اعلى ، وفقا لمتطلبات التقدم ان صح التعبير . لكننا لا نجد بعد اثرا لهذا التقدم . ولا اريد القول بان تراجعا يجرى الآن . ولكن خطوة كبيرة ما الى الامام لم تتحقق بعد ، ولن يقوم بها الا فنان من مستواه . لكنه لن يكون مثل توماس مان ، بل سيختلف عنه جذريا .

هـ . ب . — بضع كلمات بخصوص نفس الطائفة من القضايا . . . انا بعيد عن محاولة التخطيط الجامد ، ولكن ، اذا اردنا التبسيط ، هناك ادب من مستويات مختلفة . فهناك ، من جهة ، ادباء من مقام توماس مان ، يؤدون وظيفة المفكرين والرواد . هذا الادب يحرث الارض البكر . ويأتى من بعده — وليس لذلك صلة بالعيوب الاخلاقية والجمالية — ادب . . .

ج . أ . — يأتى بعده المقلدون بالمعنى الايجابى للكلمة .

هـ . ب . — . . . نعم ، يأتى ادب يتلقف تلك

الاكتشافات الكبرى ويحرص على جعلها فى متناول الجميع . ويخيل الى ان «مستويات» الادب هذه لا توجد فى معزل عن بعضها البعض .

وينبغي الكلام عن التفاعل فيما بينها ، دون ان نهتف فى حالة : «يعيش» ، وفى حالة اخرى : «ارجموه» .

ج . أ . — ما تقوله يتجلى بوضوح فى ادبنا السوفييتى . ففيه قمم مثل شولوخوف وليونوف وباسترناك وماياكوفسكى . ولا توجد عندنا قمم مماثلة بين الكتاب من الاجيال الجديدة . هناك كثير من الناثرين والشعراء الموهوبين الرائعين ، لكنهم بالاساس يعالجون تلك الخبرة التى صارت فى متناول الايدى بفضل الكتاب الكبار .

هـ . ب . — ويرتبط السبب الآخر لتمايز الادب بالفوارق فى متطلبات القراء . فليس كل قارئ ملزما بقراءة توماس مان .

ج . أ . — عين الصواب . انا متفق معك تماما . وهذا يوافق واقع الامور الفعلى .

ولكن يجب ان نواصل . هناك ادب من الصنف الثالث والرابع . وهو ادب «تصويرى» سافر ينشأ فى الغرب من فوضى الطلب فى الاسواق . وعندنا «يركب» هذا النوع من الادب حصان المواضيع الملحة . واترك مسألة نفع او ضرر هذا النوع من النتاج مفتوحة . ولكن كما لا تستغنى غابة الاشجار العالية عن الشجيرات ، كذلك الحال هنا .

فالى جانب الفنانين القديرين الحقيقيين يوجد دوما صناع . وهم ايضا يؤثرون فى الجو العام . وفى بعض الاحيان تتوفر لهم ظروف ملائمة ، مع ان احدا لا يعمل على توفيرها

عمدا . وبنتيجة انتشار وسائل الاعلام تنتشر النتاجات الضحلة على نطاق واسع بوصفها «خفيفة الحمل» على وسائل الاعلام وبالدرجة الاولى التلفزيون ، وينشأ حولها ما يشبه الرأى . فماذا بوسعنا ان نقول بهذا الخصوص ؟ انها الحياة الفوارة . . .

هـ . ب . — طبعا ، نحن ملزمون بان نعيش جنب ذلك ، ولكن علينا ان نتكلم عنه .

ج . أ . — عين الصواب . اريد لصحافتنا ان تنشر المزيد من المقالات الشديدة اللهجة عن ادبنا الجارى ، ليس فقط عندما يصدر نتاج لا يرضينا من حيث خواصه الفكرية ، بل وكذلك عندما تصدر نتاجات غثة تتاجر بالمشاعر.

هـ . ب . — استنتجت من الاحاديث الكثيرة مع الادباء ان هناك نوعين من الكتاب . بعضهم لا يجيدون الكتابة فى موضوع «تجارى» يطلب منهم ، وبعضهم الآخر يجيدون الكتابة فى مثل هذه الامور . ولا يرتبط هذا التقسيم باى حال بالنضوج الجمالى للفنان او بالضعف الفنى فى نتاجه . واعيد الى الأذهان كلمات فيومان الذى نصح الكتاب الشباب ذات مرة بان لا يشرعوا بالكتابة اذا كانوا لا يشعرون بحاجة الى الكتابة فى الموضوع المعنى .

ج . أ . — للفن ، مثلما لاى اجتماع جدى ، جدول اعمال خاص به . واذا تناولنا فننا الاشتراكى فان «البند الاول» فى جدول اعماله هو تصوير الطبقة العاملة . وهذا هو الواجب ، لان المقصود هو قسم من المجتمع يسفر عمله عن تكوين الثروات المادية ويشكل اساس تنظيمنا الاجتماعى . ولكن جدول الاعمال شىء والخطباء شىء آخر . بوسعنا ان نقر جدول الاعمال ، وليس خطب الخطباء .

فكل واحد يقرر بنفسه هل هو مستعد لهذا البند الاول . . .

هـ . ب . — لاحظنا مرارا ان مجرد اختيار الموضوع الذى يعتبر بندا اول فى جدول الاعمال يجعل النقد يقدم للكاتب سلفة كبيرة .

ج . أ . — لكن الاهم ليس الاختيار بل مستوى حل الموضوع .

هـ . ب . — لان المستوى الواطئ لا يتضمن سوى الاشارة الى الموضوع وليس فيه من الفن شيء . يخيل الى ان صعوبة تجسيد الموضوع «الانتاجى» ترتبط كذلك بكون مادته لا تزال فتية جدا من الناحية التاريخية . زد على ذلك ان هذا الموضوع يربط من كل بد بمسائل هامة جدا كمسألة الرسالة التاريخية للطبقة العاملة .

ج . أ . — اجل ، اذا اخذنا قطاعا واسعا من الزمن نجد ان مجتمعنا فى الفن ايضا لا يزال فى مرحلة مبكرة من التطور . فما قيمة الخمسين او الستين عاما من الناحية التاريخية ؟ طبيعى ان تقدما مدهشا حدث خلال هذه الفترة . لكننا يجب ان لا ننسى ابدا باننا بدأنا شيئا جديدا تماما لم يسبق له مثيل مطلقا . زد على ذلك اننا نريد ان تكون اخطاؤنا على اقلها . ويبدو ان ذلك هو سبب حذرنا الشديد فى الحالات التى ينبغى فيها الكلام صراحة عن الفشل الفنى لنتاج «ملح» من حيث الموضوع .

ان ما تفتقر اليه نتاجاتنا عن العصر الحاضر هو النفس العميق حقا ومحاولات احتواء الافكار والعمليات الكبرى وعرضها بعمق فنى ومن جوانب متعددة .

عند توماس مان مقالة بعنوان «لوبيك كشكل للحياة

الروحية» . والعنوان نفسه يمثل صورة فى منتهى العمق والاتساع . ولا اعتقد بان كلمة «لوبيك» (بمعناها الموسع) يجب ان تشير من كل بد الى موضع جغرافى معين ، مع ان لدي انا ، مثلا ، موضع من هذا النوع هو قريتى شكر . بيد ان الكلام لا يدور عن شكل للحياة محدد اجتماعيا او جغرافيا ، فالمقصود هو الشكل الروحى للحياة الذى يغذى موهبة للفنان تنشأ بالذات بتأثير التقاليد والمستوى الاجتماعى المعين وتراكم الخبرة العملية والروحية وبتأثير العمليات التى تغير العالم والتى نشهدها ونشارك فيها . ولدى كل كاتب هنا منابعه وروابطه المختلفة ، وعلى كل كاتب ان يعمل وفقا لامكانياته .

ان المؤلفات الهامة عن الطبقة العامة تظهر ليس بفضل دعواتنا المتحمسة ، بل عندما يتجاوب الموضوع نفسه مع الميول الداخلية للكاتب وتجربته .

ان ابداع مؤلفات جادة فى هذا الموضوع الهام ، مؤلفات مفعمة بالواقعية العميقة ، يتوقف على الجو الثقافى فى المجتمع كله وفى الطبقة العاملة نفسها . ويعنى ذلك اننا يجب ان نطور باصرار قدرات الشعب الثقافية والادبية دون ان نضعف الروابط الضرورية بين الكتاب والمؤسسات الانتاجية . ومن الصعب حل هذه المهمة بالنوايا الحسنة وحدها . وانا لم استخدم كلمة «الجو» بالصدفة . فالجو الملائم فى الامور الكبيرة والصغيرة على حد سواء هو المقدمة الحاسمة لازدهار الفن .

هـ . ب . — فى احد لقاءات الكتاب تحدث فرانس فيومان عن انطباعاته عن حياة عمال المناجم . فهم فيما

بينهم يتكلمون بلغة خاصة بهم ، وعندما يدخلون مكتب المدير او يرتقون المنصة تتغير لغتهم واسلوب كلامهم حالا . فهم كأنما ينتقلون من بيئة الى اخرى . مثل العصا الغائصة فى الماء . فهى تبدو موجودة حيث لا وجود لها ، والعكس بالعكس . افلا يجرى فى مثل هذه الحالات اندماج الشخصية فى كليشه جاهزة وانقسام لغة التخاطب الواحدة الى «مجريين» ؟

ج . أ . — يخيل الى ان هذا التمايز طبيعى من حيث المبدأ . فالحياة من هذه الناحية «مختلفة اللغات» ، وكذلك الفن . ولا يخطر على بال احد ان يستخدم وسائل الباليه ليصور كيفية دخول العامل مكتب المدير ليحدثه عن نجاحاته فى العمل . فللباليه ميدانه الخاص وعالمه الخاص — الاساطير والحكايات والتعبير عن المشاعر التى لا يمكن تجسيدها بالصدق الواقعى الكامل .

ان ما قلتَه عن فيومان ليس فيه شىء غير متوقع . فان عمال المناجم فى لقاءاتهم اليومية يتحدثون ببساطة ويتشاتمون ويلعنون زيدا او عبيدا . كل ذلك شىء طبيعى . ووفقا «لآداب السلوك» الاجتماعية يتصرفون بشكل آخر عندما يشاركون فى شؤون اجتماعية هامة . وسلوكهم صادق على طريقته الخاصة فى كل من المجالين . لكن فيومان ، على ما يبدو ، كان يقصد شيئا آخر : الانسان الذى يرتقى مسرح المجتمع يتصرف بتكلف على امل ان يترك انطباعا خاصا عن نفسه ويقدم نفسه بالصورة اللازمة . وهذا شىء موجود فى كل الازمان . ونجد الكثير من امثال هذه الشخصيات فى مؤلفات اعلام الادب .

وسيكون غريبا لو اننا انكرنا جذور هذه الظاهرة فى

ظروفنا الحالية . واذا تغاضينا عنها وتجاهلناها فى نتاجنا نجازف ، طبعا ، بالابتعاد عن الصدق .

هـ . ب . — استمرارا فى مداولاتنا اريد ان اعود الى مسأله خصائص النثر فى السبعينات . الا يجدر بنا ان نتحدث عنها بمزيد من التحديد ؟

ج . أ . — اذا وفقنا فى ذلك طبعا . يخيل الى ان من الضرورى تقييم خبرتنا الادبية من وجهة النظر التاريخية انطلاقا من كون البشرية وثقافتها الروحية تتحسنان . ففى مجال التقنية الادبية والمهارة نجد التقدم والتحسن واضحين بخاصة . الا ان ذلك يخص المضمون الفنى ايضا (فلنتذكر مثلا طريقة الناثرين القدامى فى تضمين العنوان الاساسى او الفرعى كل محتوى القصة فى الواقع ، حتى لكأن القراءة لم تعد لازمة) . وعندما نتكلم عن النثر الحديث — اعنى النثر فى العالم كله فى افضل مظاهره — ينبغى ان نعترف بانه يتلقف بدقة متزايدة تقدم الحياة المباشر والديالكتيك المعقد للعلاقات المتبادلة بين الناس ويصور الواقع بعين ثاقبة ويتلمس اعز ما فى نفس الانسان ويسعى الى تصويره .

كان الادب يطمح الى ذلك فى السابق ايضا . الا ان الاعتبارات المتحجرة غالبا ما كانت تمنعه من ان يكون طبيعيا تماما . ففى الدراما ، مثلا ، كانت افكار البطل تعرض بشكل هامشى . وكانت مثل هذه الحدود الميكانيكية تقيد النثر ايضا . ونحن نعرف اليوم مدى اهمية العمل الداخلى الخفى .

هـ . ب . — عندما تطرقنا الى المرحلة المبكرة من ادبنا استخدمت انت مصطلح «الوصف» . وهذا المصطلح

موضع نقاش عندنا ايضا . وقد حاولت ان استخدمه فى بعض المقالات لاتحدث عن مختلف المستويات فى الادب . واثار ذلك عند البعض رد فعل سلبيا .

جـ . أ . — عجيب . لماذا ؟

هـ . ب . — ربما استخدمته فعلا بلا تحديد . فالوصف ربما كان مرحلة انتقالية الى الواقعية الحقيقية المعمقة . وعندما تكلم لينين عن معرفة الاشياء الجديدة اشار الى ان اية عملية للمعرفة تبدأ من الخارج . وبالضرورة تتحول دراسة الطبقات والسطوح الخارجية الى وصف .

جـ . أ . — لنأخذ المثال التالى . قرأنا جميعا «والفولاذ سقيناه» لنكولاى اوستروفسكى ، ونحن جميعا نقدر هذه الرواية على انها من عيون الادب السوفييتى . وقد تربينا عليها اخلاقيا وروحيا . وكل منا يعرف حياة اوستروفسكى العصيبة والظروف التى الف فيها هذه الرواية . ولكننا اذا تجردنا عن ذلك وقيمناه ككاتب ، واذا تكلمنا عن دقة اللغة والتصويرية فان الادب فى هذا المجال سار شوطا ابعد . وطالما يدور الحديث عن عملية حتمية فلا موجب اطلاقا «للزعل» دفاعا عن اوستروفسكى الذى له اهمية غير عابرة بالطبع . الا ان الاسلوب التقليدى فى الوصف المتواتر ربما لم يعد كافيا للقارئ الناضج . فان موارد الوصف محدودة ، وهو عاجز عن تمكيننا من تحسس مجمل تعقد واقعنا . وهذا هو مبعث السيكولوجية المتعددة الجوانب فى موقف الكتاب المعاصرين من الانسان .

تسنى لى مؤخرا ان اتكلم فى مؤتمر الكتاب الشباب من قارتى آسيا وافريقيا فى طشقند . وحاولت فى تقريرى

ان اعلل الموضوعة القائلة بعدم نضوب الانسان كموضوع رئيسى للفن .

على كتابنا ، فيما يخص دراسة ميدان الروح الانسانية ، ان يفعلوا الكثير جدا ويعرفوا الكثير ليبلغوا ذرى اساطين الواقعية الانتقادية ، مثلا ، ويضاهوهم من حيث القوة والنفوذ .

هـ . ب . — اعتقد بان علينا ان نحدد المرحلة التى بلغناها الآن فى تطور الواقعية الاشتراكية التى غدت خلال العقود من وجودها واحدا من اهم اتجاهات الفن العالمى . وهذا مهم جدا ايضا نظرا للسمات المشتركة التى تظهر فى تطور الفن فى الاقطار الاشتراكية .

لقد تكلمنا عن المرحلة الاولى من تطور ادبنا واتفقنا كلانا على انها هيأت المقدمات التى لا يمكن التطور لاحقا بدونها . ويخيل الى اننا الآن فى منتصف المرحلة الثانية التى تطرقت انت اعلاه الى اهم سماتها . وبودى ان اؤكد على خاصية اخرى تجلت معالمها بوضوح كاف فى الفن فى جمهورية المانيا الديمقراطية خلال السنوات الاخيرة ، واعنى الاستفادة المكثفة من خبرة الماضى وتقاليده الفنية .

ولعل الواقعية كمنهج من اكثر المناهج الموجودة قدرة على التغير وعلى استيعاب الخبرة السابقة . وتتسم بهذه القدرة ايضا الواقعية الاشتراكية . وربما يمكن تحديد المرحلة الراهنة من تطورها على النحو التالى : الى جانب تنامى استقلالها الجمالى تتشبع بخبرة الثقافة العالمية بمجملها . وفى ذلك ، برأيى ، ضمانة نهضتها اللاحقة .

ج . أ . — بودى ان اقول كلمة تدقيق . فعلا ، لدى الواقعية الاشتراكية حق فى ان ترث كل ما سبقها . لكن

الاهم هو قسطها الخاص فى تقدم الادب ، وما كسبته استنادا الى خبرتها الخاصة . ثم ان اى تصنيف زمانى انما هو اعتباطى لدرجة كبيرة وتخطيطى جامد كثيرا . فعندما يتطرق الحديث الى المراحل ينشأ انطباع وكأن العمليات الجارية فى الواقع بشكل متواز او متزامن انما تجرى متعاقبة الواحدة تلو الاخرى .

هـ . ب . — يبدو اننا يمكن ان نؤمل بان محاججاتنا هذه سيكون لها صداها ، مما يؤدى فى النتيجة الى العثور على اجوبة انسب .

واعود مجددا الى مسألة خاصية ادب السنوات الاخيرة . فقد ذكرت فى حديثك مؤخرا الى مجلة «قضايا الادب» : «. . . ان النثر وحده يستطيع ان **يجسد** الحياة والتاريخ . وخصوصا الواقعية . فهى قمة كل فن» .

واخشى ان تحظى سمات النزعة الطبيعية والفجاجة التى تحدثت عنها بسند فى بعض المسلمات النظرية . الا تتذكر تعريف الواقعية كأنعكاس وتجسيد للحياة باشكال الحياة نفسها ؟ وعندما نستخدم مصطلح «تجسيد» الا ندفع الادب الى الوصف الجامد ؟

ج . أ . — لا معنى للمصطلح ، ايا كان ، بدون ارتباطات معينة . وعندما نتحدث عن «التجسيد» نعنى جانبا ذهنيا فكريا . فليس بالامكان تجسيد الواقع ميكانيكيا . فانا اجد او ابتدع صورا ذهنية . وانت تقرأ هذه الرموز والصور فتظهر امام انظارك وفى ذهنك لوحات الحياة الواقعية . واذا فهمنا الامور على هذا النحو نتوصل الى استنتاج مفاده ان للنثر اكبر الامكانيات لانه ، على الاقل ، غير مقيد

بشروط «الشكل» المسبقة مثل العروض والروي . وينبغي ان نأخذ بنظر الاعتبار ان النثر قريب جدا من التفكير البشرى والمدارك العادية اليومية وقريب من سيل الوعى (ولكن ليس بالمعنى الموديرنى لهذه الصيغة) .

هـ . ب . — العبارة التى استشهدت بها من حديثك تقول «ان النثر وحده . . .» ، الا ينطوى ذلك على حكم قاطع ؟

ج . أ . — طيب ، فلنقل : النثر بالدرجة الاولى . فالمسرح ، مثلا ، يتناول عادة قطاعا معينا من الحياة . والفلم كذلك . وقد يستطيع الفلم احيانا ان يصور ما لا يوفق النثر فى تصويره . ولكن عندما يختلى الانسان الى نفسه فى آخر المطاف يحتاج ، اكثر ما يحتاج ، الى الكتاب كجليس يساعده فى ادراك ما فى نفسه وكبوصلة روحية تهديه الى السبيل فى حل اعقد المسائل .

هـ . ب . — هل يجوز الكلام بهذا المعنى عن النثر بوصفه ابا لكل الفنون ؟

ج . أ . — (بعد تردد قصير) . نعم ، انه كذلك الآن . انه كنز عظيم للطاقة الروحية ، وهو فى الوقت ذاته محفز عظيم لحياة الانسان الاخلاقية . واعنى النثر الواقعى . وعلى الاصح النثر الواقعى الامثل الذى نريد ان نراه فى مسيرة آدابنا الاشتراكية . اننى لست مقتنعا كثيرا بآراء النظريين الذين يصورون الامور وكأن الواقعية الاشتراكية نظام ناجز ومحدد تماما للاستيعاب الفنى ولادراك العالم . ان منهج فننا فى تطور دائم . واذا انطلقنا من ان الواقعية الاشتراكية هى الاتجاه الفنى الاساسى فى العصر الحاضر يتضح من هذا «التوزيع»

انها يجب ان تتشبع بالكثير من الطرائق والمناهج والاساليب الاخرى المتقاربة والتى تتطور بموازاتها .

هـ . ب . — بهذا الخصوص ما رأيك فى احدث التيارات فى الفن الاجنبى ؟

ج . أ . — اعتقد ان من الخطأ التظاهر بعدم وجود تجربة للنزعة التجريدية .

فان عددا من نتاجات الفن التجريدى التى رأيتها فى الخارج بدا لى بدلالة كبيرة .

فى واشنطن يوجد متحف للفن الحديث وقربه منتزه كبير جدا . ويعرض المتحف تاريخ الفن متعاقبا حسب العصور ، ويطلع الزائر على مختلف العصور فى قاعات مخصصة لها او فى ساحات مكشوفة . وعند مدخل المتحف تمثال لرجل كهل فى معطف قديم . وقبل ان اقترب من هذا التمثال صرفت وقتا طويلا وانا احوم حول تمثال آخر . هيكل مكون من قطع انابيب غاز ذات احجام هائلة ، وحلقات معدنية مقصوصة بشكل مائل مثل قطع السجق . وكان هذا الهيكل المطلى باللون الاحمر والمنتصب على قاعدة هائلة يؤثر على جو المنتزه وعلى المبنى وعلى مزاجى . وعلى مقربة منه ينتصب التمثال البرنزى المخضر الذى يرمز الى الحزن والتعب . وعندما اقتربت منه ادركت انه تمثال بلزاك من اعمال رودان . وهزنى اقتران هذين التمثالين و«التجاوب» بينهما وفتحا عينى .

اقصد من هذا الكلام اننا عندما نتحدث عن الواقعية وصدقها و«أبعادها» يجب ان نفهم ذلك بشكل ابداعى بلا جمود ولا اضداد مبسطة .

واتذكر هنا مشهدا من كتاب كوبو آبا يصف فيه

«افكار» ميت . فالمجرم الذى قتل هذا الشخص اراد ان يصور القضية وكأن الميت قد غرق بنفسه . والقتيل «يعلق» على افعال القاتل على النحو التالى : اعرف انك ستصب الماء الآن فى جوفى وستضطرب وترتبك ، وستبذل كل ما فى وسعك لابعاد احتمال القتل . ولكنك لم تأخذ بعين الاعتبار ان الماء عندما يتسرب الى جوف الغريق تتسرب معه الاشنات الى الشعيرات الدموية للرئتين . واذا اجرى التحليل الطبى العدلى بدقة فلن يعثر على الاشنات فى شعيراتى .

وقد يخيل للمرء ان الكاتب الواقعى لا يحق له ان يكتب على هذا النوع . الا ان هذه الوسيلة الفنية عند كوبو آبا مقنعة ومتلاحمة مع السياق .

هـ . ب . — يوجد ما يماثل ذلك فى رواية غابريل غارسيا ماركيز «مائة عام من الوحدة» حيث نجد الموتى الذين قضوا نحبهم من زمان بين الشخوص الاحياء ، مما يعتبر شكلا فريدا لادراك التاريخ .

ج . أ . — طبعا . «مائة عام من الوحدة» ظاهرة بارزة تقول لنا : اتركوا يا اصدقائى كل القواعد الممجوجة بل وكل ما يقيدكم . وليس بوسع كل ناثر ان يستفيد من هذه «اللقية» . فان الاستنساخ الشكلى «للوسائل الفنية» لا خير فيه . فانا ، مثلا ، لن اكتب على هذه الصورة ابـــدا . يجب ان اكتب وفقا لنمط تفكيرى ورؤياى ، يجـــب ان اغرس حبى انا للانسان .

هـ . ب . — ولكنك تستطيع ان تتفهم وتتقبل ما هو بعيد عن اسلوبك .

ج . أ . — يخيل الي اننى استوعب اساليب الغير دون

تحيز . ولكن هناك شرطا لا بد منه لاتصالي مع الفنان الآخر الذى لا يشبهنى : فرغم كل الفوارق بينى وبينه يجب ان تكون هناك نقطة تماس ، هى الطموح المشترك لاستخدام الكلمة فى حماية شخصية الانسان . وعندما تتوفر نقطة التماس هذه لن يكون هذا الكاتب غريبا علي مهما كانت الفوارق .

هـ . ب . — ما هى اتجاهات التطور الراهن للثقافة العالمية الاكبر دلالة فى رأيك ؟

ج . أ . — من المستبعد ان اذكر شيئا جديدا غير متوقع بهذا الخصوص . فهناك اخصائيون يدرسون الفن العالمى . اننا نعيش فى عصر مثير . وليس بالامكان اليوم الاحاطة بكل ما يكتب وينشر . وفى كل بلد كثير من دور النشر الكبيرة والصغيرة . ويصدر عنها بحر من الكتب . وفى انقرة مثلا تقع فى احد الشوارع اربع دور نشر ، وكل منها اجرت مباحثات معى . يصعب تصور حياتنا بدون كتب .

ففى السنوات الاخيرة يلاحظ ازدياد حاد فى الطلب على الكتب كما يعترف الجميع . والادب نفسه يتطور اليوم بنشاط كبير . قبل ثلاثين عاما كان هناك ادب انجليزى واميركى وفرنسى والمانى وايطالى وروسى واسبانى . وتلك الآداب تحدد مفهوم الادب العالمى . اما الآن فقد توسعت حدوده .

وبسبب العمليات الثورية وبالارتباط بحركة التحرر الوطنى استيقظت شعوب كثيرة . وهى تطرح على نفسها من كل بد السؤال التالى : «من نحن ؟» . وهى تطمح الى ادراك انفسها فنيا .

تصور ، ما اكثر الكتاب الافارقة الجدد الذين ظهروا الى الوجود . والشيء نفسه يخص ميدان السينما ايضا .

فلا يوجد الآن ولا بلد واحد ، فقيرا كان ام غنيا ، لا يريد ان يقول كلمته على الشاشة .

وقد اسفر هذا السيل الذى اجتاح العالم ، هذا الاستيقاظ الشامل للتفكير الفنى ، عن نتائج مختلفة . فمن جهة نلاحظ تطور الثقافة الرخيصة التى تستخدمها قوى سياسية معينة لصرف انظار الشعب عن المشاكل الحياتية الملحة . ومن جهة اخرى نلاحظ فى العملية الادبية العالمية تعزز ونمو القوى الفنية حقا . فان النثر فى اميركا اللاتينية مثلا يشكل ظاهرة جديدة تماما . ويدل مثل هذه الظواهر فى آخر المطاف على ان الايجابيات هى المهيمنة فى هذه العملية .

وعند هذه الطاولة التى نتحدث منها الآن جلس قبل ايام ميكالانجلو انطونيونى . ورافقه الكاتب الايطالى ومؤلف السيناريو تونينو غويرا شريك فيلينى فى تأليف سيناريو فلم «اماركورد» . وتناول حديثنا امورا كثيرة . واعرب انطونيونى عن قلقه الشديد بخصوص حالة السينمائيين الشباب . وقال ان المخرجين الشباب فى الغرب يشعرون بالوحدة والتقوقع . فان اخراج الفلم يتطلب نقودا . والمخرج الشاب يصور افلام التسلية والبوليسيات والخلاعيات معتقدا بان النقود التى سيحصل عليها تمكنه من اخراج فلم روائى جاد . الا ان تلك حلقة مفرغة على حد تعبير انطونيونى . فالتنازل للفن المضاد له عواقبه . والمخرج الشاب الذى يذوق الثمار المعسولة للعمل اليسير يجرى فيما بعد مع التيار .

ومن النادر جدا ان يتمكن الموهوبون المنفردون من التخلص من هذا المستنقع . ويحدث الشيء ذاته فى الادب .

هـ . ب . — عندما اطالع نثر العقود الاخيرة يخيل

الي ان نطاقه تقلص ، فان نتاجات ملحمية عميقة مثل روايات همنغواى وفولكنر وتوماس مان نادرا ما تظهر الآن .

ج . أ . — اعتقد بانه لا يوجد الآن فى الغرب كتاب من هذا المستوى . طبيعى انهم لا يمكن ان يظهروا فى اى يوم . ومن ناحية اخرى ينشأ لدي انطباع مما اقرأ ، مما يقع تحت يدى بان تخصصا ملموسا يحدث فى داخل الابداع الفنى .

«القطع» تغدو اصغر فاصغر مع ان الدقة التى تكتب فيها تزداد كما هو واضح . والكاتب يختار لنفسه قطاعا صغيرا يعالجه بمزيد من الدقة . لكنه لم يوفق بعد فى بلوغ مستوى توماس مان وفولكنر . لم يوفق بعد ، على اية حال . وبالمناسبة فقد قال همنغواى : لكى يكون الكاتب كبيرا عليه ان يعيش عمرا طويلا . كل فرد يطمح الى ذلك ، لكن الكاتب لم يقله جزافا . فالنضوج يأتى مع العمر . وخصوصا فى النثر الذى تتلخص مهمته فى الاحاطة بالعالم كله .

هـ . ب . — لا اريد لحديثنا ان يقتصر على الخصوصيات ، ومع ذلك بودى ان اقول بان طريق تطور بيول يولد فى ذهنى نفس هذه الافكار . فاذا تذكرنا «البليارد فى التاسعة والنصف» نجد هذه القصة ذات النطاق الملحمى الواسع اوطأ طبعا من مستوى توماس مان . ويضيق النطاق فى المؤلفات التالية .

ج . أ . — بيول ، طبعا ، فنان مثير . وربما هو مثال على ذاك التخصص الضيق الذى تطرقنا اليه . وربما هو يمر الآن بفترة التغيير ، ولعله سيبلغ من جديد ذرى رفيعة .

هـ . ب . — بضع كلمات اخرى عن ثقافة الغرب . . . في السابق كنا نصادف مصطلحي «الموديرنيزم» و«الانحطاط» كثيرا جدا في المؤلفات النظرية . والآن نادرا ما نصادفهما .

ج . أ . — ما سبب ذلك ؟

هـ . ب . — ربما لان استخدامهما تكرر لدرجة لم يعد بالامكان التمييز بواسطتهما بين الظواهر الفعلية . لكن تلك الظواهر موجودة مع ذلك .

ج . أ . — لا موجب للخوف من الكلمات . كل ما يلزم هو ان نتصور بوضوح ما ترمي اليه .

فالموديرنيزم والانحطاط يعكسان مواقف معينة يمكن التشكيك فيها وانتقادها مع تحاشي الافراط في التهجم . فلهذين التيارين تجربتهما ، وفيهما عناصر حية . . .

هـ . ب . — اذا كان فيهما مثل هذه العناصر فذلك ، في رأيي ، يرتبط بكون الكثير من «النزعات» قد ظهر في بداية القرن الحالي احتجاجا على البرجوازية المتغطرسة .

ج . أ . — ربما كانت هذه «النزعات» قد ظهرت احتجاجا على القوانين الجامدة للثقافة والفن اكثر من كونها احتجاجا على المجتمع القائم . وعندما يبلغ تيار معين في الفن ذروته ويتجه نحو الركود يتجمد في قوالب عقائدية . وفي تلك اللحظة تظهر «نزعة» ما تحاول تذليل الركود الجمالي وتقترح احيانا نظاما للاعتبارات شاذا او خارقا .

هـ . ب . — فلنتوقف قليلا عند هذا المفهوم : «الاعتبارات» . لقد استشهدت بوسيلة اصطلاحية من الاعتبارات في رواية كوبو آبا . واذا عبرنا عن ذلك بالمصطلحات المستخدمة عندنا فالمقصود هو وسيلة فنية مستندة الى افتراض

بان الميت يمكن ان يتكلم . واذا كان الكاتب ، عندما يستخدم هذه الوسيلة ، يحتفظ بالواقعية فمن الممكن ان نطبق على هذه الحالة الملموسة ايضا الموضوعة التى طرحتها انت بقولك ان العالم كله يجب ان يكون حاضرا فى النثر . واذا كنت انسب هذه الموضوعة مباشرة الى هذه الحالة (مع ما فى ذلك من ابتذال) يحصل ان اقتراف الجريمة ليس صعبا اليوم ، ولكن الصعب هو تمويهها وسترها . فالعالم المعاصر يمتلك طائفة واسعة من وسائل وطرائق الكشف عن الخبايا (فى ميدان التحقيقات الجنائية على الاقل) . والكثير من الناس يعرفون بوجود تلك الطرائق ولذا فان مثل هذه الوسائل الفنية تحظى بالتفهم لدى القارئ . وعلى العموم فهذه الوسائل لا ترفض ولا تثير النفور .

ان الادب فى جمهورية المانيا الديمقراطية يستخدم على نطاق واسع وسائل الاعتبارات الاصطلاحية . وفى الآونة الاخيرة يقبل النثر كثيرا على استخدام الاساطير والحكايات والمواقف الافتراضية ، كما يستخدم على نطاق واسع عناصر اللعب والاشارات والخطوط البيانية وهلمجرا . وبعبارة اخرى فان الفنانين يقفون موقف الجد من الجانب الوهمى الملازم لاى فن . علما بان هذه الوسائل تستخدم فى الآونة الاخيرة بشكل متسارع . ولو حاولت العثور على مصطلح مطروق للدلالة على هذه الوسائل الفنية لاستخدمت مفهوم بريخت : «الاغتراب» او «التجرد» كمرادف المانى «للاعتبارات» . . .

لقد قلت فى حديثك المذكور آنفا الى فكتور ليفتشينكو من اجل مجلة «قضايا الادب» : «ان الواقعية توفر مزايا كبيرة لان للمناهج الاخرى فى الفن كثيرا من الاشتراطات

الشكلية (فهى توقع معنا عقدا) ، والنثر الواقعى وحده خارج على **التعاقد** . ففى هذا النثر لا يمكن للمرء ان يتكلم عن نفسه فقط ، فهو دوما يتكلم اكثر عن العالم حتى وان كان يعترف» .

انا متفق معك بخصوص مزايا الواقعية . ولـكـن الا تستخدم الواقعية الاعتبارات الاصطلاحية ؟ فـانـنا ، على ما اعتقد ، وافقنا على ان الواقعية توسع امكانياتهـا باطراد . . . .

ج . أ . ـــ الفن عموما لا يستغنى عن الاعتبارات الاصطلاحية والاغتراب والتجرد والخيال . فلنأخذ الباليه . عنصر الاغتراب والتجرد والخيال فيه قوى جدا . ولديه خواصه المقننة : المرونة والرشاقة والايقاع والوتيرة . فالحماس والحزن تجسدهما مرونة الحركة فقط . كل ذلك استطيع ان استوعبه ، مع اننى ادرك دائما ان الناس فى الواقع لا يتخاطبون بواسطة الرقص .

ويمكن قول الشىء ذاته عن المسرحية . فانت تجىء الى المسرح وتعرف مسبقا ان الستارة سوف ترتفع والممثلين سوف يظهرون ويبدأون التمثيل وهلمجرا . ولذا من الحماقة الاعتراض على الاعتبارات الاصطلاحية والخيال . ولكن السؤال هو ما مدى المهارة التى تستخدم بها ؟

هـ . ب . ـــ وبأى تركيب فنى ؟

ج . أ . ـــ صحيح ، باى تركيب ؟ فاذا تناولنا النثر نجد ان الافراط فى استخدام الرموز والاستعارات وهلمجرا لا ينفعه دوما . فانا مثلا احاول ان اتحاشى هذه الوسائل فى الكتابة . لانها تضفى على النتاج صفة «بدائية» .

هـ . ب . ـــ واذا كان الكاتب يعجز بدونها عن تحقيق فكرته الفنية ؟

ج . أ . ـــ فى هذه الحالة ينتقل الفن الى لغة الرموز . ولكن اذا كان بالامكان الاستغناء عنها ، واذا كان الفنان يعثر على حلول اخرى فالاستغناء عنها ، فى رأيــى ، افضل . واستشهد هنا بمؤلفاتى المبكرة ، فليس هناك ما يدعونى الى التنصل عنها مع انها مكتوبة بصيغة رومانسية ان صح القول .

وانا اعرف ان الكثير من مؤلفاتى المبكرة له طائفة واسعة من القراء . واليوم ، عندما اكتب باسلوب آخر ، اجد لدي ، حسبما تشير اليه بعض الدلائل ، عددا اقل من القراء . ولا اقول ان ذلك خذلنى . فان نتاجاتى الاخيرة مخصصة بالدرجة الاولى لقارئ مؤهل . واقصد بالتأهيل ليس فقط مهارة معينة فى قراءة الكتب ، بل بالدرجة الاولى توفر الخبرة الحياتية والاطلاع على القضايا التى تشغل بال العالم .

لهذه الاسباب احاول ان استغنى عن التجريدات التى تعقد النص وتجعل لوحة العالم بدائية . فى قصتى الاخيرة «الكلب الابقع يعدو على ساحل البحر» تجرى الاحداث فى البحر . شخوص القصة فى موقف حدودى . والقارب هو العالم . وليس ممكنا بالنسبة لي ان اعثر على موقف من القضايا البسيطة لهذا العالم بواسطة الرموز وما شابهها . فانا ارى مهمتى بان اعرّض الاساس الاخلاقى للبطل الى اقسى امتحان .

وفى الواقع فان النثر المعاصر كله مشغول بمثل هذا

الامتحان ، حيث يطرح على المجتمع مسألة مدى استجابة تصرفاتنا الشخصية للمتطلبات العامة ولبسالتنا التاريخية .

هـ . ب . — اريد ان اتناول مواضيع اخرى ذات اهمية متزايدة لتطور الادب فى المستقبل . كيف هى الامور ، مثلا ، فيما يخص قضية البيئة المحيطة بنا ؟ او — فى قطاع آخر من مواضيع الادب — كيف تحل قضية تأليه الاشياء ، قضية السيكولوجيا الاستهلاكية ؟

ج . أ . — كلا هذين الموضوعين هامان جدا بالنسبة لفننا . انت تعرف الاحداث التى دارت حول بحيرة البايكال . طبيعى ان الاخصائيين والعلماء قالوا كلمتهم المسموعة دفاعا عن البحيرة الفريدة . ولكن مصيرها لم يصبح شغل الشعب الشاغل الا عندما تكلم عنها الكتاب . وقبل بضع سنوات ناديت انا نفسى فى حديث الى «الجريدة الادبية» بالحفاظ على الجمال الطبيعى لوادى فرغانة . ويخيل الى ان حماية البيئة الطبيعية من اول واجبات رجالات الثقافة والفن .

اما قضية النزعة الاستهلاكية ففيها جوانب كثيرة جدا . بديهى اننا لا يمكن ان نلتزم جانب الحياد ازاء جشع الانسان المبتذل . ولكن ذلك لا يعنى اننا ننادى بالتقشف . فالذين يصنعون الثروات المادية لهم الحق فى استخدامها . ولكن اين الحدود التى يبدأ خلفها مرض «تأليه الاشياء» ؟

ان مسألة تلبية المتطلبات المادية للسكان لا تزال مطروحة بحدة فى العديد من البلدان . فاى علم يجب ان يطرح مثل هذه المسائل على الصعيد الروحى ؟ اننى لا اريد باى حال ان ارفع الادب الى مقام اعلى من سائر المقامات . لكن وسائله الخاصة قادرة تماما على معالجة هذه القضايا .

فما الذى يستطيع الادب ان يختاره معيارا يحدد قصور التقشف وقصور تأليه الرفاه ؟ يخيل الي ان العقل فقط هو ذلك المعيار . واعنى بالعقل فى هذه الحالة المعيار الصارم والمبدأ الدقيق الذى يرفض بؤس المتطلبات ويضع عائقا امام التخمة . ومهما كان الجانب الذى نعالج منه هذه القضية نواجه متطلبات جديدة ونجد امكانيات جديدة للنثر الحديث .

هـ . ب . — لم يبد ادبنا حتى الآن اهتماما كبيرا بالنزعة الاستهلاكية ، فى حين ابدى الادب السوفييتى ، على حد علمى وخصوصا المسرح ، وفى النثر عند يـورى تريفونوف مثلا ، اهتماما كبيرا بهذا الموضوع . والحلول الفنية الملموسة ، حسبما لاحظته بنفسى ، مثار جدل فى اغلب الظن بالمقارنة مع آراء البرجوازية الصغيرة التى انتشرت اثناء نمو الرفاه . ان ديالكتيك العلاقات بين الفرد والمجتمع غالبا ما يجرى الاخلال به ليس لصالح المجتمع ، واحيانا ينعزل الفرد تلقائيا ولا يعود مهتما بالحياة الاجتماعية والسياسية ، ويظهر تفكير الوجاهة ، ويؤدى ذلك فى آخر المطاف الى محو الشخصية الفذة . وقد اصبت عندما تحدثت عن معيار العقل . . . .

ظهرت عندنا فى الآونة الاخيرة بعض المؤلفات التى يتدارس اصحابها الضمير او الوجدان البشرى . واعتقد ان هذا المفهوم اذا تناولناه عن قرب ليس مائعا اطلاقا . ولدى ماركس تعريف يعزز الفكرة القائلة بان النثر الحديث يجب ان يتناول الحالة الراهنة للعالم كله . فقد قال ماركس **ان الضمير مرتبط بالمعرفة وبمجمل نمط وجود الانسان** .

واذا كان الكاتب يفكر فى العالم كله وهو يكتب النثر ، واذا انبثق مفهوم الضمير من مجمل نمط حياة الانسان فالنثر عندئذ لا يستطيع ان يستغنى عن محاولة دراسة هذا الميدان .

ج . أ . — ولكن ربما من غير الصحيح اعتبار موضوع الضمير موضوعا خاصا فى الادب . فكل ما يتحدث عنه الفن يتحدث عن ذلك . فالضمير ، بصياغة عامة ، هو الحافز الداخلى والكابح الداخلى : ما المسموح به وما الممنوع ؟ ما الرائع وما البشع ؟ اذا كان عندك ضمير وتقتل انسانا فانك تنتحر بعد ذلك . واذا كنت معدوم الضمير فانك ستنام قرير العين . والحال على هذا المنوال فى كل المسائل . يمكن ان تثير غيظ شخص بكلمة متسرعة . فاذا كان عندك ضمير فانك تعتذر من ذلك الشخص . وتلك هى ابسط مظاهر الضمير . وهناك مقامات اعلى منها كالضمير الاجتماعى والوطنى .

لكن ما يثير الدهشة اننا جميعا نفهم ما هو الضمير ونطالب به ، لكنه تحدث دوما هزات تتساءل البشرية بعدها مرتعبة اين اختفى الضمير ؟ الضمير هو «انا» ، و«اناى» هى الضمير . «فالأنا» عندما تقيم اتصالات مع الآخرين تهتدى بالضمير والوجدان . وتبدو العلاقات الشيئية ثانوية مشتقة بالمقارنة مع منطلقات «الانا» البشرية . ومن مشتقات الضمير والوجدان كذلك الخصال الاخرى مثل المبدئية والحنث ، او التواضع والكبرياء . لقد جعل الادب والفن مسائل الضمير منذ البداية موضوعا اساسيا انصب عليه اهتمامهما . فالدافع الرئيسى عند دوستويفسكى هو المشاطرة والعطف على المساكين .

وانظاره متجهة دوما صوب المسحوقين لاسباب تاريخية واجتماعية والذين عليهم ان يثبتوا حقهم بانهم بشر . ولكى يحافظ المرء على الكرامة الانسانية فى نفسه وفى نفوس الآخرين يجب ان يفهم بان هذه الكرامة قائمة بفضل قوانين المعاشرة فقط . وعندما اهين كرامة شخص آخر لا ينبغى لى ان اتصور بان كرامتى ظلت غير مهانة .

كل ذلك من ميادين الضمير . وترسيخ مبادئه السامية واجب مقدس على الواقعية الاشتراكية .

فى العام الفائت نشرت «الجريدة الادبية» مقالة كبيرة بعنوان «الزوبعة» كتبها صديقى اركادى فاكسبيرغ . توجهت جماعة من السياح الشباب الى الجبال . وكانوا فى الظروف العادية اناسا نجباء من مهندسين وموظفين وغيرهم . وكانوا مرحين تربط بينهم علاقات ودية . وفى اعالى الجبـــال داهمتهم زوبعة واشتد الصقيع وتساقط الثلج . كان بين السياح صديقان حميمان . واثناء الزوبعة وجد احدهما نفسه فى نتوء ضيق على شفا هاوية . وكان يتحلى بضمير حى . طلب من الجميع ان يتخذوا اجراءات الحذر والحيطة ثم يتقدموا لنجدته . لكن الآخرين ، ومنهم صديقه ، كانوا يفكرون بانفسهم فقط . فنسوا رفيقهم فتجمد . وعندما تمكنوا اخيرا من اشعال نار اخذ الاقوياء يزيحون الضعفاء عنها . وهنا انهزم الضمير .

ضميرنا عرضة لامتحانات دائمية . وكل ما يلزمنا هو ان ندرك ذلك بوضوح . واذا تناولنا نطاقا اوسع كالعلاقات بين الشعوب والانظمة الاجتماعية تكتسب نتائج «الامتحان» وزنا خاصا . فى بعض الاحيان تخرج البشرية من حراجة

الموقف موفورة الكرامة ، لكنها في الغالب تمنى بالهزيمة .

هـ . ب . — تكلمت عن ذلك بمشاطرة داخلية متميزة . ولكن بسبب ضيق وقتنا اسمح لي ان انتقل الى السؤال التالي بلا مقدمات تقريبا .

طالب بيهير الكتاب بجهد متفان ليس في نوع ادبي واحد ، بل في انواع كثيرة . فان الضيق في نطاق الابداع في رأيه يمكن ان يسفر عن ضيق في العمق . وبالمناسبة فقد قال غوركي ايضا ان الكاتب المحترف يجب ان يجيد كل شيء .

نحن نعرف انك تكتب نثرا ونتاجات في الادب الاجتماعي والمقالة ، ولا تستنكف عن المسرحيات وتعمل من اجل السينما . ما هو موقفك من الشعر وما رأيك في قول غوركي هذا ؟

ج . أ . — اعتقد ان غوركي وبيهير على حق . ففي افضل الاحوال يكون من الجيد تماما بالطبع لو ان الكاتب استطاع ان يعبر عن مكنون نفسه في الوان ادبية مختلفة ولو استطاع ، مثل شيفا المتعدد الايدي ، ان يكتب النثر بيد والمسرحية والادب الاجتماعي بيد اخرى والمقالة والمذكرات وهلمجرا بيد ثالثة . وهذا يمكن مقارنته بحالة الانسان الذي يجيد لغات كثيرة . وبازدياد عددها تزداد الامكانية لاستيعاب العالم والتعبير عن مكنون النفس . الا ان تعدد الانواع والالوان الادبية امر جيد بشرط واحد هو الا يهبط الكاتب الى مستوى اوطأ . اما انا فليس بوسعي ان اقول بانى ميال كثيرا الى تنويع الوان الابداع ولا اقول بان لدى

مهارة فى هذا المجال . الا ان ما آخذ على عاتقى انجازه احاول ان افعله على المستوى المطلوب .

واريد ان أؤكد مرة اخرى ان من مزايا المؤلف لو اجاد انواعا ادبية كثيرة بما فيها الشعر . . .

هـ . ب . — الم تقرض الشعر ؟

ج . أ . — كلا ، ابدا . يجب التزام الجد ازاء اى عمل ، ويجب على المرء ان يعرف حدود طاقاته . انا لا انظم الشعر ولا اطمح الى نظمه .

هـ . ب . — شاهدت مسرحيتك «تسلق فودزياما» فى مسرح «سوفريمينك» فى موسكو . وخيل الي ان مستوى التمثيل اوطأ من مستوى المسرحية .

ج . أ . — ليس بوسعى ان اقول ان استلامى «رتبة» الكاتب المسرحى قد جرى دون ان يعكره شىء . فالمادة فى البداية كانت مخصصة لقصة وليس لمسرحية . ولكن المسرح عندما اقنعنى ، عن طريق غالينا فولتشيك واوليغ تاباكوف ، بان موضوعى يصلح للمسرح اكثر عرضت الحبكة على صديقى الكاتب المسرحى الكازاخى كالتاى محمدجانوف الذى شاركني فى التأليف فيما بعد . فقد كتب باللغة الكازاخية الصيغة الاولى التى ترجمتها انا الى الروسية . لقد تعاونا واكمل بعضنا البعض فظهرت المسرحية .

وفيما بعد ، اثناء العمل فى اخراجها ، عندما اعترضتنا مختلف الصعوبات التنظيمية ، قررت ان لا اعود الى كتابة المسرحية .

ولكن اثناء رحلتى الى اميركا تسنى لى ان ازور مسرح «ارينا ستيج» فى واشنطن فشاهدت العرض الاول لهـذه

المسرحية . وعندما رأيت كيف تقبل المسرحية اناس من بلد بعيد وعالم غريب فأثرت فيهم وأثارت لديهم مختلف الافكار فكرت بان هذا العمل يستحق ان امارسه مع ان الوقت حتى الآن لا يتسع لذلك .

هـ . ب . — اطلعت قليلا على الحجج المؤيدة والمعارضة للمسرحية وابطالها . وانا استخدم هنا مصطلح «البطل» متعمدا لكى انتقل الى القضية التالية . اثناء المناقشات حول المسرحية اعرب البعض عن الاسف لان مسرحيتك يعوزها الرنين البطولى .

لكننى الآن اريد ان نتحدث ليس عن المسرحية نفسها بل عن قضية البطل . وعندما نستخدم هذه الكلمة لا يمكننا نسيان معناها والتجرد عن مفهوم البطولى ، ولذا فالكلام يتطرق عفويا تقريبا الى البطل الايجابــى .

ج . أ . — ازالة الخلط فى المصطلحات من شأن النظريين . وليس بوسعى هنا الا ان اعرض بعض الافكار .

ان ما يقصده النقاد بمصطلح «البطل الايجابــى» لا يندر ان يتحول الى مفهوم غليظ . ولا اريد ان اجادل النقاد ، لكن تكرار هذا المصطلح يعيقنى وكأنه ينتزع الحياة مما حققه الكاتب بالمعاناة .

واذا لم يكن البطل شخصية ، بل يتحلى فقط بطائفة كبيرة من الخصال الجيدة فهو لا يتمتع بالجاذبية ، وفى افضل الاحوال يمثل ايقونة جميلة . ان ابطال الادب الجاد اناس اشداء يطفحون بالتناقضات والغنى الروحى . وعلينا ان ننطلق من وجود اناس لم يتمكنوا لسبب او لآخر من تحقيق قابلياتهم بالكامل الى جانب الابطال الذين لا جدال فيهم او الابطال المثاليين ان صح التعبير . ومن واجب الادب

ان يدرس الشخصية كمركز لحياة المجتمع فى ظل كل الظروف الاجتماعية والاقتصادية .

وبهذه المناسبة اريد ان اذكر بضع كلمات عن تطور البطل . فقد تميزت السنوات الاولى من الثورة * بتجسيد الحمية الرومانسية فى الادب . ومع تطور مجتمعنا انتقلنا الى الواقعية الرصينة . انتقلنا من الوعظ التربوى ، من تجسيد الصور المثالية الى الطابع التحليلى فى السرد ، الى استيعاب الاشياء المعقدة .

هـ . ب . — لقد ناقشنا مرارا مسألة المراحل المتنوعة فى تطور الفن الاشتراكى وقضية التقدم التى لا تنفصل عنه . ونحن نربط دوما شيئا ما ايجابيا بكلمتى «التقدم» و«الرقى» . فما هو رأيك فى الجانب الانسانى من التقدم العلمى التقنى المعاصر ؟

ج . أ . — نحن نعرف ان الثورة العلمية التكنيكية تؤدى الى انقلاب ليس فقط فى العلم والتكنيك ، بل وفى المجالات الاخرى فتحقن حياتنا بحقنة مركزة جدا من العقلانية . فهل يتعين علينا ان نرضخ لها ؟ وهل يتعين علينا ان نتخلى عن المشاعر والعواطف ونضع انفسنا تحت رحمة العقلانية ؟ ان البشرية اليوم ، مع الاسف ، لا تلحق من الناحية الاخلاقية بمنجزات عقلها ويديها . فهناك هوة بين هذه وتلك . وفى عصرنا الكونى ، حيث حط الانسان على القمر وبلغت المحطات الاوتوماتيكية الكواكب النائية غير المدروسة وازدادت قدرة الانسان الى حد مهول ، كل شىء يتطور بسرعة خارقة .

---

* المقصود فترة العشرينات — **المترجم** .

وفي هذه الظروف ينتظر ان تزول الجرائم والانانية والحقد والثأر اما فى الواقع ففى الكثير من بلدان العالم يزداد عدد الجرائم الجنائية ويلاحظ انحطاط الاخلاق . كل ذلك يثير قلقا شديدا .

هـ . ب . — ان حالة العالم هذه تثير اهتمام الادب الى اقصى حد . وهذا يحملنى على الانتقال رأسا الى سؤال آخر . هل تعتقد بان من الممكن او اللازم ان نطالبه بان يهيـئ موديلات لواقع المستقبل الافضل ؟ لا اعنى هنا الطوباويات ، ولكن اليس من شأن الادب ، عندما يدور الكلام عن الاخلاق ، ان يهيـئ موديلات معينة ويصور المواقف المنشودة التى ينبغي ان تطرح على بساط بحث الشعب كله ؟ اليس من شأن الادب ان يركز على الامانى والطموحات التى ينبغى ان تدرج ضمن برنامج مجتمع المستقبل ؟

ج . أ . — يجب على الادب دوما ان يتناول المسائل العامة ويتطلع الى المستقبل . ولعله لا يستغنى عن «الموديلات» .

الا ان صور المستقبل الخلابة الوادعة التى يرسمها بعض الادباء لا تسلى الا الاطفال . فالقارئ الجاد الراشد يهتم اول ما يهتم بانسان الغد من خلال نظام العلاقات الانسانية . وهذا النظام ، كما يخيل الي ، يجب ان يكون مادة للتخمين الادبـى والفنى او لوضع «الموديلات» اذا استخدمنا المصطلح الذى اقترحته انت .

هـ . ب . — ما رأيك ، بالمناسبة ، فى آفاق التقارب بين ثقافات مختلف شعوب العالم ؟

ج . أ . — ان فكرة الثقافة العالمية العامة من اهم افكار البشرية . ويجب تناولها بشكل خلاق . فالثقافة الفنية

او الادبية ، وكذلك «الموديلات» التى تضعها لا يمكن ان تكون متماثلة ولن تكون متماثلة فى كل مكان .

والمطلوب هو التفاهم على اساس مبادئ النزعة الانسانية والايمان بمستقبل البشرية الافضل . ونحن جميعا نطمح الى هذا الهدف من جهات مختلفة . والاسرة الاشتراكية هى البداية ، هى الميدان الرئيسى اليوم للتضامن الاجتماعى والروحى الذى تنطلق منه الافعال المبدئية لخلق ثقافة انسانية عامة وتقدمية حقا .

هـ . ب . — بودى ان انتقل الآن الى مسألة ليست كبيرة الى هذا الحد ، ولكنها ليست ثانوية على الاطلاق فى حياتنا الادبية .

والمقصود هو الصدى الاجتماعى للنتاجات الفنية وصراع الآراء حولها . فقد نشرنا عندنا المناقشة التى نشرتها «الجريدة الادبية» («ليتيراتورنايا غازيتا») حول «السفينة البيضاء» . وحظيت هذه المناقشة بصدى واسع عندنا بوصفها مثالا للمناقشات الجادة العميقة ، حيث تتميز مواقف المشاركين فيها بالتفاهم والاحترام . ويخيل الى انه عندما يفرض رأى واحد لا مجال للجدال فيه عن النتاج الفنى فان ذلك يتعارض مع جوهر الفن .

ج . أ . — ان الجدل وتصارع الآراء شرط طبيعى لتطور الفن . وهذا لا يستبعد قيام جهة ما — هيئة التحرير او ناقد مشهور — بمهمة عرض حصيلة الآراء بعد المناقشة وبعد ان يدلى الجميع بآرائهم .

وعندما يبقى النتاج خارج اطار المناقشات الانتقادية ويكتسب صبغة الاثر الذى لا جدال فيه بل وحتى النموذجى ،

فانه يغدو بالتدريج من معروضات المتاحف . ان هذا التقنين يلحق الضرر حتى باروع النتاجات .

هـ . ب . — اريد ان أسألك عن موقفك من النقد عموما .

ج . أ . — فى السابق كان موقفى هادئا تقريبا . وربما يعود ذلك الى مستوى المقالات النقدية التى بلغتنى وهى مقالات يسودها التقييم السطحى والصبغة الاستعراضية . اما الآن ، حيث صرت اطول عمرا واكثر نضجا ، فقد غدت قراءة المقالات النقدية الجادة امرا ضروريا بالنسبة لى ، واعنى المقالات التى تجمع بين التحليل العميق والتعميم الجاد وتتحدث ليس فقط عن نتاجات معينة ، بل وعن الاتجاهات والعمليات . ان مثل هذه الدراسات تحملنى على التفكير . الا تعرف قصتى غير الطويلة «وجها لوجه» عن الهارب ؟ يمر القطار به بمسقط رأسه فينزل منه فى المحطة ويتأخر فى اللحاق به والخ . عندما كتبت هذه القصة كانت خبرتى فى الكتابة والحياة قليلة . وقبل قليل صدرت قصة فالينتين راسبوتين «الهارب» وهى ذات موضوع مماثل . وتفصل عشرون عاما بين هاتين القصتين . بديهى ان الادب تطور خلال هذه الفترة واغتنت خبرته الفنية .

ولو تناولت هذا الموضوع الآن لمعالجته بشكل مغاير تماما . فخلال السنين التى مرت منذ ذلك الحين تعلمت فهم امور كثيرة . علما بان النقد والدراسات الادبية ساعدتنى فى ذلك . فالنقد يغذى الافكار والمحاجحات التى من شأنها ان تمكننى من كتابة هذه القصة بشكل اقوى .

هـ . ب . ـــ ما هو مدى تأثير ظروف تربيتك على الصور والشخوص التى ابدعتها ؟

ج . أ . ـــ تناولت ذلك فى الحديث الذى اشرت انت اليه ، حيث دار الكلام عن انطباعات الطفولة التى ادرجت ضمن «السفينة البيضاء» . . . بالشكل الخيالى الاسطورى الذى انطبعت فيه فى نفسى عندما كنت صبيا . . .

لقد انتعشت صور طفولتى بخاصة عندما الفت قصة «الكراكى المبكرة» * . فان كل ما يعانيه ابطالها الشباب يرتبط بـى وبتجربتى الحياتية بهذا القدر او ذاك . صحيح ان ذلك لا يخص المواقف الملموسة فى القصة . فهى عندى تختلف . ومع ذلك فان مصدر السرد هو طفولتى . والحقيقة ، اذا امعنا التفكير ، فاننا نحمل الطفولة معنا دوما . وهى تصوغ الشخصية المرتقبة . كل ما يتعرف عليه الانسان فى الطفولة وكل ما يعانيه ويطلع عليه وكل المصائب والآلام وكل الاكتشافات ـــ كل ذلك يظل محفوظا لديه الى الابد ويغدو تربة مغذية للخيال وللذكريات . . . قبـــــــــل قليل ، وانا فى طريقى الى هنا ، رأيت فى الشارع شابا وشابة سعيدين . كانا لوحدهما والنهار صاف شفـــاف . لقد فرحت لهما ، لكننى شعرت بالاسف فى الوقت ذاته على فتوتى عندما لم اكن اعرف القيمة الحقيقية لعهد الشباب وللذة هذه الخلوة وهذا الابتعاد عن الجميع . فكرت فى ذلك الشاب ، وفكرت فى الكثير الذى ينتظره ويتعين عليه ان يجتازه لكى يقدر فيما بعد قيمة هذه اللحظات التى لا تتكرر .

* كتبت عام ١٩٧٥ ـــ **المترجم** .

هـ . ب . — كيف تعمل ؟ هل تخطط لمؤلفاتك قبل وقت طويل ؟ هل تحتاج الى تحضير وتصنيف للمادة ؟ هل تستجيب للدوافع الخارجية ام تعمل عفو الخاطر ، على السليقة ، انسياقا وراء حوافز داخلية ؟

ج . أ . — يبدأ المؤلف كل نتاج جديد بطريقة جديدة . وقال احدهم بحق ان كل كاتب هو دوما كاتب ناشئ . يمكن ان تكون لديه خبرة كبيرة ، ويمكن ان يكون قد انهى توا نتاجا كبيرا ، ومع ذلك فهو فى كل قصة جديدة له كاتب ناشئ لان كل نتاج جديد انما يظهر على طريقته الخاصة . احيانا تظهر كأنما عفو الخاطر . فان حادثة جرت بالصدفة او انطباعا من الانطباعات يمكن ان يستدعى سلسلة من الصور التى تحجب كل ما عداها . وفى احيان اخرى تبرز فكرة شاعرية من التأملات ومن تحليل الواقع والطموح الى الكشف عن مضمونه الداخلى العميق . ولا ادرى ما الافضل الاول ام الثانى ؟

هـ . ب . — اسمح لى ان احور هذا السؤال بعض الشيء . يعتبر كثير من المؤلفين عملية الكتابة عملية للمعرفة . فهل تعرف فى البداية دوما ما سيكون فى النهاية ؟

ج . أ . — كلا ، ليس دوما . بالطبع ، تظهر فى عملية الكتابة تغييرات وتعديلات . لكن الكاتب من حيث المبدأ ينبغى ان يعرف لماذا ولاى غرض يكتب . وينبغى لى ان اعرف الموضع الذى سأجد نفسى فيه اذا انطلقت من هذه النقطة او تلك . وهذا لا يستبعد التعرجات او الانحراف عن الطريق المرسوم فى البداية ، وهذه التعرجات يمكن ان ترتبط بالحصول على خبرة جديدة .

هـ . ب . — ما هو تقييمك لعرض نتاجاتك علـــى الشاشة ؟ الا تنوى العمل للسينما مباشرة بدون «وساطـــة» النثر ؟

ج . أ . — عرض الكثير من مؤلفاتى على الشاشة . وموقفى من نتائج العرض مزدوج . فانا افرح عندما تنجح تلك العروض ، واحزن لفشلها . ولكننى واثق من ضرورة القيام بتجارب متكررة . مثلما فى الرياضة . فحتى يتمكن الرياضى من القفز الى قمة معينة يجب عليه ان يجرب ذلك مئات المرات . وبازدياد المحاولات تغتنى الخبرة ويؤدى ذلك الى النجاح ، واحيانا يكون النجاح اكثر من المتوقع . وهذا ما حصل ، مثلا ، «للسفينة البيضاء» . فهذا الفلم الذى اخرجه المخرج بولوت شامشييف قد غدا ، فى اعتقادى وفى رأى اناس كثيرين ، انجازا كبيرا للسينما القرغيزية . طبيعى اننا لو لم نجرب ولم نتفحص صيغا متعددة ولو اكتفينا بالتفكير طول الوقت فيما اذا كان يتعين علينا ان نجرب ام لا لما وفقنا فيه على الاغلب . يجب التركيز على امر واحد ، يجب السعى الى ايجاد اسلوب مناسب لترجمة الأدب الى لغة السينما . وعندذاك يكتسب الادب حياته الثانية ، حياة الشاشة .

هـ . ب . — طالما قادنا الحوار الى التناسب بين الادب والسينما بودى ان استشهد بمقتطف هام ، فى رأيـــى ، من حديثك الى مجلة «قضايا الادب» . فقد قلت هناك «اذا كانت السينما الحديثة سفينة لها صواريها ودفتها ومعداتها فالادب هو محرك تلك السفينة» . واعتقد ان هذا التشبيه صائب للغاية .

لكنك لم تجب بعد على السؤال التالى : هل تعد نتاجات اصيلة لاجل السينما مباشرة ؟

ج . أ . — ليس ذلك من مشاريعى بعد . فانا اتصور هذا العمل فقط بشكل تعاون مع اصدقائى . فى نيتنا تصوير فلم عن جنكيزخان ، وتلك فكرة ليست بسيطة اطلاقا . فهذا الفلم لا يمكن تصوره الا بشكل مسلسل هائل . وتتلخص فكرتنا فى ان نبين بانه ما من قائد عسكرى عظيم او غاز بقادر على بلوغ هدفه ، لانه كان اسيرا للقوى الشريرة التى كان يعول عليها حتى تحول الى لعبة فى ايدى تلك القوى . وانا عندما اطرح الفكرة الآن ، بصورة سطحية طبعا ، اريد ان اقول بان هناك امكانية ونحن نفكر فيها . وستكون تلك مادة اصيلة نعدها للسينما خصيصا .

هـ . ب . — ما هى ، فى رأيك ، قيمة الادب بالنسبة للسينما وقيمة السينما بالنسبة للادب ؟

ج . أ . — هذا سؤال هام . لقد قلت مرارا ان الادب والسينما اليوم فى ترابط وثيق للغاية . وسيؤدى التطور اللاحق ، كما يبدو ، الى توثيق الصلة بينهما . فلا غنى لاحدهما عن الآخر . وهذا يخص السينما التى تعتمد اعتمادا كبيرا على الادب . فالفن السينمائى الحقيقى يطمح الى ان يكون فنا غنيا بالافكار . وهو لا يريد ان يستنسخ الحركة مجرد استنساخ ، انه يتوق الى الكشف عن الحياة الداخلية للانسان . وهذا يتطلب وجود ادب غنى . وتدل خبرة السينما العالمية على ان ذلك بالذات هو الطريق القويم . فان افضل منجزات السينما مرتبطة بالادب بوصفه مصدرا لها . ونتوقع ان يتعزز ذلك الارتباط .

هـ . ب . — ان صناعة السينما عندنا تمارس كثيرا تقديم عروض سينمائية مأخوذة عن النثر لا تضيف شيئا الى النص الاصلى ، وهى مجرد تزيين له لا غير . ولذا غالبا ما ينشأ احساس وكأن تلك هى قوانين السينما كنوع فنى ، وكأن الفلم مدعو فقط الى التزيين وعرض ما هو ظاهرى وسطحى لا اكثر .

ج . أ . — نعم ، يحدث ذلك كثيرا مع ان المخرجين يبررون تصرفهم بالتوجه نحو القارئ المتوسط . الا ان للسينما ، كما للادب ، مستويات متباينة . ولا بد ، طبعا ، من وجود افلام لتسلية المتفرجين . بيد انه يجب ان توجد فى جميع مجالات الفن — وبالمناسبة فى مجال النظرية ايضا — قوى طليعية تبحث بجد عن طرق جديدة .

اطلق القدماء مصطلح الحياة الفكرية على كل ما يندرج ضمن الاهتمامات الذهنية والروحية للانسان ، من السياسة حتى الموسيقى . وهذه الاهتمامات تتسع باطراد فى الوقت الحاضر على نطاق الفرد وخصوصا بين الجماهير الواسعة . فالحياة الفكرية اذن لم تعد ميزة للنخبة ، بل هى ملك لا منازع فيه لجميع الشعوب . وهذا دون شك مكسب ثورى بارز فى القرن العشرين . واعنى انتشار النماذج المتماثلة للحياة الفكرية فى كل مكان ، وذلك بقدر كبير نتيجة لانتشار وسائل الاعلام الحديثة وفى مقدمتها التلفزيون . وليس المقصود هو تقييد هذه الوسائل ، بل بالعكس من الضرورى اضفاء طابع التفكير الخلاق الرفيع على الحياة الذهنية باستخدام منجزات الثورة العلمية التكنيكية الى اقصى حد .

ويعود الدور الرئيسى فى ذلك ، على ما اعتقد ، الى الادب والدراسات الادبية والنقد الادبـى .

ان الادب المعاصر — بافضل نماذجه — يغرس خصال الانسان المعاصر وسجايا الشخصية التى تستجيب لمثلنا العليا الاجتماعية والاخلاقية ، كما تستجيب للخبرة الاجمالية فى كل العصور ، اى للمثل العليا الانسانية العامة . نعم ، تلك هى سابقا وحاليا الرسالة الحقيقية الخالدة للادب . انا افهم ان مثل هذا الموقف ازاء مهمات الادب فى الآونة الراهنة يمكن ان يبدو للوهلة الاولى مبسطا بعض الشىء ، ومع ذلك فان تلك المثل العليا الانسانية العامة الخالدة تبقى هى القضية الجذرية للادب والفن . وذلك لان وظائف الادب يمكن ان تتغير وهى تتغير بالفعل ، لكن اساسه الاول — تجسيد الجوهر الانسانى — لا يتغير .

ولكن لا يستنتج من كون اساس الادب يبقى بدون تغيير ان اشكاله لا تتغير ايضا . بالعكس ، فان تطور وتعمق تصوراتنا عن الانسان والمجتمع والكون عموما ومكانتنا فيه يتطلبان من كل بد حركة وتحسينا للاشكال فى الاطار الواقعى ، وذلك لان الواقعية ، بين كل اساليب التجسيد الصورى للواقع ، هى ذروة تفكيرنا الفنى . وتختلف واقعية الادب العالمى المعاصر عن القصص الواقعية فى الماضى اختلاف هندسة لوباتشيفسكى عن هندسة اقليدس . والادب يشغل مكان الصدارة فى الحياة الروحية للانسان اكثر مما فى اى وقت مضى . وهذا وحده يلقى علينا مسؤوليات جساما .

١٩٧٧

حوار مع الناقد
فلاديمير كوركين

ف . ك . — ذات مرة ، عندما كنت تفكر فى الادب : «ما هو وما الغرض منه ؟» اجبت على هذا السؤال الذى طرحته بنفسك قائلا : «. . . يخيل الى ان المهمة الملحة الاولى للادب هى اليوم العمل على تنقية المناخ الاخلاقى فى المعمورة ، الامر الذى يتميز الآن بأهمية كأهمية الحرص على البيئة الايكولوجية التى لا يمكن بدونها وجود الحياة الطبيعية السليمة» .

ماذا تقول الآن بهذا الخصوص ؟ وما هى القضية الاجتماعية والفلسفية والاخلاقية العامة التى تطرحها هذه المهمة على الادب العالمى ؟

ج . أ . — بودى ان اسميها اصطلاحا بقضية غرس التفكير الحديث . . . وهى بالدرجة الاولى القدرة على التفكير واجادته فى مستوى الافكار الانسانية التقدمية الطليعية ، الامر الذى يعنى فى الواقع الاممية الحقيقية والاحترام الفعلى لاصالة الثقافات واللغات القومية والقيم الفنية التى كدستها جميع الشعوب . وهى اخيرا القدرة على التفكير فى الزمان والمكان والانصات الى نداء المستقبل وتمييزه فى الحاضر .

ان فهم روح المعاصرة من وجهة النظر هذه بالذات يغدو على قدر بالغ من الاهمية اذا اصبح طبيعة ثانية للانسان وفطرة جديدة له .

ف . ك . — قال احد الفلاسفة ان التفكير يعنى الاتصال بالفكر الانسانى المشترك . فما هى ، فى رأيك ، حالة «الفكر الانسانى المشترك» الذى لا وجود للتفكير المعاصر بدونه ؟

ج . أ . — ليس لدى البشرية اليوم ولا يمكن ان يكون لديها ما هو اكثر اهمية من التفكير فى السلام .

ويجب ان تتحول هذه الفكرة الى حماسة تتغلغل فى كل شىء وتستولى على كل شىء وتخلب الباب الجميع وكل فرد وتعتبر من الاصول الاخلاقية لشخصية الانسان .

ف . ك . — اى «معيار» يمكن ان نعتبره هو الاعلى عندما نسمع بوقائع مذهلة محيرة كالتى كتبت عنها مثلا احدى المجلات العلمية المبسطة ؟ . . فى باريس اخذت الزهور النادرة التى جلبت من اميركا اللاتينية تذبل وتذوى فجأة ، فى حين ان الجو رائع . ولم يعثر العلماء على اسباب واضحة لتلك الظاهرة . فقد اتضح ان جفافا رهيبا اجتاح مواطن نموها فى اميركا اللاتينية فذبلت الزهور المماثلة هناك .

فما اقسى العبرة المريرة والحكيمة فى هذا المثال بالنسبة للناس !

الا يعادل معيار الشخصية «ضمير الطفولة» ؟ هاتان الكلمتان من **قصتك** «السفينة البيضاء» .

ج . أ . — ربما هو كذلك .

ويمكن ان نحاول تصور حالة تاريخ البشرية وحياتنا

الراهنة لو اننا نحن البشر الذين نعتبر انفسنا «ذروة الابداع» نستطيع ان نتحسس بعضنا البعض على هذه الصورة ونتنخى لافراح واتراح شعب آخر او شخص آخر .

ف . ك . — يا ليتنا . . . هل هذا ممكن من حيث المبدأ فى المجتمع البشرى ؟

ج . أ . — هذا على الأكثر من الطوباويات . ولكن هل كان يجدر بالانسان ، فى حالة العكس ، فى حالة رفض هذه الفكرة ، ان يتخلص من الكينونة الحيوانية ؟ وهل تجوز الاستهانة بهذه الامكانية ؟ اننى اثق بالانسان !

وهل يمكن الافتراض بان البشرية التى اجتازت طريق التطور الروحى العصيب طوال آلاف السنين وادركت الآن فقط — ولاول مرة فى التاريخ ! — بكل تلك الحدة الرنانة والافتخار عظمة مسيرة الحياة كما ادركت نفسها فى خضم هذه المسيرة العظمى — هل يمكن الافتراض بانها ستوافق على الانتحار والابادة الذاتية ؟ . . ذلك يعنى انهيار الافكار العظمى التى كلف بلوغها ثمنا باهظا عن طريق معرفة الذات منذ ان غدا الانسان انسانا . . .

ان التشاؤم هو انعدام الهدف .

وانا واثق من ان ذلك اسوأ من الموت .

ف . ك . — ما هى ، فى رأيك ، احاسيس الانسان الذى يعيش بدون هدف ؟

ج . أ . — كان ذلك يعتبر من عهد التوراة افظع عذاب . واليك صورة هذا العذاب فى لغة الشعر القديم : «فى تلك الايام سيتمنى البشر الموت فلا يعثرون عليه ، ويرغبون فيه لكنه يفر منهم» .

ف . ك . ـ ما الذى يوحى الينا بهدف اذا تمسك به الانسان يدرك مغزى الحياة الحقيقى ويتخلص من الآلام «التوراتية» ؟

ج . أ . ـ الحياة . يجدر بنا ان نفكر فيما يلى : لو لم يكن هناك هدف اسمى لتوقفت الحياة من زمان وذوت شجرتها وانكسر معها فرعها المفكر ـ البشرية ، لان اى فعل من افعالنا لن يكون له معنى بدون الامل .

ف . ك . ـ ولكن لا بد وانك توافقنى على ان كسب هدف الحياة بسبب الخوف فقط هو . . .

ج . أ . ـ . . . هو خداع للنفس ، سرعان ما يقودنا الى طريق مسدود تماما هو طريق اليأس ، او يعود بنا الى الوراء ، الى العصر الحجرى .

ان الحركة الجبارة من اجل السلام والتى اجتاحت اليوم كثيرا من البلدان والشعوب بقوة منقطعة النظير ليست حملة ظهرت عفويا ، كما يبدو ، ولا بد ان تنتهى حالما يتبدد ظل الحرب الفظيع . انها عملية لا رجعة فيها ، عملية الاستيقاظ الاجتماعى للجماهير والانبعاث الروحى للانسان . لقد دشنت البشرية عصرا جديدا ، بداية تقويمه هى ثورة اكتوبر . واعتقد ان الانسان لم يكن سعيدا وما كان بوسعه ان يكون سعيدا قدر ما هو الآن ، لانه ادرك الكرامة الحقيقية التى يمثلها ، فى رأيى ، العقل المجنح بالحرية .

الشعب هو خالق التاريخ . ان هذه الفكرة العظمى الاساسية فى الثورة والتى جربت فى اتون النضال الرهيب والعمل البناء الملهم قد غدت تلك القوة الجبارة الخارقة

التى وحدت الشعوب المتفرقة سابقا فى دولة واحدة . ولعلى اقول اننا نرى فيها ومن خلالها درجة جديدة فى تطور الجنس البشرى على طريق الاكتمال الذاتى وادراك مغزى الحياة السامى . والاشتراكية هى التجسيد الفعلى لتلك الفكرة . اننا بانفسنا وحدة تاريخية جديدة تسمى بالشعب السوفييتى .

وهذا هو مبعث واجبنا ومسؤوليتنا عن مصير العالم وعن المستقبل . فهل كان هناك قبل القرن العشرين شيء يشبه ما تمثله الآن حركة الشعوب فى سبيل السلام ، تلك الحركة التى نجد بافتخار واعتزاز فى مهدها مرسوم السلام اللينينى ؟

ف . ك . — اذن فالنضال فى سبيل السلام هو بمعنى ما نضال فى سبيل وعى المعمورة ، اليس كذلك ؟

ج . أ . — بلى . لان فى القطب الآخر يتواجد الجنون — مخططات الحرب النووية ومختلف نظريات ومبادئ استخدام سلاح الابادة الجماعية للبشر . ان الكفاح ضد الجنون الذى لم يسبق للبشرية ان رأت مثله والذى يفوق اكثر تصوراتنا اغراقا فى الخيال عن الشر وعن اللبوس الذى يرتديه ، قد بعث فى الوقت ذاته قوة جوابية خارقة هى قوة النزعة الانسانية التى لم نكن نتوقع وجودها فى انفسنا بهذا القدر ، والتى تتجلى اكثر فاكثر فى الافعال ، فى النضال .

ان تفكير البشرية المعاصر ، الادراك المنير لعظمة الابداع التاريخى وافكار السلام ووحدة الشعوب فى مشاعر الاخوة والصداقة انما يتحقق ويتجسد وينعكس بالكامل ، بصورة ملموسة وليس مجردة ، فى حركة السلام اكثر مما فى اى مجال آخر .

ف . ك . — التفكير الجديد يفترض التخلص من التفكير القديم . فمم يجب ان يتخلص الانسان فى رأيك ؟

ج . أ . — من الخوف الشامل المهين ، من الشعور بالوحدة ، من اللامبالاة والقسوة — من كل ما اوحته اليه بوقاحة الدعاية البرجوازية التى تخدم الجنون ، فينجر اليه . ويجرى هذا التخلص الآن بقوة تزداد كلما ازداد عدد الناس الذين يفهمون ماذا يراد منهم وبأية صفة يراد استخدامهم . اعتقد ان اشنع اهانة للانسان هى تكليفه بدور الجلاد . واعنى هنا ، فيما اعنى ، محاولة الدعاية الغربية الشريرة المتعمدة لتهدئة بل لاغواء شعوب بلادها بالحرب زاعمة بان تلك الشعوب ستبقى على قيد الحياة فى حين ستمحى من وجه البسيطة كل الشعوب الاخرى ، وعند ذاك يمكن التمتع بثمار عملها بالكامل .

ف . ك . — هذا شيء ذو مفعول عكسى فقط .

ج . أ . — لا اشك فى ذلك . لكن ما يشغل بالى هو كيف امكن لهذه الفكرة ان تولد ؟ تلك هى ثمرة الجنون .

كلما مر الزمن تضاءلت موافقة الانسان على شيء آخر سوى التقدم بلا نهاية ولا كلل صوب الجديد ، صوب صيانة الحياة ومواصلتها . ثم من الذى يوافق طوعا على التخلى عن اروع هبة من الطبيعة هى ، كما تصور انشتين ، فرحة الرؤية والفهم ؟

ف . ك . — ما الذى تعنيه «الرؤية» بهذا الخصوص ؟

ج . أ . — انها ، فى رأيـي ، تعنى رؤية العالم بعينى الطفل وعينى الحكيم فى وقت معا .

الحياة اعجوبة خالدة . ولا داعى لاقناعنا نحن الكبار

بان هذه حقيقة لا جدال فيها . فنحن نعرف ذلك بانفسنا . ولكن . . . هل نشعر به الآن ؟ هل نشعر به بنكران ذات وبنزاهة مثلما يشعر ، بلا كلمات ، الطفل الذى يولد العالم فى دخيلته من جديد كل مرة ؟ انه يكتشفه عالما رائعا مثلما «فى اول يوم للخليقة» حيث كان العالم كله لا يزال يومض فى ندى الصباح .

فى ذلك بالذات ، فى الحب العفوى المدهش لكل الموجودات ، تتجلى طبيعة الانسان عفويا بخلجاتها الاصيلة الاولى . طبيعة الانسان التى تظل جديدة دائما وابدا .

الطفولة لا تجيد الاندهاش . عهد الطفولة ، مهما بدا ذلك غريبا ، هو اكثر عهود الحياة جدية . فالطفل يحب العالم كله ، يحب جميع الناس . وليس هناك اشخاص غرباء عليه . فهو لا يزال بلا زمان ، وهو متواجد فى كل الازمنة ولا يغادر طفولته الا بعد ان يدرس ، من خلال تطوره الروحى ، التاريخ البشرى كله . فهل تتصور ماذا يرى الطفل وبأية كيفية ؟

ف . ك . — بالمناسبة فليس من قبيل الصدفة ان هذا السر المؤثر يستهوى اليوم ليس الفنانين فقط ، بل والعلماء . ففى احدى المقالات التى قرأتها مؤخرا لاحظت حنينا شديدا لدى علماء الاحياء الذين يحلمون «بالقاء نظرة» على بداية الحياة البشرية : «لو استطاع الوليد ان يتذكر ويتكلم لحكى لنا بعد ولادته قصصا رائعة مثل ملاحم هوميروس ، ولوصف لنا عجائب الاخصاب وامواج الخلايا العصبية التى تتراقص بالمليارات مكونة تراكيب تملأ المادة العادية بالوعى والادراك . . . كل ذلك يبدو كالمعجزة ، كرشقة واحدة من دهان ابيض

تتحول فجأة الى لوحات رائعة متعددة الالوان فى سقف كنيسة سكستين» * .

فى رأيـى ان ذلك هو الشعر الحقيقى ، ناهيك عن ان مضامينه اكثر بكثير مما فى آلاف الابيات الشعرية .

ج . أ . ــ هذا شىء طبيعى .

ف . ك . ــ لماذا ؟

ج . أ . ــ العالم التواق الى اكتناه اعماق الحياة العضوية ولمس المعجزة (ليس باليد اطلاقا والا فهى تهلك) لا بد وان يكون شاعرا حقيقيا . والاهم انه يرى ما لم يره احد قبله ولم يمر به .

ف . ك . ــ الا يستنتج من ذلك ان العالم وحده يتمتع اليوم بمزية الشاعر فى قدرته على «رؤية الخارق فى العادى والعادى فى الخارق» ؟

ج . أ . ــ كلا . ابدا . فنحن نرى وجوه اناس مفعمين بالفرحة وباعتزاز المبدعين .

ف . ك . ــ ما اغرب ان يتمتع بنتاج يديك ليس شخص واحد بل الشعب بكامله وكل شخص فيه ممن كرسوا اعمالهم ونفوسهم للانجازات المشتركة . ما هى ، فى رأيك ، المشاعر والافكار التى تدور فى بال الانسان فى هذه اللحظة ؟

ج . أ . ــ ان شعور الشعب هو شعور التاريخ ، لان التاريخ من صنع يد الشعب . فهو المبدع الواعى للتاريخ ، اى ان التاريخ يعتبر بمثابة مصير شخصى ، مصير يعايشه الانسان فى فؤاده .

---

* مجلة «زاروبيجوم» العدد ١٤ ، ١٩٨٢ .

ف . ك . — يخيل الى ان هذا المفهوم الحياتى يلازم بطل روايتك «يوم اطول من قرن» * مأمور المحطة يديغى . وبالمناسبة فانت تصور فيها الماضى ايضا ، الفترة العصيبة التى اعقبت الحرب . صحيح انها تمر من خلال تصورات البطل وتومض فى الذاكرة . فما هو سبب اهتمامك بها ؟

ج . أ . — لانها بطولية بطبيعتها . وطابعها تحدده روح الشعب ، روح الانسان الذى حول ابشع شر فى المعمورة — الفاشية — الى رماد . آنذاك كانت لمفاهيم «الوطن» و«الشعب» و«البسالة» و«الشرف» و«الضمير» قيمة خاصة . فقد سدد ثمنها بالدماء الزكية التى اراقها الذين استشهدوا ابطالا فى سبيل الحياة على الارض ، واولئك الذين لا تزال تنتظرهم امهاتهم ولا يزالون يترددون عليهن احياء فى احلامهن المريـــرة المحزنة .

اما بخصوص طبيعة مأمور المحطة يديغى ، طالما اشرت انت اليه ، فبوسعى ان اقول بانه ينظر الى الحياة بعينى الحرب . انه يريد ان يرى الانسان بالشكل الذى كان فيه هو نفسه اذا اخطأه الموت . فقد صار يديغى انسانا حقيقيا بسبب المصائب التى تفوق طاقة البشر والتى انهالت على البلاد والشعب وتحمل هو بعض اعبائها كما يتحمل اى عبء آخر من اعباء مصير الشعب بأسره .

العياذ بالله من هذه المصائب التى تجعل الانسان يتعلم ان يكون انسانا . والعياذ بالله من ان يستهين الناس حاليا بالمأثرة التى تحققت من اجلهم وينكروا دين الذاكرة المقدس .

---

* كتبت الرواية فى عام ١٩٨١ — **المترجم** .

ف . ك . — نعم . ذلك هو الآن اقسى امتحان يجربنا التاريخ فيه نحن الاحياء . يقال اذا اراد الله ان يهلك قوما حرمهم من العقل . تلك مصيبة فادحة طبعا . فمن يتجرأ على السخرية من التعاسة مهما كانت مريرة ؟ ولكن اذا حرم المرء من الذاكرة فهذا أسوأ . وليس الله هو الذى يحرمه منها ، بل الناس انفسهم ، فهم يحولونه الى غول يستطيع ان يقتل امه التى ولدته . انا اقصد طبعا حكايتك عن الغول . فذلك طبعا ليس مجرد تاريخ . أليس كذلك ؟

ج . أ . — وماذا تظن انت ؟

ف . ك . — اظن ذلك . وافكر فى وجود شىء افظع هو الغول الطوعى . افليس ثابتجان الذى اختار ان يكون انسانا آليا لا انسانا بشريا من هذا النوع ؟ يخيل الى ان افظع ما فى الظاهرة التى يمثلها هو الاعجاب الشديد الذى يشعر به ويحاول ان يصيب بعدواه الآخرين الذين لم يفهموا «مصلحتهم» بعد : «سيحين زمان يجرى فيه توجيه الناس باللاسلكى كتلك الاجهزة الاوتوماتيكية . هل تتصورون : توجيه الناس جميعا ، صغيرهم وكبيرهم . وهناك معطيات علمية بهذا الخصوص . وقد بلغ العلم هذا الهدف ايضا انطلاقا من المصلحة العليا» .

ان ثابتجان ، بالاضافة الى كل ذلك ، يدعى بانه انسان جديد وشخصية فائقة مطلعة على «المصلحة العليا» .

ج . أ . — وهذا ما يجعله مضحكا . لقد اردت ان اعرض ابتذال ولامعقولية «فلسفته» التى لم يعد اصلها خافيا على احد ، فهو واضح ، انه روحية البرجوازى الصغير والنفسية الاستهلاكية . . .

ف . ك . — وهل يعتبر شلل الذاكرة نتيجة لذلك ؟

ج . أ . — بل لعله السبب الاول . فالذاكرة هي ضميرنا الذى لا يرحم . والضمير لا يسمح للانسان ابدا بان يخون المثل الروحية العليا عفويا ، ناهيك عن التعمد فى ذلك . ان ثابتجان ملزم ، بل مضطر ، ان شئتم ، على ان يكف عن ان يكون انسانا (فالشخصية الفائقة ليست الشيء المطلوب) ، وذلك لكى ينساق بهدوء للجشع والوصولية وهلمجرا . ثم ان رغبته فى نشر «نظريته» امر مفهوم ايضا حسب منطقه . فهو يريد جعل «السذج» يتبنون عقيدته ليحرمهم من حق الحكم عليه معنويا . فالناس يثقلون على الانسان الآلى (الروبوت) . وهو يتذمر حتى من عتابهم الصامت . وثابتجان هو الآخر يرتبك ويتململ ويتلوى امام ابيه ، ومن باب اولى امام يديغى . وهو لا يتحمل نظرتهما .

ان حياة الانسان الذى يجتاز طريقه بكرامة ويكرس عمله وحياته للآخرين هى ما يكشف الشر عن وجهه ويفضح نفسه امامه مهما كان اللبوس الذى يرتديه .

ان التاريخ ومصير الشعب هما الذاكرة التى لا يستطيع الانسان امامها الا ان يتوجه صوب التفكير فى العالم وفى نفسه .

وذلك امتحان لا خيار فيه . فالشخص الضعيف النفس يقاوم الامتحان ، فى حين يواجهه القوى ولا يخشاه . ولكن لا احد يستطيع تفادى هذا الامتحان .

ف . ك . — الا انك تمتحن بطلك احيانا بقوى «عمياء» معادية للانسان ، كالسهوب والجبال والمحيط . . .

ج . أ . — انها عمياء طالما ننظر اليها بخوف دون

ان نفهم طبيعتها . وكل ما لا يفهمه المرء يبدو معاديا له . ولكن لماذا اجتذبت تلك القوى الانسان بكل شدة من اقدم الازمان ؟ وما الذى دعاه الى اكتناه طبيعتها ؟ اليس السبب فى ذلك انه هو نفسه قوة من تلك القوى الطبيعية ، لكنها قوة مفكرة تسعى ، باكتئاب على ما اظن ، لتتذكر ذاك الزمان الذى كان فيه الانسان يفهم لغة الطيور والوحوش ويعتبرها «اخوة اصغر» له وليس «غنائم» ؟

اننى لا ادعو الى الطعام النباتى . لكننى ضد القسوة اللاانسانية التى غدت من الاصول التى يبررون بها ابادة كل ما هو حي من اجل البطون . اننى انادى «بالمعاملة الطيبة للخيل» .

واذا تعلمنا ذلك سندلل على اننا اناس معاصرون . فلا يجوز احترام الفرد الذى يعامل امه — الطبيعة معاملة همجية ويفتقر الى الخيال لدرجة لا يتصور فيها مدى البؤس والفاقة والنسيان والوحدة التى يحكم بها فى المستقبل على احفاده الذين لن يكون لهم علم بان الطيور كانت تزغرد فى زمن ما وان الزهور كانت فواحة مزدهرة وان الوعل الابيض كان يخلب ألباب الناس برشاقته المدهشة .

اجل ، ان الانسان مدعو لتغيير العالم . وسيحقق ذلك على الوجه الاصوب اذا تذكر دوما ان هذا غير ممكن الا «بالتعاون مع الارض والماء» كما قال الشاعر .

انا واثق من ان الامور ستجرى على هذا النحو . فان «قانون الطبيعة» هو قانون دولتنا الذى حظى باستحسان الشعب بأسره . وان الاجيال القادمة التى سترث وطنا رائعا سترانا فيه وستذكرنا بامتنان كما نتطلع نحن اليوم الى الارض البكر

السابقة ونطأطئ رؤوسنا اجلالا لاولئك الذين دفأوها بحرارة قلوبهم ووهبوها الحياة بعملهم المتفانى وبسهر الليالى .

ف . ك . — هل تعنى ان الانسان يبدع الخلود بنفسه .

ج . أ . — هذا ما اعنيه بالذات . وذلك هو «الامتياز» الوحيد للانسان المبدع الذى يلهم عمله حب للناس لا ينضب وطموح لمساعدتهم فى الصمود والانتصار ، سواء كان ملحنا يخلق سمفونية او كولخوزيا يزرع القمح او عاملا يبنى المنازل او بحارا يمخر عباب المحيط . . .

ف . ك . — . . . او كاتبا ؟

ج . أ . — اذا كان نتاجه يضاهى من حيث قوة التأثير الملحمة التى هى اروع الملاحم والمكونة من كلمة واحدة «الارض» تنطقها شفتا انسان يتطلع الى الامام فى لحظة حرجة من اليأس والقنوط وهو فيها احوج ما يكون الى تلك الكلمة ، اليوم ، اليوم اكثر مما فى اى وقت مضى . ذلك لان البشرية ربما تمر باعقد ساعة فى تاريخها . ذلك لان الانسان رغم هذا ، وربما بفضل هذا (مع كل ما فيه من مفارقات) لم يكن فى زمن ما يتوق الى رؤية جمال الوجود والى تذوق الحياة المترعة الكاملة كما يتوق الآن ، لانه من الآن فصاعدا لا يكف عن التفكير : وماذا بعد ؟

وعلى اية حال هناك امر لا جدال فيه : الانسان بطبيعته لا بد وان يحن الى شىء لم يره ويجب ان يراه ، والا فلن يكون سعيدا .

ف . ك . — كما فى الحكاية الروسية : اذهب ، ولكن لا ادرى الى اين ، واجلب شيئا ، ولكـــــــن لا ادرى ما هو .

ج . أ . ــ بالفعل . فالخيال فى الحكايات واقعى تماما وفيه شفرة المستقبل .

عندما يتساءلون ماذا تعنيه اليوم الكتابة «بطريقة جديدة» فانا واثق من ان ذلك يعنى ، فيما يعنى (وسنعود الى هذه القضية بتفصيل اكبر) ، الطموح الى التعبير عن الانسجام الطافح لاستيعاب الانسان للحياة ، اى رسم لوحة جليلة للعالم كما يلوح امام انظار المعاصرين المشدوهين او كما ينعكس عفويا فى افكارهم ومشاعرهم وافعالهم التى تغير ملامح الانسان نفسه وتحول نظرته فى آخر المطاف الى نفسه .

ف . ك . ــ يخيل الى ان فكرتك هذه صدى لما كتبته فى مقدمة روايتك «ويطول اليوم . . .» : «الخيال كناية عن الحياة تمكننا من رؤيتها من وجهة نظر جديدة غير متوقعة . والكناية ضرورية جدا فى عصرنا ليس فقط بسبب غزو المنجزات العلمية التكنيكية لميدان خيال الامس ، بل على الاكثر لان العالم الذى نعيش فيه خيالى . . .» .

الا تقصد هنا الرد مسبقا على لوم يوجه اليك ويقول بانك لجأت الى «الخيال» منتقصا من التصوير الواقعى للحياة ؟

ج . أ . ــ كلا ، اطلاقا . فلم اكن ارى ولا ارى ضرورة لارتداء درع واق من آراء الغير . بالعكس . فذلك كله ضرورى لى ، ككاتب وانسان ، ضرورة النسيم . وهو يعنى بانى اثرت اهتمام القارئ وشغلت باله لدرجة جعلته لا يتمالك نفسه فيجادلنى او يوجه لى كلمة طيبة لا اكثر .

فهل هناك ما هو اغلى واعز من ذلك ؟ اننى ممتن للجميع من صميم القلب على اهتمامهم وعلى صداقتهم وعلى احكامهم الصارمة .

اما المقدمة فهى تتناول بالذات فهمى لاستيعاب الواقع من قبل الانسان («العادى» كما جرت العادة على تسميته خطأ) الذى يكتشف جمال العالم الخفى الذى عاش فيه سابقا آلاف السنين دون ان يرى جماله .

افليست تلك افجع مأساة من كل المآسى التى تخطر على البال ؟

ثم الا تخصنى هذه الفاجعة انا شخصيا ؟

اعتقد ان ذلك هو السبب الذى يجعل اشد حالات الحزن تداهم الانسان فى اللحظة التى يبدو فيها فى اوج السعادة ، لانه يفكر دوما بالعالم كله ، بجميع الناس الذين هم على قيد الحياة والذين فارقوها من زمان قبله . انه الخوف الجليل من ان يتحول التعبير الاهوج المرح عن الفرحة الغامرة الى اهانة لاولئك الذين لم يستطيعوا او لا يستطيعون الآن ان يشاطرونا فرحتنا .

انا واثق من ان الانسان — وبذلك تزداد انسانيته — لا يمكن ابدا ان يفارقه القلق بخصوص المصير الفاجع لاولئك الذين يعيشون حياة البؤس والشقاء فى اية بقعة من بقاع العالم ، سواء فى شيلى او جمهورية جنوب افريقيا او الولايات المتحدة .

ذلك هو خيال الوقائع الفظيع المتجسد فى عذابات الانسان الذى يتعرض للايلام والقتل لمجرد كونه يرفض العبودية ، ولانه يريد ان يكون انسانا .

وهناك خيال آخر بنفس الفظاعة يتجسد فى انتصار اللابشر الذين يعذبون ويقتلون الآخرين .

ولهذا «الخيال» مسميات كثيرة : الابارتهيد والعنصرية والاستعمار . . . لكن له اسما مشتركا هو الامبريالية .

ف . ك . — لا شك فى ان تصوير هذه الظواهر الفظيعة يحدد بقدر حاسم المضمون الفكرى والفلسفى والاخلاقى للآداب الوطنية فى البلدان التى تحررت مؤخرا من النيــر الاستعمارى او لا تزال ترزح فى كبوله حتى الآن .

اننى ارى فى مصير آداب آسيا وافريقيا (من الناحية الاجتماعية على اية حال) انعكاسا لقضية نشوء الوعى الذاتى ، مثلا ، وهى القضية التى اضطرت الى معالجتها آداب وطنية وقومية كثيرة فى بلادنا ، وبضمنها الادب القرغيزى ، اليس كذلك ؟

ج . أ . — بلى . ولا يمكن للامر ان يكون على غير ذلك . «فالايام العشرة التى هزت العالم» * ليست اطلاقا مجرد كناية شاعرية .

وقد اثبتت الخبرة التاريخية لاول بلد للاشتراكية فى العالم عمليا مزايا التشكيلة الاجتماعية الجديدة . والستون عاما التى مضت على تأسيس الاتحاد السوفييتى هى لحظة لا غير من وجهة نظر تاريخ البشرية عموما . ولكن ما اكثر ما تضمنته من احداث وانجازات عملاقة تفوق الحصر . واهمها ميلاد الانسان الجديد ، الانسان السوفييتى .

وهذا هو سبب تأثير الادب السوفييتى على نشوء وتكوين

---

* كتاب جون ريد (١٨٨٧ — ١٩٢٠) — **المترجم** .

الآداب الفتية . بديهى ان الادب السوفييتى بدوره يقتبس افضل ما فى الآداب الاخرى من جوانب تقدمية .

ف . ك . — ما هو موقفك من فكرة «الادب العالمى» من وجهة النظر هذه ؟

ج . أ . — البشرية واحدة فى ادب هوميروس ودانتى وشكسبير وغوته وبوشكين وتولستوى ودوستويفسكى وبلـــزاك وشولوخوف وفولكنر وغارسيا ماركيز وهلمجرا .

ان ما يوحد الشعراء بدوره (واتناول القضية من حيث الجوهر لا من حيث الانواع الادبية) فى الزمان والمكان فى كوكبة واحدة من ابناء البشر ، فى قوة شاعرية واحدة لا تنفصم ، فى كون واحد لانهائى انما هو ثورية وشعبية نتاجهم . فالشعر ثورة الروح . والشعراء كالجسور التى تمتد على طريق حياتنا . انهم جسور العقل والروح . جسور تربط بين اجيال البشر وتوحد العالم فى المجالات الرئيسية للبحث الفلسفى الاخلاقى ، فى قضايا المجتمع البشرى الواحد على الارض . انهم جسور لتراكم القيم الثقافية وخبرة المعارف الملهمة بالنزعة الانسانية الاصيلة العميقة .

ان الفكر الحديث للبشرية ، بما فيه الفكر الفنى ، غير ممكن بدون الحنين الأخّاذ الى المثل العليا الذى تؤججه ، على حد تعبير بيلينسكى * ، الفكرة السامية فى ابداع الفنانين العظام فيغدو رمزا للايمان بحتمية الحياة الرائعة والانســان الكامل ، لانه ملزم بان يكون سعيدا ، ويجب ان يكون سعيدا ، فقد ولد من اجل السعادة .

---

* ناقد ادبى روسى (١٨١١ — ١٨٤٨) — **المترجم** .

ف . ك . — ما هى فى رأيك المعايير التى ينبغى ان يلتزم بها الادب الوطنى فى هذه الحالة ؟

ج . أ . — انا متفق تماما مع الناقد البنغالى سارفار مرشد الذى اشار فى احدى ندوات كتاب آسيا وافريقيا الى ان الادب اليوم ، اى ادب ، يجب ان يبت فيما اذا كان يعتبر جزءا مكونا من الادب العالمى اجمالا ام يبقى ادبا «عظيما» فى داره فقط .

ان غواية «العظمة الذاتية» تؤدى من كل بد الى الكبرياء ، ومنه الى الجمود العقائدى .

ولذا فان كل ادب يسعى الى التقدم يجب ان يحكم على نفسه بالمعايير الحدية ، الفكرية والجمالية . ففى هذه الحالة ، فى هذه الحالة وحدها ، يمكن تذليل التقوقع وتفادى النزعة المحلية السطحية .

ان السطحية الروحية هى الاغتراب بين الناس .

والحال فالادب العالمى المتمثل فى مبدعيه العباقرة قد أنشأ ولا يزال يطور لغة الفن العظمى — شعر الطبيعة — تلك اللغة المفهومة والعزيزة على البشرية جمعاء .

ان الفنان الحقيقى هو شفرة التفاهم .

واذا قابلت شخصا اعرف بانه يحب تشيخوف فقد وجدت صديقا لى .

واذا كان الشخص الذى لا اعرفه من قبل ، مهما كانت قوميته ، يستمع الى «ماناس» لاول مرة ويتحسس قدرة وجمال هذه الملحمة الشبيهة بالمحيط ، فهو اخ لى .

ف . ك . — من افظع الامور تصور ابناء القوميات المختلفة وهم يخشون بل ولا يجيدون فهم بعضهم البعض .

وكما انك ، انت القرغيزى ، ممتن للثورة لانها انقذت شعبك من العبودية ، اجد نفسى ، انا الروسى ، مستعدا حتى الرمق الاخير لتمجيد ثورة اكتوبر لانها خلصت شعبى من الخجل والشعور بالذنب ازاء الشعوب الاخرى التى استعبدها النظام القيصرى .

ولا داعى للشك فى مدى اهمية الخبرة الفكرية والاخلاقية والفلسفية لآدابنا الوطنية فى الجمهوريات والتى جسدت فى افضل نتاجاتها بالكامل روعة وحماسة عملية بعث الانسان الذى غدت مشاعر الصداقة والاخوة امرا طبيعيا بالنسبة له . لا داعى للشك فى مدى تلك الاهمية بالنسبة للآداب الوطنية فى البلدان المتحررة . فما رأيك بهذا الخصوص ؟

ج . أ . — مما لا شك فيه ان العديد من الآداب الوطنية فى جمهورياتنا قد اجتاز طريقا منقطع النظير من المعرفة الفنية للواقع ، حتى اننا نستطيع الكلام بافتخار بالنتيجة عن ظهور ثقافة فنية سوفييتية واحدة متعددة اللغات ومتعددة القوميات ، ثقافة لم يسبقها مثيل فى تاريخ البشرية . ولم يكن هذا الطريق صعودا بسيطا سهلا . فبالنسبة للعديد من القوميات مر هذا الطريق عبر الانتقال العسير من الثقافات الفولكلورية الشفوية والاشكال الملحمية العشائرية حيث البطل لم يصبح شخصية بعد الى الادراك الاجتماعى السيكولوجى للانسان المعاصر .

وهنا لا بد وان اؤكد باننا اذ نعلق اهمية كبيرة على الروح الوطنية والقومية للفن لا يجوز ان نقول بان الاصالة القومية تلعب الدور الرئيسى الاول ويمكن ان تغدو هدفا

بذاته فى ابداع الفنان . ان تطوير المضمون الاشتراكى لجميع الآداب القومية يتسم بأهمية حاسمة لهذه الآداب . وتلك هى المبادئ الفكرية والفنية المحددة والمشتركة بين الجميع ، مبادئ الحزبية والشعبية فى الادب والفن .

ف . ك . — ذات مرة قلت بانه لا يمكن كتابة النثر الحديث دون التشبع بخبرة الواقعية الكلاسيكية عند ليون تولستوى وتشيخوف . افلا تحدثنا عن ذلك بمزيد من التفصيل ؟

ج . أ . — ان خبرة الفكر الفنى الروسى مهمة للغاية بحد ذاتها وبثروتها وهى مهمة جدا لانها من خلال اللغة الروسية «العظيمة الجبارة» تجعلنا نلتقى بالادب العالمى .

ف . ك . — ما هى مشاعرك عندما تكتب بالروسية ؟

ج . أ . — من المستبعد ان استطيع صياغة هذا الشعور ولكنى ، على ما اعتقد ، اعبر عن نفسى بصورة خاصة وفريدة تماما .

وعلى ان اقول ، انطلاقا من تجربتى الخاصة على الاقل ، بان الانسان يستطيع فى طفولته ان يستوعب بشكل عضوى عميق لغتين يتلقاهما فى وقت واحد ، وربما اكثر اذا كانت تلك اللغات تؤثر عليه بقدر متساو منذ السنوات الاولى للعمر .

واللغة الروسية بالنسبة لى ، كما اسلفت ، هى اللغة الام بقدر لا يقل عن اللغة القرغيزية ، منذ الطفولة . انها اللغة الام مدى الحياة .

ف . ك . — ما هو سبب الاهتمام البالغ باللغة الروسية فى الآونة الراهنة ؟

ج . أ . — هذا امر اوضحه ماياكوفسكى فى حينه :

«كنت سأتعلم الروسية لمجرد ان لينين كان يتكلمها» . ان حب اللغة الروسية تعبير عن حب لغة الثورة .

واشير الى ان لينين كان يفهم بعمق ويقدر الادب الكلاسيكى الروسى ويرى فيه حاملا للمثل العليا العظمى ومناضلا متحمسا فى سبيل تحرير البشرية . وتلك هى صبغته العصرية الثابتة . وفى ذلك تأثيره الشديد علينا نحن الذين عزمنا على عمل صعب هو مواصلة الحديث الابدى ، حديث الانسان عن الانسان .

ولعلى اضع استهلالا للادب الروسى كله هو كلمات الكسندر راديشيف النفاذة التى تعصر الفؤاد : «تطلعت الى ما حولى فتألمت روحى لآلام البشرية» * .

ف . ك . — الا تعتقد بان هذه الكلمات يمكن ان تكون استهلالا للادب العالمى كله ؟ لان «ما حولى» اليوم هو المعمورة كلها .

ج . أ . — انا متفق معك . «حنين النجوم» كان طوال مئات السنين يدعو البشرية الى رحاب الكون اللامحدودة . افليس ذلك من اجل ان يلقى الانسان نظرة على نفسه من الجانب ؟

وما اشد انسانية وشاعرية شهادة رواد الفضاء الذين رأوا الارض — مهد البشرية — بشكل نجمة زرقاء .

ف . ك . — من المستبعد ان يكون احد قد شعر بمثل هذه الرغبة وان كان شاعرا عظيما .

---

* من كتابه «رحلة من بطرسبورغ الى موسكو» (١٧٩٠) — **المترجم** .

فذلك شعور جديد .

ولكن هل سيغدو هذا الشعور ، مثلا ، تلك «النطفة الوراثية» التي تكمن فيها طبيعة الانسان الثانية ؟

ج . أ . ـــ ذلك هو بيت القصيد . في السابق كنا نقف موقفا انانيا لاابالياً من الارض متصورين (وهذا الموقف واضح بخاصة الآن) بانها ملزمة بان تطعمنا وتسقينا وتلبسنا وتحمينا دون ان تطلب شيئا بالمقابل سوى اعترافنا المتعالي بواقع وجودها .

اما الآن ، وبعد الخروج الى الفضاء الكوني ، ادركنا فجأة برقة وألم يفوقان التصور ان الارض هي الاخرى بحاجة الى من يحميها . . .

ف . ك . ـــ يحميها منا نحن ؟

ج . أ . ـــ مع الاسف . ومن حسن الحظ ايضا . لانه لا يزال في الوقت متسع . ان واجب الادب هو دعم وتوسيع هذا التصور والحيلولة دون تعود الانسان على الفكرة القائلة بان العنف في العالم حتمي وان شيئا ما لا يتوقف على الانسان ، فهو رهينة ستقع ضحية للجنون آجلا ام عاجلا .

ف . ك . ـــ انت بالطبع لا تقصد فقط الادب في الاتحاد السوفييتي والبلدان الاشتراكية حيث يعاقب القانون على اى تلميح للدعاية للحرب وترويج الاحقاد والعنف ، بل وان مجرد هذا التلميح يتعارض بالدرجة الاولى مع طبيعة ذلك الادب ومبادئه ؟

ج . أ . ـــ طبعا . انني اعلق الآمال على الادب العالمي التقدمي كله . ولعل الفنانين التقدميين في الغرب (وقد تقابلت مع الكثيرين منهم) يدركون احيانا بحدة وألم اكثر الخطر

الفتاك لمعاداة الانسانية الذى تنطوى عليه الايديولوجية البرجوازية ويهبون بحزم لمكافحة هذا الخطر . وتلك مأثرة ادبية بل وانسانية لهم . وانا افتخر واعجب ببسالتهم النبيلة واستهانتهم بالخوف .

اجل نحن الكتاب السوفييت غير مضطرين للعمل فى الجو الفاسد لصناعة الثقافة المزيفة المرعبة التى تحاول ان توحى للانسان عبادة القوة والقسوة وتضفى طابعا من الرومانسية على القتل او ، على العكس ، تنوم ضمير الانسان وارادته بالاوهام المعسولة ، وتهيئه بالتالى ، فى رأى مؤلفيها «الانسانيين» ، الى الانصراف بلا الم بل وبرغبة الى العدم حيث يتخلص الانسان ، كما يزعمون ، من عذابات الدنيا ويكسب فى الوقت ذاته الدعة والاطمئنان ، الى ابـــد الآبدين . . . ولكن من المستحيل عدم التفكير فى ذلك . بديهى اننى عندما اؤلف كتابا لست واثقا بانه سيصل من كل بد الى القارئ الاجنبى ويساعده على تفهم الكذب الوقح المعدوم الضمير الذى يوحون به اليه لتضليله واثارة غرائز الكهوف فيه . ولكن اذا وصله هذا الكتاب مع ذلك فيجب ان يؤثر فيه على هذا النحو بالذات ، يجب ان يوقظ فيه النزاهة والضمير والكرامة والثقة بالنفس وبالانسان .

ف . ك . — هل تقصد ان الكاتب، اى كاتب ، ملزم من كل بد ان يفكر بالقارئ العالمى ؟

ج . أ . — انه ملزم ان يفكر بالانسان فى المقام الاول .

ف . ك . — كان تولستوى يفكر فى ذلك دوما وقد اكد ان اهم هدف ومغزى للادب هما ارغام الانسان على حب الحياة فى جميع مظاهرها . الا تغيظك كلمة «ارغام» ؟

ج . أ . ـــ ما الذى يجعلها تغيظنى ؟ انا واثق من ان ليون تولستوى لم يخطئ ، لان الارغام يعنى حسب تعبيره الاصابة بقوة الفن واثارة المخيلة والسمو بالروح .

ان العالم الفنى العظيم الذى ابدعته عبقريته عالم هائل . ومن المخيف تصور القوة المرعبة التى دخل فى مناوشة معها ، ولا احد يراها غيره ، فى محاولتها لاهانة وابادة الانسان فى الانسان . فهل كان بوسعه ان يقدم على هذه المأثرة ، على هذا الصراع الذى كان يهدده ، حسب الظاهر ، بهزيمة لا مفر منها لو لم يكن مندفعا بالحب العظيم للحقيقة وللانسان ؟ كلا ، بالطبع . وبالمناسبة لو كان الامر كذلك لما كان هناك تولستوى نفسه ، ولكانت هناك ـــ ويا لهول التفكير فى ذلك ـــ هوة سحيقة مفتحة الاشداق فى ارواحنا . وما اشد الالم الذى ينتابنا عندما نفكر بمدى ما عاناه هذا الانسان الذى هو افضل الناس لكى يغرس فينا الايمان فى انتصار الخير على الشر .

ف . ك . ـــ لكن «الخير» و«الشر» مفهومان محددان اجتماعيا . ولا وجود لهما خارج اطار الزمن . فان الشر الراهن ، كما لاحظت انت ، قد يبدو خارقا للعادة بالنسبة لابناء العصور السالفة . فما هى الوسائل التى يستخدمها الفنان ليصور اليوم طبيعة وجوهر «الشر» ليهز مخيلة ابن القرن العشرين ؟ انت على حق . فالواقع الفعلى خيالى . وليس ذلك وحسب . فهو افظع من اى خيال ، لانه . . . واقع .

ج . أ . ـــ اجل ، ليس من اليسير اليوم ان تهز الانسان بقوة الفن ـــ فقد تغيرت كثيرا عتبة الالم عند البشرية التى شهدت ويلات الحرب ضد الفاشية واجتازت محنة هيروشيما

وناجازاكى واطلعت على الاعمال الوحشية التى تقترف يوميا فى العديد من ارجاء المعمورة .

خذ ، مثلا ، سفر «الرؤيا» . كان حتى الآونة الاخيرة يثير مخيلة الانسان ومخاوفه من «نهاية العالم» . . .

بديهى ان هدف الفن ليس فى «تخويف» القارئ ، بل فى مساعدة الانسان على التخلص من اليأس والخوف من الحياة واثارة المشاعر العظيمة فى نفسه لكى يستطيع مقاومة «الشر» مهما كانت اشكاله واللبوس الذى يرتديه . ويبدو انه تطرح بهذا الخصوص قضية المأساه كشكل فنى قادر على التعبير عن الاحساس بعالم اليوم باكبر قدر من الكمال .

ف . ك . — وهل تعتقد بان شكسبير جديدا سيظهر للوجود ؟

ج . أ . — كنت قد وجهت هذا السؤال فى حينه الى دمتيرى شوستاكوفيتش . وقد دهشت لفكرته التى اعجبتنى كل الاعجاب . فقد قال ان العالم المعاصر فيه فرص اكثر بكثير لظهور العديد من امثال شكسبير ، لان البشرية لم تبلغ فى تطورها السابق ابدا مثل هذه الشمولية فى الروح ، ولذا فعندما سيظهر مثل هذا الفنان العظيم سيتمكن من التعبير عن العالم كله فى ذاته ، كما تعبر عنه الموسيقى . . . جرى هذا الحديث عرضا ، وبعد ذلك ، عندما اختليت الى نفسى ، ادركت اهمية ما قاله شوستاكوفيتش . فهو ينتظر من الادب تعميما شموليا ، «كالموسيقى» ، للحياة .

العالم كله فى ذاته . . .

ومهما كانت هذه المهمة صعبة ومستحيلة ، فهل هناك حلم اعظم من هذا بالنسبة للفنان ؟ !

ان رسالة الادب العظيمة النبيلة — واكرر هنا كلمات تولستوى — هى ارغام الانسان على حساب الحياة والعالم . وفى ذلك واجب كل فنان نزيه يدرك بان «ساعة الكلمة» الضرورية والملحة للغاية قد حانت . وهذا بالذات يعنى ان يكون فنانا واقعيا .

١٩٨٢

لا يمكن
تبرير العدوان

لقاء مع القاص العراقي
سعدى المالح

س . م . — السؤال الاول ، هلا حدثتنا عن الاحداث الاخيرة فى لبنان ورأيك فى العدوان الاسرائيلى والابادة التى تمارسها اسرائيل ضد الشعب الفلسطينى ؟

ج . أ . — اعتقد ان هناك اجماعا بخصوص هذه المسألة ، ولا يمكن وجود خلاف فى الرأى بشأنها . ففى القرن العشرين يعتبر هذا العدوان ابشع جريمة صارخة ارتكبت ولا تزال ترتكب فى الشرق الاوسط .

كل فرد منا يفكر فى هذه القضية ليل نهار ، وانا ايضا افكر فيها ، فهذه الجريمة تفوق كل الشرور والجرائم التى اقترفت فى السابق . وهى جريمة ليس ضد الشعب العربى وحده ، بل هى تحد وقح للعالم كله . فهم اليوم يطلقون النار ليس على الفتى العربى وحده ، بل على كل انسان . واعتقد انه حان الوقت لمواجهة شرور اسرائيل باقسى الشجب واشد العقوبة من جانب الرأى العام . ولا اتصور ان هناك شخصا ، او انسانا معاصرا يمكن ان يبرر هذا العدوان باى شكل كان فلا يمكن تبرير قتل الاطفال والنساء ،

قتل الناس العزل . وبعد ان غادرت فصائل منظمة التحرير الفلسطينية بيروت انطلاقا من المصلحة العامة ، وبقى اولئك الاطفال والنساء بلا حماية ، حنث العسكريون الاسرائيليون بوعدهم وكشفوا من جديد عن معدنهم وجوهرهم . ويجب الا تبقى فى العالم اية اوهام بخصوص المعتدين . فهم كائنات معادية للبشر . وليس كافيا ان نراقب ذلك ونشجبه . يجب ان يهب كل الناس لمنع تطور الاحداث بهذه الصورة . وهناك اشكال متنوعة للقيام بهذا العمل فى مختلف ارجاء العالم ، كالانهر التى تصب فى البحر ، بحر الاحتجاجات والاستنكار الذى يجب ان يضع حدا لافعال العسكريين الاسرائيليين . تلك ، بالطبع ، مشاعر وعواطف وينبغى ان تتبعها نشاطات ملموسة واعمال تنظيمية .

س . م . — فى روايتك الاخيرة «ويطول اليوم اكثر من قرن» ، فى المقطع الذى نشرته انا مترجما الى العربية ، عن مقبرة انابايت ، تتحدث عن الجوانجوانيين وكيف يعاملون الاسرى ويمسحون ذاكرتهم ، الا تقصد بهذا ايضا كيف يتعامل الاسرائيليون الصهاينة مع الفلسطينيين ؟ فى تقديمى الذى كتبته حول المقطع المذكور ربطت بين الامرين . فهل كنت محقا فى هذا الربط ؟

ج . أ . — انت محق تماما . واريد ان اقول ان ذاك الاسلوب فى استعباد البشر وحرمانهم من الذاكرة يستخدمه الجوانجوانيون المعاصرون المزودون باحدث وسائل الابادة الجماعية ، وهذا اكثر خطرا الآن . فقد كتبت فى روايتى عما حدث لشخص واحد فقط ، اما الآن فهذا يحدث لملايين الناس . انك محق تماما فيما ذهبت اليه .

س . م . — فى الادب المعاصر تسود ظاهرة استخدام الاسطورة ، وخصوصا فى ادب اميركا اللاتينية ، عند ماركيز بالذات ، وعندك ايضا ، خاصة فى ابداعاتك الاخيرة ، ومنها «ويطول اليوم اكثر من قرن» ، فالى اى مدى يستطيع الكاتب ان يوفق بين استخدام الاسطورة والواقع نفسه ؟ واضيف على هذا : وجعل هذه الاسطورة اسطورة واقعية .

ج . أ . — يصعب رسم خط فاصل بين هذا وذاك . فالامر يتوقف على الفنان نفسه وعلى الوسائل التى يستخدمها والاهداف التى يتوخاها . كيف يجعل القارئ يستوعب الاسطورة القديمة التى لم يعد لها معنى واقعى ويتأثر بها ؟ ذلك شيء يجب ان يتحسسه الكاتب بنفسه . بأى قدر يستخدم الاسطورة والى اى مدى ؟ ذلك امر يصعب تحديده مسبقا .

س . م . — بعض الكتاب العرب يستخدمون الاسطورة ؛ مثل الكاتب الجزائرى الطاهر وطار فى روايته الجديدة «الحوّات والقصر» . كل الرواية اسطورية ، يعتمد فيها الكاتب على الاسطورة اساسا .

ج . أ . — قد تبنى الرواية الحديثة على الاسطورة بل وحتى على الخرافة لكن الامر يتوقف على قدرة الكاتب فى اضفاء طابع عصرى حديث على الاسطورة .

س . م . — حول قصة «الكلب الابلق الراكض على حافة البحر» ، الا تتصور ان هذه القصة قد خرجت عن اطار قصصك الاخرى ؟ اولا انها عن شعب آخر غير شعب قرغيزيا . والشيء الثانى : فيها الكثير من مسحات الحزن ، انها فى الحقيقة قصيدة حزينة .

ج . أ . — نعم ، هذا شيء محتمل تماما . والادب

يجب ان يتحمل عبء المرارة فى اى زمان . فمن جهة يمكن ان يكون الادب هزليا ساخرا ومن جهة ثانية للادب وظائف اخرى . فنحن نرى فى الحياة مصائب كثيرة ، وهى موضوع للمعاناة ، ولكن يمكن تصويرها باشكال مختلفة .

س . م . — الكلام حول «السفينة البيضاء» . انا شاهدت الفلم وقرأت القصة بالروسية وبالعربية ايضا . ورأيت هناك عدم توافق بين الفلم والقصة ، فما رأيك فى ذلك ؟

ج . أ . — نعم ، هذا شىء معتاد تماما . فالشاشة لها قوانينها ولغة السينما لها خصائصها . فما نتصوره ذهنيا بالكلمات نراه على الشاشة بشكل آخر . والكلمة لا يمكن ان ترتسم بدقة على الشاشة ولذا تتعرض للتغيير .

س . م . — من هو البطل الحالى كما تتصوره ؟

ج . أ . — الجواب على هذا السؤال صعب . فالبطل الحالى ، فى رأيى ، هو الانسان الذى يجب ان تعلق عليه افضل الآمال ، وهو فى الوقت ذاته انسان عادى ، ليس من الانبياء .

س . م . — هل هناك فى الواقع ابطال مثل البطل الذى تطمح اليه حتى نصورهم باعتبار الادب يمثل الواقع ؟

ج . أ . — لا بد من خلق هؤلاء الابطال .

س . م . — ما رأيك فى واحد من كتبك الاولى ، «المعلم الاول» ، وخاصة هناك بون شاسع بين «المعلم الاول» وبين مؤلفاتك الاخيرة ؟

ج . أ . — لا يجوز التخلى عن الابناء الاوائل .

س . م . — ما مدى اطلاعك على الادب العربى ؟

ج . أ . — عموما انا اعرف ما ترجم من الادب العربى

الى اللغة الروسية ، وربما لا يكفينى الوقت لمطالعة كل ما يقع بين يدى . . .

س . م . — هناك علاقة بين الحضارة والثقافة العربية والحضارة والثقافة القرغيزية ، ما هى العوامل المساعدة لتوطيد هذه العلاقة ؟

ج . أ . — يجب ان تستند هذه العلاقات الآن الى اساس جديد . وما يجرى فى لقاء الادباء الشباب هنا ، مثلا ، من شأنه ان يؤدى الى توطيدها . فى حينه كان للثقافة العربية قسط كبير فى لغتنا وفى تفكيرنا . واعتقد ان ذلك هام جدا .

١٩٨٢

الحياة في هذه
الدنيا سعادة

حديث مع الصحفي
نيكولاي خوخلوف

يبدو ان الطبيعة صممت على ان تعيد للارض وتزيد كل الثلوج التى استقطعتها منها فى السنوات الماضية . فقد تساقط ثلج غير معتاد بحبات كبيرة للغاية فى اذار (مارس) والحواجب الثلجية الشيباء تستقر على سلاسل الجبال وعلى سطوح منازل القرية . والقرى «كالسفينة البيضاء» يلاصقها الجليد . و«ارض الام» مغطى بزغب العنز الابيض . وتقابل الانسان والحيوانات «وجها لوجه» مع هذه العاصفة الثلجية التى تشبه الخيال . و«الكلب الابقع يعدو على حافة البحر» * التجأ الى سيارة ملفعة بالثلج . والحصان الرهوان غولسارى مربوط فى الحوش . و«المعلم الاول» ** وتلاميذه ينظفون المماشى المؤدية الى المدرسة كل صباح وفى كل فرصة بين الدروس . و«الحول فى المنديل الاحمر» جالسة قسرا مع «جميلة» تتطلعان عبر النافذة المكسوة بالثلج الى الشارع الغارق بالثلج ، «ويطول اليوم اكثر من قرن» فى انظارهما . . .

فى هذا الجو العاصف تأخر انسان عزيز على وانا بحاجة

---

* كتبت فى عام ١٩٧٧ — **المترجم** .

** كتبت فى عام ١٩٦٢ — **المترجم** .

اليه . وعندما التقينا تبدلت همومى وتحولت الى شىء يشبه نوادر التأنيب :

— انت نفسك الفت «محطة العواصف» . . . *

وابتسم . وتحدث عما رآه : الماعز البرى يهبط من الجبال الى منازل البشر . والذئاب والثعالب القلقة تتراكض على مرأى من الجميع . ومما يؤسف له ان الدراج والحبارى تهلك ، فهى لا تعثر على العلف من خلال هذه الطبقة الثلجية الكثيفة . والحال فهذه منطقة تنبت فيها اشجار الرمان والكروم . فما اكثر الثلوج التى تساقطت على الانجاد . وتذكر الاحاديث واللقاءات مع الذين انتخبوه للمرة الخامسة نائبا فى السوفييت الاعلى فى الاتحاد السوفييتى .

هذه هى التوطئة للحديث الذى بدأ مع جنكيز ايتماتوف . وبالمناسبة كان بالامكان استبدالها بمقتطف جاهز من كتاب جديد ، حسبما كان مفترضا . فالجريدة ستنشره بكل سرور . وبالمناسبة عم يدور الكتاب الجديد ؟

ج . أ . — لا استطيع ان اقدم مقتطفا ولا استطيع ان اجيب على السؤال . فمعذرة . انا لا افعل ذلك ابدا . فليس سهلا على ان اعلن عن مضمون الرواية او القصة . هل تجد ذلك غريبا ؟ فانا لا اريد استباق القارئ ، وليعرف بنفسه . لا تعتب على ، لا استطيع الا ان اكرر ما قلته ذات مرة : ان فصل الفكرة وموضوع الكتاب هو مثل محاولة استخلاص الماء والدقيق من الخبز كلا على انفراد .

---

* العنوان الآخر لرواية «ويطول اليوم اكثر من قرن» — **المترجم** .

وانا ببساطة لا اجد فى مؤلفاتى مقاطع مستقلة ناجزة يسهل استقطاعها من السياق المتكامل . فكل شيء فيه مندمج منصهر ، ويؤلمني ان اقطّعه وانثره .

ن . خ . — لقد وصلنا الى السؤال عن منهجك الابداعى واطروحاتك المحددة كمؤلف .

ج . أ . — طالما وصلنا فلنتحدث . لقد خصص لى ، على العموم . مثل اى انسان آخر مكان «معين» وزمان «معين» . واضيف الى ذلك ان لدي مقاطعة «معينة» هى الدائـــرة الانتخابية التى رشحت فيها . وانا كنائب اتقابل مع الناس ، اهتم لهمومهم واقلق لقلقهم . وهنا لا اطلع على الحياة مجرد «اطلاع» ، بل اتعمق فى جوهر هذه القضية الاجتماعية او تلك واشارك على قدر المستطاع فى مصائر الناس . ونحن لا نفتقر الى الطموح الى التغييرات . خذ ، مثلا ، قرية بازار-كورغان التى وصلت منها توا . كانت فى الماضى القريب نجعا صغيرا ، اما الآن فهى مركز ناحية لعله من افضل المراكز فى تلك الاماكن . ففى العام الماضى افتتح فيها قصر للثقافة يضاهى مسارح المدن . وقدم لى الناخبون فى المنطقة المجاورة ، قرية لينين-جول ، طلبا لمساعدتهم فى انشاء قناة رى كبيرة من نارين حتى شبكة مياه مايليساى لزراعة الاراضى البور .

كل ذلك ، حسب الظاهر ، امور عادية ، لكن شليلة احداث القناة المذكورة يمكن بمر الزمن ان تتحول الى حبكة ما . من يدرى ؟ فالحبكة جزء من الحياة ، وقصة مصائر وناس . كل شخص يختار الحبكة او الموضوع على طريقته الخاصة . البعض يسعون الى الاثارة والتسلية ، والبعض

يسعون الى الوصف القريب من الواقع . المهم ان تكون هناك فكرة ترقى الى قضايا العصر المعقدة . ومع ذلك على ان اعترف باننى الآن لا استطيع ان اؤلف رواية او قصة ، مثلا ، عن سكة حديد بايكال — آمور او عن مشروع ضخم آخر . واعتقد ان روح العصر يجب ان لا تفهم بالمعنى الوقتى العابر . مشروع البناء لم ينجز بعد ، فى حين نجد الرواية جاهزة .

وانا اقول ذلك لا لكى الوم احدا . فان سيل الادب ما كان ابدا ولا يجب ان يكون متجانسا . وان «زمانى» هو بالاساس سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية والخمسينات والستينات وقسم من السبعينات . فهذا القطاع الزمنى دخل فى كيانى ، وقد عشته بشحنة كاملة . اندلعت الحرب وانا فى الثالثة عشرة من العمر . مارست حراثة التربة وعملت سكرتيرا للجنة التنفيذية فى القرية وعدادا فى فرقة سواق الجرارات .

فما يعنى ذلك ؟ كنا نحن الصبية ، بحكم الاحداث ، نساهم فى حل قضايا الشعب بأسره ، وفى فهمها . بل كانت حياتنا مقتصرة على تلك القضايا وحدها . فاذا كان الجنود فى الجبهة يحلمون فى الصمود لهجوم العدو والتصدى له ثم قهره والانتصار عليه ، فاننا فى المؤخرة كنا نعمل للجبهة ، وما يتبقى من ذلك فهو لنا . واعتقد ان الشعب فى اى وقت لم يضح ، بمثل هذا الفهم العميق ، بما هو شخصى وخاص من اجل العام . كانت تلك سنوات التوتر الاقصى للقوى الروحية والبدنية . وكنت فى مجلس القرية اعرف جيدا كل عائلة من عوائلها . وهيأت لى الحياة امكانية معرفة

نفسى من مختلف جوانبها . حتى خط العرض الذى يقطعه الانسان سيرا على القدمين هو خطى . . . وانا لا ارغب فى ذكر ذلك غالبا ، ولكن ما حيلتى اذا كان هذا جزءا من خبرتى الحياتية ومعتقداتى ؟

ن . خ . — الاشخاص الذين انطبعوا فى ذاكرتك عادوا الى الحياة من جديد ، ان صح القول ، فى مؤلفاتك الادبية ، اليس كذلك ؟

ج . أ . — ليس هناك انعكاس مباشر ، فالخيال هو الطاغى . فالاهم بالنسبة لى هو تجسيد جو تلك السنوات ، وتفكير تلك الحقبة بالذات ، مع ان هذا قد يبدو للبعض ساذجا الآن .

ن . خ . — كان بوشكين يقدر فى الكاتب اخلاص العقل ، اما تورغينيف فقد اشار الى الاخلاص للواقع بدقة الرياضيات . . .

ج . أ . — انا افهم ذلك على انه انعكاس صادق للظواهر الموجودة فعلا ، للناس ، للعلاقات المتبادلة بينهم . والشعب ينعت هذا الموقف بالعدل . فالانسان يبحث عن الحقيقة بدأب واصرار مع انها تبدو مكشوفة دوما وقابلة للفهم . ثم ان الفنان لا يرضى بالحقيقة مهما كانت ، بمعنى ان الفن لا يستطيع ان يتخذ من كل شىء فى الحياة موضوعا له . ومع ذلك ينبغى الاعتراف بان الحقيقة فى الحياة العادية تختلف عن الحقيقة فى النتاج الفنى ، فهى فى الفن يجب ان تكون سبيكة صلدة خالصة من الشوائب المعيشية ، ويجب ان تكون طويلة الامد ومؤثرة للغاية وقوية الى ابعد حدود القوة ، حتى يجرى ما يشبه تقوية وتركيز الخير والشر .

وهنا لا يمكن الاستغناء عن دقة الاحكام الذهنية وصدق المشاعر .

ن . خ . — ولكنك عندما تجلس الى مكتبك تلوح امامك شخوص حية معروفة لديك ، اليس كذلك ؟

ج . أ . — بلى . انها على مقربة منى . تطلع الى الصورة التى يرسمها الرسام ، انها تختلف عن الاصل مع انها مأخوذة عنه . واكرر : اننى التزم بالخيال فى كل الاحوال . والاكثر من ذلك ، طالما تطرق الحديث الى طريقة او منهج الكتابة ، اننى على الدوام اعرف جيدا نهاية الموضوع الذى اتناوله . اعرف الى اية نهاية سينتهى السرد الذى اشرع بكتابته . البداية والوسط يلوحان امامى بغير وضوح ، اما الخاتمة فهى جاهزة لدرجة استطيع معها ان اكتب الفصل الاخير فى الحال . فالخاتمة بالنسبة لى بمثابة الايقاع الاساسى الذى يساعدنى على وضع النتاج كله وفقا له . واذا رأيت الخاتمة صرت واثقا من ان القصة ستنجح .

ن . خ . — شىء ممتع وهام .

ج . أ . — الهام بالنسبة لى امر آخر . . .

ن . خ . — ما هو ؟

ج . أ . — الشخوص التعميمية التى ابتدعها يجب ان تعيش تجريديا ، فى القصص ، وليس على الارض . ولكن ما يحصل هو اننى بعد نشر هذه القصة او تلك انتظر عادة — واقول ذلك صراحة — آراء ورسائل القراء اكثر مما انتظر مقالات النقاد التى هى بالطبع هامة جدا ايضا بالنسبة للكاتب . وتقول رسائل القراء : انا اعرف جيدا الشخص الذى تصوره فى قصتك ، انه يعمل فى . . . ابلغك بان جميلة بخير ،

وعندها ثلاثة اطفال ، وكل شيء متوفر لديها . . . انا نفسي الشيخ مأمون في «السفينة البيضاء» ، لا ازال على قيد الحياة . وابني كبر . لكن المصيبة انه وقع في داهية ، وحكموا عليه جورا . ارجو ان تساعدني . . . المعلم الاول انا ، معلم روسي ، مع انك تصوره قرغيزيا . . .

ما اوردته هنا يكفي للاقتناع بخاصية الخيال الفني السحرية . ويحق لك ان تصحح ما اقول : ذلك يتوقف على نوعية الخيال . وانا متفق معك . لكن الخوض في هذا الموضوع من شأن الآخرين .

ن . خ . — تم تأليف القصة ، ونشرت ، وقال فيها النقاد ما قالوا ، ووصلتك رسائل القراء ، لكنك ، كمؤلف ، تعود عفويا الى كتابك . فهل تظهر لديك شكوك او أسف ؟ وهل قلت كل ما اردت ام انك امتنعت عن ذكر شيء او كنت حذرا فيه ؟ الا يغيظك طرح السؤال بهذه الصورة ؟

ج . أ . — كلا ، اطلاقا . تصادف حالات كثيرة . واورد هنا مثالا محددا . في البداية كنت مهتما بحبكة اخرى ذات ارتباط بمصير المعلم في «محطة العواصف» . فهو يموت ليس باحتشاء القلب كما ورد في الرواية ، بل يقتل في ملابسات اخرى . فقد نقل السجناء بالقطار خلال محطة العواصف التي بقيت فيها عائلة المعلم : زوجته واطفاله . فما هو شعور هذا المسكين ؟ يمكنك ان تتصوره . في الليل نقلوه عبر سكة بورانلي العاصفة ، وفي ساراتوف ، عندما نقلوهم الى قطار آخر ، فر وهو يدرك ما يمكن ان يحدث له بمجرد محاولة الهرب . وقد حدث ما لا مرد له .

وانا ، كفنان ، ادرك بانه كان بوسعي ان اكتب العديد

من الصفحات الفاجعة والدقيقة سيكولوجيا . الا ان المؤلف — الانسان ، بعد تأمل طويل عسير ، تخلى عما كان بوسع المؤلف — الفنان ان يقوم به . فتضمنت الرواية الصيغة «الاخف» . ستقول بانى تهيبت ، اما انا فأوكد بانى اشفقت على زوجته واطفاله فلم اجعلهم يعانون من مشهد تتقطع له نياط القلب . فان فاجعتهم تكفى وتزيد . واضطررت الى ان اهدئ من انفعالات الكاتب .

ن . خ . — ولكن تلاحقنى فكرة انك بقدر ما ظلمت نفسك . . .

ج . أ . — ليس ذلك صحيحا بالكامل . فانا لم اظلم نفسى . واعترف بان التهادن كان صعبا . لكننى حافظت على لب هذه الحادثة . واذا اردنا الصراحة ففى شكوكك شيء ما لا جدال فيه . فما هو ؟ احيلك هنا الى قصتين : «الهارب» * لفالنتين راسبوتين وقصتى «وجها لوجه» . فكلاهما تتناول موضوعا واحدا تقريبا . قصة راسبوتين رائعة ، وهى افضل كثيرا من قصتى التى صدرت قبلها بوقت طويل . ولكن هل تعرف بالصواعق والرعود التى انهالت على انا الكاتب الناشئ آنذاك ؟ حتى زملائى الادباء قالوا يلوموننى : «انتصرنا على العدو القوى بشكل اثار اعجاب العالم كله ، اما انت فقد تناولت خائنا بدلا من ان تتغنى بامجاد الابطال . . .» . وقد ازعجهم كذلك ان الهارب فى قصتى سرق كيسا من البذور من الحقل لكنه استطاع ان يتجاوز

---

* ترجمها الى العربية خيرى الضامن وصدرت عن دار التقدم عام ١٩٨٢ .

نفسه ويفهم قيمة حفظ البذور فى موسم القحط ويتصور الضرر الفادح الذى تلحقه فعلته ، فعاد هذا الهارب ، هذا الشخص الحقير ، الى الحقل واعاد الكيس الى موضعه .

وفيما بعد حذفت هذا المشهد . فلماذا ؟ فى ذلك الزمان كان الرأى السائد هو تلطيخ الشخص بالسواد والأقذار طالما كان سافلا ، واذا كان بطلا «ايجابيا» فيجب ان يعلو على كل البشر بسلوك لا شائبة فيه . ان التمسك بالاحكام الذهنية الصائبة لا يتحقق دوما وبالنسبة للجميع فى وقت واحد . فيجب توفر مسافة معينة ليتم هضم كل شيء وتأخذ كل الأمور مواضعها .

وبالمناسبة فان قصة راسبوتين التى كتبت بعد عشرين عاما من صدور قصتى وصلت الى القارئ ، على حد علمى ، بدون الملابسات التى رافقت قصتى «وجها لوجه» . فالقارئ متغير دوما ، وليعذرنى على قولى هذا . فانا اعتبر ذلك عملية طبيعية حتمية ، واقصد به معنى مشجعا طيبا . ولكى نبتعد هنا عن الموقف الوحيد الجانب وعن الاعجاب اللامتناهى بالقارئ الرقيق الطيب يجب على ان اذكر ، بشيء من المرارة ، ان البريد يحمل احيانا رسائل عدمية متخاذلة . ويجب ان نتكلم عن ذلك بصراحة وندق ناقوس الخطر ونتجادل ونذود عن التفاؤل ، وخصوصا بين الشباب .

ن . خ . — هل نبشر بالخير ؟

ج . أ . — الادب يمارس ذلك من غابر الزمان . ومع ذلك يخيل الى ان فيه شيئا من التجريد ومن الرماية دون هدف . فعندما تقرأ القصص والروايات والجرائد والمجلات تجد فى كل مكان معالجات مختلفة لهذه الكلمة . ولكن

مفهوم الخير قد تغير فى سياق تطور المجتمع . ففى السابق كان يشتهر بالطيبة والخير من يتصدق على المتسول بقطعة خبز او اسمال ، ومن يقدم التبرعات الى الكنيسة او المسجد او الدير ومن يطعم الجياع فى الآحاد . ان الخير مفهوم روحى لكنه يستقر على اساس مادى صرف . . .

يخيل الى ان الخير ، كخاصية بشرية ، يناسب ، اكثر ما يناسب ، البيئة المنزلية العائلية ، فانا لا اتصور تماما الخصال التى يجب ان يتحلى بها مدير المصنع ليعتبره العامل انسانا طيبا . هل عليه ان يتغاضى عن التسيب ولايحرم العامل من المكافأة مع انه لا يؤدى المطلوب منذ زمان ؟ فاذا حشرنا مثل هذه التصرفات قسرا فى اطار الخير فانه سيتم على حساب الدولة .

وانا واثق ان للعامل مصلحة اكبر ليس فى الخير المجرد ، بل فى المعاملة النزيهة التى يعاملونه بها وفى اللياقة اليومية والتفهم الذى يحظى به . والاهم بالنسبة له هو العدالة الاجتماعية التى يستند اليها نمط حياتنا . فلنعمل بمزيد من النشاط على اجتثاث الوقاحة والاحتقار وعدم احترام الاكبر سنا . فليس من قبيل الصدفة ، مثلا ، ان العلاقات الحياتية والاجتماعية فى الشرق مبنية على احترام الاكبر سنا ، وان هذه العلاقات قد غرست منذ قرون وصارت من اصول وتصورات آداب السلوك الشعبية .

وباختصار ، نحن بحاجة الى التهذيب والتأدب واحترام شخصية وحرية واصالة كل فرد . . .

فى اللقاءات مع الناخبين تحدثت هذه المرة مع الشيوخ فتشكوا قائلين ان شباب اليوم غلاظ متكبرون لايحترمون

احدا . . . وتشكى احد الشيوخ متألما : كان حفيدى حتى الخامسة عشرة من اعز الناس علي ، وبعد ذلك ، ويا للمصيبة ، تغير بالكامل فلم يعد يحترم الشيب ولا الاعراف المرعية . واجبته : الوسط هو المسؤول . فقد وقع فى شلة سيئة . وسألنى : من اين جاء هذا الوسط ، ومن المسؤول ؟ ولم احر جوابا . . . ولا ازال حتى الآن اتألم لذلك .

ن . خ . — انه لشعور طيب الشعور الحاد بالمسؤولية عن الجميع .

ج . أ . — عندما اجلس الى مكتبـــى تستولى على رغبة شديدة فى مشاطرة ابناء العصر همومهم وادراك ما فى نفوسهم . وانا اعتز بهم . واحاول ان استوعب الدور القيادى لبلادنا . ويجب الا تتكرر الحرب التى تنفق فيها الحياة من اجل مهمة واحدة ، فى هجوم واحد وفى قذف قنبلة واحدة على دبابة . . .

يجب ان تتهيأ لكل فرد امكانية العيش عمرا طويلا فى هذه الدنيا ، امكانية الاعتزاز والتصرف الحر بسعادة وهبت ذات مرة للآمر والمأمور ، اعنى سعادة الوجود الكامل . ولا يحق لاحد ان يحرم الانسان من نعمة الخلق ، نعمة العيش والتكاثر على الارض فى سمو لانهائى للعقل والروح .

١٩٨٤

حديث مع ايرينا ريشينا مراسلة جريدة «ليتيراتورنايا غازيتا» الادبية في اعقاب المؤتمر الثامن لكتاب الاتحاد السوفييتي الذى عقد فى يونيو ١٩٨٦

ج . أ . — اعتقد انى اعبر عن رأى الجميع اذا قلت ان المؤتمر الحالى يختلف بشكل ملحوظ عن المؤتمرات السابقة . ولذلك ، بالطبع ، اسبابه ومنطقه . فالفترة التى يمر بها مجتمعنا هى فترة الجهود الكبرى التى تبذل لتحقيق تغير جذرى فى كل ميادين الحياة ، والاهم فى امزجة ونفسية الناس ، الامر الذى لا يمكن بدونه ان يتم التجديد الحقيقى ، لان كل العوامل الاخرى تتوقف على العامل الاول والاخير ، اى العامل البشرى . وبروح العصر انعقد اجتماع كتابنا الكبير . وفى خطب جدية وحادة ، صريحة وحماسية ارتسمت طائفة القضايا الهامة والمسائل النظرية الجذرية للحياة والادب ، مثل تنظيم العدالة الاجتماعية والقلق على البيئة الايكولوجية والاهتمام بتطوير الثقافات الوطنية فى الظروف الراهنة . بديهى انه طرحت كذلك القضايا التنظيمية والابداعية والمهنية التى تشغل بال الادباء اليوم .

إ . ر . — لم تتحدث فى المؤتمر ، فماذا كنت ستقول من منبره لو تحدثت ؟

ج . أ . — مع الأسف اننى هذه المرة لم استطع ان احضر كلمة لاسباب وجيهة . ولو كنت قد تحدثت من منبر المؤتمر لتناولت قبل كل شيء القضايا القومية وقضايا تفاعل الثقافات والآداب واللغات . فهذه القضايا هامة للغاية بالنسبة لنا لان بلدنا اتحادى متعدد القوميات ، وان ما يحدث فى كل جمهورية يتسم من كل بد بأهمية عامة . وربما لا نفكر فى ذلك دوما . ولكن الحال كذلك بالذات . وعلى كيفية تطور الآداب القومية محليا وعلى مدى عصرية المهمات التى تعكف على حلها على الصعيد القومى وفى السياق العام لنمط الحياة الاشتراكى الواحد بالنسبة للجميع تتوقف لدرجة كبيرة القدرة الوطنية والاخلاقية والروحية للانسان ، وما يحمله الى مجتمعه والعالم : تناسق العلاقات ام صعوبة التلاؤم ، ذروة الروح القومية والرغبة فى احترام قيم القوميات الاخرى والتمتع بالاحترام بالقدر ذاته كممثل لشعب معين ، ام الغطرسة واللامبالاة ازاء الآخرين المتكلمين بلغات اخرى . تلك ليست مسائل اكاديمية ، بل هى مسائل يومية ملحة للغاية ولذا فهى لا تقبل التأجيل . وفى هذا المجال ايضا نحن بحاجة الى العلنية بوصفها راية التجديد فى التفكير الجديد .

ان غرس العلنية هو مطلب العصر .

وقد تحدثت فى المؤتمر الحزبى فى جمهوريتنا واريد الآن ان اكرر ما قلت آنذاك : يجب ان نتخلى عن المعايير والابعاد القديمة ، ويجب ان نتخلص من قيودها الى الابد . فلا نزال نتذكر ، عندما نلقى نظرة على حالة الثقافات القومية ، انه كان هناك اميون وكانت هناك اقوام بلا ابجدية ، ونحن

نعيد ونكرر هذه الحقائق بلا كلل عندما نتناول الواقع الراهن ، وكأننا لا نزال نعيش فى عصر محو الامية وحقبة اللوح الاحمر واللوح الاسود . الا ان ذلك مضى وانقضى من زمان ، ولا يصلح اليوم ان يكون منطلقا فى الحساب . فلا يجوز الآن ، مثلا ، مقارنة صناعتنا ، واقتصادنا عموما مع ما كان فى عام ١٩١٣ . فتلك حماقة ما بعدها حماقة فى العصر الجديد ، عصر الثورة العلمية التكنيكية . ولذا يجب ان يكون هناك معيار آخر فى الموقف من تطور الآداب القومية والثقافات القومية . فلا يجوز الآن ان نبتهج لان الجميع يجيدون القراءة والكتابة ولان هناك جرائد واذاعة وتلفزيون ومسارح وهلمجرا . كل ذلك حقائق ، ومن حسن الحظ انها كذلك . ولكن لا يجوز ان نتخذ من ذلك ستارا نحجب وراءه انفسنا عن القضايا الحية الناشئة عند الشعب العامل الحى وفى ثقافته . ولو تحدثت فى المؤتمر لقلت لاخوانى الادباء ، وخصوصا النقاد والكتاب الاجتماعيين ، لا داعى لتصوير الامر وكأن كل شيء محلول على الصعيد القومى وليس هناك اية مشاكل . لا داعى للاستشهاد بهذه الاشياء البسيطة ، فليس هذا هو ما ينبغى التفكير فيه الآن . ينبغى التفكير فى مدى عمق وديمقراطية تطور الثقافة القومية والوعى القومى فى نطاق بنيتنا الاممية . فالاممية ليست حسابا بسيطا وليست مجموعا من اطراف عددية ، بل هى جبر من ثقافات قومية عديدة لها استقلاليتها . وفى الوقت ذاته فان هذه الاستقلالية غير ممكنة بدون قاسم مشترك اعظم لمجمل ثقافتنا الروحية ، وبدون الاستفادة النشيطة من منجزات الثقافات الارقى . ذلك ما ينبغى ان نتحدث عنه ونحاول ان نتفهمه .

والمثال على ذلك هو تطور اللغة القومية الفصحى . فما هي العمليات الجارية فيها ؟ ولنأخذ الاقتباس . ما هو مدى كونه امرا طبيعيا عضويا يأتي في الوقت اللازم ؟ ألا يحدث احيانا بسبب النزعة المحافظة في التفكير وبسبب الكسل الذهني ، حيث ينقل شيء من لغة الى اخرى بصورة ميكانيكية او لاجل التزلف ؟

واستدرك هنا فأقول : معلوم للجميع ان اللغة الروسية لغة عظيمة لا جدال في الدور الذي تلعبه اليوم بالنسبة لجميع الثقافات القومية في البلاد . اللغة الروسية عظيمة ، ولكن ذلك لا يعني انه لا داعي للالتفات الى السنن الداخلية للغة القومية الاخرى وتزويدها باقتباسات لا ضرورة لها ، من اللغة الروسية ايضا .

ان تطور الادب القومي ، مهما كان الادباء الموهوبون الذين يعملون فيه ، مرتبط بطائفة كاملة من العوامل ، وهو مرتبط بالثقافة العامة للشعب وبتعليمه . في العاصمة القرغيزية فرونزه تبنى مئات المدارس لكن عدد المدارس القرغيزية فيها لا يزداد ، وحان الوقت من زمان لافتتاح رياض اطفال باللغة القرغيزية في عاصمة الجمهورية . ولا احد يعترض اليوم على ذلك ، ولكن ما من احد يبني هذه الرياض ، في حين تكتسب هذه الرياض في الظروف الراهنة اهمية حيوية بالنسبة للشعب . فما قيمة الثقافة القومية ان لم تكن لديها قاعدة خاصة بها ؟

ولكن عندما يبدي احد هذه الآراء المؤلمة ينبرى اناس يعتبرون ذلك مظهرا للقومية والآراء الضيقة . ومما يؤسف له ان فذلكة اليقظة المفرطة هذه ، النابعة من الوصولية

بقدر كبير ، لا تواجه من يتصدى لها بالشكل المطلوب . وتجدر الاشارة بهذا الخصوص الى ان هذا الاتجاه ولد بالنتيجة نمطا خاصا من الديماغوجيين فى المناطق القومية هو الخطيب الثرثار الذى دأب على امتداح اللغة الروسية بمناسبة وبغير مناسبة والتقليل من شأن لغته الام .

ان التقليل من شأن اللغة الام والاصالة القومية تطرف يقابله تطرف آخر يثير السخط ايضا . واقصد الاتجاه نحو رؤية صورة الشعب على لوحة التكريم فقط ، اى رؤية المزايا والايجابيات فقط وعدم ملاحظة السلبيات فى حياته . وتلك رغبة مفهومة لها ما يبررها ، لكنها رغبة منافية للديالكتيك ، وهى بقدر ما عائق فى طريق التجديد .

وعندما نفترض نظريا ان كل اللغات ستندمج بمر الزمن ، فى مستقبل بعيد ، وستكون هناك لغة واحدة او لغتان فى العالم ، فمن المستبعد اننا ، ونحن منساقون لهذه الفكرة ، ندرك بان العالم سيغدو فقيرا بسبب ذلك . فهاتان اللغتان «المنتصرتان» لن تكون لهما بيئة مغذية . فالرتابة لا يمكن ان تؤمن التطور . ولذا من المهم صيانة تنوع اللغات الى ابعد حد ممكن . وفى عصرنا ، عصر الانفجار الاعلامى ، حيث تهيأت ظروف تجعل كل شىء عديم الهوية ، لن تكون الاعالة او التطفل اللغوى نافعا لاحد . اننى على اية حال انادى بكثرة اللغات الفصحى وبان تتهيأ لها امكانيات كبيرة للوجود والتطور .

خلود الشعب فى خلود لغته . وكل لغة انما هى لغة عظيمة بالنسبة لشعبها . ولكل منا واجبه ازاء الشعب الاب

الذى ولدنا واعطانا اكبر ثروة من ثرواته — لغته ، وهذا الواجب هو صيانة نقاوتها ومضاعفة ثرواتها .

ولكننا نواجه ديالكتيكا جديدا للتاريخ . ان المجتمع البشرى المعاصر فى اتصال دائم متزايد الامر الذى يغدو ضرورة حياتية وثقافية شاملة اكثر فاكثر . وفى هذه الظروف يتعين على كل انسان ان يجيد عدة لغات . وتظهر الآن ازدواجية اللغة فى آداب بعض الجمهوريات . وانا بالمناسبة انتمى الى الكتاب بلغتين . ومعروف ان فاسيل بيكوف وايون دروتسى ومقصود ورستم ابراهيمبكوف وتيمور بولاتوف يكتبون باللغة الام وباللغة الروسية . . . وانا اعرف كثيرا من الناس الذين يجيدون عدة لغات من لغات شعوب بلادنا واللغات الاجنبية . وعالم الادب والثقافة الهائل مشرع الابواب امامهم . وانا واثق من ان ذلك هو طريق المستقبل . فالعالم الرائع يجب ان يكون مشرع الابواب امام الجميع . وقد تقابلت مؤخرا مع مجموعة من الشباب الجزائريين الذين يتكلمون بثلاث لغات . فهم يعرفون الروسية جيدا ويتقنون لغتهم الام — العربية طبعا ، ويجيدون الفرنسية بشكل رائع . . . ثم ان احدى المدرسات الشابات بينهم تجيد البربرية ايضا . اننى ارى فيهم موديل المستقبل .

إ . ر . — هلا تحدثت لنا عن نتاجك ، وخصوصا روايتك الجديدة «المسلخ» التى نشرت بدايتها فى عدد حزيران (يونيو) من مجلة «نوفى مير» ثم فى عدد آب (اغسطس) .

لقد اشار البرت شفيتسار الى ان مجرد التفكير فى مغزى الحياة له قيمة بحد ذاته . ان ابطال رواياتك ، اذا تكلمنا عن الزخم الفلسفى والاخلاقى والذهنى ، يحاولون

ان يدركوا حقيقة الحياة المعقدة ومغزاها ، كل على مستواه طبعا ، سواء كان مستوى التفكير الحكيم عند الفلاحة العجوز تولغوناى فى «ارض الام» او تاناباى فى «وداعا يا غولسارى» ، ذلك الشيخ الذى نعتوه «بالفلاح الفيلسوف» . يخيل الي ان ما كتبته فى حينه عن يديغى وعن معرفته للعالم ولنفسه ينعكس بقدر ما فى الرواية الجديدة ويدل على ان فكرة الرواية اختمرت من ذلك الزمان : «بطلى يديغى يفكر كثيرا فى مغزى الوجود البشرى . . . بالنسبة للبعض ترتبط هذه المسألة بالايمان بالله ، ولكن الاله بالنسبة للكثيرين منهم ليس الا تجسيدا للاخلاق والضمير والوعى . وعلى اية حال فهو احد اشكال ذلك التجسيد . وها هو بطلى — الشغيل السوفييتى وليس المتدين الطائفى — يتأمل فى هذه المسألة ، ولا يأتيه الجواب بالسهولة التى نجدها فى خطب خطيب وقتى قادم من بعيد» .

ج . أ . — حقا ، فى روايتى السابقة «ويطول اليوم اكثر من قرن» ورد شىء من هذا القبيل . وقد لاحت تلك النغمة فى تأملات يديغى عندما شيع صديقه كازانغاب الى مثواه الاخير . بعد بحث مؤلم عسير عن مكان للدفن وقبل اداء شعائر الدفن يخاطب يديغى ربه : «آمل بانك موجود وانك حاضر فى افكارى . وعندما ابتهل اليك فانى فى الواقع اخاطب نفسى من خلالك . . .» .

تلاحظين ان يديغى يخاطب نفسه مع انه يخاطب العلى العظيم ، لانه ما من احد غير يديغى نفسه وامثاله بقادر على ان يبدد شكوكه ويزيل قلقه . ولئن كان يديغى مفكرا عفويا ، ان صح القول ، مفكرا من عامة الناس

وليس لديه تعليم فلسفى ، فان بطل «المسلخ» افـــدى كاليستراتوف قد هيأ نفسه للخدمة الدينية ، ولكنهما متقاربان من ناحية ما ، ربما من حيث موقفهما ازاء الحياة وتعطشهما الى العدالة والاحساس بالحق . فهنا يلتقى يديغى وافدى رغم اختلاف احدهما عن الآخر اختلافا تاما .

إ . ر . — فى الجزئين الاول والثانى من الرواية عدة اتجاهات : افدى كاليستراتوف ، «زمرة» مويونكوم ، قاطفى الاعشاب المخدرة ، الذئاب ، ولكن من الواضح ان افدى كاليستراتوف هو الاهم بالنسبة لك . واعتقد ان هذه الشخصية قد باغتت حتى قرائك الذين تعودوا على ان كل رواية جديدة لايتماتوف ليس فيها اطلاقا تكرار لما سبق وانها تختلف من حيث الموضوع والجدة الفنية . ونجد فى «المسلخ» لاول مرة ان الشخصية الرئيسية رجل روسى .

ج . أ . — نعم ، افدى روسى ، لكننى اتناوله بصورة اوسع ، كرجل مسيحى ، مع ان ما يحدث فى نفسه يخص ، على ما اعتقد ، معاصرىّ المرتبطين من حيث المنشأ بمعتقدات دينية اخرى . وقد حاولت فى هذه المرة ان اجتاز الطريق من خلال الدين الى الانسان ، الى الانسان بالذات وليس الاله . ولا شك فى ان اتجاه افدى وبحثه ونزوعاته هى الاهم بالنسبة لى .

إ . ر . — لكن اختيارك لشخص مسيحى وليس مسلما ، مثلا ، لدور البطل الرئيسى لم يأت صدفة .

ج . أ . — بالطبع ، ليس صدفة . فالديانة المسيحية تقدم مسلّمة قوية جدا لشخصية يسوع المسيح . اما الاسلام الذى انتمى اليه اصلا فليس فيه شخصية من هذا النوع .

النبــى محمد ليس من المعذبين . صادفته ايام عصيبة جدا ، لكنه لم يصلب من اجل الفكرة مثل المسيح ولم يغفر للناس ذلك . المسيح يزودنى بحجة لابوح للانسان المعاصر بشىء من خفايا الروح . ولذا واجهته فى طريقى الابداعى مع انى ملحد . وهذا هو السبب فى اختيارى للبطل الرئيسى ، وهو السبب فى كون افدى كاليستراتوف يبدو كما هو بالفعل .

إ . ر . — عندما نقرأ «المسلخ» نتذكر عفويا الامير ميشكين واليوشا كارامازوف * من ابطال دوستويفسكى . . . اما بيلاطس البنطى ويسوع الناصرى فى قصتك فهما يذكراننا برواية بولغاكوف ** . . . .

ج . أ . — ماذا بوسعى ان اقول بهذا الخصوص ؟ يسرنى ان اسمع هذا الكلام ليس لرغبتى فى ان اقف بلا تكلف جنب الكتاب العظام . فالامور فى الحالة المذكورة اعلاه جرت على نحو جعلنى اتناول نفس القضايا التى عالجوها فى حينه . فتلك مقولات ابدية وقضايا دائمية سيتناولها الكثيرون بعدنا . بديهى اننى فكرت فى بولغاكوف لان بيلاطس البنطى ويشوع عنده وبيلاطس ويسوع الناصرى عندى نفس الشخصين فى نفس الموقف . لكننى آمل بان القارئ المنتبه يرى اننى حاولت ان اعالج هذا الموقف ليس بشكل مغاير

---

* بطل رواية فيودور دوستويفسكى «الاخوة كارامازوف» (١٨٨٠) — **المترجم** .

** المقصود رواية الكاتب السوفييتى ميخائيل بولغاكوف (١٨٩١ — ١٩٤٠) «الاسطة ومارغريت» — **المترجم** .

مبدئيا ، بل ادرجت ضمن الحوار بين بيلاطس والمسيح جانبا جوهريا تماما . فمنذ ان تناول بولغاكوف هذا الموضوع مرت فترة تاريخية معينة ونحن نعيش الآن ضمن معيار زمنى مغاير بعض الشيء . لقد اردت ان استحدث شيئا جديدا ، مما ندركه اليوم ، وان اتحدث خصوصا عن رخاوة العالم البشرى كما هو عليه . وانا لا اصر اطلاقا على فهم يوم القيامة بالمعنى المباشر كنهاية نووية للعالم . الا ان ادراك واقعية هذا الخطر بالذات هو الذى جعلنى احـــاول ان اثبت بانه لا داعى للخوف من نهاية غيبية خيالية للعالم ، بل يجب الخوف من اننا بانفسنا يمكن ان نقترف ما قد يغدو واقعا رهيبا .

إ . ر . — بديهى ان تقييم النقاد لروايتك ومنهم نقاد «ليتيراتورنايا غازيتا» ، سيأتى بعد الانتهاء من نشرها . ولكن ماذا عساك تقول اليوم لقراء «المسلخ» الذين يرون ان المؤلف يكاد يتخذ موقفا استسلاميا ازاء الدين ؟

ج . أ . — اتوقع ان تثير الرواية احكاما مختلفة وتفسيرات متباينة . وبعد انجاز نشر الرواية انتظر حوارا ادبيا نقديا جادا ، بل وفلسفيا ان شئت . الا ان الحكم على الكتاب والمؤلفات من حيث وجود او عدم وجود تعاطف مع الدين انطلاقا من الصيغ المعروفة فقط دون الالتفات الى كيفية استخدامها والى الاغراض والافكار غير الدينية اطلاقا التى يستخدمون تلك الصيغ من اجلها انما يعنى التطلع فى الكتاب بعين لا ترى شيئا .

إ . ر . — يستفاد من مؤلفاتك ان للموسيقى والاغنية شأنا كبيرا بالنسبة لك . وكنت تريد ان تطلق عنوان «النغم»

على واحدة من قصصك الاولى قاصدا به موسيقى الحب ، أليس كذلك ؟ وهي القصة التي نشرها الكسندر تفاردوفسكي في مجلة «نوفي مير» وسماها «جميلة» . وقد عنونت كتابك الاول باللغة القرغيزية «اوفون» («النغم») ، أليس كذلك ؟

في «المسلخ» مشهد هام للغاية في البنية الفلسفية للرواية ، حيث يستمع افدى كاليستراتوف في متحف بوشكين الى مزامير بلغارية قديمة . وفي ذلك الجو ادرك مغزى قصة جورجية قرأها ذات مرة ، او على الاصح انشودة بعنوان «الستة وسابعهم» .

في مؤلفاتك تلعب الاساطير والحكايات والاقوال المأثورة والاغاني دورا جوهريا . هل ابتدعت هذه الانشودة بنفسك ام انها صياغة اخرى لحكاية جورجية قديمة ؟ ما مغزاها ؟ خاتمة المشهد ، مقتل سابعهم ، في رأيي اشارة الى عدم التطابق في اخلاق الفرد واخلاق المجتمع . فالسابع يقتل الستة بلا تردد ، لان العدو يباد اذا لم يستسلم ، ويتم ذلك من اجل القضية العامة ، من اجل الفكرة . لكنه ، كانسان ، لم يتحمل هذا التصرف ، فالقتل بالنسبة له جريمة لااخلاقية . وبالطبع يتسم بأهمية كبيرة تفكير افدى بالاسباب التي حملت السابع على الانتحار . زد على ذلك انه يفكر في هذه الاسباب اثناء انشاد المزامير ، حيث تقول احدى وصايا المسيحية ، كما هو معروف : «لا تقتل» .

ج . أ . — يمكن تفسير الامر على هذا النحو ايضا . وهناك تداعيات او تفاعل متسلسل : الستة يبدون مقاومة ضارية ويقتلون الآخرين ، والسابع يعاقبهم على ذلك ويثأر

منهم ، لكنه يعاقبهم بنفس القساوة ، وعندما يبيدهم يدرك بانه اباد نفسه ايضا كانسان ، ولذا تحصل حلقة مفرغة ، مأساة . لا توجد قصة كهذه بالطبع ، وانا انتظر بشيء من القلق رد فعل القراء والكتاب الجورجيين فيما يخص دقة تجسيد الوقائع ، مع ان العبرة ليست فيها . اريد ان اقول من خلال هذا المشهد ان الحروب الاهلية ترتبط دوما بفاجعة وطنية وتؤدى الى المصائب والآلام واراقة الدماء ، وان ذلك يمكن ان تعبر عنه ليس فقط الموسيقى والاناشيد التى تمجد الكفاح والمآثر وتجسد فرحة النصر ، بل وكذلك ، على العكس ، الموسيقى والاناشيد التى تجعلنا نأسف ونحزن على الضحايا .

إ . ر . — الرواية بعنوان «المسلخ» . وقد سمعت ايضا عن عنوان آخر ، ربما كان هو العنوان الاول «الدوامة» . ثم وجدت فى نص الرواية صدى له : «. . . وانا انتظر . . . ان اغوص فى حياة اخرى تماما ، فى تلك الحياة التى تخوض من سالف الزمان فى مستنقع الهرج والمـــــرج **والدوامات** . . .» ، «. . . عبر **دوامة** الزمن امتدت وشيجة وربطت مصيره هو ايضا» . لماذا غيرت العنوان ؟ فالعناوين بالنسبة لك ذات اهمية كبيرة دوما .

ج . أ . — بالفعل . كنت — ولا ازال — انوى كتابة رواية ضخمة بعنوان «الدوامة» تستوعب قصة افدى كاليستراتوف وقصة الذئاب وكثيرا غيرهما . ولكن اتضح ان القيام بذلك ، اى التوفيق بين اتجاهات مختلفة للحبكة وازمان مختلفة فى كل متكامل واحد ، امر صعب للغاية . ونظرا للوقت الطويل الذى كان سيتعين علي ان اصرفه فى تأليف هذه الرواية قررت ان اكتب قصة افدى على انفراد . ولم اكن

اتصور بانها ستتحول الى رواية ، كنت اتوقع ان تظهر كقصة غير طويلة ، الا انها تضخمت تلقائيا .

اما التسمية ، «المسلخ» ، فهى نابعة ، فى رأيــى ، من مضمون الرواية . فانا اقصد بالمسلخ ليس فقط المجزرة التى يجرى فيها الاعدام بقطع الرقبة . فالانسان يواجه المسلخ بشكل او بآخر طول حياته . واحيانا يدخل المسلخ لكنه من الناحية البدنية يبقى حيا . واحيانا لا يدخل المسلخ . وتشير تسمية الرواية الى ثمن العذاب ، ثمن دخول المسلخ ، ومغزاه اذا كان لدرب الآلام هذا مغزى .

إ . ز . — تبدأ الرواية بنغمة مأساوية ، بصفحات اخاذة عن مجزرة دموية رهيبة فى برية فريدة تقطنها الظباء وعن قصة عائلة من الذئاب . لقد تعود قراؤك على عالم الطبيعة وصور الحيوانات فى مؤلفاتك — الحصان الرهوان غولسارى والجمل كارانار ، وفى الرواية الجديدة الذئبة اكبرة والذئب تاشجاينار اللذين رسمت صورتيهما بقوة سيكولوجية وشعورية مدهشة . . .

ج . أ . — الفولكلور القرغيزى مشبع بعالم الحيوان ، فهو فولكلور رعاة . فالحصان جنب فارسه من كل بد . وترتبط بالحصان «مقاطع» سيكولوجية كبيرة جدا فى ملحمة «ماناس» الكبرى ، عندما يتطرق الحديث ، مثلا ، الى سباق الخيل — ماذا يحدث للنفس البشرية فى مثل هذه اللحظات وما هى الانفعالات التى تغلى فيها وما اكثـــر الصدامات الهوجاء التى تنشب بين الناس . وعندنا ملحمة مدهشة قديمة جدا هى ملحمة «كوجوجاش» التى تعود اصولها الى الزمان الذى لم يتجزأ فيه بعد الانسان والطبيعة وعالم

الحيوان . وقد استخدمت احدى مواضيعها فى قصة «وداعا يا غولسارى» . وتقول الملحمة ان الصياد الشاب الشجاع «كوجوجاش» معيل العشيرة قد اباد كل الماعز البرى فى الجبال . وذات مرة رجته معزى عرجاء رمادية اللون الا يقتلها ولا يقتل العنز الرمادى العجوز لانه لم يبق غيرهما لمواصلة عرق الماعز . وبشىء من التهور اهانته المعزى الرمادية قائلة بانه سيجلب على نفسه قصاصا مرعبا اذا لم يتركهما لشأنهما . وسخر الصياد من كلماتها . فماذا تستطيع ان تفعل له ؟ وقتل العنز العجوز . وفرت المعزى الرمادية مع انها عرجاء ، فطاردها ووجد نفسه بين صخور وعرة لا مجال للهبوط منها ولا منفذ للصعود فوقها . وقالت له المعزى ذاهبة : «هذا هو القصاص» .

على هذه الصورة ارتسمت فى اذهان القدامى الكارثة الايكولوجية . بديهى انه يمكن تفسير هذه الملحمة بشتى الانواع والصيغ . وعندى تفسيرى الخاص لها : فالانسان منذ القدم حذر نفسه من الموقف غير الحكيم ازاء الطبيعة ، وخصوصا ابادة الحيوانات حتى وان كان ذلك من اجل القوت . ومن ذلك الزمان ارتسمت هذه الجوانب من المشكلة الايكولوجية ، وارتسمت الهموم التى تشغل بالنا اليوم .

وهكذا فان منابع موقفى المتحيز جدا لصالح عالم الحيوان تعود كذلك الى الفولكلور القرغيزى القومى .

إ . ر . — فى مؤلفاتك السابقة نجد تاناباى وحصانه غولسارى ويديغى وجمله كارانار ، وتلك ، ان صح القول ، قرابة الروح وتقارب المصائر وترابطها الوثيق . اما فى «المسلخ» فالذئاب اسمى من الانسان واعلى من تصرفاته الوضيعة .

واثناء الغارة على الظباء فى برارى مويونكوم «. . . فى ذلك السكون الرهيب لاح امام الذئبة آكبرة وجه انسان ، لاح عن قرب فظيع وبوضوح جعلها ترتعد هلعا . . .» .

ج . أ . — وحش تراءى لوحش .

إ . ر . — علما بان الانسان-الوحش بدا للوحش آكبرة مخيفا مرعبا . ان عائلة الذئاب فى الرواية كأنما تتواجد بين عالمين بشريين . فمن جهة كوكب البشر متمثل فى افدى وموقفه الانسانى من كل كائن حى وحبه للناس وطموحه الى فهم اسباب سقوط البشر ومساعدتهم ليس فقط بالنصح والموعظة ، بل وبالمشاركة الشخصية ، وكذلك هيامه وتعطشه للحب : «لم اكن اتوقع مطلقا ان التفكير فى الحبيبة وكتابة الرسائل اليها سيغدوان مغزى لحياتى . . . لن اكف عن الحب حتى الممات . . .» . ومن جهة اخرى كوكب اللابشر ، او «الزمرة» كما نعت نفسه فريق مقترفى الشرور فى مويونكوم والسكارى والمشردون والجوالون الذين يعيشون حسب قوانين الغاب ومهربو الحشيش الشبان . وليس لدى «الزمرة» فى الواقع اى شىء مما له صلة بالبشر . بينما توجد لدى الذئاب عائلة واواصر ووشائج ومشاعر قرابة . وانا ارى هذا التعارض منذ البداية . ويؤكده المشهد فى متحف بوشكين حيث يستمع افدى الى المنشدين من صوفيا قبيل الرحلة الى السهب مع مهربى الحشيش : «شتان بين الاناشيد الالهية وبين الرغائب الوضيعة . . . التواقة الى دخان فاسد من عشب فاسد» . ولا ادرى هل وضع الهيكل المعمارى للجزئين الاول والثانى من الرواية عمدا ، لكننى رأيت الفارق بينهما واضحا .

ج . أ . — هذا الفارق يظل حتى خاتمة الرواية . وفى

الجزء الثالث ايضا نجد مأساة عائلة الذئاب متواجدة بين عالمين ومرتبطة بقصة اسرتين وشخصين على طرفي نقيض — الراعي اوركونتشييف وخصمه نويغوتوف . وهما متضادان مثل افدي كاليستراتوف وغريشان رئيس مهربي الحشيش الذي يظلل الشباب : «كل شيء في الدنيا يباع ويشترى» ، «النقود هي الكل في الكل» .

إ . ر . — ما سبب اهتمامك الكبير بقضايا الشباب ؟

ج . أ . — اعتقد ان هذه القضايا غدت حادة جدا الآن . اتذكر عندما كنت طالبا كانت الحرب قد وضعت اوزارها وبدأنا نلتقط انفاسنا وكانت هناك ايام كثيرة عصيبة ومعقدة ، الا ان نفوسنا الفتية ، والطفولية الساذجة احيانا ، مفعمة بروح الجماعية والتلاحم الاممي . وربما ساعدت الحرب على ذلك ، فهي بلية للجميع .

إ . ر . — عرضت ذلك بشكل جيد في قصتك «الكراكي المبكرة» .

ج . أ . — اما الآن فلا اريد ان اكون شابا .

إ . ر . — من حيث العمر . . .

ج . أ . — من حيث العمر طبعا . ومع اني لست بحاجة الى ان اكون شابا ، فانا لا اريد ذلك ، انني لا اشعر بالارتياح تماما بين شباب اليوم .

ربما نحن مذنبون فيما يحدث لابناء المجتمع الفتيان الذين لم ينبت ريشهم بعد . ففي ظروف الرخاء ، ونحن ، على اية حال ، نعيش هذه الظروف وليس عندنا جياع ولا بؤساء ولا مشردون ، يؤدي نقص التربية الاخلاقية وانعدام التهذيب النفساني الرفيع الى النزعة الاستهلاكية والتطفل وعبادة

الاشياء حيث يغدو العامل المادى حجر الزاوية ويقترب الزخم الروحى من خط الصفر .

واعتقد ان العائلة مذنبة بقدر كبير ، والمدرسة مذنبة بقدر اكبر . فهى ، فى رأيـــى ، لا تستجيب لمتطلبات الزمن المتزايدة والتناقضات التى نعانى منها . لقد تحدثت مؤخرا الى شخص مندفع بفكرة الاصلاح ، ليس الاصلاح الذى نحاول تطبيقه الآن ، بل الاصلاح الجذرى العميق الذى يمكن ان يحول المدرسة بالفعل الى مركز للتطور المتناسق المتعدد الجوانب وللتعليم والتربية حقا ، حيث يبدأ من العام الثانى او الثالث اشراك الاطفال بالعمل على قدر المستطاع وجعلهم يغترفون مبكرا من مناهل الادب والموسيقى والرسم . والمفروض ان تكون مجموعات التلاميذ صغيرة وان يكون الاهتمام بهم فرديا .

إ . ر . — وهل هناك من يوافق على مثل هذه النفقات ؟

ج . أ . — لا يجوز ، بل لا يليق التوفير والاقتصاد فى التعليم العام . ان تكثيف الصفوف حتى بوجود معلمين ممتازين انما يؤثر تأثيرا سلبيا على نوعية معارف التلاميذ ، بل وحتى على اخلاقهم . عندما يقوم معلم واحد بتعليم خمسين تلميذا فذلك ليس تعليما ، بل مهزلة .

وفى مؤتمر الحزب الشيوعى القرغيزى اعربت عن قلقى بهذا الخصوص واستشهدت بالمدرسة رقم ٥ المعروفة فى مدينة فرونزه . وقلت ان لجنة الدولة للتخطيط فى الجمهورية ووزارة التربية واللجنة التنفيذية لمدينة فرونزه والاقسام المعنية فى اللجنة المركزية للحزب لا تستطيع منذ سنوات ، بل وعشرات السنوات ان تحل مشاكل هذه المدرسة والمدارس

الاخرى التى يزداد عدد تلاميذها اضعافا ، فى حين تبقى الجدران والميزانية على حالها . يجب على المجتمع ان يمارس الاعتدال جديا فى جوانب ما ، لكى ينفق اكثر على التعليم . وعندذاك نستطيع ان نتكلم بجد عن التقدم العلمى التكنيكى ، وعند ذاك تتفتح المواهب بكثرة وتنجلى الاذهان ذات الزخم الاخلاقى والروحى الرفيع .

ثم ان الكمسمول يجب ، فى رأيـى ، ان يفكر فى نفسه . فهو على ما اعتقد غارق فى الروتين . ونحن لا نتحسس روحه الكفاحى التوحيدى التعبوى الساحر . وارى انه هو ايضا يجب ان يتغير ليمارس تأثيرا فعالا على الشباب ويلعب فى حياتهم دورا كالذى كان يلعبه فى ايام شبابـى ، فى حين ان جيلى يسمى شبابه صادقا بالشباب الكمسمولى . وتلك ليس مجرد كلمة .

ان الفن الاستهلاكى المخدر يمارس تأثيره السيـئ ايضا .

إ . ر . — قال فالينتين راسبوتين بهذا الخصوص : لو لم يستمع بوشكين الى حكايات واغانى مربيته ارينا روديونوفنا * ، بل الى اغانى مغنية مشهورة من مسرح المنوعات لصار مثل دانتيس ** . بديهى ان تلك مبالغة متعمدة من الكاتب الذى تقلقه الحياة الروحية للشباب المعاصرين . والقضية ليست فقط ، بل هى ليست فى اغانى مغنية واحدة ، بقدر ما فى سيل من الاغانى الرخيصة الغثة التى لا هوية

---

* مربية بوشكين . **المترجم** .

** ضابط قتل بوشكين فى مبارزة . **المترجم** .

لها ولا غرض منها الا التسلية والالهاء والتخدير ، وهى عاجزة عن جذب الشباب الى العمل الروحى وايقاظ «المشاعر الطيبة» فيهم وملء اوقات فراغهم .

ج . أ . — ولا ننسى عرض الافلام الغربية ، افلام القسوة والمطاردة والضرب والقتل ، من اجل التسلية . الكبار يمكن ان يتخذوا موقفا انتقاديا منها ، اما الاطفال والاحداث غير المجربين والقليلو الادراك فانهم يتلقفون محتوياتها ميكانيكيا ويتشبعون بها ويقلدونها .

لن يقوم احد سوانا بتربية شبابنا وتهذيب النفوس الفتية . ولا يجوز الركون الى الاطمئنان على امل ان شيئا فظيعا لن يحدث : فهم الآن متكبرون قساة لا يعرفون الرحمة ، وعندما يكبرون سيكونون صالحين ، سنصلحهم . كلا ، لن نصلحهم ، فاصلاحهم صعب . واذا كنا نتصور بان التعليم الثانوى العام الذى نوفره لهم يحل كل المشاكل فان هذا التصور ساذج على اقل تقدير . بالعكس ، فكلما كان مستوى التعلم اعلى كلما كانت التربية اصعب واعقد . يجب ان نكون اكثر دقة فى طرائقنا واساليبنا واكثر تفننا ومرونة .

إ . ر . — هل استندت الى وقائع معينة عندما تناولت موضوع الحشيش فى الرواية ؟

ج . أ . — لم اتناول هذا الموضوع ايضا بالصدفة طبعا . فان الرسالة المريرة التى بعثتها ام لولدين مدمنين على المخدرات الى جريدة «ليتيراتورنايا غازيتا» ونشرتها الجريدة مؤخرا دليل جديد على وجود هذه المشكلة الأليمة . لقد كنا سنين طويلة نخفى مصيبتنا عن انفسنا ، وكانت تشغل

بالى طبعا الاسئلة التالية : ما سبب ظهور هذا المرض عند قسم من شبابنا ؟ ما هى الاسباب العائلية والشخصية التى تخلق ظروف هذه الظاهرة الشائنة فى مجتمعنا ؟ من اين تأتينا خلسة وكيف ؟ ما هى النواقص الاجتماعية التى تدفع الشباب الى سلوك هذا الطريق الفتاك ؟

يجب علينا نحن — وليس هم — ان نفكر ونتحمل المسؤولية .

ذات مرة ذهبت لاستقبال القطار فى محطة بعيدة جدا فى السهب . تأخر القطار عدة ساعات . وكنت اتجول ولا ادرى اين اذهب . ويبدو ان احد رجال المليشيا عرفنى فعرض علي ان اجلس عندهم فى دائرة المليشيا . عندما دخلت الدائرة رأيت فى احد الاركان قفصا حديديا فيه فتيان احتجزوا من قطارات الاحمال بسبب تهريب الحشيش . وفى ركن آخر الادلة الثبوتية : حقائب ظهر وحقائب اخرى جلدية وثالثة صغيرة وفيها الحشيش . وتألمت كثيرا .

ان رسالة الام التعيسة الى جريدة «ليتيراتورنايا غازيتا» جعلتنى اعود من جديد الى ما فكرت فيه آنذاك ، الى الكتابة عن ذلك من كل بد ولو بصيغة صحافية : نعم ، لقد خرقوا القانون ويستحقون العقاب ، ولكن يجب مساعدتهم ، ونحن ملزمون بمساعدتهم ، من اللازم علاجهم ومن اللازم البحث عن اساليب الشفاء .

إ . ر . — لماذا ظهر الجزء الثانى من «المسلخ» فى العدد الثامن من مجلة «نوفى مير» ، وليس فى العدد السابع ؟ متى يصدر الجزء الثالث من الرواية ؟

ج . أ . — الكثيرون يوجهون الي هذا السؤال . لم اتمكن

من قراءة البروفه فى الوقت اللازم . ولذا اجل الجزء الثانى من الرواية حتى العدد الثامن ، والمفروض ان ينشر الجزء الاخير فى العدد التاسع .

إ . ر . — ماذا تقرأ الآن ؟

ج . أ . — كنت مشغولا «بالمسلخ» ولم اتمكن من مطالعة الكتب التى كنت اريد مطالعتها . بدأت قراءة كتاب آليس اداموفيتش الجديد «اهم ما فى الدنيا» . ومع ان العنوان الثانوى يشير الى «القضايا المعاصرة لادب الحرب» فان الصفحات التى تمكنت من قراءتها تدل على ان نطاق الكتاب اوسع بكثير ، فهو يتناول القضايا الملحة ليس فقط لا.ب الحرب بل لمجمل الفكر الفنى عندنا ، ولادبنا ، بل لحياتنا كلها وليس الادب وحده . وانا واثق من ان هذا الكاتب المرهف سيجعلنى من جديد اتأمل واتألم وسيقودنى من خلال الالم والمعاناة الى شىء ما طيب وحقيقى . وانا لا اشك فى ذلك . فانا افهمه بهذه الطريقة فقط . وهو فى كتابه الجديد يتطرق الى الاخلاق وآداب السلوك ويؤكد بانه لا يوجد اليوم طريق غير النزعة الانسانية .

اننا الآن ايضا نعارض مفهوم النزعة الانسانية المجردة واللااجتماعية . ولكن من ناحية ثانية لدينا فى العصر النووى وفى ظل خطر الابادة الفعلى الذى يتهدد البشرية والحضارة تصور عن النزعة الانسانية اوسع من تصورنا السابق . فنحن نسعى للعثور على موقف شامل لمعالجة القضايا الانسانية العامة . والآن حيث بلغ العالم مستوى من التطور التكنيكى ومن التناقضات بحيث لا تلحق البشرية من الناحية المعنوية بالمنجزات التى تبتدعها بيديها وبمساعدة العقل من المهم

للغاية ان يمارس الادب والفن من خلال وسائلهما الخاصة اقصى التأثير على الانسان ويقولا له بان حياة البشرية اغلى من كل المعتقدات والاهداف والمهمات . يجب التأكيد الى الابد على الوصية الانسانية العامة للجميع — السلم وحده ولا شيء غيره !

١٩٨٦

صدى العالم

لقاؤنا فى صوفيا * دليل آخر على ان العقل المستنير لا يكف عن بذل الجهود لتنظيم الحوار على نحو ما بين الحضارات فى اوسع معنى للكلمة . فنحن نعيش فى مجتمعات متواجدة فى قطبين اجتماعيين مختلفين بينهما تناقضات كثيرة ، تناقضات تاريخية حادة ، بل ونزاعات ، لكننا مع ذلك ننتمى الى اصل بشرى واحد . ولذا نحاول العثور على الاشكال التى يمكننا باستخدامها ان نتبادل معارفنا وخبراتنا فى مختلف ميادين حياة الانسان .

وبفضل الدعوة الكريمة من زملائنا البلغاريين تهيأت لنا فرصة الالتقاء عند هذه «المائدة المستديرة» ، وكل منا — على قدر امكاناته واهتماماته طبعا — يفكر فى قضايا العلم والثقافة والمجتمع فى العالم المعاصر . بديهى ان هذا الموضوع واسع للغاية ، بل ولا يمكن الاحاطة به . ومن المستبعد ان يدعى احد بانه يحيط به بالكامل .

وبودى ان اقول ما يلى : من الواضح تماما ان العالم فى كل مكان يمر بثورة فى العلم والتكنيك . وتجرى هذه

---

* المقصود دورة الاكاديمية الاوربية للعلوم والفنون والآداب التى عقدت فى صوفيا فى اكتوبر ١٩٨٥ .

الثورة على مرأى منا وتقتحم علينا حياتنا المعيشية فتنهال بسيول من المعلومات وتغير نظام التفاهم وتجتذب الناس اكثر فاكثر الى ميادين الثقافة الجماهيرية بمختلف انواعها . ومن ذلك مثلا التحشد الفائق لاهالى المدن والملاعب الضخمة وحفلات المنوعات الحاشدة المفتوحة الابواب امام الجميع والتى تبلغ كل انسان ، بالاضافة الى طائفة من الوقائع الاخرى التى تظهر فى حياتنا الحالية فى سياق التقدم العلمى التكنيكى الحثيث . وهذا التقدم خير فى بعض الحالات ومصدر لاغناء ونمو الذهن البشرى . لكنه يولد ايضا كثيرا من التعقيدات فى الثقافة وفى الحياة الاجتماعية ، وهى تعقيدات نواجهها يوميا .

وبهذه المناسبة اريد ان ارد على بعض الاسئلة بنفسى . والاصح اننى لن استطيع الرد عليها ، وسأكتفى بمحاولة طرحها .

ان عصر التطور الافقى (الانتشارى) يمضى ويستنفد امكانياته . ومهما كانت قوة استمراريته كبيرة فان التقدم العلمى التكنيكى سيذللها بمزيد من السرعة . ويمكننى بهذا الخصوص ان استشهد بخبرة المجتمع السوفييتى ، بخبرة دولتنا ، حيث تواجهنا جميعا مهمة شاملة لا تنفصل عن حياتنا اليومية ، هى السير بوتائر متسارعة على طريق التقدم العلمى التكنيكى . ان قطار اقتصاد الدولة لا يمكن ان يواصل التقدم الا بالتعجيل على جادة التطور العمودى (المكثف) . ونحن جميعا نفهم ذلك تماما .

لقد مر ذاك الزمان الذى كان فيه التكنيك موجودا لذاته وغير معتمد على الاكتشافات العلمية اما الآن فالتجديد

هنا وهناك يجرى فى وقت واحد تقريبا . فالفيزياء النووية تعنى المفاعلات النووية ، والسيبيرنيتيك يعنى الاجهـــزة الاوتوماتيكية والكمبيوتر وهلمجرا ، اى ان المقترحات العلمية تستثير البحث التكنيكى ، وبالعكس ، فالحاجة الماسة الى انواع جديدة من التكنيك تدفع العلم الى الاسراع وتحفز البحوث العلمية .

وبتأثير الثورة العلمية التكنيكية تجرى تطورات فى وعينا وفى نفسيتنا وفى حياتنا الروحية ايضا . ان تصوراتنا عن العالم المعاصر تتجدد بنفس الشكل الذى تتجدد فيه تصوراتنا عن انفسنا .

فكيف تقترن المثل العليا التى صاغها ماضينا مع احدث متطلبات الثورة العلمية التكنيكية ؟ أفلا يتخلف مستوى الاخلاق المعاصرة والوعى الاجتماعى والثقافة عن هذه المتطلبات ؟ ثم ما هو مدى الخطر الذى تنطوى عليه المسافة التى تتقلص تارة وتزداد تارة بين الوعى والوجود العلمى ؟ الى م تؤدى اشاعة الكمبيوتر فى الاقتصاد والحياة المعيشية وكل ميادين حياتنا ؟ فى اى مجال تستطيع الآلة ان تحل محل الانسان ، وفى اى مجال يرفض تدخل الآلة فى شؤون الانسان رفضا باتا ؟ ان ذلك ، فى رأيـى ، يمس ميدان العلم ايضا . فهناك حدود معينة يجب على العلم ان يوقف عندها تدخله فى سر الاسرار . وعندما اقرأ او اسمع بان محاولات تجرى لخلق الحياة البشرية فى المختبرات فان ذلك ، واقولها صراحة ، يخيفنى ويرعبنى .

واشعر بحيرة كبيرة عندما استمع الى آراء — قيلت فى سياق جلستنا ايضا — وزعمت ان الشعر فى المستقبل القريب

سيعانى من تدخل التكنيك الاعلامى ، الامر الذى سيساعد بدوره على انتشاره بقدر اكبر بين الجماهير . وهذه الفكرة ، على العموم ، ليست جديدة . فقد قال بوشكين فى مأساة «موزارت وساليرى» ان ساليرى حاول ان يستخدم الجبر ليتأكد من التناغم ، وان مأساته ، مأساة الفنان الكبير ، تكمن فى ذلك بالذات .

وهنا افكر بان من حسن الحظ ان البشرية تواجه الآن فقط التفكير الالكترونى ، لان التفكير الالكترونى ربما كان سيعيق ظهور التعاليم الدينية الكبرى مثل اناشيد الفيدا فى الهند ، وربما كان سيؤثر تأثيرا فتاكا على الشعر العالمى وربما كان سيؤثر سلبا على عالم الموسيقى .

انا اعتقد ان المأساة لا يمكن ان تتأثر او تخضع لاية انظمة كمبيوترية . فالمأساة هى بيئة الوجود والتفكير والشعور البشرى الصرف . كما تعجز الآلة عن حساب مدى وتنوع اشكال الشر البشرى والرياء . فذلك كله يبقى فى ميدان لا تطاله الميكانيك والالكترونيات .

الا ان ذلك كله لا يعنى ان الفن يمكن ببساطة ان يشيح بوجهه عن العلم فى احدث مظاهره . بالعكس ، فسيطرح مرارا وتكرارا تساؤلاته : ما هو دور الفنان فى معالجة موضوع الثورة العلمية التكنيكية والفرد ؟ ما هو الجانب الاكثر اهمية بالنسبة لنا من جوانب هذا الموضوع والاكبر شأنا فى المرحلة الراهنة ؟ ما هو نوع الاكتشافات التى نريد ان نحمى انفسنا منها نظرا لما تحدثت عنه ؟ اننا نلاحظ احيانا بهجة لا حدود لها بسبب التقدم او حنانا شديدا الى الماضى والى المعيشة العشائرية التى يضفون عليها طابعا

مثاليا . فكيف نقيم هذين النوعين من التطرف وكيف يؤثران على وعينا ؟ ما الذى ينتظرنا فى المستقبل ؟ ما هى كليشهات المدينة التى سنواجهها فى حياتنا ؟

تلك على وجه التقريب هى المسائل التى تشغل بالى عموما ، بل وتشغل بال الآخرين طبعا . ولا داعى للتظاهر بان كل شيء فى منتهى البساطة وان الامور تسير على ما يرام .

وبخصوص التكنولوجيات الجديدة والصناعة الجبارة التى تؤمن هجوم الانسان على الطبيعة وتحسين وجوده وتلبية حاجاته غير المحدودة فان ذلك كله يشكل كتلة ثلجية عائمة هائلة جزؤها الغاطس تحت الماء محجوب عن انظارنا فى اعماق تيارات المحيط بسبب تخصص وتقسيم العمل . ولكن فى هذه الاعماق المختبرية للانتاج العالمى بالذات يصهر حديد التقدم العلمى التكنيكى المعاصر . على هذه الصورة التخطيطية المجردة يمكن بشكل تقريبى تصور اللوحة المعقدة جدا للعصر التكنولوجى الراهن .

واكرر من جديد : لا يمكن الاحاطة بما تستحيل الاحاطة به ، لذلك نتجاذب اطراف الحديث عند هذه «المائدة المستديرة» لاكاديميتنا الاوربية مع ممثلى المثقفين البلغاريين على صعيد البناء الفوقى ، على صعيد العلم والثقافة والمجتمع . وهنا احدد لنفسى قضية اضافية اخرى ، اسميها قضية تهذيب او خصال الفرد فى عصر الثورة العلمية التكنيكية . فهذه القضية بالطبع قريبة منى خصوصا كأديب .

لقد تركت الثورة العلمية التكنيكية اثرها العميق فينا جميعا ، وفى كل فرد . ومما لا جدال فيه اننا تابعون فى

شيء ما للاجيال السابقة تبعية بالغة . ومن جهة اخرى لا جدال ايضا فى ان اعباء الفرد تزداد بشكل يفوق التصور . ولو كان اهالى القرن الثامن عشر او التاسع عشر يستطيعون بشكل ما ان يلقوا نظرة على حياتنا وعلى ما نعانيه وان يروا منجزاتنا ودواعى قلقنا لما فهموا الكثير جدا بالطبع . ولنأخذ على سبيل المثال خطر الحروب النووية . . . فهذا الخطر يصوغ بشكل خاص ليس فقط العلاقات الاجتماعية والدولية ، بل يصوغ بمختلف الاساليب وعى الانسان وسلوكه .

قال اندرى فوزنيسينسكى المعروف جيدا فى بلغاريا فى احدى قصائده : «التقدم رجعة اذا تحطم الانسان» . هذا قول رائع بالطبع . وهو يعبر بعمق عن الفكر الشاعرى . ومع ذلك فماذا يحدث بالفعل ؟ الانسان يتحطم ، واذا كان يتحطم فكيف ولماذا ؟

ربما نحن نتشكى بسبب الرفاه ولان الخبز الكفاف يأتينا الآن اسهل بكثير ومستوى حياة البشرية ارتفع بالمتوسط فى العالم بالمقارنة مع عصر ما قبل التصنيع ؟

مما لا جدال فيه ان الفترة التاريخية الطويلة الخالية من الحروب الكبيرة العالمية النطاق هى من المصادر الرئيسية لرفاه البشرية المتزايد . وقد مكن ذلك الناس من القيام بخطوة واسعة الى الامام فى تطورهم فى جميع المجالات ، من الناحية الاخلاقية والاجتماعية ، وليس من الناحيـة التكنولوجية فقط . ومما يشرف البلدان الاشتراكية ويشرف منظومتنا الاشتراكية انها من يوم لآخر تناضل بمزيد من الاصرار فى سبيل صيانة ظروف الحياة السلمية للبشرية جمعاء . اننا ، على قدر الامكان ، نؤيد ونسند بحرارة هذا الاتجاه

بالذات فى التطور التاريخى . ولكن فلنعد الى موضوع حديثنا .

يصادف ان افكر فى نفسى : كيف يؤثر على شخصية الفرد واقع ان رواد الفضاء يعيشون هناك ككائنات من كوكب آخر وان الامكانيات تتسع اكثر فاكثر للجسم البشرى كى يعيش فى بيئات كونية غريبة ؟ واى مشاعر تكتنف الانسان فى هذا الارتفاع المذهل ؟ فالفرد لا يوجد بدون المجتمع وبدون جمهور من اترابه وبدون ظروف الواقع الارضى ، فهذا الواقع يمسه هو ايضا كوحدة منفردة .

الا ان الانسان شخصية وليس مجرد فرد .

ومن هنا يتبادر الى الذهن سؤال آخر : ما الهدف الذى يجب ان تتوخاه ثقافتنا وادبنا وفننا فى ظروف التقدم التكنولوجى الشامل ، هل هو هذه الشخصية ام الجمهور الذى لا هوية له ؟ اعتقد ان هذا سؤال فى منتهى الجدية ، ويمكن ان يطرح على الثقافة العالمية كلها وعلى فن العصر الحاضر كله . ويجب علينا ان نجد الجواب على هذا السؤال الذى غدا معقدا للغاية فى الآونة الراهنة .

كان بالامكان التصريح بوضوح بان الفن والثقافة والادب تخدم المعاصرين والمجتمع عموما . الا ان التصريح وحده لا يكفى بالمرام طبعا . فنحن ، مع الاسف ، لا نستطيع ان نتجاهل فوضى الثقافة الجماهيرية ، كما لا نستطيع ان نتجاهل مهب الريح . اسلافنا لم يواجهوا مثل هذا . فالثقافة الجماهيرية ناتج صرف لعصرنا . واللعنات لا تجدى نفعا . وفى رأيـى ، تتلخص مهمة المثقفين فى تحليل وتفسير طريق الثقافة الجماهيرية واشكالها الملموسة والكشف عن طبيعة هذه الظاهرة للعمل بقدر المستطاع على تكوين

السيادة الثقافية للفرد . اكرر : السيادة الثقافية للفرد .

وسأحاول توضيح ما اقصده بذلك . تصوروا نهرا جبليا عاصفا يقترب منه على ظهر حصان طبيب يريد العبور الى الضفة الاخرى حيث ينتظره اناس تفشى بينهم المرض . وكل الآمال معلقة عليه ليضع حدا للمرض التى ينتشر ويتسع نطاقه . الا ان النهر عميق وهائج ، وهو ينطوى على خطر بالنسبة للطبيب نفسه . ويرفع الطبيب احجارا يلقى بها الى النهر وينصت مستمعا الى طرق الاحجار على القاع ليتأكد من المكان الاقل خطرا والافضل لعبور النهر على ظهر الحصان .

وعندما بلغ هدفه اعلن للناس الذين ينتظرون معونته بانه سحر ماء النهر واوقفه ليعبر الى الضفة الاخرى ، وبفضل ذلك سيطر على المجرى الهائج . بديهى انه كشخصية وكأنسان يتقن فن التطبيب — بمعايير ذاك الزمان — له كل الحق للتأثير على الناس بهذه الصورة ليحظى بسمعة مهنية معينة فى انظارهم .

والآن يصل الى نفس الضفة انسان آخر ، واناس آخرون تحت تصرفهم التكنيك الحديث كله . انشأوا جسرا فوق النهر وبنوا محطة كهربائية . وازداد جبروت الانسان الى ما لا يقاس ، ولم يبق مجال حتى للمقارنة . الاول عبر النهر بشق الانفس والثانى ذلل المجرى الجبلى وصار يستخدم طاقته ليحصل على الكهرباء والنور . وظلت الاساطير تتحدث عن الاول ، ولا احد يتذكر اولئك الذين جاءوا من بعده — سائق الحفارة والمهندس وعامل البناء — ولا احد يهتم بشخصيتهم .

ان هذا التشبيه يقودنى الى استنتاج كئيب . لقد

غدا سائق الحفارة فى انظارنا مجرد عامل لا هوية له من بناة المحطة الكهربائية . وهذا يدل على ان الاهتمام بالانسان قد تبدد الآن . ونحن نطنب فى الكلام عن الجماعة ونقلل من الكلام عن الافراد . ولذا ادعو الى بعث السيادة الثقافية للفرد الذى يعانى اليوم ، فى رأيــى ، من ضغوط عفوية ، واحيانا متعمدة ، من جانب الاشكال الجماهيرية للتفكير والسلوك . كيف نبعثها ؟ ليست عندى وصفات جاهزة ، ولكننى على اعتقاد راسخ بان من الضرورى جدا الحفاظ على تقاليد الماضى وعلى القيم الحقيقية للروح البشرية ، بما فى ذلك الخصائص القومية واصالة الثقافات كحاجز فى طريق التجانس الشامل .

ان هذه القضايا ، كما يخيل الي ، تواجه كـــل المجتمعات بغض النظر عن اسسها الاجتماعية .

ومن السذاجة الظن بان قسما من السكان يتعرض لتأثير الثقافة الجماهيرية الرخيصة الفتاك وان القسم الآخر يتمتع بمناعة قوية ضدها . ويختلف الحال عندما تساعد مزايا نمط حياتنا الاشتراكية على الدفاع باكبر قدر من الفعالية عن السيادة الثقافية للفرد . ولكن يجب ان نتعلم الاستفادة من هذه المزايا .

ان تكوين التقاليد الثقافية عملية معقدة للغاية دوما . وعندما نراجع الماضى نرى ان السواد الاعظم من الجماهير الشعبية كان اميا ومتخلفا ، وهذا حال دونها ودون الاستفادة من القيم الثقافية ومن قيم الادب والفن . واليوم ، مهما بدا ذلك غريبا ، نلاحظ تعقدا من نوع آخر . فيوجد اليوم اشخاص اميون ولا توجد جماهير امية ، لا توجد شعوب

متخلفة جاهلة . فقد بلغ التلفزيون والاذاعة والسينما الجميع في آخر المطاف . ولكن لا مهرب من واقع كون وسائل الاتصال الجماهيرى والاعلام العام نفسها تساعد على تجانس التفكير وتجانس الثقافة وتجانس الافراد . فالبرنامج التلفزيونى الذى يوحد فكريا وروحيا مليار انسان فى موقف تاريخى واحد ويحمل اليهم فكرة انسانية سامية انما يفعل خيرا . ولكن عندما يفرض هذا البرنامج على الجميع فى كل مكان نفس الانغام الموسيقية ويبرز نفس النجوم المحبوبين فان ذلك مصيبة ، لان الفرد يشارك فى هذه العملية مشاركة سطحية فقط . وعندذاك تتبدد الطاقة الذهنية سدى ويضيع الوقت . ونحن لا نوفق دوما فى تقييد هذا السيل وفى وقف زحف الثقافة الجماهيرية .

ولا يمكن مجابهتها الا بشيء واحد هو الفن الحقيقى . وفى الظروف الناشئة اعتقد ان احدى مهماتنا الرئيسية هى خلق جو وفن وادب وثقافة تساعد على الاكتمال النوعى لشخصية الانسان دون انكار الاهمية التقدمية للثورة العلمية التكنيكية بحد ذاتها . ويمكن ان تحل هذه المهمة على مختلف المستويات وبطرائق مختلفة وبقوى مختلفة ، الا ان الهدف ، كما يخيل الي ، يبقى هو هو . لان الخطر يكمن ليس فقط فى خرق التوازن الايكولوجى حيث نرى بام العين انه عندما يلحق ضرر بالبيئة والطبيعة فان الخسارة لا تعوض . فهذا مفهوم للجميع . ولكننا لا ندرك دوما مدى الضرر الذى يلحقه بشخصية الفرد وبالثقافة تطور التكنيك المنفلت والخالى من الالهام الانسانى .

لقد حاول دوستويفسكى ان يفهم ما اذا كان الجمال

ينقذ العالم ام لا . بديهى ان المقصود بالجمال شىء اكثر من الجمال بحد ذاته . فالمقصود به مجمل الحالة الروحية للانسان . واذا نظرنا الى الاشياء نظرة واقعية فلا بد من الاعتراف بان دوستويفسكى عاش مع ذلك فى عصر اكثر هدوءا ، ولم يكن هناك خطر عالمى شامل يهدد وجود البشرية . ورغم ذلك فقد احس غريزيا بالمخاطر المرتقبة واعرب عن فكرته النبوئية .

ان مسألة دور الادب والفن فى حياة الانسان المعاصر تطرح اليوم بحدة خاصة . وهناك غوايات كثيرة نابعة من «خيرات» الثقافة الجماهيرية وهى تلهى وتصرف الانسان والبشرية عن القيم الحقيقية . ومن المناسب هنا ان نشير الى الرياضة . انا لا اعارض الرياضة ، ولكنها عندما تغدو صنما للعبادة فان ذلك ايضا يلحق ضررا بالعالم الروحى للانسان . ويمكن قول الشىء ذاته عن وسائل الترفيه الجماهيرى الاخرى . انها تلهى الانسان ولا تعطيه فرصة التفكير بنفسه وبعصره تفكيرا جادا مستفيضا . واذا لم يواجه الانسان بالشكل اللائق تحدى الزمن واذا حرم من امكانية العمل الروحى والفكرى الباطنى العميق فان القوى السلبية طبعا ، قوى الرعب والخطر فى المجتمع المعاصر تتفوق وتلقى مجالا ارحب للتأثير على اذهان وافئدة الناس .

وانطلاقا من ذلك كله اريد ان اقول ان فكرة دوستويفسكى (الجمال ينقذ العالم) هى فكرة حيوية فاعلة الآن ايضا . بديهى اننا نعيش فى عصر مغاير تماما ، وان هذه الفكرة ينبغى ان تفسر بشكل اكثر تعقيدا .

وفى الختام اريد ان اقول انطلاقا من ممارساتى الادبية

ان الفرد لا يزال كالسابق ، فى رأيـى ، الموضوع الرئيسى لابداع الفنانين المعاصرين . ولكن الفنان عندما يتناوله يسعى من خلاله الى التحدث مع جميع الناس . وهو ، اذا كان فنانا حقيقيا ، يشارك فى حياة البشرية جمعاء ، وليس فى حياة البيئة الاقليمية المعينة التى يرتبط بها من حيث الاصل والثقافة . ان حياة المجتمع تشابك معقد جدا لعوامل تاريخية واخلاقية وفنية . ولذا من الضرورى ان نحدث الناس عن كل ما يدور فى فلك وعينا . واعتبارا من ثورة اكتوبر والانتصار على الفاشية والخروج الى الفضاء الكونى — كل ذلك يجب ان يتحسسه الفنانون ويصوروه لانه ما من احد بعدنا ، سوى الفنان المعاصر ، بقادر على تصوير الواقع الحالى بتلـك الحدة والعمق . من المهم ان تمر كل التغيرات المبدئية التى تحول مصير البشرية عبر المعاناة والتأمل وتدخل فى الحياة الروحية .

قال غوركى ان الكاتب يجب ان يسمع ليس صدى روحه ، بل عليه ان يكون هو نفسه صدى للعالم . بهذه الصورة يتعين على الكاتب ان يفهم التاريخ . واذا كانت روح الكاتب مفعمة بالألم وحب الانسان والنزعة الانسانية — فى تلك الحالة فقط يستطيع ان يخدم البشرية . وانا واثق من ان الضرورة تستدعى اعادة المعنى الحقيقى للمفاهيم التى تعكس جوهر ورسالة الفن ، المفاهيم التى ادركها اولئك الذين ننعتهم اليوم بالاعلام . ونعترف دون كبرياء بانهم كانوا اوسع تفكيرا واكثر بسالة من الكثيرين من معاصرينا فى الادب والفن . الا ان هذا الاعتراف لن يعفينا من اداء واجبنا .

واكرر مرة اخرى : ان ما يجب علينا ونستطيع ان نفعله لن يفعله احد غيرنا . ان رؤية وفهم ما يمثله العالم المعاصر وما نمثله نحن المعاصرين يعنيان ليس فقط ان نكون شهود عيان ومراقبين ، بل ومبدعين للعالم الرائع ، للحاضر والمستقبل . وذلك يعنى الاحساس بشعور منقطع النظير ، شعور المشاركة فى الروح الانسانية ، لان المشاركة فى عملية البناء تعنى بالنسبة للمرء العثور على مكانه فى هذه العملية .

اننى اليوم اشعر بالارتياح لوجودى فى عاصمة بلغاريا الشقيقة ، بين الاصدقاء والزملاء . واعتقد ان الاحاديث عند هذه «المائدة المستديرة» التى نظمتها فى صوفيا الاكاديمية الاوربية للعلوم والفنون والآداب ذات اهمية بالغة ، وذلك لان الاكاديمية الاوربية ندوة ذات تمثيل واسع للغاية وليس من الحكمة عدم الاستفادة من هذه الفرصة الرائعة لنتأمل معا فى مختلف نواحى حركة الروح فى العالم المعاصر .

١٩٨٦

حديث مع مراسلي جريدة «البرافدا» يوري رازغولييف وفكتور خاتونتسيف

المراسلان — الزمن والاخلاق ، الضمير والغرور ، الخير والشر ، الحقيقة والزيف . . . لم يشهد الماضي المنظور فترة لم يفكر الناس خلالها في هذه المفاهيم الابدية . والآن ، في اواسط الثمانينات نجد انفسنا فيما يشبه مركز التوتر الاخلاقي الشديد ، حيث نحتاج الى التفريق بين الكثير مما هو حقيقي وزائف ، مما هو ايجابي وسلبي . ما هو في رأيك السبب في حدة قضايا الاخلاق والعدالة الاجتماعية والحياة الروحية اليوم ؟

ج . أ . — السبب هو التبدلات الجارية الآن في مجتمعنا . واعتقد اننا كان يجب ان نصل الى هذه الحدة آجلا ام عاجلا . وبالنسبة لكل جيل يحين وقت التنفيس الفريد او التطهر التلقائي . فلدى الاحياء تنشأ خبرة للوجود لم يكن استيعابها بالامر اليسير ابدا ، ناهيك عن تصحيح الاخطاء . وها هو مجتمعنا يمر الآن بمنعطف تاريخي . علما بان كل ميادين الحياة مستعدة للتبدلات ، ويجرى التغيير على طول الجبهة ، من الاقتصاد حتى الثقافة . ومع اننا نتذكر

مختلف الاصلاحات و«التحويرات» التى جرت فى السابق ، لكنها لم تقترن ببحث اخلاقى عميق فى فئات السكان الواسعة ولم تكن موجهة مباشرة وبهذا القدر الى شخصية كل فرد على حدة . اما الآن فيبدو ان الامور تختلف . فما الذى حدث ؟

لقد بينت الخبرة اليومية للجيل الحالى ان الثقافة الاخلاقية والتربية الروحية تتغيران ببطء . ولكن اذا كانت هذه العملية فى السابق غير ملحوظة على خلفية المهمات الاقتصادية الهائلة فقد غدت بمر الزمن تؤثر على جميع جوانب الحياة ، بما فيها الجانب الاقتصادى . وتتحدث القضايا الحالية عن كيفية هذا التأثير بلا لبس . ان ثقافة الشعب الاخلاقية هى اكبر رأسمال . واذا انعدم ذلك فلا تتوقع وجود الوعى الرفيع .

لقد غدا العالم اكثر تحركا . ففيه زخم سيكولوجى وسيول مختلف المعلومات وخطر الحريق النووى الحرارى . كل ذلك يجب ان يؤخذ بالحسبان ، وكل ذلك يؤثر على الانسان وعلى البشرية . ومع تطور التكنيك ازداد دور الموقف التكنوقراطى فى الحياة ولاح نقص النمط الانسانى للتفكير ، فى حين ان النزعة الانسانية فى كل الامور صغيرها وكبيرها تتوقف على مدى تقييم الناس لمفاهيم الوحدة والمساواة الاجتماعية والحقيقة والاخلاص والخير . ويجب علينا ان لا نتراجع عن المبادئ الاخلاقية التى تميز نظامنا الاجتماعى كموديل لبلوغ المثل العليا للبشرية . وفى مقدمة هذه المبادئ العمل النزيه لصالح المجتمع والعلاقات المشبعة بالنزعة الانسانية والاحترام المتبادل بين الناس والنزاهة والصدق وعدم

التسامح مع الظلم . وفي الواقع فان تلك هي مكونات الضمير ، والضمير بدوره هو القوة المحركة للوطنية .

وبهذا الخصوص اريد ان اقول ان مفهوم «الاخلاق» في رأيـي لا يتأثر بأية تجديدات ، ناهيك عن محاولات اضفاء الصيغة السياسية البدائية عليه . ان الاخلاق هي قانون الوجود الاول والاهم بالنسبة للانسان . وان كل جيل ، وكل فرد يعتبره تركة ثابتة مقدسة من الاجداد . والمهم ان يلتزم الانسان والمجتمع عموما بهذه المبادئ على الدوام ، دون قيد او شرط ، في كل الامور صغيرها وكبيرها .

ان المطالبة بالنظام الاخلاقي والاخلاص والمبدئية والتطابق التام بين الاقوال والافعال تزداد خصوصا الآن في ظل التغيير واعادة النظر في العديد من جوانب حياتنا . ومما يؤسف له ان ما حصل في السنوات الاخيرة هو ان بعض الناس لم تبق لديهم موانع اخلاقية داخلية ، وفرطوا في ضميرهم كليا . في حين ان الجوهر الانساني الحقيقي يتجلى في الانسان عندما يعيش وفقا لمتطلبات الضمير ، وعندما تكون دوافع تصرفاته نابعة من ضميره ومن قناعاته الداخلية التي لا شائبة فيها . ليس من السهل دوما العيش والتصرف وفق الضمير ، الا ان نبل الضمير بالذات هو الذي يجعل حياة المجتمع مشبعة بالافكار والاحلام ويساعد في المحافظة على النقاوة الخالصة للوصايا الاخلاقية الابدية . ولكن مما يؤسف له اشد الاسف هو الانحرافات التي لا مفر منها عن النماذج المثلى ، علما بان تلك الانحرافات يصادف ان تكون خطيرة للغاية . فهل نعدم اسباب التأملات المعقدة اذا كنا قد شرعنا صراحة بالكلام عن الضمير والرياء

والخداع المباشر فى الاقتصاد والادارة وفى دوائر حفظ النظام ؟

المراسلان — تتضمن رسائل قراء «البرافدا» عادة السؤال التالى : لماذا كنا صامتين فى الماضى ونحن نرى ونفهم كل شىء ؟

ج . أ . — هل تقصداننا نحن الكتاب بكلمة «نحن» ؟

المراسلان — كلا ، فنحن جميعا .

ج . أ . — طيب ، فلنواصل الحديث بهذه الصورة . . .

لا يمكن للمجابهة بين الخير والشر ان تكون سلمية فهما فى صراع دائم وعداء متواصل . اما فى سطح الحياة العادية فان هذا التصارع غالبا ما يتجلى فى مساومة وضيعة عادية : يقال عن السارق بلطف انه اخذ شيئا ، والادارى الاحمق ينعت بانه قليل المعرفة فى هذا او ذاك . المساومات ترضى الكثيرين ممن يخونون ضمائرهم ، وممن لا يخونونها لكنهم يفضلون العيش بهدوء . وتغدو «انصاف الحقائق» والاجراءات النصفية والعقوبات الجزئية «نافعة» . وتتكيف الاخلاق احيانا للتعايش المريح مع العلل والعيوب ، اى ينخفض الحد الاقصى للهفوات المسموح بها اخلاقيا . ولذا رأينا وفهمنا بالفعل ، ولكننا لم نناضل جميعنا . واذكر ان الكثيرين يفقدون تشددهم ازاء النواقص مع تحسن الاوضاع الحياتية ، ولعلى اقول اننا نفقد ثوريتنا .

ولكن فلنترك المداهنة : فاليوم ايضا لم يقطع دابر المساومات بعد باعتبارها من «اسباب العيش» . اننا لن نوضح لانفسنا امورا كثيرة مما كان فى الماضى القريب ، ولذا لن نقدم التحذيرات للمستقبل ، اذا لم نتأكد حتى النهاية هذه المرة من السبب فى عدم تمكننا دوما من السيطرة

على انفسنا . فالبعض يدركون بالعقل ان ذلك غير جائز ، لكنهم يفعلونه ويحاولون الا يسمعوا صوت الضمير ويخدعون انفسهم . وذلك من اكثر الامور فتكا . فهنا يجرى تفسخ الشخصية ، والانسان يقضى على حياته كلها . ويؤسفنى اننا لا نتذكر ذلك دوما .

وثمة مسألة اخرى : كيف تقع السلطة ، صغيرة كانت ام كبيرة ، فى ايدى اناس لا يملكون حقا معنويا فيها ؟ ما هى الخصال التى يرشحون الادارى بموجبها عادة ؟ جدى ، منفذ ، متشدد ، حسن السلوك . نعم . ولكن ما هو رصيده الاخلاقى ؟ وهل يستجيب للحماس الروحى الرفيع لمجتمعنا ؟ وهل هو نزيه وعادل ؟ مما يؤسف له ان خصال الشخصية هذه غالبا ما تعتبر ثانوية بالنسبة للجهاز الادارى . وها هى الانباء تتوارد من هنا وهناك عن الجرائم التى يرتكبها الموظفون — الفساد والرشوة وتزوير الوقائع والمحسوبية والتستر المتبادل على الخروقات . ان انعدام الضمير يمكن ان يؤدى الى اكثر الافعال تفننا فى معاداة المجتمع .

واذا شلت قوى التأثير الاجتماعى ، كالعلنية والانتقاد والرقابة والعقاب الذى لا مفر منه فماذا يحصل ؟ ما أسوأ ما يحصل . اجل ، يتعين علينا جميعا ، ونحن الكتاب من ضمن الجميع ، ان ننشط بهمة اكبر فى تنقية الجو فى حياتنا كلها . ويجب ان تتحول هذه التنقية الى اعمال وتصرفات ملموسة من جانب كل فرد . ان اخلاق الانسان السامية تتوقف دوما على جديته وحبه للعمل . ومن المهم ان نرى كذلك ان النسيم العليل قد كنس بشكل جذرى بيوت العناكب من الكثير من اركاننا المتربة .

المراسلان — بديهى ان التغيير يجب ان يتناول اول ما يتناول الايديولوجية والعمل التربوى ، كما جاء فى وثائق الحزب . ولكن المشكلة ان الكثير من الاشكال والطرائق التقليدية للتربية الفكرية والاخلاقية لا يستجيب للمتطلبات الحالية . باختصار اننا لا نبلغ دوما اذهان الناس ، فما السبب ؟

ج . أ . — تربية الانسان قضية فردية . فى البداية يجب بناء الشخصية . ومن اللازم القيام بذلك ليس بحساب «متوسط النسمة الواحدة من السكان» . فمن حيث المبدأ يتوصل كل انسان الى هذه المعتقدات او تلك ، ولكن ليس دفعة واحدة ، بل بمر السنين ، اى من خلال خبرته التطبيقية ، من خلال السيكولوجيا الاجتماعية للبيئة . الا ان حصيلة هذا العمل الباطنى لا تكون احيانا فى صالح نظرتنا الى العالم . وتتجلى الانحرافات عن مبادئ الاخلاق عادة فى التصرفات والسلوك . لكن ذلك من مجال الافعال . واذا القينا نظرة اعمق فان افظع شىء ربما هو الازدواجية الفكرية والرياء واكتساب الخيرات الاجتماعية والمنزلة الاجتماعية عن طريق التزلف الاخلاقى .

لماذا ينشأ فى ظروف متماثلة شخص يتحلى بالفضائل وآخر قادر على اقتراف الرذائل ؟ لن ادخل فى التفاصيل السيكولوجية ، لكن الواضح اننا يجب ان نتخلى من زمان فى التربية الفكرية والاخلاقية عن النداءات واللافتات العامة وعن التماثل والتنظير المجرد المنفصل عن التطبيق وعن روح العصر . وفى الغالب تتحول المبادرات الطيبة عندنا بسرعة، الى شكليات . وطالما الامر كذلك يظهر منفذون يحولون الفكرة الحية الى عقيدة جامدة ميتة .

صحيح ان الجمود العقائدى يأتى فى اعقاب اى نظام واية فكرة . فما من فكرة معصومة من الجمود العقائدى . ولكن ماذا يختبىء وراء الجمود العقائدى ؟ تختبىء وراءه الشكلية التى تولد الحذلقة الرسمية والوعظية المملة . الا ان وعى الناس ، وخصوصا الوعى الحالى ، لا يتقبل هذا النوع من اساليب وطرائق الدعاية . اننا نبحث الآن اكثر فاكثر عن اساليب اخرى للالتقاء بالروح البشرية ، والاهم هنا هو ان يعرف الناس الحقيقة وان يسود الصدق والنزاهة فى اعلام المجتمع مع ان ذلك ليس بالامر السهل دوما .

المراسلان — قبل حوالى خمس سنين ، على ما نتذكر ، تحدثنا معك عن ولع قسم من شبابنا بالحاجيات الاجنبية وبالتيارات الموسيقية الشائعة فى الغرب . . .

ج . أ . — وهل تقلص الآن عدد هؤلاء الشباب او قل هذا الولع ؟ ذلك له اسبابه . فنحن لسنا وحدنا فى هذا العالم . وثمة قضية اخرى . كنا امدا طويلا نركز على مزايانا الاشتراكية ونحاول بحق او بغير حق ان نمجد المنجزات . وقد غدا ذلك امرا معتادا لاكثر من جيل . بيد ان العالم لم يعد كما كان عليه فى السابق ، ولذا يجب ان يكون فهم ارتباطات وعلاقات حضاراته المتعارضة اكثر مرونة ورهافة . فى حين هناك ما يستحق ان نتعلمه من الغرب — من الناحية الانتاجية والتكنولوجية وخصوصا فى ميدان الخدمات . ومن المهم وفقا لروح العصر ولمهماتنا ان نجد بديلا نشيطا لمنافسة «العرائس الغربية» التى يولع بها بعض شبابنا .

المراسلان — يبدو ان المخاوف قلت فى الآونة الاخيرة

بشأن الميول «الغريبة» التي يمكن ان تتسرب الى بيئتنا على اثر بناطيل الجينز وموسيقى الروك . ولكن لا يصح ان ننسى ان الصراع الايديولوجى كان وسيبقى . فان فئة معينة من الناس تتساءل مرتابة : الا نلحق بانفسنا ضررا عندما نتكلم بهذا القدر من الصراحة عن نواقصنا ؟ وخصوصا فيما يتعلق بقضايا الشباب .

ج . أ . — وصف فلاديمير لينين العلنية ببلاغة قائلا انها السيف الذى يشفى الجراح . وهى كذلك بالفعل . ان دروس الماضى وسيلة للتخلص من اخطاء الحاضر لنرى بمزيد من الوضوح فيه ، فى حاضرنا ، براعم ومعالم مستقبلنا . اننا فى الآونة الاخيرة نتحدث عن كل شيء بصراحة . وبذلك نساعد الشباب فى رؤية الطريق الذى يجب ان نسير عليه . ولكن لكل جيل جديد مهماته وفهمه لصلة القربى مع الشعب وتاريخه . فلماذا نشعر بالانفعال حتما عندما يريد الشباب الوصول الى الحقيقة بانفسهم ويرفضون الكليشهات ويعبرون عن موقفهم من الحياة ؟ هذا حق لهم يناسب اعمارهم ، وهو اول انطلاقة اجتماعية لنفوسهم . اما محاولة جعل كل الشباب متماثلين وتربيتهم حسب كليشهة واحدة فلا تسفر الا عن تعويد ابنائنا والجيل الذى يعقبنا على الطاعة الزائفة التى تتحول احيانا الى مختلف الخروقات . وفيما يخص تعرض الشباب لمختلف التأثيرات الاجنبية فاننا هنا ايضا بحاجة الى المزيد من المرونة ، ونحن فى الوقت ذاته بحاجة الى قطع دابر التأثيرات الخطرة والسيئة ، وخصوصا البلية التى لا يمكن السكوت عليها — المخدرات .

لقد قلت ان كل ما هو عليل ومعيب مما يفرزه الغرب

يجب ان يكون تحذيرا ودرسا لنا . فانا ، مثلا ، اشجب بحزم البطالة التى يعانى منها عدد كبير من الناس فى الغرب . اما نحن فليس عندنا بطالة ، فالكل كأنما يعملون . ولكن اذا امعنا النظر نجد الشغيل المجتهد والعامل الكسلان يتعايشان فى ورشة واحدة ويقيمان فى منزل واحد ، فى شقتين متماثلتين . . . كلا ، انا لا استطيع ان ارحب بهذه الظاهرة . أبهذا الشكل ينبغى ان تتجلى المساواة والانسانية فى ظل الاشتراكية ؟ الى متى نظل نعول على الوعى الذاتى واعادة التربية ؟ . . لقد حان الوقت لتوزيع الخيرات بموجب العمل والقابليات فعلا ، وقطع دابر المساواة الاعتباطية .

المراسلان ــ كتب احد قرائنا من مينسك انه معجب كل الاعجاب ببطل قصتك بوستون الذى يعمل بنزاهة ويرغم جميع مرؤوسيه على العمل مثله . والكثيرون ممن تخرجوا من مدرسته صاروا اناسا مرموقين بعد ان علمهم على العمل ، ومن خلال ذلك علمهم على تقدير قيمة الحياة فى العمل . اما الذين لم يسعوا لبلوغ هذا الهدف فقد كان بوستون صراحة لا يحبهم ولا يفهمهم ، وكان يعتبرهم اشخاصا لا جدوى منهم ، وكان يعاملهم بجفاف وبدون ترحيب . وهو يعرف ان الكثيرين منهم يغتابونه بسبب ذلك ويصفونه بالبخل والقساوة ، ويأسفون لان بوستون ولد متأخرا والا لكانت عظامه تتفسخ فى ثلوج سيبيريا . ولم يكن بوستون عادة يرد على اية ملامة ، لانه واثق من انه على صواب . ولا يمكن ان يكون الامر على غير ذلك . فالعالم والحال هذه ينقلب رأسا على عقب . كان واثقا من ذلك مثلما تشرق الشمس من المشرق .

ويتساءل القارئ : لماذا يضطر بوستون ومأمور المحطة يديغى ، وعلى العموم كثير من الابطال ، ان يدافعوا عن حق النزاهة المقدس ؟

ج . أ . — مما يؤسف له ان الخصال القيمة من الاساس فى الانسان ، مثل حب العمل والنزاهة والشرف والضمير لا تعتبر دوما من الاولويات فى التربية نفسها وفى تكوين الشخصية . ويكاد يغدو من المعتقدات الراسخة ان بلوغ النجاح فى الحياة ممكن بالتحايل والدهاء والانتفاع من «المنصب الجيد» فى التجارة او فى ميدان الخدمات او فى الخدمة خارج البلاد . وهكذا تتشوه فكرة العدالة الاجتماعية وتستبدل معايير قيمة الانسان الحقيقية . ومع ان الرفاه المادى لا يجب ، من حيث المبدأ ، ان يتعارض مع تكديس الثروات الروحية للفرد ، الا اننا نلاحظ ان اصحاب النفسيات النفعية بشراستهم الابدية فى اقتناء الاشياء لا يتورعون عن التضييق على الذين يميلون الى المثل العليا الاخلاقية وينشدون الكمال الروحى . ويتخذ هذا الصراع اشكالا حـــــادة احيانا .

المراسلان — بماذا نواجهه ؟ هل تتذكر ما واجهته من صعوبات قبل ربع قرن تقريبا عندما نشرت مقالة «الذنب ذنبكم يا ابناء قريتى» دفاعا عن احدى نساء قرية شكر التى تعرضت للاهانة ؟ ما هو رأيك الآن فى الموقف الوطنى ؟

ج . أ . — الكلمات هنا تدل على معانيها . فالموقف وطنى . وفى هذا المفهوم روح هجومية ومبدئية ، وفيه اليوم بالدرجة الاولى دعم نشيط للتغيير . ان اهم خصال الطبع البشرى هى الرغبة فى الاعلان عن النفس كشخصية . واذا

انعدمت هذه الفرصة او اذا اعترضت الشكلية المتعفنة كل رغبة فى النشاط ، فان خيبة الامل تستولى على الانسان ويختفى الجانب الفردى الحقيقى وراء قناع المنفذ او المسؤول المتوسط ، فى حين ان عصرنا بحاجة الى الشخصيات بالذات .

نعم ، الانسان يواجه الخيار دوما . فالانتظار والتفرج او الدخول فى عراك من اجل العدالة ــ هذا وذاك يتوقفان على ايمان الانسان بصواب رأيه وعلى طباعه وتألمه من اجل الآخرين . الحياة تمنح كل انسان فرصة ورأس جسر للدفاع عن معتقداته . وفى الظروف الراهنة توجد حاجة ماسة الى ذلك ، للمساعدة على التطهير الاخلاقى وترسيخ مبادئ الاخلاق وتعلم التهذيب فى التنافس الحر بين الآراء والافكار ، اى تهذيب المجادلات . فالكثير من الظواهر السلبية يمكن ويجب ان نراها فى حالتها الجنينية ، وبالتالى نحذر من انتشارها ونقيد مجالاتها .

ان الاتجاه الحالى نحو اشاعة الديمقراطية فى حياتنا وفى العلاقات المتبادلة بين الفرد والمجتمع مسألة مختمرة وهامة للغاية من مسائل تطورنا . ولا يجوز بأية حال ، فى رأيـي ، تبسيط هذه العملية او الاستعجال فيها . وكما قال آخرون قبلى ينبغى لنا ان نتعلم العيش فى ظل الديمقراطية والعلنية او التصارح . ويجب ان تسير المصالح بشكل يؤدى الى الالتقاء والمعاملة بالمثل ، وعند ذاك يفهم الانسان النزيه ان موقفه مهم بالنسبة للقضية وانه ليس مجرد مسمار او صمولة فى جهاز ما ، بل هو مواطن كامل الحقوق فى دولة كبيرة حرة .

ثم ان الانظمة والمؤسسات الاجتماعية يجب ان تغير اسلوبها وتتجه صوب الانسان وتهتم بمتطلباته وحاجاته . وهنا تتوقف امور كثيرة على المدراء وعلى فهمهم لمهمات العصر .

المراسلان — عندما يطلع المرء على مواد المؤتمر الثامن عشر للحزب الشيوعى فى قرغيزيا الذى عقد قبل عام لا بد وان يلتفت الى كيفية ترشيح الكوادر الذى كان متبعا فى الجمهورية سابقا . فان اختيار الكثيرين من المسؤولين كان يجرى بموجب الولاء الشخصى وصلة القربى والعلاقات المحلية ، وكانت مسائل الكادر تحل بشكل تعسفى مما شجع التزيف والوصولية والدسائس . . . فكيف يمكن ، فى رأيك ، الحيلولة دون استلام المناصب القيادية من قبل اناس جهلة لم يظهروا مواهبهم فى العمل ، بل فى الوصولية والتزلف الى الرؤساء ؟

ج . أ . — من الذى يجادل فى ضرورة ترشيح اناس اذكياء وموهوبين للقيادة وقادرين على تفضيل المصلحة العامة على المصلحة الشخصية ؟ بديهى ان الانضباط والخضوع والتنفيذ اشياء ضرورية . لكن ذلك لا يعنى الانصياع دون قيد او شرط . بالعكس ، يجب ان تقيم وتقدر فى المدير استقلاليته وتجرده عن الارتباطات والمحسوبيات وقدرته على الدفاع عن رأيه والاقدام على المخاطرة . يجب ان نبحث عن امثال هؤلاء الناس بالذات ونربيهم ونرشحهم . ويجب ان يكون فى هذه العملية المزيد من العلنية والتشاور مع الشعب .

ويسرنا اننا اليوم نصادف اكثر فاكثر مقالات فى الصحف

تتحدث عن ترشيح الاداريين من قبل جماعات العاملين نفسها . وتسرنا انباء المسابقات لاشغال مناصب رؤساء الفرق ورؤساء الورشات . حبذا لو ازداد عددها . ان هذه الاشكال الديمقراطية يجب ان تشمل كل البنية الاجتماعية من فوق الى تحت . والا يصادف ان ينقلوا من مركز الناحية الى القرية رئيسا للكولخوز ويقولون «انتخبوه» . ولا احد يعرف من هو وهل يجيد العمل مع الناس .

واذا تناولنا الامور على نطاق اوسع فلا بد من الاعتراف صراحة باننا لم نجتث نهائيا بعد تأثير عبادة الفرد التـى انغرزت عميقا فى نفوسنا ، فى اسلوب عملنا ، فى العلاقات المتبادلة بيننا .

وبينت الفترة الاخيرة ان السكوت على عيوب التربية واسلوب القيادة وعلى تجديد عبادة الفرد لا يسفر عن شيء سوى استعادة المظاهر السيئة السابقة . وقد تخلصنا اخيرا من الالقاب الفخمة الالزامية اثناء تقديم الزعيم الى المجتمع . فكيف كانت الامور فى السابق ؟ قبل ان يظهر الشخص امام الناس يتقدم قطار كامل من مناصبه والقابه ورتبه وجوائزه . اما الآن فنحن على الاقل لسنا مشغولى البال بكيفية ومدى تبجيل هذا او ذاك ، وباية عبارة نبدأ مدائحنا . ومع ذلك ، اقولها صراحة ، ان الامور ليست كلها على ما يرام فى هذا المجال ايضا .

باختصار ، ان بقايا عبادة الفرد واحدة من «مشاكلنا العويصة» ، ومع اننا نتظاهر بعدم وجودها ، فانها موجودة ترفع رأسها من حين لآخر . وقد تجلى ذلك خصوصا فى نتاجات الادب والفن فى السبعينات وبداية الثمانينات .

المراسلان ــ عندما نتكلم عن اشاعة الديمقراطية لا بد وان نأخذ بعين الاعتبار اولئك الذين يتوقعون بان التغيير سينتهى الى الفشل بطريقة او باخرى وان الحياة نفسها ، كما يزعمون ، ستحملنا على اللجوء الى الاسلوب والطرائق الارادية المجربة فى الاقتصاد كما فى العلاقات الاجتماعية . وقد رأيت الكثير وفكرت فى الكثير . . . فما رأيك فى ذلك ؟

ج . أ . ــ ان الذين يتحسرون على الماضى مذنبون لدرجة كبيرة فى كوننا نواجه اليوم مشاكل عويصة . واذا قلنا لهم ذلك يهتفون متعجبين : كيف ؟ نحن فى الامام . بلغنا كذا وكذا . يخيل اليهم اننا فى الامام . وما لم يرتفع الاقتصاد الى مستوى جديد لن يجدوا مبررا لان ينسبوا لانفسهم الكثير .

الوقت الذى خصصه لنا القدر ليس بسيطا . فهو ، اكرر ذلك ، معكر بخطر الكارثة النووية بالدرجة الاولى . الا ان الآمال كلها ، على الصعيد الكونى وعلى صعيد قضايانا وبحوثنا الداخلية ، معلقة على الانسان ، على عقله وروحه وجوهره الانسانى . اجل ، ان مجتمعنا يمر بمرحلة انعطاف ثورى . وقد اثار مبضع العلنية الالم فى العديد من العلل ، وترك الصمت الطويل فيما يخص المشاكل الاخلاقية اثرا على تلك المشاكل ، بل وشجع على بروز ظواهر سلبية اخرى . ولذا يتطلب ميدان الايديولوجية تغييرا اساسيا .

علما بانه لا حاجة للتفاؤل الوهمى ، حيث يحاول البعض تصوير الخطوات الاولى على انها المسيرة . ولكن من الخطأ النظر الى الواقع نظرة متشائمة . وانا واثق من ان قوى الانسان الروحية وخبرتنا الهائلة المعقدة لتذليل الصعاب

والاحساس الاخلاقي لدى الشعب ووعيه الذاتي — كل ذلك سيضفي مضمونا جديدا من حيث النوعية على الزمن وعلى حياة البلاد . ينبغي ان ندشن القرن الحادي والعشريـــن كمجتمع متجدد متحرك ملكه واملـه الاول هو الانسان ، الانسان ذو الاخلاق الرفيعة .

١٩٨٧





جنكيز ايتماتوف مع شغيلة الريف القرغيزيين



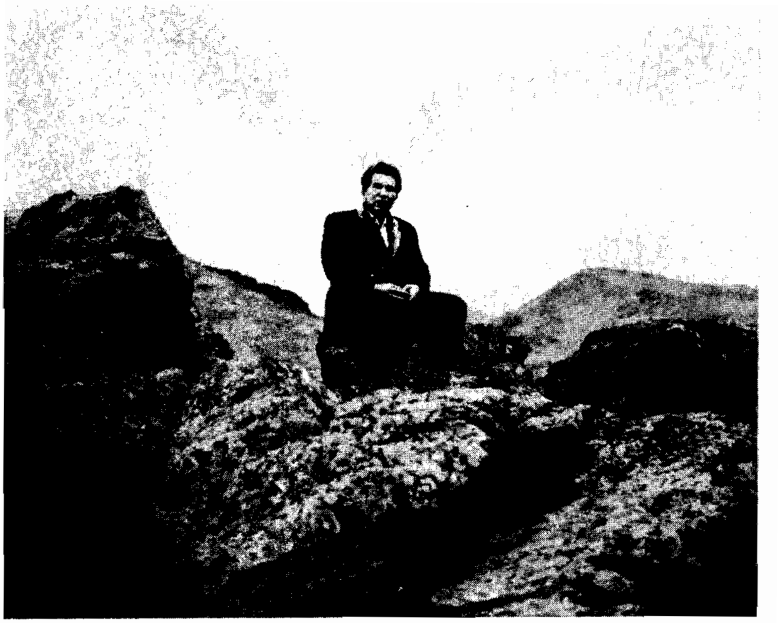




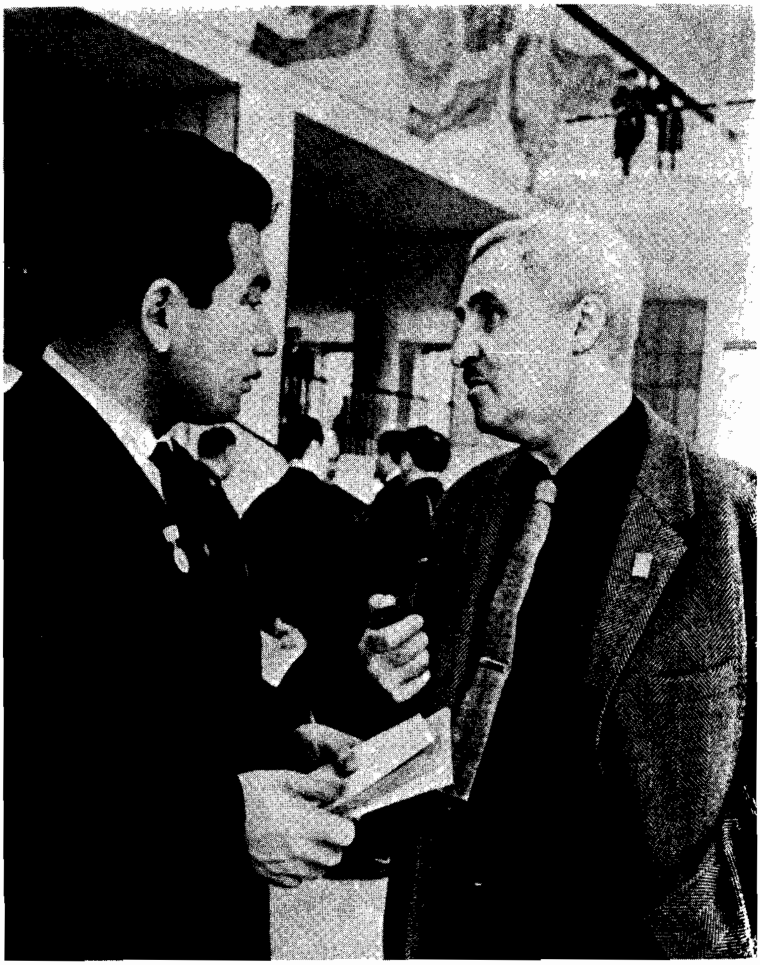
الكاتب في حديث مع ساياكباى كارالايف راوية الملاحم القرغيزية «ماناس» .
١٩٦٦ .

ايتماتوف في قريته

امام القراء







في محطة توكتوغول الكهرمائية

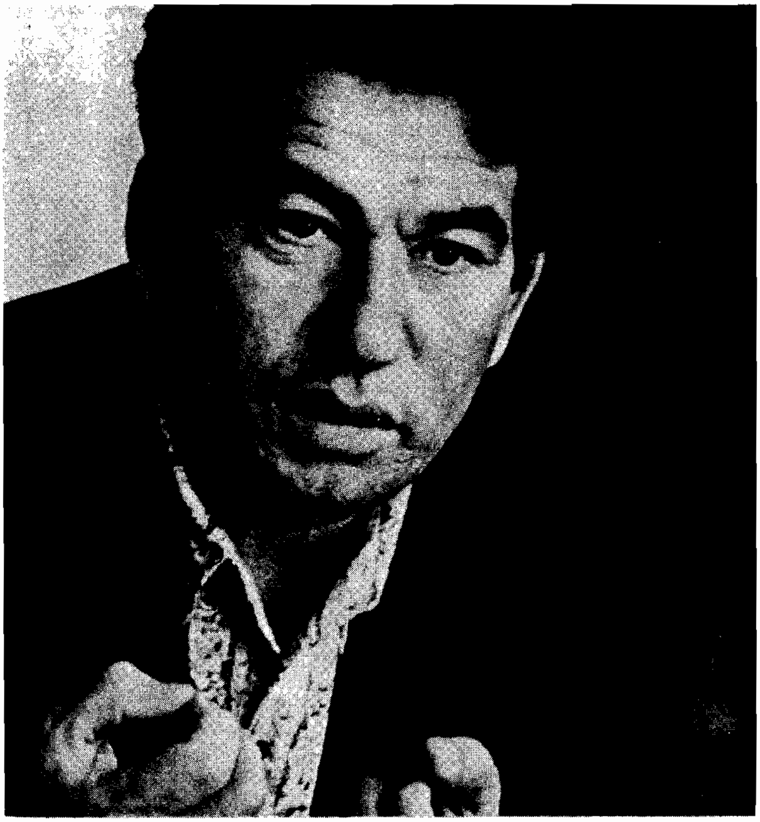
جنكيز ايتماتوف وقسطنطين سيمونوف في المؤتمر الثالث والعشرين للحزب الشيوعي السوفييتي . ١٩٦٦ .





مع الكاتبين التركمانيين بيردى كيربابايف (الى اليمين) وك . سيتلييف .

حديث مع جيمس اولدريج (الى اليسار) وليونيد ليونوف واولجاس سليمانوف (كازاخستان) فى اعقاب المؤتمر الخامس لاتحاد الكتاب السوفييت .





في السبعينات

غلاف اول مجموعة قصصية للكاتب «قصص الجبال والسهوب» .

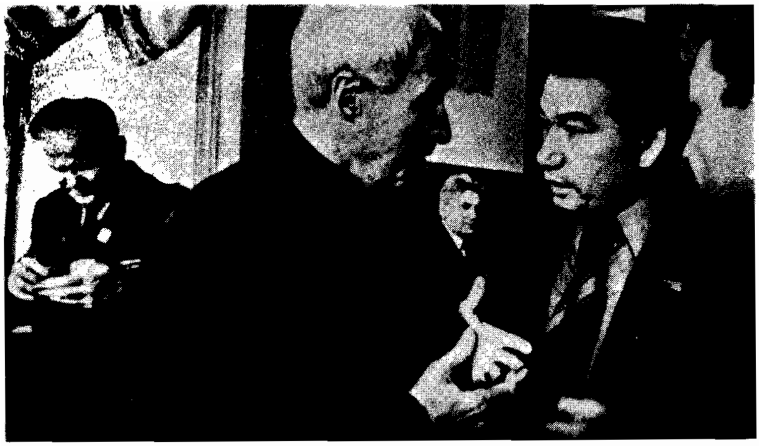


جنكيز ايتماتوف وليونيد ليونوف فى المؤتمر السابع لاتحاد الكتاب السوفييت . ١٩٨١ .

قسطنطين سيمونوف وجنكيز ايتماتوف

ايتماتوف وغاريف اخونوف (تتاريا) ولوبومير ليفتشيف (بلغاريا) .

الكساندر تشاكوفسكى (الى اليسار) وايتماتوف وفلاديمير تيندرياكوف .



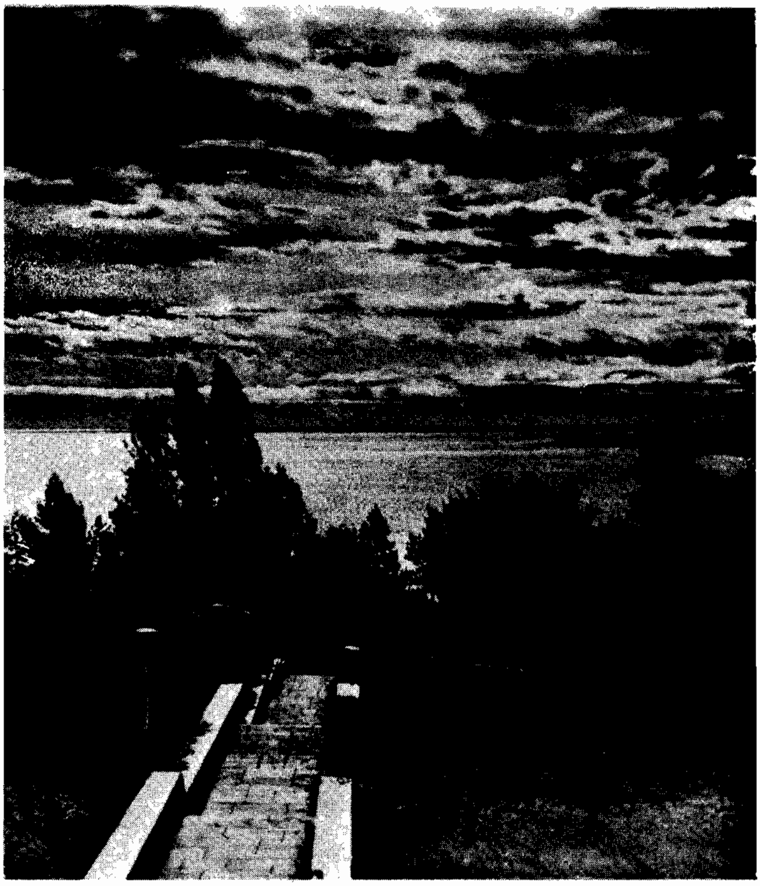












فى المؤتمر الثامن لاتحاد الكتاب السوفييت . ١٩٨٦ . اوليس غونتشار (الى اليمين)

«ندوة ايسيك–كول» ١٩٨٦

بحيرة ايسيك — كول





الادباء يجدون دوما وسيلة للتفاهم .

مع الاكاديمى دميترى ليخاتشيف

ندوة «فى سبيل عالم بلا سلاح نووى ، فى سبيل بقاء البشرية» . ١٩٨٧ ، كلاوس ماريا برانداوير (النمسا ، الى اليسار) .









جنكيز ايتماتوف وبيرنت اينغيلمان (المانيا الاتحادية) .

اطأطئ رأسي

صور لرجالات الثقافة السوفييتية والعالمية

حادى قوافل الضمير

طوال التاريخ اوحوا للانسان ، ولا تزال هناك حتى الآن قوى تحاول ان توحى له ، فكرة فناء العالم وتفاهة الانسان ووحشته وعجزه امام القضاء والقدر وامام التاريخ . ويقولون له : «انت مجرد ذرة تتقاذفها ريح الزمن فى العدم . والحياة فناء ، الحياة عدم» . ويقولون له : «لا داعى للبحث عن العدالة ، لا داعى للاستجارة بالضمير ، لا داعى للصدامات الثورية ، لا داعى لمكافحة الشر ، فالشر ابدى فى عالم البشر» .

وخلافا لذلك كله يناضل الانسان على امتداد التاريخ فى سبيل ترسيخ قدميه على الارض مذللا تعقدات التطور الهائلة سائرا عبر الانتفاضات والمتاريس والمواقد ، عبر الحروب والثورات . وفى سبيل الحياة ، فى سبيل ترسيخ الرسالة الخالدة على الارض بلغ الانسان ذرى منقطعة النظير فى العمل والعلم والثقافة والتقدم الاجتماعى . والى جانب ذلك ابدع الانسان الفن وخلق الفنانين العظام الذين يحق له ان يفتخر بأسمائهم وقد فعل ذلك مجسدا جوهره الروحى ومصورا عالم المشاعر الانسانية اللانهائى ومعبرا عن مثله العليا ، مثل الجمال السامية ومدللا بالتالى على قدرته الابداعية ومقتنعا بانه مبدع خلاق .

وليم شكسبير ظاهرة انسانية عامة . ويوبيله ليس مجرد

تكريم لامجاد الكاتب المسرحى الانجليزى العظيم ، بل هو اكثر من ذلك بكثير . واعتقد اننا لن نبالغ اذا قلنا اليوم ان شكسبير كمفكر وشاعر هو ، الى جانب سائر العباقرة من فنانى مختلف الشعوب والازمان ، نطفة حية للعالم الداخلى للانسان المعاصر وفلذة حية من فؤاده . ولذا اعتقد اننا لن نبالغ اذا قلنا باننا نرسخ اليوم ، باسم شكسبير ، جبروت العقل البشرى وتواصله وخلوده وطبيعته الاممية . باسم شكسبير نرسخ اليوم الرسالة السامية للفن فى المجتمع .

ويحق لكل منا الآن ان يقول : «شاعرى شكسبير . شاعرنا شكسبير» .

اسمحوا لى من على هذا المنبر ان اقول بضع كلمات عن شكسبير . انا افهم تماما مدى صعوبة ذكر شئ جديد ، فهناك علم كامل هو الدراسات الشكسبيرية . واسمح لنفسى هنا ان اتحدث كقارئ ومتفرج عادى .

احيانا افاجئ نفسى وانا افكر على النحو التالى : كان فى عصر شكسبير كتّاب وشعراء لا يقلون عنه شهرة فى انجلترا وفى البلدان الاخرى . لكن القليلين جدا ، مثل شكسبير وسرفانتيس ، استطاعوا ان يصلوا الينا دون ان يذبلوا ، وتمكنوا من الحفاظ على قوة تأثيرهم الفعال بعد مئات السنين . فما هو السبب ؟ اذا تصورنا شكسبير وزملاءه فى ذلك العصر حداة توجهوا مع قوافلهم الى المستقبل تعين علينا ان نقول بان شكسبير هو الحادى الاكثر حيوية . فقد تخلف رفاقه من زمان فى دروب التاريخ . بعضهم هلك لعجزه الشخصى ، وبعضهم لهبوط قيمة بضاعته ، وبعضهم الثالث ضيع حمله عندما واجهته عواصف الثورات وعندما رفضته عصور الافكار الجديدة والانظمة

الاجتماعية الجديدة ولم تجد فيه شيئا ينفعها . اما قافلة شكسبير فهى تسير وتسير فى ارجاء العالم مذللة الزمان والمكان ، مذللة حدود الدول والجبال والصحارى والانهار بالمعنى الحرفى للكلمة ، وكلما مر الزمن ازدادت الشعوب التى تتمتع بهبات قافلته ، واتسع ميدان التفاهم بين الشعوب من خلال شكسبير . انه حى فى كل اللغات واللهجات . وهنا بودى ان اشير الى الخدمة البالغة التى اسدتها اللغة الروسية والثقافة الروسية لشكسبير . فبواسطة اللغة الروسية بالذات تمكنت شعوب عديدة فى الشرق من الانتقال رأسا من الملاحم المحكية القديمة الى فن شكسبير بلغاتها الام ، ومعه الى كنوز الثقافة الانسانية . وسأتحدث عن ذلك فيما بعد ، ولكنى اريد الآن ان اواصل فكرتى عن قافلة شكسبير .

حقا ، ففيم تكمن قوة شكسبير الحيوية وبم تأسرنا نحن ابناء القرن العشرين ؟ من الصعب الجواب على هـــــذا السؤال رأسا . فقد كتبت طوال اكثر من ثلثمائة عام دراسات كثيرة عن عبقرية شكسبير وعن فلسفته وقضاياه الاجتماعية وصوره الفنية وتناقضاته . وانا لا اريد التعمق كثيرا فاقول بشئ من التبسيط ان شكسبير ، مهما بدا ذلك غريبا ، بسيط كفنان ومفكر مثلما هو عظيم . ويبدو ان ذلك هو ما يحببه الى الجميع ويجعله مفهوما لديهم . ولا اعتقد ان مؤلفات شكسبير تعجبنا الآن بسبب غرائب القدم ، ناهيك عن حوادث البلاط وقصص الملوك . فان سر ابداع شكسبير يكمن ، على ما يبدو ، فى انه كان يتأمل فى غير تعقيد ويعبر بالصور الفنية المدهشة يحلل اكثر قضايا الوجود البشرى الخالدة الجذرية التقليدية وكذلك العلاقات المتبادلة بين الفرد والمجتمع ، اى انه تمكن

من العثور على لب مادة الفن الحية ، لان مادة الفن هى بالدرجة الاولى علم الانسان .

كيف يجب ان يكون الانسان الحقيقى وما هى رسالته السامية وما هو مغزى حياته ؟ تلك هى ، فى رأيى ، القضايا البسيطة والخالدة التى شغلت بال شكسبير ولا تزال تشغل بالنا ، نحن احفاده ، بلا كلل . ولكى يرد شكسبير على مسائل الحياة التاريخية هذه كان عليه ان يتوصل الى تعميمات فنية وفلسفية هائلة . كان عليه ان يغدو بركانا لا يخبو للانفعالات البشرية . ولكى يرد شكسبير على هذه الاسئلة البسيطة تعين عليه ان يفضح باكبر قدر من الحدة الشرور والغدر والخسة والتسلط والاستبداد . ولكى يرد على هذه الاسئلة تغنى شكسبير فى صور ابطاله بحرية الفكر والروح ، بصراع الخير ضد الشر دون هوادة ، ورفع منزلة مناصرى العدالة اولئك الذين يتحلون باسمى خصال الضمير البشرى ، ووضع فى منزلة القدسية الالهية الابطال الذين تتجلى بطولاتهم فى السلوك النبيل وفى صفاء الضمير ونقاوة الحب وطهارة النوايا والنوازع . وقد تمكن من ذلك كله وبفضل هذه المأثرة رافق اسمه الخلود . ومع ان الكثير من ابطاله يواجهون مأساة الموت فى مناوشات مع قوى الظلام والشر وتداهمهم الكارثة (وبالمناسبة ففى ذلك يكمن جزئيا صدق واقعيته والتزامه التاريخى) فاننا نفهم ونرى ان تلك المآسى تكرس الحياة وان ذلك نصر معنوى للنور على الظلام ، للجديد على القديم ، للايجابى على السلبى .

واكرر بشىء من التبسيط — متصورا ان الجميع يعرفون جيدا مدى عمق وتعقد صور شكسبير . ولا يسعنى الا ان اعبر عن اعجابى بالمهارة الواقعية لهذا الفنان فى عصر النهضة ، ولا

يسعنى الا ان اعبر عن دهشتى للكمال الحيوى فى صور ابطاله الذين اضفى عليهم خصالا انسانية حقا : التصارع المعقد فى التناقضات الداخلية والشكوك والغيرة والحب والحقد والتأملات والمعاناة فى سبيل الواجب الاجتماعى وفى سبيل المصير الشخصى . فما احوجنا نحن الذين نكتب عن العصر الحاضر الى مثل هذه السعة الاستيعابية الفنية وشمولية الظواهر الحياتية . لقد سمحت لنفسى بالكلام عن ذلك هنا لان عصرنا وواقعنا وبطولات الشعب السوفييتى واعماله مشبعة بالاحداث التاريخية والمآثر والعمليات العميقة للنشوء الروحى للانسان الجديد لدرجة تجعلنا مدينين كثيرا للمجتمع . واتكلم عن ذلك لان من اللازم ان نتعلم المهارة عند شكسبير ، وبالدرجة الاولى لان شكسبير ، فى اعتقادنا الراسخ ، مبدع عظيم للابطال الايجابيين وللنزعة الانسانية الهادفة . واؤكد على الابطال الايجابيين بالذات ، اى على الابطال الذين اصطبغوا بصبغة خالقهم ومثله العليا وحبه . فمهما تناولنا من مؤلفاته نجد فى المقام الاول شخوصا بارزين مكتملين متحمسين . وهؤلاء الابطال المدهشون بالذات الذين يحترقون باللهيب الداخلى لحماسهم الشديد ولا يعرفون التهادن فى مكافحة الشرور ولا يخونون ضمائرهم ويداهمون على رؤوس الاشهاد كل ما هو دنئ وظلامى فى الحياة انما هم اعزاء علينا ونحن نحبهم . هاملت ، عطيل ، الملك لير ، روميو وجوليت ، وغيرهم . اننا نرى من وراء الرتب والالقاب الظاهرية واصطلاحات الحياة آنذاك ماهيتهم الانسانية الصريحة ، ونشاطرهم افراحهم واتراحهم وكأنما هم من معاصرينا الحاليين . اننا نجد فى ابطال شكسبير الايجابيين عمقا لانهائيا لروح الانسان التى يصعب رسم حدودها ، ابتداء من الوعى الرفيع

والطاقة البطولية عند هاملت الذى يقع ضحية لدسائس البلاط وانتهاء باصفى مشاعر الحب عند روميو وجوليت ، وهى المشاعر والافكار التى لا تزال بعد قرون تمس شغاف القلوب بأريجها الصادق وتملأ افئدتنا بالالم والمؤاساة وتغرس فينا مبادئ الخير السامية . واعتقد ان من المهم الاشارة الى ذلك بمناسبة يوبيل شكسبير لان هناك محاولات تجرى فى الغرب لدفع الادب والفن الى مضامين خاوية فكريا والى انكار الدور التربوى للبطل الايجابى فى الادب والمسرح والى التصوير التجريدى للواقع . وربما يعتبر هؤلاء الاشخاص شكسبير شاعرا عتيقا وساذجا . لا جدال فى ان امورا كثيرة تغيرت على وجه البسيطة منذ ذلك الزمان . . . الا ان الجوهر الرئيسى للفن ورسالته يبقيان على حالهما ، وهما خدمة مصالح الشعب والتصوير الواقعى الصادق للانسان والحياة .

ان نتاج شكسبير الذى لا يخبو انما يؤكد مرة اخرى على ان الفن الصادق حقا والشعبى حقا والرائع حقا والذى يصور سمات عصر الشخصية الانسانية هو وحده الذى يظل حيا ويغدو ملكا للمجتمع .

واذا اصخنا السمع الى مسيرة زماننا سنسمع دوما الحادى شكسبير يواصل طريقه الى المستقبل . انه حادى الضمير والطهارة وعظمة الانسان يسير من جيل لآخر ولا نهاية لمسيرته فى الارض .

وبودى ان اقول هنا ببالغ الاعتزاز ان قافلة شكسبير وصلتنا الى آسيا الوسطى مع قيام السلطة السوفييتية . ومنذ ان ظهرت مسارحنا القومية بدأت عروض مسرحيات شكسبير بلغاتنا الام ، وانتهلنا بتعطش من نبع فنه لنروى غليلنا بعد عطش دام

قرونا الى التراث الثقافى الانسانى . ويعرض فى مسارح جمهوريات آسيا الوسطى الآن الكثير من مسرحيات ومآسى وملاهى شكسبير والكثير من الاوبرا والباليه والتمثيليات المكتوبة فى مواضيع شكسبيرية . ونشأت عندنا فى هذه السنوات كوكبة كاملة من فنانى المسرح البارزين احبهم المتفرجون لروعة ادائهم للادوار الشكسبيرية . وبودى فى هذا الاحتفال ان اضم صوتى اليهم ، نيابة عن مثقفى آسيا الوسطى ، لنعبر عن تقديرنا العميق لعبقرية شكسبير العظيم .

اننا نرى فى شكسبير الذى يعيش بيننا توارث وتواصل الخبرة الحياتية للانسان وتراكم الثقافة وتأكيدا على المفهوم الشعبى للجمال .

كلا ، الانسان ليس ذرة رمل على الاقل لان لديه ممثلين للنوع البشرى كشكسبير .

وشكسبير امواج المحيط المتلاطمة دائما وابدا عند شاطئ الحياة .

١٩٦٤

كاتبنا غوركي

التاريخ يعرف الكثيرين من الفنانين والمفكرين العظام الذين ارتقوا ذرى العبقرية الانسانية . ولا تنساهم ذاكرة الاحفاد . ولكن ، مهما كانت عظمتهم ، فان عامل الزمن وسير الحياة الحثيث دوما يجريان تعديلات على تصوراتنا عن الاسلاف . ولذلك فالبعض منهم يبتعدون عنا بمر الزمن فى المنظار الاسترجاعى ويظلون يرتفعون فى الافق . ونحن نلتفت اليهم ونتطلع فى وجوههم من خلال ضباب الماضى ونهتف احيانا قائلين : «اجل كانوا جبابرة» .

اما البعض الآخر ، وهم لا يقلون عظمة عن اولئك ، بل هم على الاكثر اقرب الينا واكثر ضرورة بمعنى ان الفرد لا يستطيع بدونهم ان يدرك بانه شخصية — هذا البعض لا يمضى ولا يبتعد عنا . انهم كالجسور الممتدة على درب حياتنا . انهم جسور العقل والروح ، جسور تربط بين اجيال البشر وتربط العالم من حيث المسائل الاخلاقية الاساسية للحياة العامة على الارض ، جسور يجرى عبرها تراكم القيم الثقافية وخبرة المعارف الروحية . جسور نمشى عليها كل يوم ونقابل الماضى والحاضر ونبحث عن اجوبة على اعقد قضايا الحياة الاجتماعية والحياة الشخصية ونتعلم الاحلام والحب ونفرق

بين الخير والشر ، بين الحق والباطل ، ونواجه فى المسيل العالمى وننخرط فى النضال ضد اولئك الذين يريدون زعزعة اسس هذه الجسور وغلق مداخلها امام الناس ويريدون بالتالى بذر الشكوك بيننا ازاء معتقدات هؤلاء الفنانين الاحياء دوما والمناضلين دوما وازاء بحوثهم وهمومهم وتأملاتهم .

واعنى الفنانين ذوى الاهمية البالغة بالنسبة للعصور ، اولئك الذين تجاوزوا زمانهم فى نضال حاسم لا هوادة فيه من اجل حرية الانسان وسعادته ، من اجل ترسيخ المثل العليا الجديدة للوجود البشرى ، اولئك الفنانين الذين دشن ابداعهم وشخصياتهم التغيرات الفريدة فى التاريخ والثقافة وفى نمط حياة الامة والبلد والعالم .

كان كاتبنا غوركى من هؤلاء .

دخل غوركى محراب الادب حاملا مشعل التفكير فى مصائر روسيا ومتوقعا ومنتظرا التبدلات الجذرية فى مصير الشعب وهاجس الانقلاب الثورى فى البلاد . وكل ما حدث فى روسيا بجميع تناقضاتها التناحرية — قيودها وفكرها المتحرر ، بؤسها وتطلعاتها الفوارة الى الحياة الجديدة ، تخاذلها العشائرى وتمرد روحها الذى لا يعرف الهدوء — كل ذلك استوعبه قلبه الكبير بألم وقلق وامل ، وتلفظ كلمته عن روسيا بقوة ملحمية وسعة اطلاع على حياة الشعب وايمان برسالته الثورية لدرجة جعلت ما رآه وسجله يغدو صفحة جديدة فى الادب الروسى واكتشافا جديدا فى تطور الفكر الفنى فى القرن العشرين .

لقد غدت تجربة غوركى وتقاليده الابداعية مبادئ اساسية للادب السوفييتى والفن السوفييتى . وبودى ان اتحدث بايجاز عن تقاليد غوركى هذه ، وعن تواصلها فى ادبنا .

من المعروف ان احدا لا يضع التقاليد على هواه . فهى تنبع من التجربة الموضوعية للفنان ، وهو يتسلح بها ليس بأمر او طلب من احد ، بل بحكم الحاجة الحيوية اليها . وتبقى تلك التقاليد مثمرة طالما تناسب الواقع وطالما تساعد على اغناء المضمون الجديد والاشكال الجديدة للفن .

ومرارا حاولت اصوات من الغرب ان تقنعنا بعدم صدق تقاليد غوركى وعدم قدرتها على الحياة . وزعموا بان عهد غوركى فى الادب قد مضى وانقضى وان تجربته استنفدت وان الادب والفن فى المرحلة الراهنة يتطوران بطرق اكثر تعقيدا وتناقضا وهلمجرا . فماذا حصل ؟

مرت سنون على رحيل غوركى عنا . وخلال هذه السنين واجه العالم سلسلة من الهزات التى لم يسبقها مثيل . هتلر وظلاميته ونظريته الحاقدة على البشر وابادته لافضل ما فى الثقافة ولكل من يرفض تلك النظرية ، والحرب العالمية الثانية ودحر الفاشية ببحر من الدماء والعذاب وآلام الشعوب ، والاستفاقة بعد الحرب والنوبة الجديدة من الحرب الباردة والانفجارات الجديدة للحروب الامبريالية فى العالم . والهمجية الجديدة التى يمارسها البشر ضد البشر الآن ، فى هذه اللحظة ، فى هذه الدقيقة على ارض الفيتنام المعذبة . وفى تصارع العوالم هذا ، فى غليان التاريخ ، وسط الهوس والفوضى لدى قسم من المثقفين الغربيين ، وسط خيبة الآمال والحيرة لدى القسم الآخر منهم ، وسط الدعوات السافرة الى رفض البطولة ورفض الايديولوجية فى الفن ، وسط الشكوك فى عقل الانسان والزعم «بالتنافر» بينه وبين أمثاله وعالم الاشياء المحيط به ، وسط الجهود السافرة والخفية لتجريد الانسان من الشعور

بالمسؤولية وجعله لا يدرك واجبه الانسانى والوطنى ، وسط الدعاية المنفلتة للعنف والغرائز الوضيعة وللموديل الشامل «للسوبرمان» السيئ الصيت ، وسط ذلك كله ، وسط الاندفاع الصاخب «للثقافة الفائقة» «الجماهيرية» و«التجارية» و«الصناعية» وغيرها من الحثالات والقشور التى يراد لها ان تخفف فاجعة التناقضات وتهدئ من روع الانسان الضيق التفكير وتضلله ، وسط هذه الحيرة المتشنجة يتعالى من شاطئنا مرارا وتكرارا صوت غوركى الذى لا يصمت : «مع من انتم يا اساطين الثقافة ؟»

وتلك هى الوصية الاولى فى تقاليده . لان هذه الكلمات تنطوى على السؤال الابدى : لمَ نكتب وماذا نكتب وكيف ؟ ان صوت غوركى هو صوتنا ، صوت الادب السوفييتى . ولن نكل عن تكرار هذه الكلمات ، ونحن نقتفى اثر غوركى ونرى فيه معيارا لضمير الفنان ونعتبره اسمى مثال للنزعة الانسانية الفعالة ، للرأفة الانسانية ، لجمال الروح .

وفيما يخص المبادئ الجديدة لتصوير الواقع والنظريات الجمالية والفلسفية النابعة من تجربة غوركى فاننا نرى هنا ايضا فنانا من الدرجة الاولى للواقعية العالمية . امامنا كاتب ذو رؤية اجتماعية واضحة لا تعرف المساومة ، كاتب ذو ثقافة شعبية حقا ورفيعة حقا ، وعلى الاصح ذو ثقافة هائلة خارقة تشبعت بافضل ما ابدعه الادب العالمى ، ولذا فهى تؤثر فينا بقوة وتسلط واقناع بكلمتها المفعمة بحقيقة الحياة الصادقة . وتبقى واقعية غوركى معيارا للنثر الواقعى المعاصر . ونحن نلتزم بتقاليد غوركى لانها جزء من حاجتنا الابداعية الباطنية ، ولانها تساعدنا على معرفة وتصوير واقعنا باكبر قدر من الموضوعية وتساعد فى حل مهمات الادب فى بناء المجتمع الشيوعى .

بديهى ان تقاليد غوركى ليست طريقا مرسوما جاهزا لايبقى الا السير عليه بهمة ونشاط . فالى جانب المنجزات التى لا جدال فيها كانت هناك وستبقى على هذا الطريق الصاعد صعوبات واخفاقات . فكل منا اذ يجد امامه اتجاها فكريا وفنيا عاما ، انما يعمل باستقلالية ويبدع على قدر قواه وقابلياته ، وبالتالى يقف وجها لوجه مع مهمات وقضايا الابداع الجديدة والمواقف الحياتية الجديدة . فان تطور الادب عملية معقدة تتكون من عناصر فردية كثيرة . ولكن من الصحيح تماما ان اكتشافات جديدة ومكتسبات جديدة للادب والفن ستتم فى هذا الطريق ، فى طريق الواقعية الاشتراكية الذى يعكس فى الفن خبرة علاقات اجتماعية معينة ونشاطا روحيا معينا . اننا لسنا طارئين على هذا العالم ، فوراءنا نصف قرن من النضالات والانتصارات والتأملات والهموم والبحوث ، وهذا يجعلنا على حق فى رؤية امكانياتنا والثقة بقوانا والايمان بثمار تقاليد الادب السوفييتى الذى تصدره مكسيم غوركى العظيم .

يعرف الجميع الدور البالغ الذى لعبه غوركى فى تكوين الآداب القومية الفتية . ومع ذلك اريد ان اتحدث عن هذا الموضوع مرة اخرى .

لقد كان ظهور الآداب الحديثة المحترفة فى آسيا الوسطى وكازاخستان انجازا من انجازات التقدم الثقافى والاجتماعى المنقطع النظير . ومن حسن حظنا ان كتابنا الاوائل الذين كانوا لا يزالون آنذاك يتلمسون طريق الادب عشوائيا وتغلى افئدتهم بغضب وآلام وآمال شعوبهم التى ايقظتها ثورة اكتوبر توا ، ان هؤلاء الكتاب الاوائل الذين كان يتعين عليهم ان يستوعبوا التغيرات فى مصائر شعوبهم ليس سياسيا فقط ، بل وفنيا

ايضا ، وكان يتعين عليهم ان يجتازوا بسرعة مسافة التخلف القديم قد التقوا بمكسيم غوركى منذ الخطوات الاولى فى بداية الطريق . وتلك حقيقة ذات مغزى رمزى عظيم . ولئن كانت البروليتاريا الروسية ولينين والحزب الشيوعى قد استنهضوا شعوبنا للنضال الاجتماعى وللمشاركة فى اقامة النظام السوفييتى فان الكاتب الروسى مكسيم غوركى كان يمثل مدرسة روحية للثقافات القومية السوفييتية . وقد انعكس تأثيره بوضوح فى مؤلفات كتّابنا الثوريين الاوائل من امثال حمزة حكيم-زاده نيازى وساكين سيفولين . وكان لمكسيم غوركى تأثير داخلى كبير على النثر الواقعى وعلى المضامين الملحمية والاجتماعية لنتاجات اكبر فنانى الشرق — مختار اويزوف وصدر الدين عينى . وتربت على تقاليد غوركى كوكبة من كتاب الجيل الاقدم المعروفين على نطاق واسع حاليا — آيبيك وطرسون زاده وكيربابايف وتوكومبايف وموكانوف وموسريبوف وقهار ومصطفين وكثيرون غيرهم . ولا يسعنا اليوم الا ان نتذكر ذلك بكل شكر وامتنان .

لقد كان غوركى ملهم الصداقة بين ثقافات الشعوب السوفييتية . وهو راية اخوتنا الاممية ، راية الوحدة الفكرية لجميع شخصيات الثقافة السوفييتية .

فليبق معنا فى المستقبل ايضا روح الكاتب مكسيم غوركى احد اعظم اعلام الادب السوفييتى وفنانى القرن العشرين الانسانيين .

مكسيم غوركى معنا دوما .

١٩٧٠

ملحمة «ماناس»
ومنشدها كارالايف

قبل سنوات نشرت مجلة «الاتحاد السوفييتى» مقالتى المعنونة «يحفظ مليون بيت من ملحمة «ماناس» الهائلة كالمحيط» . واعنى ساياكباى كارالايف الراوية والمنشد الشهير لملحمة «ماناس» . والآن تجرى الحياة تعديلا حزينا على عنوان مقالتى «كان يحفظ مليون بيت . . .» . اجل ، نحن الآن نتكلم عنه بصيغة الماضى .

امس الاول تم تشييع جثمان ساياكباى كارالايف الى مثواه الاخير . وتلك خسارة فادحة لا تعوض بالنسبة للثقافة القرغيزية . كان كارالايف فنانا ذا اهمية وطنية بالغة . ومعروف ان ملحمة «ماناس» لم تظهر رأسا بالشكل الذى وصلتنا به . فان عبقرية الشعب القرغيزى المبدعة طورتها على امتداد قرون كثيرة وضمنتها تاريخ الشعب ومعرفته للعالم وموهبته الشعرية . فى عصر بعيد ظهرت رواية ماناس كالجدول الصغير . وتحول الجدول الى نهر فائض واتسعت ضفافه اكثر فاكثر وفاض بحر الشعر الشعبى العاصف على ارض قرغيزيا . وقد اطلع ساياكباى كارالايف على الملاحم واستوعبها فى اوج جبروتها وازدهارها .

وبغية الاحاطة باعماق وسعة روايات الازمان القديمة وبغية حفظ ملحمة «ماناس» من الماضى والحاضر كان على الراوية ان يتحلى بذهن ثاقب وذاكرة فريدة وخيال هائل وموهبة الممثل والفنان . وكان منشدنا ساياكباى كارالايف هو ذلك الفنان الذى كرس حياته كلها لفن «ماناس» .

اما الآن فلم يعد بين ظهرانينا . لقد توهج وخبا كالنجم المذنب . فهل سيتوهج فى قبة سماء «ماناس» ثانية نجم على مستوى ساياكباى كارالايف ؟ نحن مضطرون للتفكير فى ذلك ، ونعلق آمالنا عفويا على بطون الشعب ، فالشعب هو القادر وحده على ان يمنح العالم شخصية فنية مثل العبقرى كارالايف . ربما كارالايف الجديد لا يزال فى المهد ، وربما لم يولد بعد .

فى هذه الايام حيث نودع المنشد العظيم اشكر هيئة تحرير جريدة «قرغيزيا السوفييتية» التى اقدمت مكررا على نشر مقالتى التى كتبتها عن ساياكباى كارالايف عندما كان على قيد الحياة .

* * *

منذ اكثر من ثلاثين عاما والعلماء القرغيزيون منكبون على تسجيل وتصنيف ملحمة «ماناس» البطولية القديمة . والآن عندما يتصفح المرء المجلدات الاربعة للصيغة المختصرة لملحمة «ماناس» يدهش اشد الدهشة ويتساءل : كيف استطاع شعب بلا ابجدية ان يحمل عبر القرون حتى ايامنا هذه تلك الروايات الشعرية الهائلة ؟

ان القرغيزيين من اقدم شعوب اواسط آسيا . وخلال تاريخهم الطويل حققوا تطورا رفيعا للثقافة الملحمية . ان تواجد الشعب الرعوى امدا طويلا فى ظروف تاريخية فريـــــدة (انعدام الابجدية والفن التصويرى والصراع المتواصل ضد دول اقطاعية قوية من اجل الحرية والاستقلال) وتحليه بموهبة شاعرية رفيعة قد اسفرا عن ازدهار الادب الملحمى . وضمن القرغيزيون ملاحمهم الشفوية ما صورته شعوب كثيرة فـــى سجلات التاريخ والادب الروائى والمسرح ومعارض الصور والمنحوتات .

وفى الوقت الحاضر صدرت عشر من خمس عشرة ملحمة قرغيزية وصلت الينا بشكلها الشفوى مما يسمى بالملاحم «الصغرى» . وفى كل منها مئات الآلاف من الابيات الشعرية . وكل منها يجسد عصرا تاريخيا معينا . وفى كل منها مضمون اصيل يكشف عن جوانب متنوعة من حياة ومصائر الناس والشعوب . فان ملحمة «كودجوجوش» مثلا هى اقدم قصيدة درامية عن الانسان الصياد وعن عبادة الانسان للطبيعة وكفاحه ضد قواها العاتية . اما ملحمة «اولجوباى وكشمجان» فهى رواية غنائية كأنها «روميو وجوليت» فى السهوب . وهناك ملحمة «كيدى خان» («خان من ابناء الفقراء») وهى قصيدة اجتماعية طوباوية .

الا ان ملحمة «ماناس» بالطبع هى اعظم الملاحم القرغيزية . وهى ظاهرة فنية مدهشة .

«ماناس» ملحمة كالاوقيانوس . وهى من حيث الحجم اضخم من كل الملاحم المعروفة فى العالم . توجد احدى عشرة صياغة لهذه الملحمة ، فى بعضها اكثر من سبعمائة

الف بيت منظوم . ومن حيث سعة شمول الظواهر الحياتية تحتل «ماناس» واحدة من ابرز المراتب فى الادب الملحمى العالمى . والموضوع الرئيسى فى ملحمة «ماناس» هو نضال الشعب القرغيزى ضد الغزاة الاجانب والتغنى بمآثر البطل الاسطورى الجبار ماناس الذى وحد القبائل القرغيزية بعد ان كانت مشتتة . الا ان ذلك مجرد قسم من المضمون ، وهو لا يستنفد المواضيع الرئيسية للملحمة . فبالاضافة الى المشاهد القتالية والبطولية الهائلة تشغل مختلف جوانب الوجود البشرى مكانا كبيرا جدا فى ملحمة «ماناس» . ان النطاق الفنى والمعرفى فى الملحمة يدهش المرء من حيث سعته وتنوع جوانبه . ففى الملحمة مواضيع الحب والغزل والحياة الاجتماعية والمعيشية ومواضيع الاخلاق وآداب السلوك . وفيها معلومات القرغيزيين القدامى عن الجغرافية والطب والعمارة والفلك والشؤون العسكرية . وفيها تشكيلة كبيرة جدا من الاساليب والوسائل الفنية ، ابتداء من الهجاء والتهكم والفكاهة وانتهاء بقمم المآسى التى تهز النفوس بآلام الانسان الروحية البالغة . وتتشابك الواقعية الاصيلة مع خيال الحكايات والرمزية وتتداخل المواعظ مع التحليل النفسانى العميق ، وتتجاور الفلسفة مع الايمان بالسحر والتعاويذ ، وترقى المشاعر العاطفية الى مستوى الانفعالات الروحية العميقة ، لكن الحب فى الوقت ذاته خاضع لمصالح الاقطاعيين العشائرية . ان ملحمة «ماناس» عالم هائل لماضى الشعب القرغيزى ، وهى لوحة فنية ضخمة للشعب ادرجها ضمن بانوراما الثقافة العالمية .

لقد تناقلت الاجيال والالسن ملحمة «ماناس» . ويصعب ان تجد بين القرغيزيين من لا يعرف قصة البطل ماناس .

وتحفظ ذاكرة الشعب لمئات السنين ذكرى افضل رواة ومنشدى «ماناس» . ولذا فلا غرابة فى ظهور فنان فريد فى عصرنا مثل المنشد ساياكباى كارالايف هذا الشيخ الحكيم الذى عاش حياة مجيدة مديدة وبلغ السبعين . كان ابان الحرب الاهلية يكافح مع الانصار الحمر فى سيبيريا ضد جيش الحرس الابيض بقيادة كولتشاك . وكان وهو على ظهر الحصان وفى المواقف حول المواقد ينشد مقاطع من «ماناس» . ويقول متذكرا ان اشخاصا لا يفهمون اللغة القرغيزية اطلاقا كانوا يستمعون الى ملحمة «ماناس» ساعات طوالا . ويدل ذلك على ان كارالايف كان من ذلك الحين يتمتع بمهارة الممثل الذى لا يجاريه احد . وبعد ان عاد كارالايف الى مسقط رأسه غدا منشدا لملحمة «ماناس» ذائع الصيت فى قرغيزيا كلها .

وقد نعته الكاتب الكازاخى مختار اويزوف الواسع الاطلاع على الادب الملحمى العالمى بانه «الراوية الاسطورى» و«هوميروس المعاصر» و«منشد القرن العشرين» . وليس فى هذه النعوت المعجبة مبالغة . فمن المستبعد ان نجد شخصا يحفظ عن ظهر قلب حوالى مليون بيت من الشعر . ولو جرى تسجيل انشاد كارالايف لصيغة نص «ماناس» والملاحم الاخرى ، «الصغرى» لاستغرق ذلك سنوات ، بل عشرات السنين .

عندما تتطلع الى كارالايف ، الى ملامح وجهه وايماءاته وتعبير عينيه وهو ينشد ويروى عارضا موهبة فذة فى التمثيل الفنى يخيل اليك انه هو نفسه شخصية ملحمية . فان محياه كله كأنما لوحته رياح العصور الغابرة . ففى هذا الشخص وحده تتجلى احداث الماضى ومعاناة الناس آنذاك وحكمة ذلك

العصر ومصائبه وخيره وشره . وان اسلوب كارالايف في الاداء مفعم بالزخم الروحي : بالايقاع والحماسة والالهام الى جانب الأسى والحزن والمعاناة ، والدموع الى جانب البسالة والتصميم والجرأة . وتأتي التأملات من جديد والضحك والبكاء .

ذات مرة سافرت مع كارالايف الى احد كولخوزات وادي شوي . وذاع نبأ وصول كارالايف في القرية وما حواليها بلمح البصر . وتقاطر الناس من كل حدب وصوب : من الحقول ومزارع تربية الماشية ، بالسيارات وبالجرارات . وضاق نادي الكولخوز طبعا بالراغبين في الاستماع الى كارالايف . وعند ذاك انشد كارالايف في الشارع مباشرة . اعدوا له كرسيا على علية واحاط به الناس بعضهم على الارض وبعضهم على متون الشاحنات وبعضهم على ظهور الخيل . وفجأة تلبدت السماء بالغيوم وتساقط مطر غزير . ولم يكف كارالايف عن الانشاد ولم ينصرف احد من الجمهور . استمع الناس الى ملحمة «ماناس» تحت المطر المدرار . كانوا مشدوهين بانشاد الراوية . وانا لا انسى ذلك المشهد ابدا .

ولو سألني احد عمن اعرفهم من عظام الناس في شعبي لذكرت في اغلب الظن ساياكباي كارالايف اولهم .

الاعتزاز بتاريخ وابداع الشعب خاصية تلازم كل انسان . ولكنني عندما افكر في ملحمة «ماناس» اشعر باكبر قدر من الاعتزاز بان هذه الملحمة غدت ملكا عاما لثقافة الشعوب السوفييتية . لملحمة «ماناس» تاريخ يتجاوز الالف عام ، لكنها سجلت وطبعت لاول مرة في سنوات السلطة السوفييتية . وترجمت

مقتطفات كبيرة منها الى اللغة الروسية ، مما هيأ الفرصة لادراج «ماناس» ضمن كنوز الثقافة الانسانية .

وتعيش ملحمة «ماناس» فى الآونة الراهنة حياتها الثانية . فهى تعيش فى الكتب والاوبرا والتمثيليات . ويستعد فنانو السينما القرغيزيون لتصوير فلم «ماناس» .

١٩٧١

واقعية لا ترحم

عندما يتأمل المرء فى اهمية دوستويفسكى بالنسبة للثقافة المعاصرة وخدماته للماضى والمستقبل لا بد وان يواجه اصالة هذا الفنان الهائل المعقد . وتكمن اصالة دوستويفسكى فى ان الزمن يمضى وكلما مر الزمن ازدادت المكانة التى يشغلها اسمه ونتاجه فى اذهان البشرية . وهذا المصير ليس من نصيب كل الموهوبين حتى العظماء منهم . ومثل هذه الظواهر يمكن ويجب ان تثير تفسيرات مختلفة . ولكن دوستويفسكى هو دوستويفسكى . واسمح لنفسى فى هذه السطور ان اعرب عن انطباعاتى الخاصة.

دخل دوستويفسكى محراب الادب من باب طرقه الكثيرون . فحتى ذلك الحين عرف العالم العديد من الكتاب واساطين الكلمة الفنية الذائعى الصيت . وحتى ذلك الحين بلغت تعبيرية الادب مستوى رفيعا للغاية من التحليل والتحديد . فالواقعية آنذاك تكرست نهائيا بوصفها الاسلوب الاصدق والاشمل لتصوير حياة الناس المتعددة الوجوه فى الفن . وارتسمت على الخرائط الادبية بوضوح حتى ذلك الحين «القارات» التى اكتشفها اعلام الادب .

لقد حقق دوستويفسكى اكتشافاته فى «القارات المكتشفة» .

فقد درس بطونها — اعماق النفوس البشرية وقال بالتالى كلمته الجديدة فى الثقافة الجمالية لعصر كامل . وكان لدوستويفسكى كفنان عظيم تأثير ثورى على مجمل سير العملية الادبية العالمية فى القرنين التاسع عشر والعشرين . وبفضل نتاج دوستويفسكى تركز الفكر الفنى لدى الاجيال التالية على المعالجة العميقة لشخصية الفرد ونفسيته وحوافزه الداخلية فى ارتباط مباشر بالواقع .

الا ان كلمة دوستويفسكى المنشودة الاكثر خلودا فى الادب هى ، فى رأيى ، المؤاساة غير المحدودة للانسان المختنق فى دوامة المجتمع الاستغلالى الوقح القاسى . لقد دخل دوستويفسكى ساحة الادب الروسى مثقلا بالقلق الشديد والالم الممض على الانسان الذى تنتهشه المآسى الاجتماعية وتناقضات نفسه المحطمة . فى ذلك العصر الرهيب رفع الكاتب الروسى واحدة من اكبر مهمات الادب الانسانى ، الا وهى تربية اخلاقيات الانسان وتعويده على المؤاساة التى لا يمكن بدونها ان ينعت بالانسان الكامل .

ويرفع دوستويفسكى القدرة على المؤاساة الى مستوى المعيار الاعلى للنزعة الانسانية ويعتبرها اهم خصال الروح الملازمة للنوع البشرى وحده . وفى عالم اليوم بقنابله الذرية وقرصنة امبرياليبه فى الفيتنام ، فى عالم اليوم الذى تمزقه المشاكل العنصرية وتفشى العنف يدوى نفير دوستويفسكى القلق داعيا بلا كلل الى الرأفة ، الى النزعة الانسانية . وبذلك ، فى رأيى ، يكمن جوهر عبقرية دوستويفسكى . فى ذلك ، على ما اعتقد ، يكمن جوهر مؤاساته الشاملة . ولعل خلوده وشهرته المتزايدة تكمنان فى ذلك ايضا .

ان الذين يحاولون اليوم فى الغرب تقديم تفسيرات متباينة لتعقدات نتاج دوستويفسكى وتزويرها وفقا لمصالحهم الانانية الضيقة يجب ان يتذكروا ان دوستويفسكى الفنان هو واحد من اعظم المفكرين الانسانيين فى كل العصور ، وقد اكتسب بشق الانفس حقه فى ان يغدو ضميرا للمحرومين والبؤساء الذين ظلمهم مصير روسيا المترامية الاطراف وعانوا من اهوال الرأسمالية بأقسى اشكالها . ان تزوير نتاج دوستويفسكى من اية جهة كانت لاجل المصالح الانانية انما هو فى اقل تقدير تجديف وافتئات .

ويتطلع دوستويفسكى بحزن ابدى منطبع على جبين ابدى الى الجنس البشرى كما يتطلع الحكيم الذى عرف الكثير من تجربته واطلع على الكثير من مكنونات العقل . ويتسم بأهمية كبيرة للمعاصرين ان دوستويفسكى لا يعرف الرحمة ازاء الشر وان تحليله الدقيق يكشف بلا هوادة عن اسباب الشر . وبذلك يساعدنا فى العيش والنضال من اجل مثلنا العليا .

كتب دوستويفسكى ببساطة العبقرى عن الناس بين الناس وعن حياة عصره اليومية التى تبدو للوهلة الاولى وكأنها غير متميزة بشئ . لكن ما رآه فيها ، فى تلك الحياة وما صوره من خلال مصائر وشخصيات ابطاله كان الهاما فى ذلك العصر . ولعبت دورا كبيرا بهذا الخصوص مهارة دوستويفسكى الدقيق دقة الاطباء فى تحليل نفسية الابطال ودوافع تصرفاتهم وفى الكشف عن اعتماد مصير الفرد على المجتمع . فهو عندما يرسم مختلف فئات المظلومين والبؤساء ويجسد التعاسة والمصائب والتشوه لا يتاجر بذلك ابدا من خلال عاطفية تضفى على كل شيء صبغة التفاهة والخسة . ان الابتذال على طرفى نقيض مع

الادب الجاد مهما كان الموضوع ــ مأساة او بطولة او دعوة لعقلانية الانسان وكرامته او سخرية من الغرور ومن فرحة التسلط . فالادب يجب ان يجد فى كل شئ وفى كل مكان ، كما تعلمنا تجربة دوستويفسكى ، الاعتدال الدقيق الذى يميز النتاج الملهم الموهوب حقا عن القشور المبتذلة فى الادب .

لقد كان فنانا عظيما دوما ، فى كل الامور صغيرها وكبيرها ، وفى كل الايام عاديها ومشهودها . وهو دوما يعلمنا التفكير بالماضى وبالحاضر ، بمشكلة الوجود البشرى الابدى ــ الصراع بين الخير والشر .

١٩٧١

اطأطئ رأسى

الاحياء يتحملون مصيبة الموت . . .

قبل وقت قليل كتبت بتفاؤل عاجز الى تفاردوفسكى بانى اتوسل الى الاقدار كى يشفى . وكنا نحلم بذلك خلافا للتوجس القلق .

انفلتت قدم الشاعر من ركاب الحياة . وانطلق حصانه بدون فارسه . وتخدرت كلماتى . لكن القلب الذى حز فيه الألم يرجع صدى الخسارة كصدى الجبال عندما تسقط من صخرتها شجرة بلوط ضخمة اصابتها الصاعقة . وبموت الكسندر تفاردوفسكى يشعر المرء بانه فقد شيئا من نفسه . انتزعت الموجة من قارتك جزءا منك ، جزءا من طبيعتك . . .

ولا شيء يحمل الينا المؤاساة الا كوننا لن ننساه مدى الحياة ، لانه كان فنانا بارزا لعصرنا . ونواسى انفسنا بان الحظ حالفنا لنعمل معه ونعرفه ونحبه ونحنى رؤوسنا نحن والكثيرون من معاصرينا امام موهبته الجبارة ، وبان الكثيرين من الناس سيولدون وسيفتخرون به كما نفتخر به نحن رغم هول المصاب . . .

وها هى اللحظة المريرة التى نقول فيها كلمة الوداع الاخيرة .

وصل الينا من ارض سمولينسك الروسية المباركة شابا فلاحيا فتيا فى عهد كان فيه الادب السوفييتى الفتى ينهض لاجتياز المعابر الاولى . ويغادرنا علما من اعلام الشعر على اثر اسلافه العظام بوشكين وليرمونتوف ونكراسوف وماياكوفسكى وبلوك ويسينين . . . انهم الآن معا ، اخوة فى الروح ، طيورا تتقدم ، كالسهم ، سرب الطيور . . .

وتكمن اهمية الكسندر تفاردوفسكى العالمية كفنان انسانى فى كون نتاجه قد جسد مصائر وشؤون وافكار اناس بنوا حياة اشتراكية جديدة ، اناس قهروا الفاشية واجتازوا محنا حياتية قاسية .

لن يتمكن المرء من ذكر كل ما يعتمل فى نفسه فى هذه الساعة الحزينة . فخسارتنا فادحة جدا . وكما نجد فى السلاسل الجبلية جبالا ضخمة وتلالا وانجادا ، كذلك يمثل تفاردوفسكى سلسلة رئيسية فى الادب السوفييتى المعاصر .

والكثيرون منا مدينون لتفاردوفسكى بمصائرهم الادبية .

اننا جميعا فى هذه الساعة نحمل جثمانه على اكتافنا ، ونحن جميعا فى مختلف ارجاء البلاد نطأطئ رؤوسنا تكريما لذكرى الشاعر العظيم .

ما اصعب التطلع الى الدرب الذى ينهبه الحصان بدون فارسه . فالدموع تحجب الرؤية . . .

١٩٧١

شقيقنا البيلوروسى

اصطفوا فى طابور السير وأكياسهم على الظهور . وعندما تحركوا وامتد الطابور طويلا على الطريق ركضنا على امتداد الصف نودعهم . وتعالت التمنيات الاخيرة والتوصيات الاخيرة وانطبعت آخر الابتسامات . . . كانوا فتيانا فى الثامنة عشرة ، من مواليد ١٩٢٤ ، وكنا نحن الصبية نلعب معهم امس على قـــدم المساواة ، وها هم يتوجهون الى الجبهة فى شتاء عام ١٩٤٢ .

واتذكر انى ربطت فيما بعد الخيول الاربعة التى كلفت باعادتها ، ربطتها فى زوجين وقدتها الى الجبال وكأنى عائد من سوح الوغى . وكنت اتلفت من حين لآخر صوب الطابور المبتعد .

ولم يعد من الجبهة احد من الشباب الاربعة الذين كلفونى بايصال جيادهم وسروجهم .

ولم تعد امهاتهم ايضا على قيد الحياة . لم يبق سوى عجوز طاعنة فى السن ، يتفطر قلبى من الحزن عندما ألاقيها وارى الالم الاخرس فى عينيها . وتسألنى كل مرة :

— هل تتذكر كيف جئت بالخيل ؟

— اتذكر يا امى — اجيبها وألوذ بالصمت .

عندما اقرأ مؤلفات فاسيل بيكوف وافكر فيه ككاتب

وكشخصية اتذكر عفويا اترابه الذين توجهوا آنذاك فى طريق الشتاء ليحققوا انتصار الوطن العسير ، اولئك الذين كانوا سيبلغون هذا العام الخمسين من العمر مثل فاسيل .

وتلازمنى فكرة تؤكد ان الاقدار صانت لنا فاسيل بيكوف ليقول لنا ، بعد ان يجتاز اتون الحرب ويتحمل بالكامل مرارة كفاح الانصار فى بيلوروسيا ، ليقول لنا كلمته الاصيلة المنشودة المفعمة بالحقيقة القاسية والالم الممض عن كل الجنود الذين كانوا فى الثامنة عشرة من العمر آنذاك ، اولئك الذين كان نصيبهم المأساوى والبطولى اصعب نصيب . وبالنسبة لهم ، وهم الفتيان الذين لم يشبعوا من الحياة بعد ولم يرووا تعطشهم الى المعرفة ، كانت الحرب فى طريق حياتهم منذ الخطوات الاولى اكتشافا قاسيا للعالم وتفهما عسيرا لجوهر الخير والشر فى الاحداث التاريخية الشاملة ضد الفاشية .

كان من اللازم على المرء ليس فقط أن يصمد ويقهر العدو ، بل ويبقى ، اثناء الحرب فى ساحات معارك منقطعة النظير ، انسانا بمبادئ اخلاقية رفيعة . كان من اللازم الا تخور عزيمته والا يقسو قلبه ولا يفقد ايمانه بطبيعة الخير الانسانى ، وكان من اللازم اخيرا القاء نظرة حصيفة على الحرب من عقل ناضج فى جبهتى الخبرة الشخصية والعامة ، باعتبارها اعظم امتحان اخلاقى للانسان امام الوطن ، امام النضال ، امام الموت .

فى رأيى ان الحرب والاخلاق ، الحرب والفرد ، هذه القضايا الجذرية فى المعالجة الفنية لجوهر انسان القرن العشرين ، قد تجلت باكبر قدر من الجدية والتواصل فى افضل مؤلفات فاسيل بيكوف . ان بطل بيكوف — المواطن السوفييتى — لم

يكتف باجتراح المآثر فى الحرب ، بل وكشف عن الخصال الاخلاقية الانسانية للفرد فى المجتمع الاشتراكى . وهذا هو جوهر القضية . وفى ذلك فضل الكاتب والمفكر والمقاتل فاسيل بيكوف ، وفى ذلك خاصية نتاجه الفنية والوطنية .

فمن لا ينكب اليوم على مطالعة قصص بيكوف الرائعة ؟ هذه القصص من حيث المظهر كالجنود فى معاطف رمادية . انها تسير فى صف متراص عابس كالجنود . ولكن ما اقوى الموهبة والتأثير والصراحة فى وصفها لحياة ومصائر الناس ، تلك المصائر الصامدة القلقة حتى الآن والتى تحملنا على التألم والتأمل والشعور بالامتنان . . .

اجل الامتنان لان المصير حفظ لنا فاسيل بيكوف ليعيش ويكتب باسم جيل كامل ، باسم اولئك الفتية الذين ذاقوا طعم الحرب وتقوى عودهم والسلاح بايديهم ، اولئك الذين يعتبر اليوم الواحد من الحياة بمثابة عمر كامل لهم . . .

لم يعد احد من اتراب فاسيل بيكوف الذين كلفونى بايصال خيولهم الى القرية . لكننى اعرف عنهم مما كتبه شقيقهم البيلوروسى فاسيل بيكوف ، لاننا جميعا عائلة واحدة ، اننا جميعا الشعب السوفييتى .

مرحبا يا فاسيل ، يا شقيق اشقائى الذين تسنى لى ان اقدم اليهم آخر خدمة بايصال الخيول . . .

اتمنى لك يا فاسيل عمرا مديدا وموهبة لا ينضب لها معين .

١٩٧٤

حقله واسع فسيح

ما اروع عالم الكلمات . فى الكلمات ندرك انفسنا ونفهم كل العالم القابل للفهم . بدون الكلمات لا وجود للانسان ، ولا وجود للكلمات بدون الانسان . اللغة والكلمات تخص الجميع بقدر واحد وهى ملك عام للشعب ، للامة . ولكن كيف يولد بيننا شاعر متفرد الموهبة فى معالجة الكلمة ؟ تلك هى الاحجية . ويقول لى البعض «الالهام ، موهبة ، هبة الهية» . ولكن هل ينحصر الامر فى ذلك وحده ؟ فهذه المفاهيم قابلة للاخذ والرد ، ولذا فان ظهور التفكير الشعرى ، شأن التفكير الموسيقى ، يبدو احيانا بشكل ظاهرة لا تقل الغازها عن الغاز نشوء المذنبات فى اعماق المجرات المجهولة . فكيف ومن اية جزئيات وفى اية ظروف تنتظم الكلمات فى اشعار وتتحول الى قصيد يكتسب صورة حية فعالة نفاذة مثلما تندلع من الحطب السنة اللهيب الصغيرة التى تندمج فيما بعد فى شعلة ملتهبة حقا ، كيف تندمج فيما بعد فى شعلة ملتهبة حقا ، كيف يحدث ذلك ؟

فكرت فى هذا الامر من جديد وانا اقرأ قصائد دافيد كوغولتينوف . ولما كنت اسمح لنفسى بالقول باننى مطلع جيدا على حياة ونتاج هذا الشاعر فانا استنتج من جديد ،

استنادا الى شعر كوغولتينوف هذه المرة ، بان فنان الكلمة هو ظاهرة فى حياة الشعب . وهو لا يمكن ان يكون «محايدا» او منطويا على نفسه خلافا للرسام التجريدى مثلا ، مع ان بين التجريديين عددا غير قليل من الاساطين . اما اتجاه فنهم فله حديث آخر . لكن فنان الكلمة ، مثل الشاعر كوغولتينوف ، يولد فى صميم الشعب ، فى «مجرة» خبرته الروحية والاخلاقية ، فى افراحه واتراحه ، فى ماضيه وحاضره ، فى امانيه المنشودة ، لان الشاعر يجمع فى نفسه ، فى «اناه» ، بين الماضى والحاضر والآمال والامانى والافكار والمشاعر العائدة للكثير من الناس .

والاكثر من ذلك ان الشاعر القومى المعاصر ، والحديث هنا عن كوغولتينوف ، كأنما يولد مرتين . حيث يظهر فى صميم الشعب الذى يمنح الفنان لغته وتقاليده واحلامه وامانيه . وعندما يتطور الفنان يخرج باسم هذا الشعب من الشعر المحلى الضيق الى العالم الكبير ، الى الادب ذى الاهمية الانسانية العامة . وعند ذاك يكون للشاعر حق الكلام باسمه شخصيا وباسم الانسان المعاصر عموما .

ما اشد عجز الانسان على الارض .
قمم الجبال تعاديه
واعماق البحار الرهيبة تتربص به
والصواعق الغادرة تفتك به ،
وهو لا يعرف ما يخبئه له المستقبل
وما تضمره له الاقدار .
ما اشد عجز الانسان على الارض .
ولكن ما اشد بأس الناس على الارض .

يقتحمون رحاب الفضاء كل ساعة
ويشقون الطرق عبر الجبال
وينتزعون الكنوز من امواج البحر
ويتطلعون الى الافق البعيد
ويقرأون مستقبلهم بوضوح . . .
ما اشد بأس الناس على الارض .

لقد جاء كوغولتينوف من بعيد ، من مهد شعبه العريق حتى بلغ فلسفة الوجود الابدية وديالكتيك فهم مغزى وجوهر الحياة وتوصل الى نمط التفكير الفنى المعاصر .

وانا اتكلم عن ذلك ليس لمجرد الكلام . فالشاعر شجرة باسقة نرى جذعها واغصانها واوراقها وازهارها ، لكن جذورها محجوبة عن الانظار فى الاعماق ، فى الطبقات السميكة لتاريخ الشعب فى حاضره وماضيه . فهذا الشعب الصغير ذاق مرارة القساوة والويلات وتمكن من البقاء وحافظ ، فى ذاكرته ، على ثقافته الفنية العريقة . وفى الحقبة السوفييتية نهض القالميقيون على تربة تاريخية واجتماعية جديدة . وبهذه الصورة فقط امكن ظهور واحد من ابرز فنانى الكلمة السوفييتيين المعاصرين — دافيد كوغولتينوف بين احضان الشعب القالميقى .

يتميز كوغولتينوف ، كشاعر ومفكر ، بالعمق الفذ والروح المعاصرة . فالمستوى الذهنى الرفيع والصبغة السيكولوجية الفكرية فى نتاجه يتعايشان مع البساطة والماجريات الدنيوية الملحوظة ، وتختلط خلجات الروح الشاعرية فى قصائده بالزخم الملحمى الفوار . ويرتقى كوغولتينوف ذرى التفكير الشمولى لانسان القرن العشرين ويحقق فى شعره التصوير «النغمى المجسم» للمقادير

الكبرى والصغرى — للانسان الصغير فى العالم الكبير ، وللعالم الكبير فى الانسان الصغير .

ومن اقوى واسطع جوانب شعر كوغولتينوف التأملات والنظرات والمعاناة والتداعيات المفعمة بالقلق الذى يتحول الى امل وبالآمال التى تتحول الى ارتياب وفرحة وألم وحكمة الانسان المعاصر .

ومن منجزات دافيد كوغولتينوف الكبرى ، فى رأيى ، ملحمته الاخيرة «ثورة العقل» التى تحدث وكتب عنها الكثيرون . وذلك مؤلف كبير ، ولعلى اقول هو تحد شعرى باسل لنوع من «الحظر» ، وعلى الاصح لنوع من القواعد الجمالية التى تتحاشى ، وربما عمدا ، الموضوعات العامة التى غدت مادة للاعلام الجماهيرى اليومى . ولا يتجرأ على ذلك الا فنان واثق من نفسه . والمقصود هو الحرب الاخيرة فى الفييتنام والمخاطر التى يتعرض لها العالم وبالدرجة الاولى الخطر الذرى الذى يتهدد البشرية وعواقبه المحتملة الفتاكة . فما اكثر ما كتب وقيل عن ذلك . ولكن ها هو الشاعر يدلى بكلمته . عندما ننصت الى انغام مرثية موزارت الخالدة نتواجد فى دار المواطن الاميركى البسيط الذى ينعى ابنه القتيل فى الحرب ، فى الفيتنام . ويمكننا ، كبشر ، ان نتفهم فاجعة الابوين . ولا يصعب علينا ان نستنتج بان هذا الشاب القتيل وآلاف الاميركيين من امثاله هم ضحايا جريمة العسكريين . الا ان الشاعر يؤثر فينا ليس بالمؤاساة وحدها . . . ان الانذار الذى بدأ بعيدا ولا يكاد يسمع من ناقوس وحيد انما يقترب منا تدريجيا ثم يملأ الكون كله فى رحابه الشاسعة المكانية والزمانية ، من كينونات ما قبل التاريخ عندما كان الانسان قد غدا انسانا لتوه وحتى

الآونة الراهنة التى تجأر وتصرخ باعلى صوتها وانت تقرأ ابيات الملحمة . الواقع والخيال ، الحكاية والقول المأثور ، الملحمة والمقالة السياسية الهجائية ـــ كل ذلك يندفع فى سيل جبار واحد من شعر كوغولتينوف .

وينهض امامنا فنان كبير ناضج بألمه الشديد وأمله الكبير .

ان «ثورة العقل» ملحمة رفيعة المستوى ومعقدة البناء تتضمن تداعى الافكار والصور بطلاقة على نطاق واسع وفى طبقات متعددة . واريد ان اشير فى هذه الملحمة بخاصة الى فصل يحمل عنوانا اسطوريا «الطائر الحديدى» . وتلك لوحة ساطعة من الفولكلور ادرجت بمهارة ضمن البانوراما العامة فى الملحمة . وهى لوحة نظيرة نظارة الادب الشعبى وذات معنى رمزى عميق ، وتؤثر فينا ليس فقط بحبكتها غير العادية بل ، فى المقام الاول ، بالقضايا العالمية الجدية التى تشغل بال البشرية وتحرك ضميرها من قديم الزمان ـــ كيف نواجه الشر والعنف والاستبداد ، كل ما يقود البشرية الى حالة الحرب والكوارث ؟

ان كوغولتينوف ، بلا ريب ، فنان كبير اصيل من فنانى الكلمة . وهو يكتب بنشاط ، يكتب كثيرا من زمان ويغنى الادب السوفييتى بنتاجاته التى ينبض فيها بوضوح قلب الشاعر الوطنى الذى ادرك مسؤوليته ومشاركته فى كل ما يجرى فى الحياة الراهنة .

عندما افكر فى كوغولتينوف كواحد من كبار الادباء القالميقيين اتأثر كثيرا وانا اتذكر بان الحظ حالفنى واياه بان نعيش ونبدع فى العهد السوفييتى فنساعد بقدر ما على تطوير الثقافة الروحية لشعبينا . ففى الماضى ، طوال قرون عديدة كان اجدادنا القرغيزيون والقالميقيون يعيشون جنبا الى جنب فى التاى وفى

تركستان ، وغالبا ما كانت سيوفهم تتصالب وتقوم بينهم حروب وغزوات واراقة دماء . كل ذلك مضى وانقضى وصار الآن فى ذمة التاريخ . وحان زمان التوحيد والتعاون والاخوة المنقطعة النظير . حان زمان التفاعل الثقافى والاغتناء الفكرى المتبادل .

وتبدأ قصيدة كوغولتينوف عن القمح فى الحقل بالبيت التالى «لا تزال السنابل غضة» ، ويقول :

روعة القمح بسيطة
خالية من القلق والالغاز ،
لكن البشرية احوج ما تكون
الى القمح من بين كل جماليات الربيع
امتع انظارى به مضطربا منفعلا
وكأنى ساهمت مع التربة والماء
فى خلقه بشكله الذى هو عليه .
ثم رعيته وسهرت عليه
بالهام وتفنن
وذوبت الثلوج بأشعة الشمس
وها انا اراقب بحرص واهتمام
سير الاعمال فى الحقل . . .

اننى اورد بارتياح هذه الابيات لشاعر استطاع ان «يساهم مع التربة والماء» فى الخلق والابداع . وبذلك تكمن قوته ومعنوياته العالية . «وانا اراقب بحرص واهتمام سير الاعمال فى حقل» كوغولتينوف .

لمسات في
صورة الفنان

يقول المثل الشعبى القديم اذا توفى ابوك تتوسل الى الله كى يطيل عمر معارفه . لم يأت هذا القول المأثور صدفة . ذلك لان ذاكرة المعاصرين كأنما تطيل عمر الانسان الذى يغادرنا . فالاحياء يحاولون من خلال الذكريات بالذات «مقاومة» الخسارة التى لا تعوض .

الذكريات هى آلامنا وهى وسيلة تكريس الماضى .

بديهى ان ذكرى دميترى شوستاكوفيتش العاطرة الخالدة تتجسد بالدرجة الاولى فى نتاجه الموسيقى الذى يحتل مكانه بين اسمى القيم الفنية التى حققتها الموسيقى العالمية فى القرن العشرين .

ثم ان هناك خاصية تجعل شوستاكوفيتش فى غنى عن الجهود الرامية الى اثبات حقه فى الخلود فى ذاكرة الاحفاد . فهو فنان ذو مصير نادر للغاية ، اذ حظيت عبقريته باعتراف الجميع منذ ان كان على قيد الحياة . والاكثر من ذلك انه حظى بشهرة واسعة عند الشعب رغم الطابع الفلسفى الجاد الصرف لنتاجاته .

ومع ذلك فان طبيعة الانسان تجعله يتعطش الى الذكريات والملاحظات من قبل اناس عرفوا دميترى شوستاكوفيتش معرفة

جيدة فى حياته اليومية . ويبدو ان حاجتنا الى هذه الذكريات نابعة من الرغبة فى رسم صورة جماعية للملحن العظيم ، وهى صورة يمكن ان ترتسم استنادا الى المذكرات العامة لمعاصريه .

تعرفت على دميترى شوستاكوفيتش لاول مرة فى بداية الستينات فى موسكو ، وذلك فى لجنة جوائز لينين وجوائز الدولة . واعتقد ان كلمة «تعرفت» لا تفى بالمراد . فقد خيل الي انى كنت اعرفه دوما ، والحقيقة ان جهل الانسان بشوستاكوفيتش لا يغتفر اذا كان له ادنى اهتمام بالموسيقى . وكنت قد فهمت رأسا بان هذا هو شوستاكوفيتش .

فى جلسات اللجنة اثار انتباهى الاحترام والاهتمام الكبيران اللذان يحظى بهما رأيه لدى الكثيرين من اعضاء اللجنة المبجلين . هذا الانسان الكهل المثقف النحيف بنظارته الثقيلة ذات الزجاج السميك الذى تتطلع من خلاله عينان رماديتان ثاقبتان ببؤبؤين واسعين جدا ، يتحلى بصوت غير مرتفع ، بل وخافت ويحتل منزلة رفيعة دوما . وبموجب قانون غير مكتوب كان رأى شوستاكوفيتش يعنى دوما مستوى رفيعا من النزاهة والضمير فى الاحكام بشأن مادة الفن وقضاياه . لم يكن دميترى شوستاكوفيتش يمتلك موهبة خطابية تذكر ، فان قوته تكمن فى جانب آخر ، فى نزاهته التى لا تشوبها شائبة ازاء الوقائع (فهو يبدى رأيه بحزم دون لف او دوران بشأن نتاج ما اذا كان ، فى اعتقاده ، سطحيا ووقتيا مبتذلا وهلمجرا) ، كما تكمن قوته فى تأكده الباطنى من صواب رأيه . ولم يكن حدسه الفنى يخونه ابدا . ولا اتذكر ولا مرة واحدة ان الشكوك خامرتنى وانا انصت الى رأى شوستاكوفيتش .

ان الصدق اللامتناهي والفهم اللامتناهي للجمال الى جانب الاحكام التي لا تعرف المساومة — تلك هي الخصال الملازمة لطبيعة شوستاكوفيتش . لقد كنت افتخر واعجب به . فهذا الانسان المتواضع بل الخجول الذي لم يتعود ، مثل البعض ، على الكلمات الطنانة والتأثيرات الخطابية كان في الواقع مثالا للمفكر العميق والفنان الذي يأسر النفوس بنزعته الانسانية ، وولعه الشديد بكل ما هو موهوب حقا في الحياة والفن .

ومما اجتذبني الى شوستاكوفيتش وولّد في نفسي ميلا شخصيا اليه ان آرائي وافكاري كانت دوما متوافقة ومتطابقة مع اقواله . وكنت ، ويا للغرابة ، استطيع ان اقول مسبقا بدون خطأ تقريبا في اية امور نفكر على نحو متماثل . وهذا ، على ما يبدو ، هو الدافع الاول لتقاربنا وصداقتنا فيما بعد . وكنا قد تعارفنا لاول مرة ، رسميا ان صح القول ، بواسطة الكسندر تفاردوفسكي . ذات مرة ، في الفرصة ، عندما كنا في اروقة اللجنة نادى تفاردوفسكي على شوستاكوفيتش الذي كان قريبا منا وقال :

— دميتري دميتروفيتش ، هذا هو ايتماتوف الذي تحدثنا عنه .

التفت شوستاكوفيتش على عجل ومد يده النحيفة المعروقة باسما . ومنذ تلك اللحظة بدأت صداقتنا لسنين طويلة . وقد صرت رأسا اميل الى دميتري شوستاكوفيتش رغم الفارق الكبير في عمرينا ، وقد عاملني بجد ، ولعلي اقول بجد مبالغ فيه ، معاملة الند للند . ومن اغرب الامـــــور ان شوستاكوفيتش ، شأن تفاردوفسكي واوروسيفسكي ، كان يخاطبني

بصيغة الجمع طوال هذه السنين ، مع ان لهم كل الحق من حيث المكانة والعمر في مخاطبني بصيغة المفرد . وقد فارقتهم على هذا النحو الى الأبد . ويبدو ان رفاقي الكبار هؤلاء كانوا يدركون احترامي الشرقي البالغ لمن هم أكبر سنا ، ولذا عاملوني بالمثل . وبالمناسبة فان اصدقائي العظام الثلاثة هؤلاء كانوا متشابهين جدا من بعض النواحي ، وفي مقدمتها ولعهم الشديد بالحقيقة في الفن . ان مفهوم الحقيقة الفنية ، رغم تنوع اشكال التعبير ، هو مقولة عظيمة وثابتة من حيث المبدأ . ولذلك بالذات ، على ما اعتقد ، كان هذا المفهوم بالنسبة لهم قضية ذات اهمية من الدرجة الاولى ، بل وكان هو المغزى الرئيسي لحياتهم . وقد تأكدت من ذلك مرارا وتكرارا . فقد كانوا ثلاثتهم ينفرون من الاشخاص الذين يعالجون مهمات الفن كل مرة انطلاقا من اعتبارات وقتية . وكان تفاردوفسكي اكثر تشددا في ابداء مشاعره واقل ضبطا للنفس ، امـــــا شوستاكوفيتش واوروسيفسكي فقد كانا متشابهين من حيث الطبع ايضا ، فكلاهما سريعا التصديق وطاهران كالاطفال . وكنت في نفسي اسميهما بالتوأمين الروحيين ، وانا الآن ممتن للاقدار امتنانا صادقا لان الحظ حالفني في الاختلاط بهؤلاء الرجال .

وبوسعي الآن ان اقول ان امتن ما في الصداقة والتفاهم بين الناس هو وحدة اهتماماتهم ومعتقداتهم ، بالاضافة الى الحاجة الدائمة لتبادل الآراء الصميمة ، حيث يحتفظ المرء بملاحظة او اكتشاف على قدر ما من الاهمية يكون قد حققه لنفسه ولكنه عندما تسنح الفرصة يرغب في عرضه من كل بد على شخص يحترمه . ويشعر بالارتياح النفسي من جراء ذلك ، لان سماع رأي الصديق ردا على رأيه يتسم بأهمية بالغة . ومن

هنا غالبا ما تنبع اصول نهر الحوار الكبير عن الحياة وعن كل ما تتناوله تجربتنا ومعارفنا وعن كل ما تتألم له الروح وتعانيه . وهو حوار يبقى المرء متأثرا به لامد طويل .

كنت كثيرا ما اتحدث مع دميترى شوستاكوفيتش . ففى الفرص بين الجلسات ، واحيانا فى الجلسات نفسها عندما نتواجد جنب بعضنا البعض ونتحدث همسا ، وفى المسارح اثناء التمثيليات الجديدة واثناء العروض السينمائية وفى حفلات المنوعات وفى المعارض الفنية تهيأت لى طوال عشرين عاما فرص التحدث مع شوستاكوفيتش وابداء آرائى والاستماع الى آرائه . ولعل ذلك اهم ما فى علاقاتنا . ويصعب الآن استحضار تفاصيل تلك الاحاديث والاحكام المرتبطة بمناسبة معينة او بأخرى . ومما يؤسف له اشد الاسف اننا لا نجيد دوما تقييم اهمية الاحداث والمقابلات اليومية التى تبدو عادية حسب الظاهر وتسجيلها على الورق فى وقتها ، وفيما بعد يتأكد لنا ان اهميتها ليست عادية اطلاقا .

واذكر مرة تطرق الحديث الى فلم «هاملت» من اخراج كوزينتسيف * . لقد ترك هذا الفلم فى نفسى انطباعا عميقا ، وخصوصا موسيقى الفلم التى وضعها شوستاكوفيتش . وعلى العموم اذا وضعنا اسماء كوزينتسيف وسموكتونوفسكى ** وشوستاكوفيتش

---

* غريغورى كوزينتسيف (١٩٠٥ — ١٩٧٣) مخرج سينمائى سوفييتى صور افلام «المعطف» (١٩٢٦) و«هاملت» (١٩٦٤) و«الملك لير» (١٩٧١) . — **المترجم** .

** اينوكينتى سموكتونوفسكى (من مواليد ١٩٢٥) ممثل سوفييتى ادى دور هاملت . — **المترجم** .

فى صف واحد (شكسبير بالطبع نار على علم) يتضح لنا ان الفلم «محكوم عليه» بالنجاح الحتمى . وكانت الموسيقى المؤثرة تأكيدا لعمق مضمون هذا النتاج . فالموسيقى بالذات ، كما اعتقد ، جاءت فى الفلم بروح شكسبير ، بروح تلك الاحداث الفاجعة التى هزت الامير الدانماركى هاملت .

وتطرق الحديث الى طبيعة الصدام فى تراجيديات شكسبير عموما . وقلت بشىء من المغالاة لاضفى حدة على القضية ان زمن التفكير الشكسبيرى من الناحية التاريخية قد مضى دون عودة بالنسبة للبشرية ، مثلما مضت عهود الابداع الشعبى الملحمى والاسطورى دون رجعة ، ولذا لن يستطيع احد فى اى مكان ، كما ادعيت ، ان يبدع فى الادب شيئا يضاهى ابداع شكسبير .

وكنت اتوقع من شوستاكوفيتش ان يرد مازحا باننا نحن الكتاب المعاصرين يبحث عن مبررات لانفسنا . الا انه كان يتخذ موقفا جادا من كل ما يخص الفن وغالبا ما يوافق بسرور على آراء الآخرين السليمة ، لكنه اعترض هذه المرة قائلا :

— لست واثقا من ذلك ، ربما هذا غير صحيح بالكامل .

وطرح وجهة نظره . وقال ان مواضيع شكسبير الازلية تعيش وستظل تعيش فى كل الازمان طالما هناك بشر . ولكل الازمان ابطالها من امثال هاملت والملك لير . الا ان مشاعر ومشاكل هؤلاء الاشخاص تظهر كل مرة فى حلل جديدة تناسب عصرها ، وتتلخص المهمة فى استشفافها ومعرفتها من خلال المشاغل اليومية .

وسألته :

— هل انت واثق من ظهور شكسبير جديد ؟
— اذا لم يأت شكسبير جديد فسيأتي عبقرى آخر .
— امر مستبعد . انا اشك فى ذلك .
— اما انا فواثق تماما — اصر شوستاكوفيتش على رأيه ، ثم اعرب عن فكرة ادهشتنى واثارت اعجابى اكثر وظلت عالقة فى ذاكرتى امدا طويلا . قال : فى العالم المعاصر فرص اكبر بكثير لظهور امثال شكسبير ، وذلك لان البشرية لم تبلغ فى السابق ابدا مثل هذه الشمولية الروحية فى تطورها ، ولذا فعندما يظهر مثل هذا الفنان العظيم سيتمكن ، كالملحن ، من تجسيد العالم كله فى نفسه وحده . . .

العالم كله فى نفسه . . .

جرى هذا الحديث على الماشى . وفيما بعد عندما اختليت الى نفسى فهمت ما قاله شوستاكوفيتش . فقد كان ينتظر من الادب تعميما «موسيقيا» شاملا للحياة .

العالم كله فى نفسه . . .

فهل هناك حلم لدى الفنان اعظم من ذلك ، رغم الصعوبة الهائلة لهذه المهمة التى تكاد تكون مستحيلة .

وفى الوقت ذاته كان شوستاكوفيتش يفرح لنتاجات واقعية حياتية ملموسة تماما وضعها اناس موهوبون لكنهم لا يدعون بالتعميمات الفلسفية .

. . . ذات مرة لحقت بشوستاكوفيتش على سلم مبنى لجنة جوائز لينين . وهو مبنى عريق ليس فيه مصعد ، الامر الذى خلق صعوبات كبيرة لشوستاكوفيتش فى السنوات الاخيرة . ويمكن ان نتصور ما يفكر فيه انسان يرتقى السلم ببطء مجرجرا قدميه المريضتين . امسكت بيده وصعدنا معا بحذر وعلى

فترات . كان شاحبا يتنفس بعسر ويستند على الدرابزون بيد وعلي باليد الاخرى . ومع ذلك كان يحاول الابتسام ببطولة . ولم اكن ادرى ماذا يجب ان اقول وافعل كيلا يبدو عليه الضعف ، وهنا قال وكأنما حزر ما يدور في ذهني :

— هل قرأت القصة المدهشة فى مجلة «العلم والحياة» ؟

— نعم — اجبت بثقة وابتسمت مسبقا لانى حزرت ما يقصده — قصة غافريل ترويبولسكى «الكلب الابيض ذو الاذن السوداء» ؟

— كيف حزرت ؟ ! — لمعت عينا شوستاكوفيتش — قرأت هذه القصة بمنتهى الارتياح ، وشعرت بالالم والفرحة معا . . .

كان دميترى شوستاكوفيتش يحب ويقدر الادب المعاصر . ورغم انشغاله الهائل فى الابداع ورغم المرض الذى يهاجمه لم يكن يفوت اى نتاج جديد ، وكان على الدوام قارئا متحمسا نشيطا .

انا احتفظ برسالتين منه . وهما الآن من تحف عائلتنا ، وستكونان تركة للابناء . وقد بعث لى شوستاكوفيتش بالرسالة الاولى بعد ان قرأ «وداعا يا غولسارى» ، كما تتناول الرسالة الثانية «السفينة البيضاء» . وكلتا الرسالتين عزيزتان عليّ . لكن الثانية وصلت من مدينة كورغان حيث كان شوستاكوفيتش يتعالج عند الطبيب الشهير ايليزاروف . وقد اخبرنى فيها بان حالة قدميه افضل وان يديه تكتسبان قوة ربما تمكنه فى القريب العاجل من العزف على البيانو . وهذه الرسالة تهزنى كل مرة وتجعلنى اتأثر للحروف الفريدة المشوشة المكتوبة بشق الانفس ، وللنزعة الانسانية اللامتناهية والبسالة والاهتمام لدى الملحن العظيم

صديقى وقارئ كتبى . اننى ممتن لشوستاكوفيتش طول عمرى على هذه الرسالة وحدها .

اجل ، لم يبق لى الآن غير الذكريات التى تجعلنى احزن وافرح لما كان فى صداقتنا .

واريد هنا ان اشير الى علاقاتنا العائلية . ذات مرة وافق اننا كنا نستجم فى وقت واحد فى مصح «بارفيخا» بضواحى موسكو . كان ذلك فى شتاء ١٩٧١ . كان شوستاكوفيتش نادرا ما يخرج للتنزه ، ولكنه كان يخرج من كل بد برفقة زوجته ايرينا انطونوفنا التى تساعده فى النزهة . وكنا نتحدث كلما سنحت الفرصة . كنا نتحدث جالسين على المصاطب فى جوانب مماشى الغابة ، وفى اغلب الاحوال كنا نتحدث فى المصح نفسه ، فى المطعم وصالة السينما والمكتبة . ونتبادل الزيارات .

كان ذلك شتاء جميلا معتدلا كثير الثلوج . الثلج يتجدد فى الليالى دوما ويجعل الطبيعة اكثر استقرارا وسكونا ، كما يجعل احاديثنا اكثر عمقا وهدوءا . وكان شوستاكوفيتش ، وهو بطبعه سريع التأثر نسبيا ، هادئا متأملا بتركيز كبير . وربما كان يفكر فى الحياة التى عاشها وفى الانجازات التى حققها ، وربما فيما لم يتمكن من تحقيقه ، فما من احد استطاع ان يذهب بعد ان حقق كل امكانياته . وربما كان لهذا السبب قد تناول مرارا فى احاديثنا فى شتاء بارفيخا ذاك موضوعا ملحا بالنسبة لى (وليس لى وحدى على ما اعتقد) ، وهو القدرة على تكريس الحياة كلها للقضية الرئيسية — للابداع . (ولا تزال هذه القضية حتى الآن هى القضية الاولى بالنسبة لى) . كان غالبا ما يتطلع الي ويتشكى من اننى اصرف وقتا طويلا فى الشؤون

العامة وغيرها من شؤون الحياة وان ذلك يلحق الضرر بى شخصيا ، وبالتالى يلحق الضرر بالادب ، وان ما نضيعه فى الشباب لا نعوضه فى الشيخوخة لان لكل شىء وقته ، ولان ما يتهيأ للفنان ان يحققه فى وقت لا يتهيأ له انجازه فى وقت آخر ، وان الخبرة الحياتية تجرى كالنهر ، ولا يدخل المرء ماء النهر ذاته مرتين .

اجل ، كان محقا تماما . وقد ذكرنى بذلك فى رسالته من مدينة كورغان . وانا احاول ان اغير حياتى ، وربما اوفق فى ذلك . وقد صرت أفهم ذلك من تجربتى الخاصة . . .

وبعد عام ، فى منتصف الصيف ، كان لنا لقاء كبير آخر ، لقاء مرح فرح صاخب ، حيث وصلت مع زوجتى واطفالنا الى موسكو وزرنا منزل شوستاكوفيتش الصيفى فى ضاحية جوكوفكا .

كان ذلك لقاء لا ينسى . وكان دميترى شوستاكوفيتش فى مزاج طيب ، مع ان صحته لم تكن على ما يرام . لكن تلك كانت فترة الاستقرار النسبى . كان بوسعه ان يعمل ، وكل شىء فى المنزل مجهز للعمل الى حد نصب مصعد صغير الى الدور الثانى . كان هذا المصعد غريبا وكأنما صنع من اجل التسلية . وتحدث شوستاكوفيتش بمرح عن استخدامه للمصعد الشخصى ذى التصميم الفريد ، حتى انه سمح لابنى الاصغر اسكار ان يصعد ويهبط بالمصعد .

وعند المائدة كان الجو مرحا ايضا . وهذا ما حمل الهدوء الي بعض الشىء . فهو يعنى ان عزيمة شوستاكوفيتش قوية والحمد لله . هكذا فكرت . وكنت قانعا ايضا عندما تلفنت لنا ايرينا انطونوفنا فى مدينة فرونزه وطلبت ان نجد «جذر ايسيق

قول» لعلاج شوستاكوفيتش . وذلك نبات طبى ذو مفعول ناجع ، وتمكنت من الحصول عليه بسرعة نسبيا ، حيث توجه اصدقاؤنا واقاربنا فى طالاس الى الجبال للبحث عن النبات المذكور ، وبعد اسبوع جلبوا لى منه كمية لا بأس بها . ولم يكن شوستاكوفيتش يعرف بانهم فى البيت يعالجونه بهذا المستحضر الطبى ، وحتى لوكان يعرف بذلك فهو لا يمكن ان يفشى سر زوجته . اما انا فكل ما كنت اريده هو ان يكون لنباتنا الطبى مفعول ناجع فى علاج شوستاكوفيتش ، بل صرت اقنع نفسى بان طيب مزاجه هو نتيجة لمفعول النبات الجبلى ، مع اننى اعرف بان هذا المستحضر لا يستخدم الا فى الحالات الاستثنائية الخطرة .

ومهما يكن من شىء فاننا فى ذلك اليوم لم نتكلم عن الامراض وكأننا جميعا نسيناها .

وبعد الغداء اجتمعنا فى مكتب شوستاكوفيتش نستمع الى اسطواناته المحببة . . .

واهم لقاء مع شوستاكوفيتش بالنسبة لى هو اللقاء الذى جرى قبل وفاته بسنة ونصف تقريبا . فى احدى سفراتى الى موسكو تلفن لى شوستاكوفيتش فى فندق «موسكو» ودعانى للعشاء وقال اننا سنستمع قبل العشاء لاول مرة الى قطعته الجديدة «الرباعى الرابع عشر» ، واذا كنت ارغب فى الاستماع فيجب ان احضر فى شقته فى تمام السابعة مساء . بديهى اننى فرحت . وقبيل المساء اتضح ، لسبب وجيه له صلة بقراءة بروفه مقالة فى جريدة «الازفستيا» ، اننى سأتأخر ١٠ — ١٥ دقيقة . وعندما تلفنت لاعتذر عن هذا التأخير رفعت السماعة ايرينا انطونوفنا وهدأتنى قائلة ان الحفلة ستبدأ فى تمام السابعة ، ولكن يمكن التأخير

قليلا ، والانصات يحتمل ان يتكرر . وفي السابعة والدقيقة العاشرة كنت امام باب شقة شوستاكوفيتش . وبلغتني انغام الموسيقى . وفتحت الباب ايرينا انطونوفنا . وردا على تحيتي العالية وضعت اصبعها على شفتيها ورافقتني بصمت في الرواق الى الغرفة الكبيرة التي يعزف فيها الرباعي .

جلس شوستاكوفيتش الى الطاولة وظهره نحو الباب ، وجلس قربه الملحن قره قارايف . وامامهما وسط الغرفة اربعة عازفين .

خطوت بخفة كيلا اثير انتباه الملحنين وجلست على اريكة قرب الباب . لم يلتفت الي احد . وكان العازفون منهمكين في عزفهم كليا . واشرأب شوستاكوفيتش وقره قارايف يستمعان بتركيز متوتر . وبالتدريج اخذت انا ايضا اتعمق في مضمون الموسيقى . ولا اقول ان ذلك كان سهلا علي ، بالعكس ، فقد تعين ان اتخلص من كل الافكار الاخرى لاتحول الى موجة تفكير شوستاكوفيتش . ولم اتمكن من بلوغ ذلك بالكامل ، في حين كان شوستاكوفيتش ينصت الى العزف بنفس ذلك الاهتمام المتوتر وكأنه يريد ان يجد في انغام الموسيقى شيئا لم يعثر عليه . وبدت تعابير وجهه غريبة علي بعض الشيء ، بل وقاسية منكمشة . تطلعت الى ظهره المحدودب والى تقاطيع وجهه المتوتر القاسي باستغراب ورعب . وقد صدق ظني . فعندما انتهى العازفون لم يغير شوستاكوفيتش رأسا جلسته وهيئته التي تشبه هيئة الصقر ، مع ان قره قارايف قال في الحال بشعور من الاعجاب الصادق والانفعال الشديد محاولا في الوقت ذاته ان يضبط بنفسه وان تكون لهجته عادية :

— هذه القطعة عبقرية — وشكر العازفين من صميم القلب .

هز شوستاكوفيتش رأسه بامتنان ، لكنه ظل باردا . ولم يكن على ما عرفته فيه . فقد ظهر لديه تشدد لا يرحم ازاء نفسه وازاء الآخرين . فقد شكر العازفين هو ايضا فى البداية ، ثم بدأ يحلل الاداء بمنتهى الصرامة ، حتى اضطر قره قارايف الى التخفيف من ملاحظاته بعض الشيء . والحقيقة ان اداء العازفين كان ممتازا . فقد صبوا فيه كيانهم كله فضلا عن العقل والروح ان صح القول . فى حين طالبهم الملحن بالمزيد من المهارة والدقة والالهام . علما بانه كان مرتبطا بهذا الرباعى سنين طويلة من الابداع المشترك ، اكثر من ثلاثين عاما . وظل الملحنان والعازفون يتناقشون ويتجادلون امدا طويلا ، وهم يتفقون على شيء ويختلفون على شيء آخر . كان ذلك حوارا بين مبدعى الموسيقى .

وقرروا اخيرا اداء الرباعى الرابع عشر مرة اخرى . واستمعت مأخوذا مندهشا : «ها هو شوستاكوفيتش الذى يبدو وديعا طيبا خجولا . انه متشدد فى العمل الى اقصى حدود التشدد» .

على هذه الصورة كنت افكر فى شوستاكوفيتش فى تلك الساعة — باعتزاز واحترام واعجاب .

وعلى هذه الصورة اريد ان اتذكره مدى الحياة .

١٩٧٦

حلقت الكراكى

فى صالة معارض اتحاد الفنانين السوفييت افتتح معرض لوحات وغرافيك سرغى اوروسيفسكى .

ويصعب علينا التصديق بان هذا الفنان الرائع والصديق العزيز لم يعد بين ظهرانينا منذ اكثر من عام . فما اسرع مرور الوقت .

اغلبية الناس يعرفون اوروسيفسكى مصورا سينمائيا صور الكثير من الافلام الرائعة . وبالمناسبة فقد كان فى كل منها ليس مجرد مصور يؤدى ، ان صح القول ، تكليفات مخرج الفلم . فمهما كانت الافلام التى صورها فانها دوما دافئة بدفء موقفه الابداعى ورؤيته التى هى رؤية فنان كبير . وانا هنا لا اريد ان اقلل من قسط المخرجين والممثلين الرائعين فى الافلام التى صورها اوروسيفسكى ، مثل «الطلقة الحادية والاربعون» او «حلقت الكراكى» . ولكننى لا استطيع ان اتصور هذه الافلام بدون كامرته الملهمة . فهذه الكاميرا بلغتها الخاصة ، لغة الرشاقة الفنية ، استطاعت ان تعبر عما تعجز حتى الكلمات عن التعبير عنه . وهناك نأمات فى احوال الطبيعة وفى العلاقات المتبادلة بين الناس وفى نتاجات الفن نتحسسها بالحدس اكثر مما بالعقل وتفلت منا وتتملص عندما نحاول صب معانيها فى مصطلحات دقيقة وفى كلمات محددة .

ان رؤية اوروسيفسكى التصويرية تتحلى بقوة باطنية خفية قادرة على ان تهز الآخرين . بعد فلم «رسالة لم ترسل» ربما شاهدت الفا من مختلف الافلام التى لم يبق منها ، حتى من الافلام الجيدة ، شئ او اثر فى الذاكرة ، ولكننى ارى لقطات من هذا الفلم حتى الآن وكأنها تعرض امامى على الشاشة .

بدأ تعارفنا من نداء تلفونى فى موسكو رن فى منزلى دون انتظار . تلفن لى اوروسيفسكى ولم نكن قد تلاقينا او تكلمنا مرة قبل ذلك . قال لى انه فرغ توا من قراءة «وداعا يا غولسارى» وانه معجب بالكتاب اشد الاعجاب وهو يفكر به طول الليل فحصل على رقم تلفونى ليخبرنى بذلك . ولا اخفى على القارئ ان كلماته افرحتنى وابهجتنى . وسرعان ما استلمت منه رسالة اقترح فيها علي تصوير فلم استنادا الى «وداعا يا غولسارى» . وعند ذاك بدأت صداقتنا القصيرة مع الاسف ، لكنها مفعمة بالدفء والحنان .

كنت غالبا ما ازوره فى منزله مع اطفالى وعائلتى . وستبقى عالقة فى ذاكرتى مدى العمر شقته الصغيرة المليئة باللوحات ، ولم اكن اعرف قبل ذلك ان مهنة اوروسيفسكى الاولى هى الرسم ، وانه انتقل من الرسم الى السينما ، وجعلنى هذا الاكتشاف استغرب لطاقاته ولتواضعه (فهو لم يتحدث ابدا عن لوحاته) . وفكرت : «ما اكثر القوى الابداعية الكامنة فى هذا الانسان اذا كان يمارس الرسم بهذا الشكل الرائع اضافة الى عمله فى السينما» .

انا واثق من ان لوحاته اينما علقت ستحظى بالاهتمام حالا مهما كانت اللوحات المجاورة لهـــا . انهـــا تحظى بالاهتمام نظرا لمهارة الرسام وولعه بالحياة وقدرته

على التمتع بها واستيعابها بعمق والتفكير فى اعقد مشاكلها . انها لوحات رجل ناضج رأى الكثير فى الحياة ولم يفقد فى الوقت ذاته صفاء الاستيعاب الطفولي . وهو فى لوحاته غالبا ما يتناول نفس الوجوه ونفس المناظر والموجودات . ولكنها فى كل مرة تبدو جديدة تماما وكأنك تراها لاول مرة . تلك هى على العموم خاصية استيعابه للعالم .

لوحاته مركزة دوما على ما هو اساسى . فمهما كان موضوع اللوحة — انسانا او طبيعة جامدة او منظرا — فانه يهتم دوما بالكشف عن جوهر ما يصوره . ثم ان صور النساء رائعة فى لوحاته . وغالبا ما كان يرسم زوجته بيلا ميرونوفنا ، ففى كل صورة لها دفء شديد ونأمة جديدة من مزاجه ومزاجها وموقفه منها .

اعتقد ان اكثر الامور تعقيدا فى اى نوع من الفن هو تجسيد الانسان . فمهما كانت المناظر التى يرسمها الرسام او يصفها الناثر ، ومهما كان جمال الطبيعة او قوة المشاريع الصناعية التى يحاول ان يثير بهما اعجابنا فان جهوده تتبدد سدى اذا لم يكن الانسان حاضرا فيها بالهام . وفى الانسان بالذات يكمن مغزى لوحات اوروسيفسكى وهو موضوعها الرئيسى .

ان الاصالة والتفرد والجدة كلمات اذا طبقناها على ابداع اوروسيفسكى لا تضيف شيئا فى توضيح اســـراره . وبالنسبة لى يتكشف مغزى هذا الابداع باكمل شكل فى كلمة «الموسيقى» . ولا اعنى بالطبع الموسيقى التى تكتب فى دفاتر النوطات ، بل موسيقى فرشاة اوروسيفسكى ، موسيقى كامرته .

وكان يحب الكلمة ايضا حبا حقيقيا ، ويتابع بكل اهتمام ما يستجد فى ادبنا ويثير الاهتمام . اما بخصوص

مؤلفاتى انا فبوسعى ان اذكر شخصا آخر فقط ، مثـــــل اوروسيفسكى ، ابدى اهتماما وعناية بالغين بما اكتب . انه دميترى شوستاكوفيتش . وما يربط بين هذين الرجلين الرائعين هو الشعور بالمسؤولية عن ثقافتنا كلها . فهما لم يكونا فقط فنانين مرهفين يتفهمان الفن باحساس دقيق ويبدعانه بنتاجاتهما ، بل كانا ايضا وطنيين كبيرين . وما كان بوسعهما ان يلوذا بالصمت واللامبالاة ازاء ما يحدث فى ثقافتنا ، ومنها الادب ، فقد كانا يتألمان لاخفاقاتها ويفرحان لنجاحاتها .

وفى فترة التحضير لتصوير فلم «الرهوان» * سافرت مع اوروسيفسكى الى انجاد سوسامير لاختيار مواضع التصوير على الطبيعة . وكان بوسعى طبعا الا اسافر معه . فانا ، كما هى الحال دوما ، غارق فى الاشغال ولا وقت لى ، ثم انه لم تكن عندى مهمة محددة تماما فى هذه الرحلة . ومع ذلك سافرنا ، وانا اشكر الصدف لانها هيأت لى هذه الفرصة . فان رحاب الجبال فى هذه الطبيعة الفريدة تماما والهــــواء المنعش الذى تمتعنا بهـــكل ذلك جعلنا نتأمل ونتحدث عن اكبر الامور ، عن جوهر ومغزى الحياة ، عن التاريخ والابداع ، وعن كل ما يشغل بالنا ، وكنا نشعر بارتياح لهذه الاحاديث .

توجهنا الى انجاد سوسامير مع عوائلنا ، فقد اخذت معى ابنائى ، ولدينا الآن فى البيت صور التقطها اوروسيفسكى فى تلك الرحلة ، وهى صور رائعة ، انها من الرسم الحقيقى بالابيض والاسود . وفيها تتجلى مهارة الفنان ونظرته . فمن بين مئات الصور الفوتوغرافية الموجودة فى منزلنا تبرز هذه الصور

---

* طبعا لقصة ايتماتوف «وداعا يا غولسارى» . — **المترجم** .

التى لا تشبه غيرها اطلاقا . وانا واثق من ان اطفالى سيحفظون هذه الصور كتحفة نادرة للغاية .

دعانا الرعاة فى سوسامير لزيارتهم . وكما هى العادة فى مثل هذه الاحوال كان فى انتظارنا السماور ولبن الخيل وتجاذبنا اطراف الحديث . وقال لى راع عجوز مودعا : «يبدو ان هذا الرجل عزيز عليك جدا» . فقد تلمس هؤلاء الناس البسطاء ، برهافة ودقة ، جمال نفس اوروسيفسكى .

سوسامير اعلى الانجاد بين سلاسل الجبال الشاهقة . ومع اننى كنت فيها مرارا قبل تلك الرحلة وبعدها فان هذه الاصقاع ستبقى بالنسبة لى دوما مرتبطة باسم اوروسيفسكى . وظلت رحلتنا عالقة فى الذاكرة بوصفها حادثة متميزة لا تنسى مدى العمر ، مع اننى لم اكن ادرك ذلك آنذاك . فغالبا ما يصادف ان وقتنا لا يتسع للتوقف والتأمل فى انفسنا وفى الناس المحيطين بنا وتقديرهم حق قدرهم .

بعد عام جئت الى اوروسيفسكى فى نفس تلك الاماكن . وكان قد تغير ، فهو منهمك فى العمل . كان كجندى اجتاز معارك كثيرة ، وها هو من جديد مشغول بالكامل فى معركة جديدة . فليس فى الوجود شئ بالنسبة له ما عدا الفن . كان يجيد العيش فى الفن . . .

كان موقف اوروسيفسكى من اخراج فلم «الرهوان» يتسم بمنتهى الرقة والحنان . فقد اثرت فيه القصة واراد ان يخرج فلما يؤثر فى النفوس .

وقد ابدى البعض فى حينه تساؤلات فيها حيرة : لماذا اتجه اوروسيفسكى فجأة نحو الاخراج وهو المصور البارع ؟ اننى لا اوافق على طرح السؤال بهذه الصيغة . فان انتقاله الى

المهنة الجديدة امر حتمى تماما . ولعله تأخر قليلا فى الاقدام على هذه الخطوة ، وكان من اللازم القيام بها من زمان .

كان اوروسيفسكى دوما يشعر بنضارة الشباب ، حتى ان الاحترام الذى اكنه له فى علاقاتنا الودية يزعجه بعض الشئ . ذات مرة وصفته بالشيخ فسألنى ضاحكا «هل انا عجوز لهذه الدرجة ؟» . وحاولت جاهدا ان اوضح له باننى لا اعتبره عجوزا باية حال ، وانه بالنسبة لى دوما شاب وسيم طيب القلب ، اما كلمة «شيخ» فقد استخدمتها تعبيرا عن الاحترام الذى اكنه له كفنان كبير . وقال اوروسيفسكى ممتعضا : «انت تجاملنى» .

اننى اتذكر رحلتنا الى سوسامير وأرى فى تأملاتى اوروسيفسكى نشيطا حركا بعينين مشعتين مبهورتين بجمال هذه الجبال عندما تفتحت امامه لاول مرة . كان الوقت ليلا والنجوم معلقة فوق رؤوسنا مباشرة ، نجوم كثيرة ، هائلة وساطعة كأنما خلقت توا . وبدا ذلك لنا كالحلم . وفجأة انطلق الى السماء ، ولا ندرى من اين ، صاروخ كونى خلف اثرا ناريا جامحا . وتوقفنا مشدوهين محتبسى الانفاس من جمال هذا المنظر . . .

سيبقى اوروسيفسكى بالنسبة لى دوما واحدا من المع الناس الذين حالفنى الحظ فى الالتقاء بهم .

١٩٧٦

الارض وطائر الالهام

خطر على بالى من زمان ان وعينا المهنى مولع ولعا شديدا بالاعلان عن ان كل جديد يظهر فى الثقافة ويثير اعجابنا انما هو اكتشاف يكاد يبدأ من الصفر .

وهذا هو سبب انتشار الكثير من مختلف المصطلحات المبتدعة فى النقد الادبى والتى يحاولون ان يرسموا بها وان يوضحوا احيانا طبيعة وجوهر هذه الاشياء ويستخدمون فى هذا المجال مصطلحات مثل «الواقعية الساحرة» و«الواقعية الميثولوجية» و«الرؤية الكونية» وهلمجرا .

ان الالهام ، اى الهام ، ينطلق فى آخر المطاف ، كما اعتقد ، من الارض التى يقف عليها الفنان ، من الواقع الفعلى والتاريخ ومصائر الناس التى تحولها قدرة الفنان الذى يبدع صورة العالم ولذا فهو يدرج ضمن مجال الفن كل العناصر الضرورية له سواء كانت من الفلكلور او الاسطورة او الشعر القديم او احدث الاكتشافات فى العلم اذا كانت بالطبع لازمة لهذا الفنان وليست مجرد وسيلة للركض وراء الموضة او ذريعة للتقليد .

افلم يكن للصور الجديدة فى ادب اميركا اللاتينية الرائع حقا روادها ليس فى مجال الفولكلور المحلى وحده ؟

واقول ان فى ادبنا الوطنى ايضا كان هناك اعلام كبار

دخلوا ميدان هذا الاستيعاب المركب غير العادى للعالم — غوغول واودويفسكى * وبولغاكوف . . . وليس من قبيل الصدفة ان غابريل غارسيا ماركيز يعتز بتولستوى ويعتبره معلما له . وكان تولستوى بدوره يعتبر الكتاب اليونانيين اسلافا له .

فعلام يدل ذلك ؟ انه يدل على ان عملية ظهور ونشوء «الادب العالمى» جارية من غابر الزمان ، مع ان هذا المصطلح نفسه ظهر فى وقت متأخر . ونحن جميعا ، شئنا ام ابينا ، متواجدون فى حلقة واحدة من التفاعل الانسانى المشترك .

الا ان لكل فنان كبير عصره وعالمه الابداعى ومصيره الفريد الذى يمثل طائر الالهام المذكور .

ويكاد المرء يصدق بالفعل احيانا ان المصير قادر ، مثل الكمبيوتر ، على حساب المقدار المطلوب ، دون خطأ ، من عدد كبير من المتماثلات المتشابكة .

عشية الحرب العالمية الاولى بدأ معلم رومانسى شاب من ابناء الفلاحين يمارس التدريس فى احدى مدن اوكرانيا . ولعل الكثيرين من المعلمين البادئين المتحدرين من عوائل فقيرة والمتسمين بالرومانسية كل على طريقته الخاصة كانوا فى تلك الحقبة يعملون فى مدن وقرى اوربا قبيل الحرب . الا ان المصير رسم لهذا المعلم بالذات ، وهو شخص طاهر الى حد السذاجة وذو طبيعة لا تعرف الكلل ، طبيعة طافحة بالمشاعر والرغبة فى التقحم والعمل ولكنه لا يعرف على وجه التحديد بعد اين وكيف يستخدم قواه لكى يعبر عن نفسه ويقول شيئا ما

---

* فلاديمير اودويفسكى (١٨٠٣ — ١٨٦٩) كاتب روسى له مقالات فى الموسيقى وقصص رومانسية وخيالية . — **مترجم** .

للآخرين ، لقد رسم المصير لهذا الانسان بالذات مستقبلا باهرا فى فن التسلية الذى لم يحمله احد محمل الجد ، واعنى السينما . لقد كانت السينما التى ظهرت فى مطلع القرن العشرين ، كمعجزة لانعاش الصور الفوتوغرافية ، بحاجة ماسة الى رسل ورواد مخلصين لها متفانين فى سبيلها يشقون الطريق وسط الصخب والضجيج الى ذرى اوسع مجال للتسلية الجماهيرية الشاملة . واشار المصير بابهامه الى دوفجينكو وكأنما استشف فيه شكيمة قوية وقدرة ابداعية هائلة كامنة فى الملاحم الاوكرانية التى غذت الكثيرين من فنانى الوطن البارزين كما غذت ثورية الجماهير الشعبية . وفيما بعد اثبت الزمن والحياة ان الامور نشأت على هذا النحو بالذات لان تلكما الشكيمة القدرة هما المصدران الاصيلان لهذه الظاهرة .

وكان ذلك المصير هو ثورة اكتوبر التى اخصبت الهام كوكبة من رواد الثقافة الجديدة الذين غدوا فيما بعد مؤسسين للادب والفن السوفييتيين المتعددى القوميات .

وكما هو شأن ماياكوفسكى الذى يشبه دوفجينكو شبها مدهشا من حيث النزعة المتمردة ، ولد دوفجينكو كفنان وكشخصية فى احشاء الثورة الاشتراكية . ومن هذه الناحية غدا ماياكوفسكى ودوفجينكو سندين متعادلين لجسر واحد من حيث عظمة الروح وحماسة المشاعر والزخم الثورى ، كانا متعادلين من هذه الجوانب تعادل قوتين متماثلتين لحركة واحدة وهنا ، كما فى الفيزياء ، يحدد مجموع القوى الفاعلة مدى السرعة والتعجيل . ولبى كلاهما نداء الثورة واحترقا بنفس السرعة الفائقة التى تحترق فيها المذنبات اللماعة المنطلقة بين النجوم فى قبة السماء . . .

ها هو الوقت قد حان لالتقاط الانفاس ومراقبة الطرق والدروب التى تغدو اسطورية كلما ابتعدت فى الزمان .

فى هذه الايام نحتفل بالذكرى التسعين لميلاد الكسندر دوفجينكو . . . .

الزمن يمضى ، كما هو معروف ، وكل شئ يتجاوز نفسه ويتغير ، الا ان الذرى فى الفن لا تلغى ولا يمكن تجاوزها ، فهى تبقى كما هى . اما العلم فيطالب بان تأتى غدا نتيجة جديدة ارقى تغطى على نتيجة اليوم ، وبذلك يكمن تقدم العلم بلا انقطاع .

ما من احد يضاهى تولستوى ولا احد يتجاوزه . ربما البعض منا يحاولون القيام بذلك ، فلا تثريب عليهم . واذا استطاعوا ان يقفوا على تلك القمة فليتفضلوا ، وليحاولوا . . . ولكن ما من احد يتجاوز تولستوى نفسه ، كما لا يتجاوز احد بوشكين ودوستويفسكى وغوركى . . . فتلك قارات مستقلة وعوالم روحية منقطعة النظير .

ويحدث الشئ ذاته فى السينما . ويمكن القول اليوم بجرأة ، بعد مرور فترة تجريبية معينة ، ان عوالم طويلة الامد تبقى تستوعب واقعنا ، ماضينا القريب وحاضرنا ، وخبرتنا الاجتماعية والروحية وسمات وملامح شعبنا الذى تجرأ وخطا اكبر خطوة باسلة فى تاريخ البشرية كله ، واعنى بناء الاشتراكية .

ان دوفجينكو بالذات واحد من المفكرين والفنانين الموهوبين الذين مكنتهم قوة موهبتهم من ان يقولوا عن حياتنا كلمة الحقيقة التى لا تموت ولا تخبو .

وعندما نتحدث عن نتاج دوفجينكو لا يجوز ان نتقيد باطر السينما السوفييتية وحدها ، مع انه تناول موضوعات

سوفييتية صرفا ، بل واوكرانية فقط ، ولا بما قام به هـــو شخصيا . . .

فما قام به يشبه الجبل الثلجى العائم ، ما يخفيه تحت الماء اكثر بكثير مما يطفو منه على السطح . . .

ذلك هو ، فى كل مرة ، جوهر الفنان العظيم حقا ، وماهيته الشاملة المتعددة الطبقات . فهو عندما يتحدث عن الصخرة يعنى الجبل وعندما يتحدث عن القرية يعنى الدنيا كلها ، وعندما يتحدث عن يوم من الايام يعنى كل الايام .

الا ان التعبير عن جوهر الاشياء بهذه الطريقة غير ممكن الا فى مفاعل التعميمات الثورية للصورة والفكرة . وكان دوفجينكو بالذات ذلك المفاعل-المفكر الذى ندين له بالتعميمات الملحمية المدهشة فى سينما العصر العاصف الفوار .

ان نتاج دوفجينكو ، الى جانب الاسماء الضخمة الاخرى فى السينما السوفييتية والادب السوفييتى ، يشكل معيارا رفيعا لقياس معنويات الشعب فنيا على خلفية الواقع العالمى .

تلك هى قوة فكره وصوره التى استقاها من الحياة الفعلية فى تلك الحقبة . الا ان ادراك طبيعة تعميمات الفنان هذه وطموحه الى تعميق فضاء الديالكتيك فى تصوير الحياة لم يكن بمقدور جميع معاصريه دفعة واحدة ، ذلك لان الاستمرارية قوية دوما فى البيئة الميالة ، فى كل العصور ، الى التبسيط والتزويق ، ولان من المتعذر احيانا ، حتى فى النتاجات الملحمية النطاق ، استنفاد كل قضايا الوجود التى تشغل بالنا وتعذبنا وارواء التعطش الدائم الى احقاق الحق والعدل واكتناه الجمال ، لان القضايا التى تتناولها تلك النتاجات بعمق كاف انما تثير قضايا اخرى ، فحياة الشعب لانهائية ، ولذا يبدو دوما وكأن

اموراً كثيرة لم تذكر بعد وان رؤية جديدة تلوح فى مكان ما هناك ، فى الافق ، وهى رؤية اكثر جاذبية او اشد قلقا وقد صار تناولها ممكنا الآن فقط ، ومن اللازم الكلام عنها ومعاناتها بالكامل سواء كانت تراجيديا او كوميديا بشرية . افليس ذلك ما حدا بدوفجينكو الى القول : «يبدو ان قسما من معرفة الحكمة يقول للوعى : ما اقل ما انجزت ، وما اكثر ما يجب تعلمه والتفكير فيه ومعرفته بالعقل وليس بالمشاعر فقط من اجل بلوغ الوضوح الكامل فى التعبير . . .» ؟

ورغم تشدد دوفجينكو هذا ازاء نفسه لم يتحقق كل ما فكر فيه وكل ما كتبه من سيناريوهات سينمائية وما اعده للتصوير . وهذا يبعث الاسف حتى بعد كل هذه السنين . حان الوقت لنفكر ايضا بهذه الجوانب من الحياة ، لان لكل شئ وقته ، وقت البقاء ووقت الانصراف ، ان ما نرمى اليه من خلال تشجيع الفن وتوجيهه ينبغى ان يكون السعى الى اطالة وقت فعل المبدع داخل الزمن .

اما التناسب والتأثير والتأثر بين الادب والسينما فى نتاج دوفجينكو فموضوع له حديث خاص . ان كل من يدخل عالم السينما ، سواء كان اديبا ام مخرجا ام ممثلا ، يجب ، فى رأيى ، ان يحاول ادراك عالم دوفجينكو ككاتب ومخرج . فان ادب دوفجينكو الفريد على تخوم فنين له دلالة بليغة . ولعل هذا الالقاء بين الادب والشاشة يمثل واحدا من الاتجاهات الشمولية فى تطور الفن السينمائى العالمى المعاصر الذى يميل اكثر فاكثر ، فى افضل نتاجاته ، الى فن التفكير والى الالتحام مع الادب وقضاياه وشموله للظواهر الحياتية . وهذا هو الاتجاه السائد اكثر فاكثر نحو الارتباط بالادب المفكر الذى يستقى من

نتاج دوفجينكو الناضج ويواجه مبدئيا الصناعة السينمائية الهوليودية النهمة الشرهة ، بل ويواجه عموما الثقافة البرجوازية الرخيصة بكاملها .

ولا يسعنا ، ونحن نتحدث عن دوفجينكو ، الا ان نقول بانه المعبر الساطع عن الثقافة القومية والشاعرية القومية ونمط التفكير القومى . الا ان قيمته تتجلى فى كونه ، وهو الفنان الاوكرانى القومى العميق ، قد نادى ، من حيث الجوهـــر والمضمون الاجتماعى لابداعه ، بكل ما هو سوفييتى وبكل ما يوحدنا ويعزز مواقعنا كأول مجتمع اشتراكى متعدد القوميات فى العالم . ولقد كان دوفجينكو وسيظل داعية لافكار الاممية . فهو ملك للجميع ولكل ما يجمّل شعوب بلادنا فى اصالتها وفى اسرتها الكريمة .

واستنادا الى ملاحظاتى الشخصية ، والى ملاحظاتى فى الخارج بقدر كبير ، يرتبط مفهوم الثقافات القومية بحد ذاتها ، والتى تتجلى باسطع شكل فعال على صعيد الفن والادب فى القرن العشرين ، اول ما يرتبط بالثقافات القومية السوفييتية اساسا .

وهذا امر يعترف به الجميع ، الاصدقاء والاعداء . ومن هذه الناحية يتطلع الينا كل المثقفين فى العالم ، كما يتطلعون الى ظاهرة ذات اهمية شاملة . فمن الذى كان يتصور فى السابق وجود ادب كازاخى او افارى او بلكارى محترف ؟ ومن ينكر اليوم مكانة اويزوف وحمزاتوف وكوليف فى الادب العالمى المعاصر ؟

ان المهمة الاكثر الحاحا ، فى رأيى ، تتلخص الآن فى تعميم خبرة فنوننا المسرحية والموسيقية والتشكيلية التى تعبر عن

اصالة وتفرد ثقافاتنا القومية وتحليلها فى مؤلفات علمية ومبسطة مخصصة لجمهور القراء الاجانب .

واتكلم عن ذلك لان المثل يقول : مغنية الحى لا تطرب ، ولاننا لا ندرك دوما ان الترابط الداخلى والتفاعل بين الثقافات القومية فى البلاد عملية تاريخية فريدة وملك ذو اهمية عامة ، وهذا هو القسط الذى نساهم به فى كنوز القيم الروحية الانسانية المشتركة .

طائر الالهام لا يرتفع بروح الفنان الا اذا كان هذا الفنان يقف بثبات على ارضه ، على ارض الواقع . وليس من قبيل الصدفة ان يقول المثل القرغيزى المعروف : «من البيضة الراقدة على الارض يحلق الطائر الى السماء ، لكنه يعود حتما الى الارض» .

١٩٨٤

كلمة عن بوشكين

كل مرة فى هذا اليوم من شباط (فبراير) يصطبغ الثلج الابيض على «الجدول الاسود» بالدم الاحمر من جديد . . . ونرفع جسمه من جديد على ايدينا وهو مصاب بجرح مميت ورأسه يتدلى . . . مائة وخمسون عاما تفصلنا عن بوشكين ، وتلك حقبة ليست قليلة . واذا اخذنا بنظر الاعتبار ان شخصيات جبارة ظهرت على الساحة الاوربية من زمان بعيد قبله مثل هوميروس ودانتى وشكسبير وغوته ، وكذلك الشاعر الرومانسى بايرون المعاصر له تقريبا ، وهى شخصيات كان الكسندر بوشكين معجبا كل الاعجاب بمؤلفاتها يغدو واضحا تماما ارتفاع منزلة بوشكين الروحية بين هذه الاسماء وهو يخاطبنا عبر السنين والقرون ، عبر حجب العصور المتعاقبة .

اننا نقارن من جديد بين الماضى والحاضر ونتوجه الى عباقرة الماضى الذين جسدوا فى الفن تاريخ نشوء الروح البشرية العسير ، ونتطلع فى المقام الاول الى بوشكين نغترف من تراثه الافراح والاتراح وطاقة الوجود ، لان بوشكين لم يكن من المعذبين فقط ، بل كان داعية ومبدعا عظيما لروسيا العظيمة . وفى ذلك يكمن ديالكتيك الظاهرة البوشكينية .

عندما ظهر بوشكين فى وطنه لم يظهر فى الفراغ ، فقد كان هناك لومونوسوف وديرجافين وكارامزين وغريبويدوف . الا

ان بوشكين هو الذى قدر له ان يحقق القفزة ذات الطابع الثورى والجديدة نوعيا فى تعبير الامة الروسية عن ذاتها وفى تحويل ادبها وفنها وفكرها الاجتماعى وتحريك الموارد الذهنية والثقافية لاكثر من الف عام من تطور سفر التاريخ والتأليف وتحقيق الاكتشافات فى تاريخ الادب العالمى كله ، لان الاسس الوطنية وخبرة الثقافة الوطنية والفولكلور الشعبى كانت دوما وستظل بالدرجة الاولى المصدر الرئيسى لتطور قيم الروح الانسانية العامة .

وفى هذه العملية للتكامل الروحى العالمى تتسم بالاهمية ليس فقط المشاركة المباشرة من جانب الفنان العبقرى ، بل وكذلك ما يأتى فيما بعد ويكون له تأثير على مجمل سير مضاعفة وتجديد الحياة الذهنية للمجتمع والشعوب الاخرى التى لها صلات ثقافية معه ، وبالدرجة الاولى الجيران المترابطون تاريخيا . اننى على اعتقاد راسخ بان بوشكين ليس له مثيل فى العالم من حيث التأثير المثمر على اكتمال الفنون والثقافات الوطنية للشعوب المتاخمة لروسيا .

اننا جميعا ، والادب السوفييتى المتعدد القوميات كله ، نستند الى تركة بوشكين ، مثلما تستند الجبال الى طبقة جيولوجية راسخة . واذا تناولنا الظاهرة على نطاق شامل فان مُثل بوشكين الانسانية والكمال الجمالى والواقعية والشعبية فى شعره تعنى فى جوهر الامر استمرارا قويا لفن عصر النهضة فى ارض الواقع الروسى الذى دخلته الثورة الروسية الوليدة خلسة . هكذا تلتقى العصور والحضارات ، وهكذا انعكس صدى عصر النهضة بعد قرون فى شخص بوشكين واضفى على نتاج الشاعر الروسى مستوى شاملا للفن العظيم الذى يتجاوز الاطر الزمنية .

ومع ذلك نحب بوشكين ونميل اليه بكل جوارحنا لانه شاعرنا الحبيب الذى لا يضاهيه احد . الا ان ما يثير المزيد من الدهشة ان كلمة بوشكين تنتصر وتستمر وتتضاعف فى الاجيال وفى اللغات واللهجات الجديدة فتكسب فى الزمان والمكان مجالات جديدة للوجود وتكشف ، مع تطورنا الروحى ، كلما التفتنا اليها من جديد ، عن مغزى عميق جديد وجمال خالد . على هذه الصورة نكتشف بوشكين باستمرار ويكتشفنا بوشكين باستمرار .

وبذلك تكمن مكانة بوشكين الفريدة ومكانة الشعب الروسى الذى ولده . فما اعظم احترام الكلمة المكتوبة فى روسيا من اقدم العصور . ولا يزال صدى هذا الاحترام باقيا حتى الآن فى العصر التكنيكى الالكترونى ، عصر التفكير العقلانى البارد ، مسجلا مثالا منقطع النظير للجودة الجمالية الرفيعة المتواصلة المتوارثة والنادرة المتقلصة باستمرار فى الآونة الراهنة فى ظل الثقافة الرخيصة الشرسة . . . ان حب المطالعة الموروث عن عصر بوشكين والذى غدا سمة وطنية مميزة معترفا بها من قبل الجميع يمكن ويجب ان يعتبر فضلا بارزا لبلادنا . لانه ما من بلد فى العالم يصدر نتاجات الادب بمثل هذا العدد الهائل من النسخ ، وما من قارئ يبدى اهتماما شخصيا بها كالذى يبديه القارئ عندنا . بفضل بوشكين حافظنا على حب لغتنا الام والاعجاب بها كنور شمس الصباح ، وحافظنا على صفاء المشاعر وعمقها الاصلى . وليس ذلك بالقليل فى عصرنا الحاضر . . . وان هبة الحب الرائعة هذه الموروثة عن بوشكين تساعدنا فى تقييم وحب كل لغات وطننا الشاسع ، حيث نجد فى كل منها سماتها الاصيلة ومزاياها الفريدة ،

لانها بمجملها تشكل اداة جبارة خالدة للانسان فى استيعاب الواقع الارضى الشامل ، كما تشكل وحدة روحية تساعد فى ترسيخ ايماننا بافكار التعاون الاممى وفى اكتساب الوعى الاممى بوصفه طبيعة للعقل فى التجمع الاشتراكى للشعوب .

ان الحب المقدس للغة الام والاحترام التام للغات الاخرى المتاخمة لها والعمل على ازدهارها (بدون اى من الانحرافات الملازمة للبرجوازية الصغيرة كالاستعلاء والاستهانة من جهة ، والغرور المحلى من جهة اخرى ، مما يؤدى الى اضعاف مشاعر الاخوة) والتقييم المتبادل لتعدد اللغات التاريخى هذا والتأكيد على الاستعداد المتبادل لخلق قيم روحية مشتركة على اساس وحدة الافكار وتعدد الاصالات — ذلك هو الاساس الذى ينبغى ان تنمو عليه الثقافة السوفييتية المشتركة المتعددة القوميات ، تلك هى البراعم المثمرة لشعر بوشكين العظيم ورؤاه العبقرية الخالدة .

١٩٨٧

الخيار الوحيد

الرياح تطهر الارض

لم يبق الا ايام معدودات على انعقاد المؤتمر الخامس لكتاب آسيا وافريقيا فى مدينة الما ـــاتا فى الاتحاد السوفييتى . ولا يسعنى الا ان اعترف بان لهذه الحقيقة مغزاها الكبير بالنسبة لى انا الكاتب السوفييتى المتكلم باحدى اللغات التركمانية .

الما ـــ اتا واحدة من اكبر المدن الآسيوية الحديثة ، وقد نمت وترعرعت على مرأى منا . وفى تصوراتى ترمز هذه المدينة الزاهرة الى القوى الفتية النامية بشكل عاصف ، قوى الثقافات الشرقية الحديثة .

بديهى ان كلا منا ، نحن المشاركين فى نشاط منظمة كتاب آسيا وافريقيا ، يحاول فى عشية هذا الحدث ان يحلل رسالة هذه المنظمة ودوره فيها والمهمات الابداعية التى تواجهنا .

وعندما يتأمل المرء فى ذلك تتبادر الى ذهنه حتما الفكرة القائلة بان ظهور هذه المنظمة يرتبط بدحر الفاشية فى الحرب العالمية الثانية . ومن المهم جدا ان ندرك هذه الحقيقة بكامل الوضوح لان دحر الفاشية كان نقطة انعطاف فى مصائر جميع الشعوب وكان بداية لانهيار نظام الرأسمالية الاستعمارى . وستظهر الى الوجود اجيال جديدة متزايدة ، لكن الكثير من الحسابات والقياسات فى التاريخ العالمى سيظل ينطلق من ايام الانتصار

على عدو البشرية اللدود ، ذلك الانتصار المهم للعالم كله والذى لعبت قوى الاشتراكية الدور الحاسم فيه .

اننا نعيش فى زمن معقد متنوع الوجوه للغاية من حيث البناء الاجتماعى وتطور القوى المنتجة . فمن جهة بلغ الجنس البشرى ذرى من تنظيم الحياة جعلت الخوف الازلى من الموت جوعا ينحسر اكثر فاكثر ويفسح المجال لتساؤل فلسفى : «لماذا نعيش ، من اجل ماذا نكرس حياتنا وما هو هدف ومغزى الوجود ؟» . ومن جهة اخرى لا يزال يعيش معنا والى جنبنا على الارض ملايين الناس الذين يجهدون ، ويا لخزينا وعارنا والمنا ، فى سبيل لقمة العيش . ان الاستعمار الذى اقترف سلسلة كبيرة من الشرور والجرائم التى لم تنته قائمتها بعد ، انما هو المسؤول عن حالة قسم كبير من سكان آسيا وافريقيا وكذلك اوقيانيا واميركا اللاتينية . ومن اكبر الشرور التى اقترفها الاستعمار الخسارة المعنوية الجسيمة التى لحقت بموارد البشرية والتى نجم عنها «انحراف» الحضارة والخلل فى تناسب نشوء الامم والدول وفى تطور الشخصية الانسانية . وهنا نواجه واحدة من الظواهر التى لا يستطيع احد ان يقول لنفسه فى مواجهتها ان تلك مصيبة غريبة عليه .

وفى الآونة الراهنة واجهت شعوب غفيرة فى قارتى آسيا وافريقيا الشاسعتين ضرورة اختيار اساليب حل المهمات السياسية والاجتماعية ، بل واختيار طرق تطوير اكثر الجوانب تعقيدا فى حياة الامم ، واعنى تطوير ثقافاتها . ويتطلب احراز الاستقلال السياسى بالحاح اشكالا للحياة الاقتصادية والثقافية تستجيب للظروف الجديدة . وفى حالة العكس يغدو الاستقلال السياسى عقيما . ولذا استدعت الضرورة وجود جبهة ثقافية افرآسيوية

عريضة من شأنها ان تجابه الامبريالية والاستعمار الجديد .

لقد خلف النظام الاستعمارى تركة فظيعة لبلدان آسيا وافريقيا . فان سياسة التقسيم الاستعمارى اجتثت بفظاظة الوشائج التقليدية والجذور المشتركة للحضارات القديمة ، اما الوشائج الجديدة فلم تكن قد ظهرت بعد . وفى هذا الوضع استدعت الضرورة بالحاح شديد وحدة الاعمال فى المسائل الاساسية للنضال من اجل الحياة الجديدة والثقافة الجديدة فى آسيا وافريقيا . ومن مظاهر هذه الوحدة منظمة تضامن كتاب بلدان آسيا وافريقيا التى يعود لنا ، نحن الكتاب السوفييت ، دور نشيط فيها . ونحن نرى فى ذلك واجبا امميا لنا وتعبيرا عن تضامننا الروحى ، على ارض التقدم الادبى ، مع كل القوى التقدمية فى العالم المعاصر .

لقد غدا نضال التحرر الوطنى لشعوب آسيا وافريقيا من اكبر التطورات الاجتماعية فى النصف الثانى من القرن العشرين . ولم يشهد التاريخ من قبل ابدا مثل هذه اليقظة للكثير من الشعوب فى وقت واحد . والادب اول ما يتحسس سير التاريخ . ولذا فمن الطبيعى ان كتاب آسيا وافريقيا احسوا باشد مما فى اى وقت مضى بضرورة توحيد اعمالهم الرامية الى حل المهمات والاهداف المشتركة المناهضة للامبريالية . ويواجه كتاب هذه البلدان ضرورة التقييم الواقعى للتراث الثقافى من مواقع المنجزات الحديثة للبشرية والتفريق بين القيم الحية والبالية ، بين ما يساعد على التقدم وما يعيقه ، وما يعرقل الشعوب المتحررة عن احتلال مكانها بسرعة فى المنظومة المعقدة للعلاقات العالمية ، وما يساعد على الوحدة والاتجاه الانسانى العام ، وما يعزل الشعوب ويخدم الاستعمار الجديد الذى لم يتنازل عن مواقعه اطلاقا .

وما من ادب بقادر اليوم على التطور المثمر بدون الاتصالات . ولن يكون الكلام عن الادب ، اى ادب ، كاملا اذا لم نعتبره جزءا من الثقافة العالمية جمعاء .

وانا موافق تماما على رأى الناقد البنغالى سارفار مرشد الذى اشار الى ان كل ادب يجب ان يبت اليوم فيما اذا كان يعتبر نفسه جزءا لا يتجزأ من الادب العالمى كله ام انه يبقى ادبا «عظيما» فى دياره فقط . ان غواية «العظمة الذاتية» تؤدى الى الغرور ومنه الى الجمود العقائدى .

ولذا فان كل ادب يسعى الى التقدم يجب ان يحكم على نفسه ويقيمها باقسى المعايير . وعلى هذه الصورة فقط يمكن الامل فى تذليل التقوقع والانكماش المحلى ، وان توجهات الادب العالمى فقط هى التى يجب ان تكون معيارا للمهارة الاصيلة .

ويمكن شعوريا ادراك اسباب نفور بعض المثقفين فى آسيا وافريقيا من مركز الجذب الاوربى وتحيزهم ضد نمط التفكير الاوربى والحضارة الاوربية اللذين يربطونهما بالسيطرة الاستعمارية وبأهانة كرامتهم الوطنية . الا ان القسم التقدمى من مثقفى آسيا وافريقيا يسعى من زمان الى الاستفادة من الخبرة الاوربية بقصد اغناء ثقافاته الوطنية ويعتبر تلك الخبرة ملكا للبشرية جمعاء يخص جميع سكان الارض بنفس القدر .

افلا يدل على ذلك مثال آداب الاتحاد السوفييتى ؟ فان تطورها يستند الى مبدأ التأثير والاغتناء المتبادل دوما وبصورة فعالة داخل البلد وعلى نطاق العالم اجمع . ونحن نعتقد ان كل منجزات العبقرية البشرية تعود بحق الينا جميعا ، واننا اذ نغترف من هذه الكنوز نساعد كذلك على تطوير آدابنا وثقافاتنا

ونساهم ، على ما نعتقد ، بقسطنا فى الرصيد المشترك للقيم الروحية .

والى جانب ذلك علينا الا ننسى ان امام كل ادب مهماته القومية والوطنية الخاصة .

وفى الاحاديث مع زملائى من بلدان آسيا وافريقيا غالبا ما اسمع عبارة صارخة : «القرن العشرون قرن القومية» ، وسرعان ما ينشأ جدل حول هذه العبارة . من الضرورى جدا ان نحلل هذا المفهوم المعقد الواسع : «القومية» .

اذا كان الكلام يدور عن اى مذهب من مذاهب التفوق القومى وعن اية نظرية من نظريات تفوق شعب على الشعوب الاخرى ، او عن نظرية المصالح الحكومية القومية الانانية الضيقة فاننى لا اتقبل ايا منها ، لان ذلك ظاهرة مغرقة فى الرجعية وتؤدى الى الغرور والاستعلاء ، وبالنتيجة الى البؤس الروحى .

اما اذا كان المقصود هو سمات الاصالة الاثنوغرافية واللغوية والثقافية التى تجسد الخبرة الحياتية والجهود الازلية لشعوب بكاملها فان محاولات اعتبار الرغبة فى صيانة وتطوير اللغات الام والاصالة القومية ظاهرة سلبية بالنسبة للتقدم العام هى محاولات باطلة . والاكثر من ذلك فهى محاولات قصيرة النظر . فان تضييع لون واحد من الوان الثقافة الانسانية المشتركة انما هو خسارة فادحة . وواضح تماما السبب فى كون هذه المسائل تواجه آسيا وافريقيا بحدة مؤلمة احيانا ، فان خطر الابادة الاثنوغرافية بالنسبة لها يمكن ان يزول الآن فقط .

ان القضايا التى نناقشها اثناء لقاءاتنا وعلى صفحات مجلة «لوتوس» تدل على ان منظمتنا دشنت عهد النضوج .

ويعزى ذلك ايضا الى ان النضال الواضح فى سبيل التحرر السياسى قد افسح المجال لتعقيدات مرحلة التحويـــــلات الاجتماعية والثقافية العميقة الجارية فى جميع البلدان المتحررة فى آسيا وافريقيا والتى تتطلب تحليلا من خلال الادب والفن . وصارت من قضايا الساعة مسائل الابداع التى تمليها ضرورة خلق ادب واقعى يستجيب لروح العمل التحويلى الهائل .

ويخيل اليّ ان الواقعية ، او على الاصح مستوى فهم الواقعية فى الادب ، كانت وستبقى من القضايا الرئيسية فى الادب العالمى . فماذا اعنى ؟

الواقعية تعيش وتتطور فى تفاعل معقد مع المناهج والطرائق الاخرى . واكثر ما يهمنى الآن هو مسألة التناسب بين الواقعية والرومانسية . فلماذا ؟

الواقعية فى الادب دليل نضوجه . الا ان الصبغة الطفولية تلازم بقدر واحد الواقعية الفوتوغرافية التى تحرم الفنان من كمال التصوير والرومانسية الزائفة التى تفصل الادب عن الارض . اما منهج الواقعية فهو يمكن الفنان من تلمس الاتجاه قبل ان يتحول الى ظاهرة والتعبير عن موقفه منه . ان الفنان الواقعى لا يستطيع ان يفوت اى جانب من جوانب الحياة ، فذلك يتعارض مع جوهر التصوير الصادق للواقع ، سواء كان ظاهرة ايجابية ام سلبية بغض النظر عما اذا كانت ظاهرة مقبولة او مرفوضة . ان عدم رؤية الحياة الفوارة بكاملها مصيبة للفنان ، والذنب ذنبه فى تقييد رؤيته للعالم عمدا مهما كانـــت الدوافع .

ان الرومانسية العاطفية الخطابية هى موقف مثالى ازاء الواقع ورؤية محدودة له . صحيح انها نابعة فى الغالب من الرغبة

فى جعل الواقع جميلا . ولا ضير فى ذلك عموما . لكن المصيبة تبدأ عندما يصورون رؤية العالم هذه على انها هى حقيقة الحياة . ان خطر الرومانسية «الساذجة» الجميلة ما زال كبيرا بالنسبة للآداب والفنون الفتية فى البلدان النامية ، وذلك لان هذا النوع من التفكير الفنى يلازم الاطوار المبكرة جدا من الابداع . ولعل المهمة الاكثر الحاحا للآداب الجديدة ، فى رأيى ، هى الانتقال باسرع ما يمكن الى الواقعية الفعلية بالاعتماد على خبرة الآداب الاكثر نضجا .

وانا واثق تماما من ضرورة الفهم الصائب لقيمة النتاج الادبى . وما من موضوع بالغ الاهمية او مضمون عميق الفكرة بقادر على تبرير بؤس الكتابة وجهالتها ورسميتها ، وبعبارة اخرى ضحالتها . وبالعكس ما من تجديد فى الشكل او مهارة او بلاغة بقادر على تأمين قيمة روحية وفنية كاملة اذا كانت الفكرة شحيحة بائسة والموضوع سطحيا . ونحن مضطرون للتذكير بذلك لانه لا يزال يصادف فى ممارساتنا اليومية اننا نغالى فى تقييم الوقائع الادبية . ان التشدد ازاء النفس خاصية لا ضرر منها على احد .

ومن بين المهمات الابداعية العامة اريد ان اخصص الرسالة الاهم لآداب آسيا وافريقيا فى المرحلة الراهنة ، واعنى الانعتاق النفسانى والاخلاقى للانسان وتخليصه من عواقب الاستعمار .

وبغية تخليص الانسان من مركب النقص الذى دام قرونا وايقاظ الانسان فى الانسان وجعل روح الاخوة والاممية امرا طبيعيا بالنسبة له يجب اجراء تحليل عميق لعواقب الاستعمار الذى الحق ضررا بالغا بتطور الروح البشرية . ويمكن ان نتصور

الجهود الضخمة التى يتطلبها تخليص اذهان ونفوس الناس منها نهائيا .

ان الفنان بحاجة الى التحليل الاجتماعى والفلسفى لعواقب الاستعمار بوصفه اصعب تجربة «للاستعباد الذاتى» تحملتها البشرية . وعندذاك فقط يمكننا ان نتحدث بمنتهى التحديد فى نتاجاتنا عن سخف ولامعقولية كل نظريات التفوق القومى او الحكومى او العنصرى .

ومن مصلحتنا جميعا ان نطور الاممية الحقة فى جميع ميادين الحياة ، فى جميع مظاهر الروح الانسانية والفعل البشرى . وليس للادب الحديث والفن المعاصر مهمة اكثر الحاحا وجذرية وانسانية من تعزيز ثقة كل انسان فى نفسه وايمانه بالحياة . ويتطلب ذلك انعتاق الانسان من مخلفات الاستعمار التى تهينه فى نفسيته وفى تفكيره اساسا وفى كيفية ادراكه لنفسه وللعالم المحيط به .

لقد اكتسب دور الفنان المعاصر طابعا جديدا وقيمة اجتماعية جديدة . ونحن نؤكد هذا الامر دوما فى الادب السوفييتى قاصدين به حزبية الفن وشعبيته . وليس ذلك مجرد معتقد سياسى ، بل هو من مقومات الملموسية فى ادبنا .

والآن فى عصر الثورة العلمية التكنيكية ، حيث يؤدى التخصص الكبير فى العلوم الطبيعية والاجتماعية الى تسهيل رؤية العالم بتفاصيله اكثر مما بمجمله ، يستطيع الادب والفن وحدهما ان يمنحا الانسان امكانية الاستيعاب المتكامل الذى لا يمكن بدونه التوصل الى المعتقدات التى تكشف عن المغزى العميق للظواهر وللطبيعة البشرية . ولذلك يتحمل الفنان اليوم مسؤولية اكبر بكثير من مسؤولية سابقيه فى اى زمان مضى .

ان التقدم الاخلاقي مستحيل بدون القدرة على التساؤل الذاتي والبحث عن اجوبة على هذه الاسئلة لا بد وان تتسم بطابع التشدد الأخلاقي الرفيع . وفي البحث عن المعايير القصوى نتوجه الى تراث الانسانية الروحي كله . الا ان البحث لا يعني الاستنساخ الاعمى والاقتباس العشوائي . فالبحث يعني اغناء التقاليد القومية الاصيلة بصورة ابداعية عن طريق القيم الانسانية العامة التي تناسب افكارنا الانسانية وتصوراتنا عن السعادة وعن حرية الانسان . البحث يجري على انفراد لكن ما يتم العثور عليه يعود الى الجميع .

ويصوغ كتاب آسيا وافريقيا الذين اجتاحت بلدانهم عمليات التحويل المنقطعة النظير الآن اصولا اخلاقية جديدة . ولا يمكن لهذه الاصول ان تستند الى المعايير التقليدية البالية التي فقدت قدرتها على الحياة ولا الى لااخلاقية «مجتمع الرخاء» التي وضعت في مصاف المبادئ . ففي الوقت الذي يدمر فيه المجتمع الاستهلاكي مبادئ الاخلاق ويستبدلها بشعار الاستباحة يسعى الادب التقدمي الى غرس الاخلاق الانسانية الحقيقية في الانسان . وتلك هي المهمة الرئيسية الاولى للادب والفن . وهذا شيء يستحق ان نبدع من اجله .

١٩٧٣

لقاء في الفضاء

. . . الساعة الرابعة بعد الظهر حسب «التوقيت الصيفى الشرقى» فى نيويورك . الاميركان جالسون امام اجهزة التلفزيون . الملاح الكونى السوفييتى يصافح الملاح الاميركى * . وبعد ذلك بقليل يذكر المعلق التلفزيونى المعروف ولتر كرونكايت فى «الانباء» ان هذه المصافحة «يمكن ان تغدو بداية لعصر جديد فى هجوم البشرية على المجهول . . .» .

وكان من الجالسين امام التلفزيون فى نيويورك فى تلك الساعة الكاتب الاميركى كورت فونيغوت والكاتب السوفييتى جنكيز ايتماتوف . وامام شاشة التلفزيون مباشرة راحا يتبادلان اولى الانطباعات عن هذا الحدث الكونى البارز .

جنكيز ايتماتوف — تعودنا على الاحداث الخارقة المرتبطة باقتحام الفضاء الكونى . فنحن الآن من العارفين ، ولا احد يستطيع ان يثير دهشتنا كثيرا نحن اهالى الارض . ومع ذلك اعتقد بان ما نراه الآن على شاشة التلفزيون حادث مدهش فى تاريخ جيلنا .

---

* فى يوليو ١٩٧٥ جرى تحليق تجريبى لسفينتى الفضاء الاميركية «ابولو» والسوفييتية «سويوز» وتم الالتقاء بينهما .

كتبت مؤخرا قصة تجرى احداثها فى زمن كان القليلون فيه يفكرون فى التغلغل فى اعماق الكون . الوقت هو زمن الحرب ، والناس يفلحون الارض بمحاريث تجرها الخيول . والآن اصبح نفس هؤلاء الاشخاص شهود عيان على نجاحات التكنيك الصاروخى . وتلك فترة قصيرة بالنسبة للتاريخ .

والقصة سيرة ذاتية لدرجة ما . فقد حاولت ان اكتب عما رأيته وشعرت به فى تلك الحقبة . وقرأ ابنى الاصغر اسكار مخطوطة هذه القصة وسأل مندهشا : هل يعقل انه لم تكن هناك جرارات آنذاك ؟ واجبته ان الجرارات كانت موجودة لكنها قليلة . فالوقت زمن الحرب . اما الآن فان الثورة العلمية التكنيكية كأنما نقلتنا من عصر الى آخر . فما قيمة الجرار الآن ؟ ها نحن نجلس امام التلفزيون ولا نكتفى بمراقبة ما يجرى فى الفضاء الكونى ، بل يخيل الى اننا نشارك فى عملية بحث البلدين العظيمين عن نقاط التماس والتعاون السلمى بينهما .

وهذا شىء يثير الانفعالات فى نفسى . فنحن حسب الظاهر نجلس بهدوء ونتفرج على البرنامج العاشر او العشرين من الفضاء الكونى . لكن ذلك يحملنا على التأمل فى القدرة الجبارة للعقل البشرى . انا جالس افكر — وعين الحسود فيها عود — حبذا لو سارت الامور على هذا المنوال فى المستقبل ايضا : بلا اى عداء فى الفضاء . وحبذا لو انتهى العداء على الارض ايضا .

كورت فونيغوت — ان ما نراه الآن رائع حقا . وبالمناسبة فان واقع كوننا نتحدث بود الآن انما يستحق ، فى رأيى ، اسمى تقدير . فنحن نفهم بعضنا البعض تماما . وحتى قبل

ان نلتقى الآن كنت افهم ايتماتوف بسهولة ، لانه كاتب مثلى ، ولدينا اهتمامات مشتركة وهموم مشتركة وتربطنا اسرار المهنة . نقول ان بلدين مختلفين يلتقيان الآن فى الفضاء الكونى ، لكننا تقابلنا فى السابق ، وانت مطلع جيدا على ادبنا ، ونحن ايضا مطلعون على ادبكم لدرجة ما . ثم اننا التقينا فى البا ، وكان ذلك لقاء ذا اهمية بالغة وضع حدا للحرب فى سوح اوربا الدامية . وقد حررنى الجيش الاحمر. وعندما تلاقى جيشانا للمصافحة ، لم يكن هذا اللقاء يشبه المراسيم الاحتفالية . فقد جرى فى جو مشحون بالموت والدمار. ان الحرب مصيبة فظيعة ، ولا يمكن اضفاء صبغة رومانسية عليها . ولكن تلك هى الحادثة الاولى التى التقى فيها شعبانا الساعيان الى هدف واحد . وها نحن الآن فى لقاء جديد ، فما اعظمه من لقاء !

وعلى قدر علمى لم يكن بين شعبينا عداء فى اى زمان . ولو اوقفت فى الشارع عابر سبيل اميركيا وسألته هل يكره الروس لاجابك مستغربا : لماذا اكره الروس ؟

بديهى ان بعض المخبولين عندنا يرفعون اصواتهم ، ولكن فى كل حرش ابن آوى ، كما يقول المثل .

جـ . أ . — ليس فى العالم الآن صدامات ذات نطاق تاريخى . وقد امكن تحاشى الحرب العالمية منذ ٣٠ عاما . ومع ذلك هناك الكثير مما يفرق بيننا لاسباب عديدة — تاريخية وسياسية واجتماعية . ولا احد يدعى بان علينا ان نترك ونجمد هذه التناقضات على حالها . ولعل مغزى الحياة يكمن فى محاولة البحث دوما عن حل لهذه المشاكل او تلك . وتجرى هذه المحاولات فى مختلف الميادين . واحد تلك الميادين

ما نقوم به فى الادب والثقافة عندما نحاول ان نؤثر على التقارب الروحى بين الشعوب وننادى بتبادل القيم الروحية التى يمكن ويجب ان تساعد على تطوير نمط التفكير النبيل المدعو لخدمة ازدهار العالم .

والميدان الآخر هو ما يجرى الآن على مرآى منا ، حيث يعمل ملاحانا وملاحوكم مثل افراد العائلة الواحدة فيؤدون عملا مشتركا عظيما .

افليس هذا اللقاء رمزا متعدد المعانى وبداية واعدة ؟ افلا تتفتح على اثره آفاق جديدة امامنا ؟ الا ينبغى لنا ان نرى فيه محاولة للعثور على نموذج تعميمى للعمل فى ظروف التناقضات الحياتية ؟ فان ما يجرى الآن امامنا ليس مجرد انجاز تكنيكى . فانا ارى فى ذلك جانبا هاما جدا من جوانب العلاقات الاخلاقية المتبادلة بين بلدينا . فلنتذكر كيف كانت عليه هذه العلاقات بعد الحرب العالمية الثانية . . . وها نحن نفتح معا نافذة على الفضاء الكونى . ومن خلال هذه النافذة الكونية نرى بعضنا بعضا كأنما فى حالة اخرى وبمنظار آخر .

ك . ف . اعتقد ان بلدينا كليهما كانا يعتقدان بانهما سيمتلكان طاقة كبيرة فى مواجهة الاعداء . . .

جـ . أ . اذا بحثنا عن مصدر القوة فى المواجهة وحدها فعلينا ان نكون دوما متأهبين كالملاكمين . وذلك يجعلنا متحفزين متوترى الاعصاب ومستعدين للتصدى والهجوم . لكن تلك حياة لا خير فيها . وعلينا ان نفكر بان ملايين الناس فى ظل هذه المواجهة لا يبقون متفرجين ، بل يشملهم ذلك التوتر بنحو او بآخر ، وهم يعانون منه . الحياة لا تمنح للانسان

الا مرة واحدة . ويحل زمان يبلغ فيه الانسان نضوجه البدني والروحي ، ويتوجب عليه ان يحلل ويستوعب العالم ويعلن عن نفسه ويؤدي رسالته . فهل يعقل ان يضحي الانسان بذلك كله ويبقى طول الوقت كالملاكم الذى يضرب هذا او يتلقى الضربة من ذاك ؟

ك . ف . — ينبغي لحضارتنا ان تكون ناضجة بقدر يمكنها من القول : نعم ، عندنا الآن معارف تؤهلنا للتوجه الى الزهرة . وسنقوم بذلك في الوقت اللازم . وليس هناك موجب للاستعجال . فالزهرة لن تختفي من قبة السماء . وسنتحلى بالحكمة ولا نكون كالاولاد المنفعلين الذين يريدون التفوق على جماعة اخرى من الاولاد . وسنتوجه نحو الهدف متعاضدين وبالتدريج .

لقد ادهشتني سرعة تخلص الاتحاد السوفييتي من عواقب الحرب العالمية الثانية ، وروعة التكنيك المتوفر لديه والقدوة التي يقدمها في المنجزات العلمية الجريئة . عندنا لعبة كرة القدم على الطريقة الاميركية ، ويصادف ان يقتل اللاعب اثناء المباراة . وكتب العالم الاميركي نوربرت فينير ان الاميركيين ميالون الى معالجة المشاكل وكأنها لعبة يجب ان يفوزوا فيها . وحتى لو كان الامر كذلك فان التهور يمكن ان تكون له اسباب نابعة من تاريخ البلاد . فهي لم تواجه خصوما اقوياء .

اننا نتغير بالتدريج . والتعاون في الفضاء الكوني دليل على ذلك . ولكنني اريد ان اورد مثالا من ميدان آخر . في الوقت الحاضر لم يعد نموذج الرجل القوي بدنيا والمفتول العضلات والذى يدمر الاعداء جذابا في بلادنا . واذا اهان احد زوجتي فليس لزاما الآن ازهاق روحه . واذا استولت العواطف على الرجل فليس عيبا عليه الآن ان يبكي . اما عندما كنت صبيا

فى انديانابوليس فقد علمنى اترابى ان اتظاهر فى الشارع بمظهر مرعب . فقد جرت العادة على ذلك فى اميركا حينئذ . اما الآن فلا داعى لاتخاذ هيئة مخيفة تثير الهلع فى قلوب الآخرين . واعتقد ان زعماءنا يراعون مثل هذه التغيرات فى الطباع القومية . وانا لا اريد ان اتفوق فى شىء على الاتحاد السوفييتى . وربما سيكون الانجاز التالى هو اكتشاف دواء لعلاج السرطان . وبالنسبة لى لا اهمية لمكان اكتشافه سواء كان فى الاتحاد السوفييتى ام فى اميركا .

طبيعى ان هناك ميدانا يجب ان نكون فيه اقوياء ، وهو البزنس . وفى رأيى ان من الضرورى التحضير بمنتهى الدقة للمباحثات التجارية مع ممثلى الاتحاد السوفييتى . وطالما نحن نجلس معا ونتجاذب اطراف الحديث فاننا نحب بعضنا البعض . ولكننا يجب ان نزيل الكلفة فى البت فى مسألة مبالغ النقود التى تنتقل من يد ليد وشروط ذلك .

جـ . أ . — اقترح ان نلم شتات افكارنا والا ستتبدد كالخراف فى الجبال . واريد ان اعود الى اللقاءات الكونية ، الى ما يجرى فى هذه اللحظة على مرأى من العالم كله . يمكننا ان نتناول ذلك على نطاق واسع من مختلف الجوانب — التاريخى والاجتماعى واليومى ، ولكن ذلك حدث هام للغاية على اية حال ، وقد امتلأت باخباره الصحف والاذاعات وسائر وسائل الاعلام . وسيحاول كل فرد ان يفهمه ويقيمه على طريقته الخاصة وينظر اليه بمنظاره الخاص ليخمن ما يحمله للمستقبل .

اما بخصوص الرياضة فانا شخصيا لست من المتحمسين لها . ولا اعتقد بان هذا الجانب من الحياة البشرية يمكن

ان تكون له اهمية حاسمة من الناحية الدولية . وانا اعرف اشخاصا يعانون من هلوسة الانتصارات الرياضية ، واذا خسر الفريق الذى يشجعونه وتنازل عن المرتبة الاولى لفريق آخر فانهم يعتبرون ذلك كارثة . ان الرياضة والروح الرياضية من طبيعة الانسان . انا مقتنع بذلك . فهى تعنى الطموح الى تذليل الصعاب وبلوغ الاهداف والتفوق والتسابق . بديهى ان الحماسة الرياضية تسخن الدم وتجعل الناس يتحسسون الحياة بحدة اكثر . الا ان ما يهمنى فى هذه الحالة هو اكثر من ذلك ، لان فى العالم مشاكل كثيرة جدا وتناقضات كثيرة جدا هى اوسع بكثير من مفاهيم الرياضة .

الارض لا تعرف الهدوء ، وهى تعج بالنزاعات والخلافات الاجتماعية والقومية وغيرها . ويجرى التاريخ فى صراع لا يكل . ومن هذه الفوضى العالمية ، على ما يبدو ، يظهر اليوم شىء جديد يرفع من قيمة البشرية فى انظارها هى . واعتقد ان ما يجرى الآن فى الفضاء الكونى يرفع من قيمتنا جميعا فى انظارنا ويبين ما نحن اهل له . انه حادث سيستشهد به الناس فى المستقبل . وسنقول انه مر زمان توضحت فيه الرؤية وتقدمت قوى الروح البشرية الجبارة للقاء بعضها البعض من اجل الوحدة وليس من اجل التدمير . وانا آمل كثيرا بان هذا الحادث سيترك اثرا فى العديد من ميادين الحياة ، بما فيها تطور الثقافة وتفكير البشرية واستيعابها لمختلف جوانب الحياة الاجتماعية جملة وتفصيلا . وهذا بالذات ما يهمنا اكثر من غيره ، على حد علمي بميول المواطنين السوفييت . فنحن جميعا نعرف ان الوسائل الكونية يمكن ان تستخدم للاغراض الحربية ايضا . ونحن لا نريد لها ان تستخدم لهذه الاغراض .

ويبدو ان تغيرات ايجابية تجرى فى العقل البشرى الجماعى . وبودى ان اصدق بذلك .

لقد عدنا امس من سان فرانسيسكو . وعندما كنا نتجول فى المدينة كان الناس يلتفتون الينا وهم يسمعون الكلام الروسى واقترب منا بعضهم وحيونا رافعين ابهاماتهم الى السماء ولسان حالهم يقول : ما اعظم الاحداث الجارية هناك ، فى الفضاء الكونى . وكان كل شىء مفهوما بدون كلمات . ولكن ، هناك اناس آخرون يشكون فيما اذا كان هذا العمل يستحق ما انفق عليه من دولارات .

لا اريد ان اشجب او اتهم الاشخاص الذين يسعون الى تقييم كل شىء بالنقود . فالنقود بالنسبة لهم يجب ان تتخذ فى آخر المطاف تعبيرا شيئيا محسوسا كأحمر الشفاه او السيارة او ناطحة السحاب والخ . واذا واجهوا شيئا غير محسوس يخيل اليهم ان النقود تبددت جزافا .

لا جدال فى ان دراسة الفضاء الكونى تتطلب نفقات مادية كبيرة . وهذه المسألة لا بد وان تشغل بال اى انسان . وفى اليوم الاول من وصولنا الى واشنطن لاحظت ذلك فى مسرح «ارين ستايج» حيث عرضت مسرحيتى انا وكالتاى محمد جانوف «تسلق فودزياما» . فقد انتعش المتفرجون وانفعلوا عندما حاول احد شخوص المسرحية ، وهو المهندس الزراعى دوسبيرغين ، ان ينكر اهمية الدراسات الكونية . فهو يجادل ويتجادلون معه ويصيح اثناء الجدال قائلا : «اعطنى مطرا عندما احتاج الى المطر ، وابعده عنى عندما اكون فى غنى عنه . والا فما حاجتى الى هذا الفضاء الكونى . لن احرثه ولن ابذر فيه» . ودوت القاعة لهذه الكلمات ، لكنها قابلت بتفهم واحترام كلمات

زوجة المهندس ، المعلمة آلماجول التى قالت ان الانسان يجب ان يعرف ما يجرى حول الارض اذا كان يريد ان يتحكم بالطقس . ذلك موقف معروف . فهذا المشهد فى مسرح «سوفريمينك» فى موسكو يثير احيانا رد فعل حادا لدى المتفرجين .

بديهى ان الاموال التى تنفق على دراسة الفضاء الكونى يمكن ان تنفق فى مجالات اخرى . لكننى اظن ان لدى المجتمع البشرى مهمات خارقة حتمية يصعب بلوغ التقدم بدون حلها .

اجل ، ما هو محتم يتحقق مهما قلنا وناقشنا ، فان تطور العلم والتكنيك ، تطور البشرية يجرى ويسير قدما . فما الذى يعود به ؟ تلك هى القضية . مهمتنا الكبرى تتلخص فى ان نؤمن لهذه العملية كلها اتجاها صحيحا هو اتجاه التقدم الفعلى وسعادة البشر .

١٩٧٥

لا بديل
لروح هيلسنكى

نحن نفهم جميعا ان لقاءنا فى صوفيا لم يأت بالصدفة ابدا . ففى العالم كثير من الاسباب الجدية التى تدعو الى ذلك . فقد اجتمعنا فى زمن متوتر ، ان لم نقل مقلق : فان نضال الروح البشرية بلا هوادة ضد تناقضاتها قد اكتسب فى ايامنا هذه طابعا شاملا متأزما للغاية . لقد جئنا الى هنا لنطلع بعضنا البعض على افكارنا وامانينا التى غالبا ما ننفرد بها ونحن نفكر فى الحياة والانسان ومصائر المجتمع المعاصر . ولم يكن العالم قد بلغ مثل هذا التعقيد فى الماضى ابدا ، ولم يشاهد الانسان ابدا مثل هذه التبدلات المدهشة الجارية فى الآونة الراهنة ، ولم يواجه ابدا آفاقا تطورية واخطارا على وجوده كالتى يواجهها الآن .

كل ذلك ينعكس حتما فى الثقافة وفى خبرتنا الفنية وفى طابع تأملاتنا . فخارج اطار الكتاب يبقى عادة الكثير مما يعيش فينا منتظرا الشكل المناسب له والتعبير البليغ الذى يجسده . اسمحوا لى ان اتحدث عما يشغل بالى من زمان وما اريد ان اخبركم به . واسمحوا لى ان اعبر عن احترامى العميـــــــق للحاضرين .

لقد اجتمع هنا الناطقون بالادب الحديث ، اولئك الذين يبدعونه ويؤلفونه يوما بعد يوم وينفخون فيه من روحهم ومشاعرهم . وسيبين الزمن ما نحن قادرون عليه عندما عزمنا على سلوك هذا الطريق العسير الذى لا بد منه للبحث عن الحقيقة وعن جمال الروح . وسيتضح بمرور الزمن ما تم اكتشافه فى ميدان معرفة الواقع ، ذلك الميدان الذى عملت فيه اجيال كثيرة من فنانى الكلمة العظام . وسيبين الزمن ما وفقنا فى اضافته من عندنا الى حديث الانسان الابدى عن الانسان ، وعندذاك يتضح ما لم نتمكن من القيام به والذى عجزنا عن تحقيقه ، وباختصار : الزمن هو المحكم ، ومن يعش ير .

بيد ان هناك امورا لا نستطيع ان نؤجلها الى حكم التاريخ غير المتحيز ، وهى امور تتطلب ان نتحدث عنها الآن بتقييم لابد منه لجوهر الظواهر . يجب ان نتحدث الآن بالذات ، اذا كنا نريد ان نتأكد من اننا بذلنا قصارى جهدنا فى هذه الحياة ، لان المقصود هو أهم شىء ، هو النضال فى سبيل السلام . ان كلمة الفنان البليغة التى تنادى بصيانة الحياة فى الارض لا يمكن ان تؤجل ، فهى تتطلب فعلا فوريا . تلك هى الحال فى الآونة الراهنة اذا كنا نريد ان نتمسك برسالة وواجب الكتاب .

اننا نكتب للناس ، لمعاصرينا ، لنغرس بوسائل الادب خصال وسجايا الشخصية التى تستجيب باكبر قدر للخبرة الاجمالية لجميع العصور ، للمثل العليا الانسانية الاساسية . نعم ، تلك هى ، فى الماضى والحاضر ، الرسالة الازلية الحقيقية للادب . وانا افهم ان هذا الموقف من مهمات الادب

المعاصر الذى اتقن تصوير اعقد نأمات الروح والعقل فــــى تناقضاتها وفى مشروطيتها الاجتماعية العميقة جدا قد يبدو للوهلة الاولى مبسطا بعض الشئ ، ومع ذلك فان هذه المثل العليا الازلية والانسانية العامة لا تزال تشكل القضية الجذرية للادب والفن . وذلك لان وظائف الادب يمكن ان تتغير ، وهى تتغير بالفعل ، لكن اساسه الاول — تجسيد الجوهر البشرى — يظل ثابتا . ولذا ربما تكتسب الآن اهمية اكبر مما فى اى وقت مضى قدرة الادب على جعل احاسيس الآخرين قابلة للمعرفة وتعليم كل فرد منا على التفكير فى الغير كما يفكر فى نفسه وجعله يفهم بان الآخرين ايضا يحبون الحياة ويخافون من الموت ويتألمون ويعانون ويدافعون عن حقهم فى احتلال مكان تحت الشمس .

ولكن لا يستنتج من كون الاساس الاول للادب يظل ثابتا ان اشكاله ثابتة لا تتغير . بالعكس فان تطور وتعمق تصوراتنا عن الانسان والمجتمع والكون عموما ومكاننا فيه يتطلبان تطوير الادب من كل بد ، وتطويره فى مجرى الواقعية ، لان الواقعية هى من بين جميع اشكال تجسيد الواقع ، ذروة تفكيرنا الفنى . وقد بلغت واقعية الادب العالمى المعاصر حاليا درجة من الكمال جعلتها تختلف عن السرد الواقعى فــى الماضى ، كما تختلف هندسة لوباتشيفسكى عن هندسة اقليدس . ان الادب يشغل الآن اكثر مما فى اى وقت مضى مكان الصدارة فى الحياة الروحية للانسان . وهذا بحد ذاته يلزمنا بامور كثيرة .

لن ندخل الآن فى جدال حول ما هو عابر وما هو ثابت فى الادب ، وحول اى من المقولات الايديولوجية التى تعكس

هذه الممارسة الاقتصادية او تلك ، وهذا النظام السياسى او ذاك وتساعد على معرفة الواقع فنيا بافضل شكل واى منها يؤدى دور القوة المعرقلة فى طريقنا . فتلك مسألة لها حديث خاص . ان اى انسان مفكر لا بد وان يعرف بان ظاهرة الخلود تكمن فى الجمال الخالد للفكرة والروح ، ذلك الجمال الكامن فى مادة الفن .

اما بخصوص صراع الافكار فنحن نعرف جميعا ان الصراع ازلى لا مفر منه ، وذلك هو الديالكتيك ، ذلك هو جوهر الوجود الاجتماعى . وفيه تكمن القوة المحركة للتقدم الاجتماعى .

واريد ان اقترح التحدث فيما كان يشكل خاصيـــة عامة لنا جميعا ، لمصائرنا ولابداعنا ككتاب فى النصف الثانى من القرن العشرين ، وما طرح امامنا مهمات ابداعية خاصة بمنتهى الحدة . وربما كان ذلك هو ما يلزمنا ، اكثر من غيره ، بالانصات الى بعضنا البعض .

وبحكم طائفة من الاسباب التاريخية صرنا بالتأكيد نختلف عن اسلافنا فى الادب ، ونأمل بان مصائر اتباعنا ستختلف ايضا . فماذا اقصد ؟ اننا جميعا جئنا الى هنا بالضرورة الملحة التى نحن جميعا متساوون امامها ومسؤولون بقدر واحد — فان تاريخ البشرية لم يواجه من قبل ابدا مثل هذا الخطر الشامل على الحياة وعلى حضارة النوع البشرى ، ولذا لم يظهر فى التاريخ ابدا خطر كالخطر الذى يواجه اليوم الطبيعة والوظائف الحيوية للبيئة المحيطة بنا . ونحن جميعا ندرك ذلك جيدا .

وذلك لان القدر افرد لنا خاصة العصر هذه . فقد اجتمع

هنا كتاب من مختلف البلدان ومن مختلف التقاليد والحضارات والمعتقدات السياسية والجمالية .

ولكنني في بادئ الامر ساحاول ان ارد على نفسي : ما هي الملابسات الخاصة التي تجعلنا نختلف عن ممثلي العصور الاخرى وتوحدنا من كل بد ليس فقط في مواجهة الخطر المشترك ، بل وفي اعماق جوهر العصر الراهن .

بديهي ان اول ما يوحدنا هو ادراك المسؤولية المشتركة عن مصير الحضارة البشرية وعن الجو الاخلاقي في كوكبنا . ويمكننا ان نقول بجرأة انه يجري الآن اختيار الطرق التي سيسير عليها تطور الروح البشرية ، وان مسؤوليتنا في ذلك كبيرة بخاصة ، لاننا لا نستطيع ان نؤجل البت في هذه المسائل الى المستقبل ، فالمستقبل نفسه يتوقف لدرجة كبيرة جدا على ما نتمكن من تحقيقه اليوم .

والمقصود هل يتمكن العقل والثقافة والفن ، في ظروف تناحر القوى المتصارعة المستقطبة والتصادم الشديد بين الايديولوجيات المختلفة وفي ظروف الثورة العلمية التكنيكية الشاملة ، من اعادة بناء طبيعة الانسان بحيث تسودها دوما المشاعر الخالدة والعظيمة منذ الازل : بناء واطالة وصيانة النوع البشري ومعرفة الانسان لنفسه ولرسالته في الحياة . ففي هذه الحالة فقط ، عندما نتمكن من الصمود في وجه القوى التدميرية اللاانسانية واللااخلاقية ونصون النزعة الانسانية ونمجدها ، في هذه الحالة فقط يبرر الانسان تسميته ككائن مفكر . وهذا هو الطريق الوحيد ، ولا وجود لطريق غيره .

لقد طرح التاريخ امامنا اصعب شروط للاختيار بين امرين لا غير .

انني لا اسعى هنا الى اقناع احد بضرورة النضال في سبيل السلام على الارض . تلك بديهية . فهل هناك بديل آخر ؟ وهل هناك شك في ان كلا منا يبذل على قدر المستطاع وسيبذل بالكامل قصارى جهوده لصيانة الحياة على الارض ؟ ان الشكل الملموس لهذا النضال في الآونة الراهنة يتلخص في تنفيذ قرارات هيلسنكي — في السلوك والطموحات — من اجل تحويل الانفراج الدولي الى عملية لا رجعة فيها . وهنا ايضا ، كما اسلفت ، لا نجد بديلا آخر . لا بديل لروح هيلسنكي اليوم . ان عقل البشرية الجماعي لم يبتدع حتى الآن اية وسيلة اخرى . ويضع امامنا من جديد خيارا قاسيا للغاية ، خيارا بين امرين لا ثالث لهما ، لان السلام والنزعة الانسانية مترابطان من حيث الجوهر اعمق ترابط . افلا يعتبر من اكبر مهمات الكتاب ان ينظروا الى الحياة بمنظار هيلسنكي ؟

انني لا اؤمن بالجبرية التاريخية ، وانا ادرك بانه اذا كانت البشرية قد استطاعت حتى الآن ان تبعد خطر الكارثة النووية بالجهود المتواصلة وبالدرجة الاولى ولدرجة كبيرة — وانا هنا اعبر عن رأى الجميع على ما اعتقد — بفضل الاجراءات السلمية لبلادنا ، الاتحاد السوفييتي ، فان ذلك ليس كل ما يستطيع ان يهدئ من روعنا ويقلل من قلقنا . فبالاضافة الى ذلك كله يجب ان نبذل جهودا اكبر بكثير للجم وتقييد البيئة الاجتماعية التي تولد العنف والقساوة والحقد على البشر .

وثمة نقطة اخرى تحملنا على الكلام عن ذلك بوصفه خطرا مباشرا . فنحن لا نعزل انفسنا عن مشاكل العالم المؤلمة

ونعتبر كل ما هو سلبـي مما يواجهه الغرب الآن مصيبة عامة على البشرية . وقد هيأت الثورة العلمية التكنيكية للناس المعاصرين امكانية التخاطب الفورى على نطاق المعمورة كلها من خلال وسائل الاتصال العام ، والتقريب الفعلى بين الشعوب من خلال وسائط النقل السريعة ، وجعلتنا بالتالى نعتمد على بعضنا البعض اكثر مما فى اى وقت مضى . فنحن اليوم جميعا فى قارب واحد ، وخارج القارب الفضاء الكونى اللانهائى .

الا ان هذا التقدم العلمى التكنيكى نفسه بنجاحاته الباهرة الشاملة والملموسة التى دخلت حياة كل انسان قد ساعد ، الى جانب تغيير نمط الحياة ، على نشر العقلانية غير المتحيزة والقاسية احيانا وجعلها تشمل تقييم شخصية الفرد والشعوب واصالة الثقافات . لقد تحول ما يسمى بمعامل الكفاية الذى نقل من التكنيك الى الميدان الروحى الاخلاقى الى تبرير لما لا تبرير له اطلاقا ، اى العنف واهانة الانسان وسلخ انسانيته . ومن وجهة نظر معامل الكفاية الذى غدا معيارا وكليشه متميزة ، لا قيمة للانسان الذى يمكن استبداله بغيره بجرة قلم ، ومن وجهة النظر الانسانية يعتبر كل منا شخصية فريدة تفوق التقدير . فمن الذى يمكن ان يحل محل روميو بالنسبة لجوليت ومحل الابن بالنسبة للام ، ومن الذي يمكن ان يحل محل شهداء الحرب ؟

لا شيء اسهل وابسط من استبدال الكليشهات ، فى حين يولد نشرها على نطاق واسع بالوسائل التكنيكية السمعية والبصرية وغيرها اللامبالاة عند الناس ويحملهم على التصديق بان ذلك كله فى طبيعة الاشياء . وهذا هو افظع جانب فتاك فى تقنين الروح وفى الثقافة الرخيصة من كل شاكلة وطراز . اما

نحن فلم ندرك رأسا بان التقدم التكنيكى لا يعنى توفير التقدم الاخلاقى بنفس القدر .

ان تقييم الانسان من حيث معامل الكفاية يتضمن ميكانيكيا اهانة فردية الانسان وحياته الشعورية ويجعل جهودنا فى تربيته الاخلاقية لا موجب لها . وبالتالى يبدو الانسان كألة للاستهلاك ولا تحظــى الثقافة الا بقيمــــــــــة استهلاكية . وهذا اقرب الى اضفاء طــــــابــــع الرومانسية والشاعرية على القساوة والعنف . ونحن مضطرون بمــــــرارة الى الاشارة باننا نرى خطرا على البشرية جمعاء فى صناعة القوة والقسوة الرهيبة التى اتسعت على نطاق مرعب فى الثقافة المعاصرة فى البلدان الغربية . ويحدث ذلك عندما لا يجد المجتمع ما يملأ به فراغ البؤس الروحى ، وعلى هذه الصورة تتسرب الى الوعى جراثيم الفاشية .

وافظع ما يمكن ان نقدم عليه بهذا الخصوص هو استصغار الخطر الذى ينطوى عليه التعود على الفكرة القائلة بحتمية العنف فى العالم ، والافظع من ذلك هو الخلط بين القساوة الوحشية والبطولة . واريد ان أؤكد والفت الانظار الى ان الاستهانة التى نميل اليها عندما نلتقى بالثقافة الرخيصة غالبا ما تعيقنا عن ان نفهم بالكامل الصلة الفظيعة بين الدعاية للتخدير الفكرى وبين خطر الحرب الفعلى . وهذا يجب ان يثير قلقنا نحن الكتاب ورجالات الثقافة قبل غيرنا .

ويستنتج من ذلك ، فى رأيى ، ان مهمة الادب الاولى تتلخص اليوم فى العمل على تنقية الجو الاخلاقى فى العالم ، الامر الذى يتسم الآن بنفس اهمية الحرص على البيئة الطبيعية التى لا يمكن بدونها وجود حياة صحية سليمة .

وتطرح هذه المهمة امامنا قضية عامة اسميها اصطلاحا بقضية خلق الفكر المعاصر . فالمعاصرون ليس فقط الاحياء الذين يعيشون فى حقبة معينة ، بل هم ، وهذا هو الاهم ، اناس يتميزون بسمات فكرية مشتركة . وفى مقدمتها القدرة على مواكبة الافكار التقدمية الطليعية والتفكير الشمولى ، والاممية الحقة ، والاحترام الحقيقى لاصالة الثقافات واللغات الوطنية والقيم الفنية التى ابدعتها كل الشعوب ، والقدرة ، اخيرا ، على التفكير المستقبلى واكتناه اتجاهات المستقبل فى الحاضر . ان فهم روح العصر ، او المعاصرة ، على هذه الصورة له اهمية بالغة اذا غداً طبيعة ثانية للانسان وفطرة جديدة له . وهو بالذات الذى سيغدو واحدة من الضمانات الاكيدة للسلام على الارض .

وتلك هى مهمة الادب بالدرجة الاولى . وانا لا اريد ان انسب للادب دور الارساليات الدينية . فالساسة يناضلون من اجل السلام بطرقهم الخاصة ، والدور الحاسم لهم ، لكن للادب وسائله الخاصة فى تصوير الحياة والتأثير على النفس البشرية ، وطبيعى اننا ، نحن الكتاب ، نربط جهودنا وابداعنا ورؤيتنا الفنية بالطموحات السياسية التقدمية الرامية الى بلوغ اعظم هدف تاريخى يستند الى افكار التعايش السلمى ، افكار صيانة اهم القيم الاساسية على الارض — حياة الانسان والثقافة .

ولا يسعنى فى هذا المجال (ونحن نتكلم عن ذلك باعتزاز وامل) الا ان اؤكد بان خبرة القرن العشرين تقول ان المبادئ اللينينية للتعايش السلمى هى ، بلا مبالغة ، قمة العقل والنزعة الانسانية . ونحن نتوجه الى العالم كله بهذا الايمان وهذا الامل .

ايها الاصدقاء والرفاق ! اننا نعيش فى زمان التغيرات السريعة . وكانوا فى الهند القديمة يقولون : التغير هو الشيء الوحيد الذى لا يتغير . ونحن نشعر بذلك الآن اكثر مما فى اى وقت مضى . فنحن نغير العالم والعالم يغيرنا .

فى الظروف الراهنة يتعقد تركيب الوجود اكثر فاكثر . ولم يعد كافيا للادب ان يكون مجرد مرآة تعكس بصورة مسطحة الاشياء المحيطة بالانسان . فهو يجب ان يكون موشورا متعدد الوجوه يعكس بصدق وبشكل مجسم اعماق الحياة والمصائر البشرية . ونحن نكرس لذلك حياتنا ومؤلفاتنا .

١٩٧٧

لا عيش
بدون تعايش

مقابلة مع المعلق السياسى فيتالى كوبيش

ف . ك . — جنكيز ، انتهى عام وبدأ عام جديد * . وتلك مناسبة طيبة حتى للمتزمتين ، فقد مضى شيء دون رجعة ، وسيأتى شيء من كل بد .

ج . أ . — بالطبع ، اذا تجردنا عن الشكل الاصطلاحى بعض الشيء لبدء هذا النوع من مقابلات رأس السنة بمثل هذه الكلمات ، ففى ذلك احساس مدهش بسرعة مرور الزمن ، وتلك هى اللحظة التى يتعين علينا فيها ان نوقف سير الزمن ونتأمل . فلنحاول ، يا فيتالى ، ان نستعرض حصيلة ما ونتبادل بعض الهموم التى تشغل بالنا .

ف . ك . — انا واثق من ان اكثر ما يشغل بال العديد من الناس ويثير قلقهم هو فى المقام الاول التفكير فيما سيحدث لعالمنا غدا .

ج . أ . — بالفعل . هذا اول ما يتبادر الى الذهن ، ومما يؤسف له ان ذلك امر لا مفر منه . واقول بصراحة اننى احسد اولئك الذين عاشوا فى الازمان «القديمة الطيبة» قبل العصر النووى . فالانسان فى تلك العهود كان ، على ما اعتقد ،

---

* ١٩٨١ — ١٩٨٢ — **المترجم** .

يعيش ويتنفس بطلاقة اكثر . ولم تكن تأملاته فى رأس السنة تتجاوز التمنيات الطيبة التقليدية لنفسه واقربائه . وكان عيد رأس السنة مقتصرا عليه وحدة . اما الآن فالانسان عندما يفكر فى نفسه لا بد وان يفكر فى كل شيء . ففى القرن العشرين تشابكت كل قضايا الوجود الرئيسية فى عقدة مشدودة واحدة ، وهى مشدودة لدرجة جعلتنى اتصور (وارجو المعذرة) بان الجيل الحالى من البشر محصور الى الجدار . فهناك قضايا ليس من الواقعية حلها بل وحتى تحليلها بدون مراعاة مصالح الآخرين (بمراعاة الامن المتعادل طبعا) .

ف . ك . — يمكن ان نوافق على ذلك . فما يحدث فعلا هو ان الذين كانوا بالامس «غير متفقين معنا فى الرأى» يمكن ان يغدوا اليوم تحت ضغط سير الاحداث الموضوعى شركاء فى المباحثات . بديهى اننا الآن نقصد قضية نزع السلاح ، وهى اشمل قضية تثير من كل بد قلق الجميع : فهل سيجرى هذا العام افظع ما فى الامكان ، هل تقوم الحرب التى لن ترحم احدا ولن يبقى احد فى معزل عنها . ربما كان العام الماضى من هذه الناحية اكثر الازمان من حيث وضوح الرؤية عند اهالى الارض .

ج . أ . — تقصد الموجة العارمة التى اجتاحت اوربا الغربية ضد الحرب ؟ بالطبع ذلك عمل ضخم فى التاريخ . ولكن هل تستطيع ان تؤكد بان قوى المجابهة لفت راياتها تحت ضغط الجماهير ؟

ف . ك . — كلا ، لا استطيع . ولكنك توافقنى بانه لم يعد بالامكان عدم الالتفات الى الحركة الجبارة المناهضة للحرب . وانت تتذكر بان الرئيس الاميركى ريغان القى فى

اواخر تشرين الثانى الماضى خطابا ادهش الكثيرين ، وربما ادهشه هو نفسه . فقد تطرق فى حديثه الى السلام والى تقليص التسلح والى المفاوضات . لن آخذ على عاتقى مهمة الكلام نيابة عن الجميع ولكن الناس ذوى التفكير المستقل بعض الشيء قد فهموا رأسا ان تلك ليس مجرد فذلكة ، وربما فذلكة شاطرة ، ولكن وراءها شيئا اكثر جدية . ويبدو ان البلاغة الشرسة فى الوضع الراهن لا تعطى على الدوام النتائج المرجوة .

جـ . أ . — نعم . ربما . يخيل الى ان ذلك مهم للغاية فى كل الاحوال . فالكلام يدور عن الاعتراف العلنى الصريح بأولوية السلام . وثانيا — يستنتج من ذلك وجوب الحصول على فائدة مهما كانت قليلة لصالح الانفراج السلمى عموما .

اننى لست سياسيا ، ولكن ذلك يعنى ، فى رأيى مهما كان سطحيا ، ان الجليد قد تحرك بقدر ما : فقبل ذلك كان البرجوازى الصغير الاميركى يواجه بالتصفيق المتواصل الدعوات لتصعيد التسلح . واعترف اننى ، ككاتب ، انفر دوما من هذا الاسلوب لانتزاع التصفيق ، فانا اعتبر الديماغوجيـــة الاجتماعية مهما كانت لعبة ذات وجهين ، بل لعبة خطرة . وهى فى آخر الامر تربة مغذية للفاشية . وها انا افكر لسذاجتى : ربما ستنتبه العقول الواقعية هناك ، على الجانب الآخر ، وتأخذ حذرها من التمادى فى هذا المجال .

ف . ك . — ما تقوله الآن ملح للغاية . فان المحللين الاميركان الاكثر جدية ونزاهة يتوصلون بانفسهم الى استنتاج مقلق مفاده ان الولايات المتحدة بشكلها الحالى تنزلق الى حافة الخطر التى تلوح بعدها دلائل مقدمات الميول الفاشية الاميركية الطراز .

جـ . أ . — اذا كان الامر كذلك فياويلنا . ومع ذلك آمل ان فى هذا البلد العظيم عقولا سليمة ومتنفذة بما فيه الكفاية ، عقولا تدرك العواقب التى يمكن ان تنجم عن هذا الانزلاق .

ف . ك . — اخشى ان العقول التى تحدثت عنها قد تتعطل فى ظروف معينة .

جـ . أ . — ماذا تقصد ؟

ف . ك . — عند الاميركان تجربة مريرة بهذا الخصوص . فقد كانت المكارثية بالذات مقدمة للفاشية .

جـ . أ . — ولكن المكارثية كبادرة فاشية قد اخمدت مع ذلك وشجبت ليس فى العالم الخارجى فقط ، بل وفى اميركا نفسها .

ف. ك . — اعتقد انها اخمدت فقط ، ولم يقطع دابرها نهائيا ، وشتان بين الامرين . ان ما يجرى اليوم فى الولايات المتحدة ، وحماسة البرجوازى الصغير الاميركى فى مقاتلة العالم الخارجى كله اذا رفض هذا العالم نمط الحياة الذى يريد ذلك البرجوازى ان يفرضه على سائر الناس فى الارض ، انما هما اكثر خطرا بكثير من المكارثية القديمة . وبالمناسبة فان الكثير مما كان فى تلك الحقبة لا يزال اليوم ايضا يغرس ويفرض بنشاط : الشوفينية المسعورة وهوس الجاسوسية ومطاردة التقدميين عموما .

جـ . أ . — نعم ان البرجوازى الصغير المبتذل واولئك الذين يدفعون اميركا الى الهاوية انما هم اقوى من تلك العقول التى تجسد ، فى اغلب الظن ، المغزى السليم والاتجاهات الاكثر تقدمية فى التطور الراهن فى اميركا ، اليس كذلك ؟

ف . ك . ــ انت تخوض فى مواضيع معقدة للغاية وليست واضحة تماما بعد فى العديد من جوانبها مع الاسف . ولكن ماذا نقصد بمفهوم البرجوازى الصغير بايجاز ؟

جـ . أ . ــ يا للشيطان ! تلك مشكلة ليست بسيطة . اعتقد ان البرجوازى الصغير بهذا المعنى هو ذلك الشخص المهتم بنفسه فقط . سلامته ورفاهه اهم هدف بالنسبة له . وهو ، فى اى وضع اجتماعى ، يسعى الى بلوغ هدفه مهما كلف الامر . وليس لدى هذا البرجوازى الصغير رأى شخصى فى المسائل التاريخية ، فهو دوما يتبنى الكليشهات الفكرية المفروضة عليه .

ف . ك . ــ صحيح . ومما يزيد فى الطين بلة ان ذلك يضاعف مسؤولية الزعماء السياسيين ووسائل الاعلام عن الاعمال والنتائج التى يقودون البرجوازى الصغير اليها . وتلك المسؤولية غير مقتصرة على الساسة . فان مسؤولية اكبر ، فى رأيى ، تقع على اولئك الذين يؤثرون ، الى جانب الساسة ، فى نفسية الناس وثقافتهم ويقدمون لهم الغذاء الروحى والفكرى الذى غدا بالنسبة لقسم كبير من البشرية فى عصرنا الاستهلاكى اهم لدرجة كبيرة من الغذاء المادى وصار بمثابة الخبز الكفاف حقا .

جـ . أ . ــ يسرنى جدا انك صغت هذه المسألة بمثل هذا القدر من الدقة . ولا اخفى عليك اننى لا اجد دوما تفهما كاملا فى هذه المسألة التى تشغل بالى . فهناك اناس مغرورون يتصورون بشئ من الكبرياء ان الادب والفن هما من قبيل الخدمات المريحة المخصصة فقط للتسلية وقتل اوقات الفراغ . وهم يعتقدون

صادقين بانهم تبعا لامزجتهم ومفاهيمهم يمكن ان يطبطبوا على الاكتاف او يدوسوا تحت الاقدام .

ف . ك . — انا افهمك ، ولكن لا تتصور ان الامور بهذه البساطة . فالبعض يقدرون بالكامل قوة تأثير الادب والفن فى نفوس الناس ، لكنهم يستخدمونهما لاغراضهم الطبقية الانانية ، واحيانا للاغراض العسكرية والامبريالية الصرف .

جـ . أ . — فى هذه الحالة تطرح رأسا مسألة التوجه الفكرى للادب والفن واتجاهات العملية الادبية فى هذا المجتمع او ذاك . ولما كنا نعيش ، بمعنى ما ، فى عوالم مشتتة بل ومتعارضة ، فان الحاجة تستدعى ايجاد نظرية عامة للابداع الفنى لجميع رجالات الثقافة التقدميين .

ف . ك . — هل تعتقد بامكان ذلك ؟

جـ . أ . — نعم ، اعتقد بامكانه ، بل وبضرورته . فلماذا ؟ ذلك لاننا نواجه ازمة عامة للحضارة المعاصرة كلها . ولعلنا نجد تعبيرا دقيقا عن الخطر البالغ الذى يتهدد البشرية فيما قاله القدامى فى التوراة : بلغ السيل الزبى . . . نعم «طوفان» قلقنا اليوم يتصاعد باطراد حتى يبلغ الحناجر . وفى هذه الظروف علينا ان نجد لغة تفاهم بين الناس بغض النظر عن الجهة التى ينتمون اليها . وهذه اللغة فى الظروف الراهنة هى افكار النزعة الانسانية .

ف . ك . — هذا رائع يا جنكيز . ولكن عندما تصوب الصواريخ نحونا ويشنون حملة على بولونيا الاشتراكية الا يغدو الحديث عن النزعة الانسانية الخالصة كلاما تجريديا ؟ يخيل الى ان هذا الكلام يجب ان يكون محددا ملموسا لان النزعة الانسانية هى ايضا مقولة طبقية .

جـ . أ . — انا متفق معك . فان مفهوم «النزعة الانسانية» بحد ذاته قد يبدو تجريديا . ولكن اذا امعنا التفكير نرى اننا لن نتمكن من انقاذ العالم الا اذا سلكنا طريق تحقيق افكار النزعة الانسانية . وليس هناك طريق آخر . فالبشرية لم تبتدع بعد شيئا اكثر شمولية ويستطيع ان يوحد الجنس البشرى بمجمله .

ف . ك . — لكن ذلك لا يعنى اطلاقا ان حتمية الصراع الطبقى والعمليات الثورية وحركة التحرر الوطنى تفقد حدتها واهميتها الملحة وتنسحب الى مرتبة ثانوية فى مواجهة الخطر الذى يتهدد العالم كله .

جـ . أ . — طبعا ، كل مسائل الصراع الطبقى الاجتماعى والنضال التحررى الوطنى تبقى ، ويبدو انها ستبقى امدا طويلا جدا بمثابة عوامل ذات اهمية من الدرجة الاولى فى حياة البشرية المعاصرة . وعندما نتكلم عن السلام لا نعنى اطلاقا تجميد اوضاع يسبح فيها البعض فى الابهة والنعيم ، مثل تروخيليو فى جمهورية الدومنيكان ، ويستخدمون مقاعد من الذهب الخالص فى المراحيض ، بينما يموت البعض الآخر من الجوع والامراض والمصائب الاجتماعية . والاكثر من ذلك يمكن الافتراض بانه عندما تعالج جراح اليوم — مشاكل الظلم الاجتماعى الصارخة — ستظهر مشاكل اخرى على مستوى جديد من التطور الاجتماعى .

ف . ك . — محتمل . ولكن يخيل الى ان البعض يحاولون الآن التوفيق بين الاضداد ، ووسط رنين الاجراس التى تحذر من خطر الابادة الشاملة يطمسون ، ان لم نقل يشطبون من بين قضايا الساعة ، مسائل الصراع الطبقى ونضال التحرر الوطنى : فلا مجال لها ، كما يزعمون ، عندما تقترب

نهاية العالم . ذلك هو الخلط المتعمد الشرير للقضايا والمفاهيم .

جـ . أ . — لا انكر ما تقول . ومع ذلك فهذه المسائل لم تكن في زمن ما اكثر مما هي عليه الآن من تشابك وتعقد .

ف . ك . — انت محق على الاكثر . ان التوتر الدولي الحاد يشتد كما تعلم بالارتباط مع الاحداث في السلفادور مثلا . ويرى الكثيرون في العالم ان نهج واشنطن الحالي ازاء هذا البلد ، وفي هذه المنطقة عموما ، يمكن ان يسفر عن نشوء بؤرة اخرى للحرب . فهل يعني ذلك ان شعب السلفادور الذي عاني الامرين يجب ان يتخلى عن النضال في سبيل اعادة بناء حياته ؟ واذا تناولنا مناطق اخرى من العالم نجد فيها انظمة بالية ترتكز الى سند واحد هو الامبريالية الاميركية . ربما لا يحق لاحد ان يطالب شعوب هذه البلدان بان تضحي بمصالحها الحيوية في سبيل الاستقرار العام ان صح التعبير ، اليس كذلك ؟

جـ . أ . — لا اظن ان احدا يعترض على هذا القول . الا ان هناك جانبا آخر في هذه القضية المعقدة جدا ، واعني خطر الاستفزازات التي يمكن ان تفجر الموقف وتقوده الى الكارثة الشاملة . وفي هذه الظروف ايضا تكتسب افكار النزعة الانسانية مغزى طبقيا ملموسا تماما وتصبح بمثابة البوصلة التي تهتدي البشرية بها لتخرج من بحر العواصف والازمات وتبلغ محيط الحياة السلمية . وعند ذاك يتمكن كل انسان يولد على وجه البسيطة من ان يعيش الفترة التي تمنحه اياها الطبيعة ، ويعيشها بالشكل اللائق بالانسان .

ف . ك . — هكذا نعود من حيث اتينا . نعود الى الحديث عن دور واهمية رجالات الثقافة في عصرنا القلق ،

ماذا بوسعهم وماذا يجب ان يفعلوا ؟ الشيء الذى اريد ان اؤكد عليه هو انهم حصلوا على الكثير وهذا يلزمهم بـاداء الكثير .

جـ . أ . — لن نستغنى هنا عن العموميات ، حيث يطرح السؤال التالى : فيم تتلخص الرسالة السامية للثقافة ، وخصوصا الادب ، وهذا يهمنا الآن اكثر من غيره ؟ وهذه الرسالة موجودة بغض النظر عن ان الكتاب يقيمون فى بلدان مختلفة وفى ظل انظمة اجتماعية مختلفة . تتلخص هذه الرسالة فى كوننا ، بمجمل توجهات ابداعنا ، يجب ان نعمل على تطوير **عقل** البشرية الذى يخلص الناس من كل انواع واشكال الاوهام التى تفرق بين الشعوب وتؤلب بعضها على بعض فى اغلب الاحيان .

ف . ك . — العقل . . . الا ينطوى عصرنا على الكثير من العقل البارد ؟ والخير ؟ اين هو ؟ والعطف على القريب ؟ ومؤاساته ؟

جـ . أ . — وهل يستثنى هذا ذاك ؟ اننى فى فهمى لمغزى الحياة انطلق من ان **العقل** يكلل كل شيء ، وهو لا ينفصل عن الخير ، ويعارض الشر من كل بد . ولذا اعتقد ان الرسالة السامية للادب هى ان يغرس النزعة الانسانية بايقاظ عقول الناس . وهذا ما يجب ان يوحدنا نحن الكتاب الاحياء الآن فى اطار الادب العالمى . نعم اننا نلتزم بمواقف الواقعية الاشتراكية ، لكن ذلك لا ينفى ، بل على العكس يستوجب شمولية تفكيرنا الفنى . ولئن كان تولستوى ودوستويفسكى وتشيخوف فيما مضى من الزمان يعبرون عن الافكار التى كانت تشغل بال الجميع . فقد اختمرت اليوم قضايا انسانية عامة وعميقة للغاية من حيث مأساويتها ، وهى قضايا لم نتناولها

بعد ، ولا تزال تنتظر تجسيدا فنيا . ولا اهمية للموضع الذى يظهر فيه ذلك الفنان الذى سيتحسس فاجعة القرن العشرين ويكتب عنها بشكل ملهم يدهش جميع الناس مهما كانوا متباعدين مشتتين .

ف . ك . — هل تقصد اننا يجب ان ننتظر ظهور تولستوى او دوستويفسكى او تشيخوف جديد ؟

جـ . أ . — لا اقصد ذلك على وجه التحديد . فقد يظهرون . وربما — وارجو الا اخيفك — ربما هم موجودون الآن .

ف . ك . — لم اخف ، مع اننى لا ارى دليلا على وجودهم ، ولكننى اعرف ان فنانين كبارا جدا يبدعون الآن ايضا .

جـ . أ . — طيب ، فلنسم الاشياء بأسمائها . ولنتذكر كيف اقتحم علينا حياتنا كاتب كولومبى قد يبدو بعيدا عنا . واعنى غابريل غارسيا ماركز ، وما اعمق اثره فى وعينا الفنى ، فى حين يكتب ماركز عن حياة بعيدة عنا كل البعد ، حياة تبدو للنظرة السطحية وكأنها لا تمت لواقعنا باية صلة . واعتقد ان عندنا نحن ايضا كتابا يتسم نتاجهم بأهمية انسانية عامة ، ولكنهم مع الأسف لم يحظوا بعد بالاعتراف الكامل فى البلدان الاخرى . والزمن هو المحكم .

ف . ك . — لكنك انت لا يمكن ان تتشكى من عدم الاعتراف بك خارج بلادنا . فكتبك تقرأ فى العالم كله .

جـ . أ . — اقول اولا ان كتبى ليست الوحيدة التى تقرأ . والقضية عموما ليست فى ذلك . فالكتب البوليسية هى الاكثر انتشارا فى العالم الآن . ولكن ادبنا السوفييتى يحمل الـى القارئ المعاصر فى العالم ما لا يستطيع ان يجده فى الآداب

الاخرى . فلدينا افكارنا ولدينا هويتنا ، والعملية الادبية المعاصرة جارية بمشاركتنا ايضا .

ف . ك . — لابد وانك على حق . فالعديد من كتابنا يقدمون نموذجا لكيفية التأثير فى الزمن والعصر بالكلمة مهما كانا محميين بدروع الاوهام وسوء الفهم والخلافات . حبذا لو استطاع اكبر عدد من الناس ان يطلعوا اليوم اطلاعا جادا على هذه النتاجات فى ترجمات جيدة تليق بها .

جـ . أ . — لقد تناولت ، يا فيتالى ، شيئا عزيزا على قلوبنا . فمن المهم فى الآونة الراهنة ، اكثر مما فى اى وقت مضى ، ان تتطور عملية الاطلاع المتبادل بنشاط مثمر . وعند ذاك ينتفى من حياتنا الكثير مما يفرق بيننا ويجعلنا غرباء على بعضنا البعض . ان الطريق الى التفاهم يتطلب ترجمة المزيد وطبع المزيد وقراءة المزيد من مؤلفات بعضنا البعض .

ف . ك . — بهذا الخصوص اريد ان أؤكد خصيصا على نقطة اخرى ليست قليلة الاهمية . ان التغنى بحتمية نهاية العالم التى ورد ذكرها سابقا او هلاك الجنس البشرى عموما قد غدا ليس مجرد حاصل لحساب عدد الرؤوس النووية ، بل ونوعا من الموضة الفنية فى الغرب . فما رأيك بهذا الخصوص ؟

جـ . أ . — المقصود فى هذه الحالة طبعا ليس الموضة بل هو شىء اكبر منها . فقد ظهر فى الغرب كتبة يحاولون اثبات حتمية الحروب وهم يزعمون بان النظامين المتعارضين لن يجدا وسيلة للتفاهم وان طبيعة الانسان تنطوى بالفطرة على العدوان الذى يجعل الحروب حتمية ، بل ويجعلها ضرورية بسبب بعض الوقائع مثل ازدياد السكان . ويصورون ذلك بمثابة وقاية صحية للتاريخ . علما بانهم يكتبون عن ذلك بتلذذ

كبير يشبه السادية او الماسشية . ويريدون للانسان ان يتعود على حتمية الحرب . انهم يهينونه ويحملونه على الرضوخ لحالة العجز والتفاهة . اننى اعتبر هذا النوع من المطبوعات جريمة بحق الناس المعاصرين وبحق الاجيال القادمة .

ف . ك . — نعم ، يمكن القول ان ذلك لا يقل خطرا عن توزيع صواريخ «بيرشينغ» والصواريخ المجنحة الاميركية فى بلدان اوربا الغربية . نفس العنف ونفس التدخل ، ولكن ضد الارواح البشرية هذه المرة . فالى جانب السعى الى بلوغ التفوق العسكرى يحاولون قمع ارادة الحياة واستئصال غريزة مواصلة الجنس البشرى .

جـ . أ . — فظيع . ولكن من حسن الحظ ان الرغبة فى الحياة هى الاقوى عند الانسان ولا احد بوسعه ان يستأصلها .

ف . ك . — ان الاجهزة الوقائية الحياتية فى آخر المطاف اقوى من اكثر الاسلحة فتكا . وعلى العموم كانت الانواع الجديدة من الاسلحة تثير رعب الجميع دوما ، من عهد اختراع القوس والنشاب الى عصر صنع البارود . ومع ذلك ظل الناس على قيد الحياة وتخلصوا من الرعب . بديهى ان السلاح الحالى ، النووى ، يفوق كل مقارنة ، فهو ينطوى على خطر على كل الاحياء .

جـ . أ — ذلك هو بيت القصيد . الا ان الناس فى تلك الجهة التى يلوح العسكريون فيها بهذا السلاح بشدة يفهمون تماما ان استخدامه عمل انتحارى . وعلى العموم فالمرعب ليس هو السلاح بحد ذاته ، بل حالة العلاقات البشرية ، ففى حالتها تكمن المشكلة الرئيسية . وهنا علينا جميعا ، نحن سكان الارض ، ان نبدى اكبر قدر من اليقظة وضبط

النفس والتعقل . فقد حلت لحظة فى التاريـــــــــخ البشرى لا يحـــق فيهـــا لاحد ان يخطــــــــــىء ولا مرة واحدة ، مثل مفكك الالغام ، وانا واثق من ان الجميع يفهمون ذلك . والسؤال المطروح هو : كيف نعيش لاحقا ؟ ان ضرورات العصر تملى لزوم التخلص من نير الاوهام والعناد ولزوم تجاوز الخلافات وابداء الحكمة والاتفاق ليس على عدد المرات التى يمكن فيها ابادة البشرية ، بل على كيفية العيش فى المعمورة تحت سقف واحد .

ف . ك . — وهكذا فالحتمى ليس فقط عيشنا المشترك على هذه الارض ، بل وكذلك اسلوب التعايش — حسن النية بالاضافة الى الحوار الواقعى النزيه . فلنضع العنوان التالى لحديثنا هذا : لا عيش بدون تعايش . هذا هو الخيار الوحيد .

جـ . أ . — لا ادرى هل سيكون الحوار موفقا فى العام الجديد . يا ليت . فان ذلك سيكون هدية رائعة للجميع ولكل شخص على انفراد . اننا نعيش على امل ان يتلف الناس السلاح ولا يبيد السلاح الناس ، وان يبتسم هؤلاء الناس وهم يتطلعون الى شروق الشمس وان ينتظروا من كل يوم جديد السعادة والفرحة وليس الخطر والتهديد .

ف . ك . — فلنتمن ، يا جنكيز ، للناس فى بلادنا وفى كل ارجاء الارض السعادة فى العام الجديد ، وكذلك الطيبة والحكمة ، فالسعادة مستحيلة بدونهما .

١٩٨٢

فلنبدد غلالة
التحيز والشكوك

حديث مع مستمعى
اذاعة «دبليو بى اى آى» من نيويورك

المذيع — صباح الخير . جون فيسكر يحييكم .
نوافيكم ببرنامج خاص .

في استوديوهاتنا الكاتب جنكيز ايتماتوف عضو وفد الاوساط الاجتماعية السوفييتية الى دورة اللجنة الخاصة لدى الامم المتحدة ضد الابارتهيد . وهو ضيف شرف على هيئة الامم المتحدة . جنكيز ايتماتوف سيتناول الآن طائفة من المسائل المتعلقة بالابارتهيد ، كما سيحدثنا عن الاتحاد السوفييتى .

سيتكلم السيد ايتماتوف بالروسية وسنقدم ترجمة فورية لحديثه بالانجليزية .

فلنبدأ اذن . هلا حدثتنا قليلا ، يا سيد ايتماتوف ، عن عمل الدورة الخاصة ؟

جـ . أ . — ساحاول . ولكنى اريد فى البداية ان احيى المستمعين . فان صوت المواطنين السوفييت ، على ما اعتقد ، لا يتردد كثيرا فى الاثير الاميركى ، وخصوصا فى ظروف توتر العلاقات بشكل ملحوظ . وانا مسرور بهذه الفرصة التى اتيحت لى . بالفعل ، فانا اشارك ، كضيف شرف ، فى اعمال

جلسات اللجنة الخاصة لدى الامم المتحدة ضد الابارتهيد . وقد دعت الامم المتحدة عددا من الشخصيات الادبية والفنية المعروفة من ممثلى الثقافة فى مختلف البلدان . وقد حالفنى الحظ .

جـ . ف . — وهل تمثل شخصية ثقافية الولايات المتحدة ؟

جـ . أ . — كلا ، مع الاسف .

جـ . ف . — تذكرت وانا استعد لهذه المقابلة انك نائب فى السوفييت الاعلى فى الاتحاد السوفييتى وعضو فى لجنة الشؤون الخارجية لدى مجلس القوميات فى السوفييت الاعلى المذكور . فهل يعتبر شيئا معتادا فى الاتحاد السوفييتى ان تكون الشخصية الثقافية ، الكاتب فى هذه الحالة ، شخصية رسمية ايضا ؟

جـ . أ . — يبدو ان ذلك فى طبيعة الاشياء . فنحن لا نتصور برلماننا خاليا من ممثلى المثقفين المبدعين . وبوسعى ان اذكر العديد من اسماء الكتاب والرسامين والنحاتين والملحنين والمخرجين السينمائيين . . . والكثير من كبار العلماء اعضاء فى البرلمان السوفييتى .

جـ . ف . — نجد هنا بالطبع فارقا هائلا بين الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة .

جـ . أ . — نعم ، الفارق كبير على ما اعتقد . فان عضو الكونغرس الاميركى ، على حد علمى ، سياسى محترف عادة . اما بالنسبة لنا فذلك نشاط اجتماعى اضافى علاوة على مهنتنا الاساسية . فالرسام ، مثلا ، يواصل الرسم ، لكنه يخصص جزءا من وقته لاداء واجبات عضو البرلمان .

جـ . ف . — عندما تعود الى نشاطك الادبى هل ستكتب عن الابارتهيد ؟

جـ . أ . — اريد ان اوضح السبب الذى جعل رحلتى هذه مرتبطة بقضايا الابارتهيد . آمل بان المستمعين سيفهموننى بشكل صحيح . فنحن من الناحية الجغرافية نعيش على مسافة بعيدة جدا عن افريقيا والمناطق الاخرى من الارض حيث يوجد التمييز العنصرى ، الابارتهيد . وقد يبدو للوهلة الاولى ان ما يجرى هناك لا يعنينا كثيرا . ولكن جوهر سياستنا وايديولوجيتنا وثقافتنا يتلخص فى اننا لا نستطيع ان نتفرج بلامبالاة على ما يجرى فى الارض وعلى الظلم التاريخى الازلى الذى يمارسه البعض ضد البعض الآخر . ولا يعنى ذلك اننا مستعدون للتدخل واحقاق الحق «عنوة» ان صح التعبير . ولكننا نرى واجبنا المقدس فى الكلام عن ذلك والتفكير فيه وفضح الشرور وكشفها امام الجميع واستثارة روح الشجب والاستنكار .

جـ . ف . — هل هذا هو الهدف الرئيسى لعمل الدورة الخاصة ؟ وبعبارة اخرى : ما هى النتيجة التى ستتوصل اليها الدورة الخاصة فى آخر المطاف ؟

جـ . أ . — اعتقد انها ستتوصل الى نتيجة . فهذا العمل طويل الامد . ويخيل الى انه بالاضافة الى المسائل السياسية والاقتصادية والحقوقية ستظهر هنا مسألة مدى عمق ادراك الناس للمغزى الحقيقى للمشكلة ، ومدى شدة قلق المجتمع المعاصر الذى يعرف ما هى العنصرية فى التطبيق . واذا لم نتكلم عن ذلك ولم نستحث الشعوب ضد التمييز العنصرى فان هذه الظاهرة المشينة ستبقى زمنا طويلا . يجب ان نسعى الى جعل الجميع يتوصلون فى آخر المطاف الى حكم واحد هو ان واقع الامور هذا غير جائز . فقد حلت فى تطور البشرية وفى تاريخها فترة تستوجب اجتثاث هذه الظاهرة . فالعنصرية

تعيق التعايش السليم على وجه البسيطة والتمييز العنصرى يعود بالمصائب والويلات على ملايين الناس . فكيف يجوز اتخاذ موقف اللامبالاة من ذلك ؟

ان رد فعل صحافتنا وحياتنا الاجتماعية على ذلك شديد جدا .

جـ . ف . — ما هو مدى اطلاع المواطنين السوفييت على الموقف فى جنوب افريقيا ؟ فنحن هنا فى الولايات المتحدة نتلقى معلومات منتظمة عما يجرى فى تلك المنطقة . واغلبية الاميركان مطلعون جيدا على ما يجرى هناك . وما يجرى هناك بشع للغاية من الناحية الاخلاقية . فهل تناقش هذه المسألة على نطاق واسع فى الاتحاد السوفييتى ؟

جـ . أ . — هذه المسألة لا تناقش فقط على نطاق واسع عندنا ، بل تثير الشفقة والألم . فالنار تطلق على تظاهرات اناس يطالبون بحقهم المشروع — حق العيش على قدم المساواة مع الآخرين . قبل اثنين وعشرين عاما جرت فى شاربيرفيل بضواحى يوهانزبورغ ، وبعدها فى سويتو ، احداث لا يمكننا ان ننساها . فقد اطلقت النار حتى على اطفال فى السابعة من العمر . اليس ذلك هو ابشع عنف همجى ؟ انه ، فـــى رأينا ، يتطلب ليس مجرد الشجب والاستنكار ، بل النضال اليومى اخلاقيا وسياسيا من اجل ان نحس على الاقل باننا اناس جديرون بالقرن العشرين .

اننا نعيش بسلامة واطمئنان ولا نعانى من هذه المشاكل . ولكن هل يمكن العيش باطمئنان اذا كان الآخرون يتألمون ؟ اننا نعيش جميعا على كوكب واحد . وهذا يتضح بكل جلاء خصوصا الآن فى اواخر القرن العشرين . واذا كان شعب ما ،

بل وحتى شخص ما ، يعانى من مصيبة فلا يجوز للآخرين ان يقفوا متفرجين لاابالين . وستواجه البشرية ، على ما اعتقد ، مهمة ايجاد وعى عالمى . ويبدو ان الطريق لا يزال طويلا اليه ، فهو يتطلب تطورا تاريخيا كبيرا . ولكن سيحين زمان يستطيع فيه كل شخص ان يفكر فى غيره كما يفكر فى نفسه ويتحسسه كما يتحسس نفسه . ويجب ان يسود هذا المبدأ العلاقات بين الشعوب ايضا .

جـ . ف . — قلت باننا نعيش فترة تأزم العلاقات بين الولايات المتحدة الاميركية والاتحاد السوفييتى . وفى الوقت ذاته غدا موقف الولايات المتحدة من نظام الابارتهيد فى جنوب افريقيا اكثر دفئا . فقد اعلن مؤخرا باننا ننوى ان نبيع الى جنوب افريقيا طائرات وآليات اخرى يمكن ان تستخدم للاغراض الحربية . فهل لهذا الواقع صلة بالدورة الخاصة ؟

جـ . أ . — لا ادرى اذا كان لذلك صلة مباشرة بالدورة الخاصة ام لا . فان العام الحالى ، **١٩٨٢** ، اعتبر عاما دوليا لتعبئة القوى تأييدا للعقوبات ضد جنوب افريقيا ، اى ان ذلك عمل دولى منسق فى اطار هيئة الامم المتحدة . ونحن جميعا نريد ان تكون العلاقات بين الدول الكبرى طبيعية تتطور باستمرار . وقد قلقت كثيرا لنبأ بيع احدث الآليات الجوية الى النظام العنصرى .

جـ . ف . — ثمة جانب آخر لا تلقى الصحافة الاميركية الاضواء عليه : الابارتهيد بشكله الحالى الذى نعتبره «عنصرية شرسة» ينبع من ميول العداء للشيوعية فى جنوب افريقيا . وقد اجريت تعديلات عميقة على القوانين فى جمهورية جنوب افريقيا فى الفترة التى تفشت فيها «المكارثية» عندنا . وهكذا

فان احد اسباب تأييد الولايات المتحدة للابارتهيد ، بالاضافة الى تقاليدنا العنصرية ، يكمن فى معاداة الشيوعية بالذات . افلا تحدثنا عن هذه المسألة ؟

جـ . أ . — ليس ذلك نبأ جديدا بالنسبة لنا . فمن اسهل الامور تبرير هذه الافعال الرجعية او تلك «بالخطـــر الشيوعى» . ولكن ذلك كصبغ السياج بالظلال كما يقول المثل الروسى . ويقومون بمناورات كاذبة لتشويه الحقيقة ، فى حين ان الحقيقة هى على اية حال ان جمهورا غفيرا من السكان الافارقة الاصليين فى جمهورية جنوب افريقيا لا يزال يعيش فى ظروف لاانسانية ، وهناك عدد هائل من العاطلين عن العمل ، والخدمات الطبية على مستوى متدن جدا ، والافارقة الاصليون محرومون من التعليم . علما بان الاقلية البيضاء تتمتع بكل خيرات هذا البلد الغنى . فكيف يجوز حرمان الناس من حقهم فى الحصول على التعليم والاستفادة من المنجزات العظمى للثقافة العالمية ؟ ناهيك عن الاستغلال البشع للسكان الاصليين فى جمهورية جنوب افريقيا . فكيف يجوز تخليد ذلك ؟

التاريخ لا تصنعه النوايا الطيبة . فلتطوره قوانينه الخاصة . ولا يجوز تأييد نظام يحمل الآلام لشعبه ويحرمه من مقومات النهضة الثقافية . كيف يجوز السكوت على هذا الظلم لمجرد ان كبار المسؤولين فى جمهورية جنوب افريقيا معادون للشيوعية ؟ ان من الاجرام مساعدتهم فى مواصلة تطبيق هذه السياسة وحتى اذا استثنينا كل الجوانب السياسية فان ذلك عمل لاانسانى . ان القوى الرجعية عندكم لا تساعد على النجاح فى حـــل المشكلة ، بل تسعى الى تعقيدها .

جـ . ف . — اسمح لى بالاستمرار . هل يأتى قلقك ،

جزئيا ، من كونك قرغيزيا تسعى الى الحفاظ على ثقافة شعبك؟ الا تحدثنا بشيء من التفصيل عن اوضاع الاقليات القومية فى الاتحاد السوفييتى ؟

جـ . أ . — بكل سرور . اريد ان اقول ، اولا ، ان موقفى البعيد عن اللامبالاة من القضايا العنصرية ربما ينبع من كوننا قد مررنا بمثل هذه المحنة فى زمن ما ، قبل ثورة اكتوبر . اما الآن فقد غدا ذلك فى طى الماضى . وصرنا ننسى تلك الحقبة العصيبة ، ولا تعرف اجيالنا الجديدة عنها الا من دروس التاريخ . ونحن ، الشعب القرغيزى ، نشكل الآن واحدة من الجمهوريات المتحدة الخمس عشرة المتكافئة فى الحقوق . ونحن لا نعانى من مركب النقص كأقلية قومية . ومفهوم «الاقلية القومية» بالنسبة لنا مفهوم كمى وليس نوعيا .

جـ . ف . — وماذا بخصوص الناحية الثقافية ؟

جـ . أ . — من الناحية الثقافية لعلى اقول : عندنا خبرة هامة جدا . واظن ان العديد من البلدان والشعوب ستدرس هذه الخبرة بمر الزمن . كل الدول الكبرى متعددة القوميات . والمشاكل الداخلية فى هذه الدول — التفاعل والعلاقات المتبادلة بين مختلف الجماعات السكانية — تشغل مرتبة ليست من المراتب الاخيرة ابدا .

عندنا مختلف المشاكل الاقتصادية الهامة والحيوية ، ومشاكل فى ميدان الخدمات والصحة والبناء وهلمجرا ، لكننى لا اعرف قضايا سلبية قومية تثير القلق . ان السياسة القومية السوفييتية من اكبر المستجدات فى القرن العشرين . فانا كممثل لاقلية قومية لا اشعر بانى من «الاقلية» . كتبى التى الفتها باللغتين القرغيزية والروسية تطبع باعداد هائلة من النسخ .

وقرائى ينتمون الى مختلف الشعوب . وانتم تعرفون ان فى الاتحاد السوفييتى حوالى مائة شعب وقوم . ومن جميع الجهات تصلنى رسائل فيها انطباعات عن مؤلفاتى .

جـ . ف . — بعض مؤلفاتك صدر باللغة الانجليزية ، اليس كذلك ؟

جـ . أ . — بلى . صدرت عدة كتب بالانجليزية : فى بريطانيا وفى بلدان افريقيا الناطقة بالانجليزية . وتلقيت مؤخرا معلومات رسمية جاء فيها ان حوالى ٩٠ دار نشر اجنبية نشرت مؤلفاتى بمختلف اللغات خلال السنوات الخمس الاخيرة . وصدرت كتب كثيرة فى اوربا خصوصا . وانتهز هذه الفرصة فاقول ان علاقاتنا الثقافية مع الولايات المتحدة تحتاج الى تحسين كبير . فهى لا تقارن باتصالاتنا مع الثقافات الاوربية .

وبالمناسبة فقد التقى بى ، بعد انتهاء الجلسة فى الامم المتحدة ، دبلوماسيون من فنلندة والسويد والمجر وايطاليا ومنغوليا وبلدان عديدة اخرى وسألونى عن كتبى وتناول الحديث الادب عموما . ولكن احدا من الاميركان لم يتصل بى . اننى لا الومهم ، ولكننى اريد ان اقول ببساطة انه كلما عرفنا بعضنا البعض بشكل افضل كلما ساعد ذلك على حل القضايا الشاملة التى تنتظر الحل .

جـ . ف . — اعتقد ان بعض الكتاب ربما يستمعون الينا الآن . عندما تأتى الى هنا ، الى الولايات المتحدة هل تستطيع ان تخطط اللقاءات مع زملائك الاميركان ؟

جـ . أ . — مبدئيا ، نعم . لكننى هذه المرة لم اضع نصب عينى هدفا من هذا النوع . فقد فكرت بانى عندما اصل الى هنا ساطلع على الوضع اولا لارى هل يكفينى الوقت .

اثناء البث من استوديوهات الاذاعة وردت مكالمات تلفونية غير قليلة . وكانت اسئلة المستمعين متنوعة . فبعضهم سألوا مثلا عن اسباب هجرة بعض المواطنين من اصل يهودى من الاتحاد السوفييتى واعربوا عن آراء فيها كثير من التعارض . ولاحت فى تقييمات بعضهم نغمة صادرة عن الدعاية البرجوازية فى الولايات المتحدة . واتسمت اراء بعضهم بالموضوعية والواقعية والتفهم التام لجوهر القضية . وسأل بعض المستمعين عن «سور برلين» وعن الموقف غير الملائم اطلاقا فى ميدان التبادل الثقافى الاميركى السوفييتى الذى نشأ بسبب تصرفات الادارة فى واشنطن . وابدى اهتمام خاص بمسائل مكافحة الابارتهيد فى جمهورية جنوب افريقيا ، تلك الدولة التى هى رمز التمييز العنصرى فى العالم الحديث .

مستمع — ما الذى بوسع البلدان الاخرى ان تتخذه لانهاء الوضع القائم فى جنوب افريقيا ؟

جـ . أ . — اعتقد ان من الضرورى بالدرجة الاولى الشجب المعنوى الشامل . وبعد ذلك يمكن ان تفرض الدول عقوبات اقتصادية وسياسية وثقافية .

فمن المعروف منذ القدم ان العبد هو ليس المظلوم فقط ، فالظالم ايضا عبد . الذى يفرض العبودية على الآخرين يفرضها على نفسه . فهو عبد للعنف . وليس لديه حرية داخلية . والذين يضطهدون الآخرين فى ظل نظام الابارتهيد يعزلون انفسهم عن سائر العالم . ويعزلون انفسهم فى آخر المطاف عن الحضارة البشرية عموما . واذا ابدى الرأى العام

موقفا سلبيا من الابارتهيد كشكل لاانسانى للعلاقات الاجتماعية فان ذلك بحد ذاته يؤدى الى تقدم معين .

جـ . **ف** . — وهذا يعنى شجبا معنويا لكل الدول التى تؤيد الابارتهيد ، اليس كذلك ؟

جـ . أ . — بالطبع . الدولة يمكن ان تؤيد الابارتهيد لكن الاوساط الاجتماعية يمكن ان تشجب هذا التأييد .

جـ . **ف** . — نأمل فى اتساع هذه الاوساط فى الولايات المتحدة .

مستمع — ماذا لو لم تتراجع جنوب افريقيا بنتيجة الضغط السلمى ؟ ما العمل فى هذه الحالة ؟

جـ . **أ** . — هذا لا يتوقف على توصياتى . والمعروف ان السكان الاصليين مضطرون الى سلوك طريق الكفاح . والامثلة على ذلك كثيرة .

جـ . **ف** . — نحن نرى ان الكفاح فى جنوب افريقيا يتصاعد .

جـ . أ . — يتصاعد طبعا . ويتخذ شكل كفاح الانصار . وخصوصا فى ناميبيا . فهناك كما تعلم منظمة سوابو التى لديها قدرة عسكرية كافية ، وهذه القدرة تزداد . من الافضل طبعا حل هذه المشكلة بالطرق السلمية .

جـ . **ف** . — اريد ان اذكر المستمعين ان قوات جنوب افريقيا اقتحمت اراضى انغولا فى بداية هذا الاسبوع وقتلت اكثر من ٢٠٠ انغولى .

•

كانت لاسئلة بعض المستمعين صلة بالحملة الدعائية الافترائية التى شنتها واشنطن رسميا بشأن الحالات المزعومة

لاستخدام السلاح الكيمياوى من قبل الاتحاد السوفييتى . وقد تجلى بطلان هذه الخرافة بالكامل فى كلمات الاميركيين البسطاء الذين تلفنوا الى الاذاعة اثناء الحديث مع الكاتب السوفييتى . وقال احد المستمعين : حالما «تكتشف» الادارة الاميركية مواد كيمياوية فى مكان ما تصرخ زاعمة «ان الروس يشنون حربا كيمياوية» . واكد المستمع قائلا : اننا قدامى المحاربين نعرف باننا كنا بانفسنا ضحايا الحرب الكيمياوية الاميركية التى شنت ضد الفييتناميين .

وقال المذيع جون فيسكر ان مزاعم الولايات المتحدة الاخيرة القائلة بان الاتحاد السوفييتى يشن حربا كيمياوية لم تتأكد باية ادلة حتى الآن . وكلما اقدمت الولايات المتحدة على شئ ممنوع تزعم بان الروس يقومون بالشيء ذاته او بما يماثله .

مستمع — ماذا يقصد بمصطلح «الاقليات القومية» فى الاتحاد السوفييتى ؟ الا ينطوى هذا المصطلح على اهانة ؟

جـ . أ . — موقفنا من هذا المصطلح سليم ، مع اننا نادرا ما نستعمله . فنحن لسنا بحاجة ماسة اليه فى استعمالاتنا اليومية . ونحن نطور لغتنا وثقافتنا وعلومنا . ونسافر الى مختلف البلدان التى تقام فيها مهرجانات الاتحاد السوفييتى بمشاركة هذه الجمهورية المتحدة او تلك . فقد شارك القرغيزيون مثلا فى مهرجانات من هذا النوع اقيمت فى السويد وفرنسا وبلدان اخرى . وتصل الينا مختلف الفرق والجوقات . وتطلع على بلادنا ، ونحن بدورنا نريد ان نطلع على ثقافات الشعوب الاخرى . ان اقلياتنا القومية تتكون ، كما اسلفت ، من السكان الاصليين .

وعندكم انتم ايضا سكان اصليون من الهنود الحمر . ويخيل الى انهم لا يتمتعون بأية امتيازات .

جـ . ف . — على العموم قضية الهنود الحمر هنا معروفة لدرجة كافية ، مع ان الصحافة لا تكتب عنهم كثيرا . ان نظام المستوطنات نظام مهين . وهو ، بلا شك ، نوع من الابادة الجماعية .

جـ . أ . — انني رئيس الهيئة الادارية لاتحاد السينمائيين في جمهوريتنا . ولى صلة ايضا بالمسرح وبأكاديمية العلوم . وربما تثير هذه المسائل ايضا اهتمام المستمعين . وسأحاول الرد عليها . وانا واثق من ان تطور الادب والفن دليل على حالة المجتمع .

مستمعة — زرت القسم الاوربى من الاتحاد السوفييتى ويستفاد مما رأيته وسمعته هناك لا يمكن الالتحاق باية مدرسة او العثور على عمل مناسب الا اذا تخلى المرء عن اصالته القومية . وكل ما تفعله الحكومة السوفييتية للسود فى افريقيا تفعله على الاكثر لتوسيع نفوذها فى العالم .

جـ . أ . — تقولين ، اذا كنت قد فهمتك بشكل صحيح ، ان التعليم عندنا مشروط بالتخلى عن الهوية القومية . لا اوافقك على هذا الرأى مطلقا . عندنا اقوام لا يتجاوز تعدادهم ٣٠ — ٤٠ الف نسمة ، ولديهم مدارسهم القومية . هل تريدين ان اذكر اسماء هذه الاقوام ؟ الدونغانيون يقيمون فى جمهوريتنا قرغيزيا ، ولديهم مدارسهم ومدرسوهم . وفى القفقاس ايضا توجد شعوب صغيرة . وانا اعرف جيدا ، على سبيل المثال ، حياة البالكاريين . وهم قليلون جدا . ولديهم ايضا شبكة للتعليم خاصة بهم ، ولديهم ادبهم واساطيرهم وتاريخهم وسير حياتهم ،

ناهيك عن الشعوب الاكثر عددا والتى تشكل اساس سكان الجمهوريات المتحدة . ولا اقول ان حياتنا صافية بالكامل . فذلك غير صحيح . ولا متعة فى الحياة اذا كانت خالية من اسباب تذليل الصعوبات وحل مهمات تطور الثقافة والوعى القومى .

وبالمناسبة فقد انشأنا مؤخرا فى عاصمة جمهوريتنا فرونزه (واسمها فى السابق بيشبيك) تمثالا لبطل ملاحمنا ماناس . وذلك تجسيد مادى للروايات الشعبية الشفوية عن تاريخنا طوال القرون . افلا يدل ذلك على اننا نستطيع ان نعرض جوهرنا القومى ؟

لا اريد ان اخلق انطباعا وكأنى ابذل جهدى لاعرض وجهة النظر الرسمية فقط . فلدى رأيى الخاص فى كل شىء . ولكن من الخطأ الظن بان سياسة الاتحاد السوفييتى الخارجية تستند الى بسط نفوذه فى مختلف القارات ولذلك فقط يدافع الاتحاد السوفييتى عن المضطهدين كما يزعمون . نحن بعيدون جدا عن جمهورية جنوب افريقيا . وليس لدينا فيها حتى سفارة . ثم ان همومنا غير قليلة فى ديارنا .

واذا كانت الشعوب تهب للنضال فذلك يعنى انها لم تطق صبرا . فماذا تريدون ؟ هل يتعين علينا الا نتكلم عن ذلك خوفا من ان يفكروا فى الغرب باننا نريد ان نبسط نفوذنا ؟

جـ . ف . — اعتقد ان من المشاكل التى يواجهها كل بلد فى القرن العشرين تأثير التكنيك والصناعة على تطور الثقافة ، وكذلك الحفاظ على التقاليد الثقافية . فهذه مشكلة عويصة فى كل مكان .

جـ . أ . — بالطبع . فنحن جميعا نمر بالثورة العلمية

التكنيكية . ومهمة الحفاظ على التراث الثقافى تتلخص بالدرجة الاولى فى معالجة هذه المهمة بوعى . وفى بلادنا تحظى هذه المسألة بأهمية بالغة . لا يحالفنا التوفيق فى الحفاظ على كل شيء ، ولكننا لا نفارق الماضى بسهولة .

مستمع — اريد ان أسأل الضيف المحترم : ما هى احوال التبادل فى الميدان الثقافى بين الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة ؟ جاء الينا عازفو الكمان من مسرح بولشوى تياتر الرائع . ونحن متألمون جدا لاننا لا نستطيع ان نرى الآن فنانيكم ومسرحياتكم . فهل تعتقد ان الامور ستعود الى مجاريها فى المستقبل القريب ؟

جـ . أ . — عزيزى المستمع . طرحت على نفس السؤال الذى يقلقنى بقدر ما يقلقك . والافضل لو توجهت بهذا السؤال الى السيد ريغان . كنت قد زرت الولايات المتحدة لاول مرة فى عام ١٩٧٥ . وانا الآن اتذكر ذلك وكأنه من بنات الخيال . وصلت آنذاك لحضور العرض الاول لمسرحية لى فى مسرح «ارينا ستيج» فى واشنطن . وفى تلك السنة كان مسرح بولشوى تياتر يقوم بجولة فنية فى نيويورك . وبالاضافة الى ذلك وصلت جوقات اخرى من بلادنا ، وقامت مسارحكم بجولات الينا . فما اروع ذلك . وكنا آنذاك نشعر باننا اناس جديرون بالدولتين الكبريين .

والآن لا اثر لذلك . وليس الذنب ذنبنا . نحن نريد ان نأتى اليكم ونريد ان نرى مثقفيكم عندنا . والذنب فى ذلك ، على ما اعتقد ، يعود الى العلاقات السياسية المتأزمة . وهى نتيجة لاعمال سلطاتكم التى تضع عراقيل ثقافية فضلا عن العراقيل الاقتصادية . واريد ان اقول ان ذلك وضع غير طبيعى

فى اعتقادى . ولا يمكن ان يستمر بلا نهاية . فالدولتان الكبريان لا يمكن ان تتواجدا فى عزلة ثقافية . سيأتى وقت نحمل فيه اليكم افضل نتاجاتنا ونرى فى بلادنا افضل ما لديكم .

مستمع — تطرقت الى مسائل كثيرة ، ومنها الابارتهيد . فلماذا لم يتناول الحديث افغانستان وهى جنبكم ؟

جـ . أ . — انت محق تماما . افغانستان جنبنا . ونحن شعب نعيش من قديم الزمان مع الشعب الافغانى جنبا الى جنب . ويقيم قسم من الشعب القرغيزى فى جبال افغانستان . والكثير من ابناء شعوبنا — الطاجيكيين والاوزبكيين والتركمانيين والكازاخيين يشكلون جزءا كبيرا من سكان افغانستان .

فى السابق ، عندما كان الكتاب الافغانيون وغيرهم من رجالات الثقافة فى افغانستان يأتون الى الاتحاد السوفييتى يغادروننا مندهشين لمنجزاتنا . كانوا يرون مدى تبدل الحياة فى جمهورياتنا الآسيوية . فلا تعتبروا ذلك من قبيل التباهى . هل تعتقدون ان الافغان ما كانوا يريدون ان تتغير حياتهم نحو الافضل ؟ ان افغانستان ستسير فى المجرى العام للتطور الاجتماعى والثقافى التقدمى . وبحكم الضرورة السياسية والتاريخية ، وبسبب تعرض افغانستان لعدوان خارجى اضطرت بلادنا الآن ان تدعم التبدلات الثورية هناك تلبية لطلب الحكومة الشرعية فى جمهورية افغانستان الديمقراطية . وسوف يتم بمرور الزمن تقدير مساعدتنا هذه حق قدرها . ولا يخامرنى شك فى ذلك . فهذا شكل جديد من العلاقات بين الشعوب . ويبدو ان هذا غير مفهوم للكثيرين فى الولايات المتحدة .

وفى الختام اريد ان اقول باننى مسرور لوجودى اليوم فى

استوديوهات هذه الاذاعة وللفرصة التى اتيحت لى كى ارد على الاسئلة المطروحة مع اننى لست واثقا من ان الاجابة عليها شافية . واشكر جميع المستمعين على حسن الانصات . ويجب ان نقيم افضل العلاقات بين الدول كما بين الافراد . وسيكون ذلك من صالحكم وصالحنا . وهذا يتطلب من كل منا ان يسعى الى خلق جو يليق بحياة الانسان فى عصرنا .

١٩٨٢

حوار بين جنكيز ايتماتوف
وفائز احمد فائز

جـ . أ . — مر خمسة وعشرون عاما على اجتماع كتاب آسيا وافريقيا لاول مرة فى طشقند . وقد توحد هؤلاء الكتاب قاصدين الى البحث عن طرق تعادل التفاوت في تطور شعوب هاتين القارتين ، ذلك التفاوت الذى كان نتيجة مباشرة للسيطرة الاستعمارية . وواضح اليوم أكثر مما فى اى وقت مضى ان ذلك المؤتمر الذى عقد فى طشقند عام ١٩٥٨ كان حدثا تاريخيا بالفعل . وانت ، يا فائز ، احد مؤسسى حركة كتاب آسيا وافريقيا . الا نحاول ان نحلل ما بدأنا منه وما وصلنا اليه الآن ؟

ف . ا . ف . — طيب ، فلنحاول . انت توافقنى فى ان الخمسة والعشرين عاما المنصرمة كانت مشحونة جدا باحداث فى منتهى الاهمية ، احداث غيرت العالم وغيرتنا نحن جميعا فيه . لقد نشأت حركتنا ، كما ذكرت قبل قليل ، بنتيجة انهيار الامبراطوريات الاستعمارية ، فى حقبة اخذت فيها الامبريالية ، دون ان تضيع الوقت ، تمارس فعلها من الجناح الجانبى — من مواقع الاستعمار الجديد . فقد انصرفت رسميا ،

لكنها تركت فى المستعمرات السابقة جذورها واوجدت بالتالى ميادين القهر الاقتصادى والثقافى . واثار ذلك رد فعل جوابيا تجلى فى تلاحم القوى التقدمية بوجه مناورة الامبريالية الجديدة .

ومن اهم العوامل التى استدعت توحيد كتاب المستعمرات السابقة ، فى رأيى ، نشوء الوعى الجديد ، وعى اناس اكتسبوا حق الحياة الحرة المستقلة بعد قمع طويل . وكان المقصود هو ضرورة تصفية الاستعمار الروحى باسرع ما يمكن ، وهذا جانب من اهم واعقد جوانب تصفية الاستعمار عموما . وبهذا المعنى غدا تضافر الجهود وتبادل الخبرة مطلبا من مطالب العصر .

جـ . أ . — اريد ان اضيف الى ذلك ان البشرية فى تلك الفترة بالذات اقتربت من الادراك التاريخى لضرورة توسيع الاتصالات ، بما فيها ، وربما فى مقدمتها ، الاتصالات فى الميدان الثقافى . وبدأ ارساء الاسس لاتصالات من طراز جديد ، اتصالات منظمة وليس عفوية . وعندما كانت شعوب البلدان المتحررة تشعر بحاجة ماسة اليها ، اذ تعين على هذه الشعوب ان تخترق جدار العزلة الاستعمارية الازلية ، كانت عمليات مماثلة تجرى فى العالم كله . ومن حسن الحظ انه ظهرت امكانيات تكنيكية جديدة لاقامة مثل هذه الاتصالات : وسائل الاعلام التى تبلغ كل الجهات ووسائط النقل وبنية هيكلية ارتكازية كاملة مخصصة للتفاهم بين الناس والشعوب . والاهم هو فهم كون تاريخ التطور البشرى قد دشن مرحلة يستحيل فيها تواجد الشعوب فى عزلة عن بعضها البعض .

ف . ا . ف . — يعنى ان منظمة كتاب آسيا وافريقيا تستجيب لروح العصر برسالتها . وانت تعرف ان الصلات التجارية كانت جيدة التنظيم فى قديم الزمان بين مختلف

المناطق الجغرافية فى القارتين ، وكانت السفن والقوافل التى تنقل البضائع قد ساعدت على تبادل القيم الثقافية . ولا جدوى من التكهن الآن بالمستوى الذى كان سيبلغه تطور الثقافة العالمية لو لم يقطع الاستعمار العلاقات التقليدية داخل آسيا وافريقيا وكذلك الصلات الطبيعية بين الشرق والغرب ولو لم يختصر كل الاتصالات ضمن خط واحد بين «الدولة الاستعمارية والمستعمرات» ، اى بين «الغالب والمغلوب» . وقد عرقل ذلك نمو الثقافات التقليدية للشعوب المغلوبة على امرها والتى تجمدت على مستوى من التطور هو المستوى الذى كانت عليه فى لحظة الغزو الاستعمارى . وادى ذلك الى ظهور النخبة التى تعلمت على يد الاجنبى وحصلت على تعليم غربى وانفصلت عن اصولها القومية ، بل وتخلت عن لغتها الام . ووجد الكاتب نفسه فى حلقة مزدوجة من الاغتراب : الاغتراب الذاتى ، لانه ما من معجزة بيولوجية تجعله يتحول الى اوربى ، والاغتراب عن الشعب الذى ظل متمسكا بثقافته التقليدية .

جـ . أ . — على هذا الصورة نشأت الشخصية الهامشية ، شخصية البين بين . . .

ف . ا . ف . — نعم ، بالطبع . واذا اضفنا الى ذلك اغتراب الكاتب لدرجة كبيرة عن الفكر الفنى العالمى — فهو لا يلتقى بهذا الفكر الا من خلال المستعمرين — يتضح مدى اهمية الاتصالات المتبادلة بين ادباء آسيا وافريقيا . ولم تكن اقامة هذه الاتصالات سهلة وبسيطة ، ولا غرابة فى ذلك ، فالكثير من جوانبها تحقق لاول مرة . ولم يكن سهلا كذلك الانتقال من التظاهرات الحماسية الى ادب الدراسة العميقة للحياة . واعتقد ان من الممكن اليوم وضع افضل نتاجات ادباء

آسيا وافريقيا فى خانة واحدة مع عيون الادب العالمى المعاصر، ولو لم تتوفر لنا امكانية مقارنة انفسنا بغيرنا واستخدام الموديلات التى وضعت قبلنا لربما احتجنا الى قرون لنبلغ ما بلغناه فى عقود من السنين .

جـ . أ . — لقد تقاربت الشعوب ، محتفظة باصالتها ، لدرجة جعلت ذلك التقارب يغدو عاملا من عوامل التاريخ . فنحن نتحسس فى كل مكان التأثير والتأثر ونعيش فى جو الترابط المتزايد بين الثقافات . وتلك واحدة من السمات الاساسية المميزة لزماننا ولوجودنا فيه . والاكثر من ذلك ان هذا العامل ذو مفعول طويل الامد يستبعد ان نتمكن الآن من التكهن بسيره اللاحق ونتائجه . ان وضع موديلات الثقافة العالمية او ربما الكونية من شأن المختصين بالدراسات المستقبلية . اما الحاجة الى ادراك العمليات الجارية اليوم فهى نابعة من ممارساتنا اليومية ومن حياتنا المعيشية . ولعلى اقول انها هامة للغاية بالنسبة لى شخصيا . فانا نفسى متواجد عند التقاء ثقافتين . انتمى الى شعب اسيوى صغير ، واغلبية شعوب العالم صغيرة ، واعيش ، بحكم الاقدار ، فى ميدانين لغويين دفعة واحدة ، فانا افكر واتكلم واكتب بلغتين ، بالقرغيزية الام وبالروسية . اللغة الروسية هى لغة اعظم التقاليد الادبية ، وهى تشغل عن جدارة واستحقاق المكانة الاولى فى التخاطب والتفاهم بين الشعوب السوفييتية لكونها اللغة الرسمية للبلد المتعدد القوميات . ولذا فمن المهم للغاية بالنسبة لنا ، كما اسلفت ، مدى التناسب والتناسق ، بل والعدالة فى سير عملية التعايش والتفاعل بين اللغات القومية واللغة الروسية فى كل منطقة . وبذلك يكمن جوهر سياستنا اللغوية . فنحن نطلع على الثقافة العالمية بواسطة

اللغة الروسية ونطور ونرعى اللغات القومية باكبر قدر مؤمنين لها الفرص والامكانيات الفعلية فى الحاضر والمستقبل . وبعبارة اخرى فان الكثير من التعقيدات التى يواجهها المثقفون فى البلدان النامية الآن كانت معروفة لدينا جيدا ، مع فارق جوهرى للغاية بالطبع . فقد سرنا على طريق الاشتراكية . وكنا اول من سلك هذا الطريق فى العالم .

ف . ا . ف. — كانت ثورة اكتوبر بداية الثورة فى وعى جميع الشعوب المستعمرة والتابعة ، لاننا نقرأ الادب السوفييتى ايضا بصورة متميزة للغاية . فهو بالنسبة لنا مرآة لروح انسان العالم الجديد بالاضافة الى مزاياه الاخرى . وانت تعرف المنزلة الرفيعة التى يحتلها الادب السوفييتى فى العالم ومدى تأثيره ، مثلا ، على آسيا وافريقيا . ولم تتهيأ لبلداننا امكانية فعلية للاطلاع على الادب السوفييتى الا بعد ان تحررنا . فباحراز الاستقلال دشنا عصر التلاحم لمواجهة الغزو الثقافى الذى يمارسه الاستعمار الجديد والذى غدا النضال ضده حافزا جبارا لتوحيد كتاب آسيا وافريقيا .

ج . أ . — كان اغوسطينو نيتو على حق تماما عندما قال ان ثقافاتنا مرايا لنا . كانت المجابهة بين ثقافات آسيا وافريقيا الاصيلة والثقافة الغربية — وانا استخدم هذا المصطلح بمعناه الواسع — قد بدأت من عهد الغزو الاستعمارى ، لكنها لم تنته باحراز الاستقلال . فالثقافة الغربية لم تتغلغل فى خضم الجماهير الشعبية على اية حال ، وذلك بسبب انعدام الوسائل التكنيكية لنشرها على نطاق واسع آنذاك ، ولان المستعمرين لم يكونوا مهتمين كثيرا او لم تكن لهم اية مصلحة فى تثقيف شعوب المستعمرات . فلماذا ؟ كان المبعوثون يكتفون بتنصير

تلك الشعوب بالتدريج ، وكان الاداريون يكتفون باعداد جهاز مساعد من الوجهاء المحليين ، من الموالين المستعدين ، كما هو الحال دوما فى التاريخ ، للتنازل عن اية مصالح قومية من اجل منافعهم الآنية ، ليكونوا خدما للقوى المسيطرة . اما المستعمرون الجدد الحاليون فأمرهم يختلف . تحت تصرفهم وسائل جبارة نافذة للتأثير اليومى على الجماهير ، وهم يستخدمونها بحساب دقيق للتحكم بوعى الشعوب ولترسيخ نظام القيم الغربى . وفى هذه الظروف تعقدت مشكلة حماية الاصالة الثقافية (ولكن بدون تأليهها) . فهذه القضية التى ظلت عاملا هاما فى نضال آسيا وافريقيا من اجل السيادة الروحية الحقيقية التامة قد اكتسبت — فى انعكاس مغاير بعض الشىء على ما اعتقد — طابعا انسانيا عاما .

واظن ان تنوع مظاهر حياة الانسان الروحية فى ظل وسائل التخاطب الحديثة يجب ان يعزز فيه الاستقلال الداخلى عن الكليشهات والاوهام ويساعده على اكتساب القدرة على التفكير المستقل . ولا ادرى هل انا محق ام لا ، لكننى اعتقد بان للكتاب دورا هاما للغاية فى ذلك .

ان الكتاب اليوم ، سواء يعجبنا نحن الادباء ذلك ام لا ، يتواجد فى خانة واحدة مع وسائل الاعلام الاخرى التى تعود المرتبة الاولى فيها من حيث الوزن النوعى الى الوسائل السمعية والبصرية طبعا . ان تحول المرء الى قارئ اصعب من كونه متفرجا ، وليس ذلك فقط لانه يحتاج كحد ادنى الى تعلم القراءة ، بل ولان المطالعة ، اية مطالعة ، تتطلب جهدا كبيرا . وخلافا للسينما والتلفزيون ، بل وحتى كاسيت الفيديو ، يهيىء الكتاب للانسان دوما فرصة معاودة القراءة للاحساس بما

بين السطور وفهمه بشكل افضل ، وامكانية تحديد سرعة القراءة والاستيعاب ومحاورة المؤلف فى الاخير . فالمطالعة هى دوما حوار ، حوار صامت على انفراد مع الكتاب ومع الذات . واعتقد ان خاصية الادب هذه تمنحنى الحق فى اعتباره كالسابق اكمل اداة للمعرفة واشمل وسيلة للثقافة الفنية .

ف . ا . ف . — تصور ، انا نفسى قارىء بطبيعتى . ثم اننى اكتب ايضا . فهل هناك ما هو اروع من الكتاب ؟ ولكن الادب هو فحوى اللغة . لقد تطرقت الى قضايا اللغات القومية . فى البلدان المتعددة القوميات ، مثل بلادك وبلادى ، قبل ان يعلم الناس اطفالهم القراءة عليهم ان يختاروا اللغة التى يريدون . وجرت العادة على الاستشهاد بالاتحاد السوفييتى كبلد حل مشكلة اللغة افضل من غيره . ومع ان بلدانا كثيرة ، وخصوصا فى آسيا وافريقيا ، تدرس تجربتكم فى محاولة للاستفادة منها ولو جزئيا فان هذه التجربة لا يمكن ان تعطى ثمارها الا فى دولة اشتراكية . ومع ذلك من الضرورى العثور على مخرج عاجل لانه لا يجوز تأجيل محو الامية . ويطرح سؤال ملموس : ما هى اللغة التى تغدو وسيلة للتخاطب داخل الدولة ؟ أهى لغة المستعمرين ؟ ام احدى اللغات المحلية التى لا بد وان يؤدى اختيارها الى اثارة المشاعر القومية ؟ من الصعب البت فى مسألة اللغة الام بدون مشاعر . فهى اللغة الام على اية حال . هناك رأيان بهذا الخصوص : لغة المستعمرين السابقين الغريبة علينا هى لغة الاستعباد ، واذا لم نتخل عنها لن نتمكن من تطوير اللغات القومية ، وهذا ينسف اسس اصالتنا . ويقول الرأى الآخر : نتقبل اللغة التى تركتها لنا الاقدار ونحاول تكييفها بحيث تناسب خصائص طبعنا

القومى وثقافتنا . ويجرى تفاعل تركيبى بين هذه اللغة وبين لغاتنا ، ويبدأ الوليد المختلط حياته المنفصلة عن والديه . انت تفهم طبعا بانى اعرض وجهتى النظر بشكل مبسط ، لكن جوهرهما هو كما ذكرت اعلاه .

جـ . أ . — هذه المسألة تشغل بالى كثيرا ، كما ترى ، ولذا اريد ان اقول ان المسألة اللغوية فى العالم كله تعتبر واحدة من المسائل الرئيسية للسياسة الثقافية ، وقد اكتسبت فى الوقت الحاضر حدة لم يسبقها مثيل . ان الكيفية التى ستتفاهم فيها البشرية فى المستقبل البعيد ستتوقف على عدد هائل من العوامل السكانية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية والتكنيكية . اما الآن فنحن ، فى رأيى ، بحاجة الى اكبر قدر من التأدب والحذر فى كل ما يتعلق بالمسألة اللغوية . فان النضوج الاجتماعى والتاريخى للمجتمع يتجلى ، اكثر ما يتجلى ، فى الموقف من اللغة او اللغات . واكرر هنا اننى اعتبر ازدواجية اللغة فى ظروف القرن العشرين وسيلة لصيانة وتطوير اللغات القومية والتخلص فى الوقت ذاته من الانكماش المحلى والعزلة الخانقة . وتلك مسألة واحدة ذات جانبين من الناحية الديالكتيكية . وانا لا اعتقد بوجود طريق آخر للتطور . ومما لا شك فيه ان خبرتنا السوفييتية فى هذا المجال جديرة بالاهتمام والدراسة المعمقة وربما الاقتباس ، وليس ذلك لاننا وفقنا فى تذليل كل الصعوبات ووضعنا كل النقاط على كل الحروف . فليس من السهل ، كما يبدو للبعض ، العثور على «توازن حى» بين «استيعاب» اللغة العالمية و«صيانة» لغة الامة الاصلية . ولا يجوز بالدرجة الاولى استخدام الايعازات الادارية فى تحقيق هذا «التوازن» . فان السياسة اللغوية يجب ان تكون مرنة ويجب

ان توضع بمراعاة ديالكتيك تطور التراكيب الاجتماعية ككل . ان وجهتي النظر المتطرفتين اللتين اوردتهما لا تتمتعان بحق الوجود . فلا الانعزالية اللغوية ولا محاولات زرع الهجائن اللغوية في «الانابيب» بامر ممكن . ان عالم اللغة عالم حي يعيش وفق قوانينه .

ف . أ . ف . — يمكن تعلم لغتين ، بل حتى ثلاثا . ذلك امر صعب يحتاج الى نفقات وجهود ووقت ، لكنه ممكن في آخر المطاف .

جـ . أ . — ذلك هو بيت القصيد . ويمكن كذلك التخلص من الانفعالات التي لا موجب لها اذا اعتبرنا اللغة الثانية اداة ووسيلة للتخاطب ، وسيلة متعددة الاغراض تخدم الشخص الذي يجيد الاستفادة منها .

ف . أ . ف . — اريد ان اضيف الى ذلك نقطة واحدة . السياسة اللغوية يجب ان توضع على اساس العوامل القائمة فعلا ، ومن كل بد بمراعاة ما نعود اليه مرارا وتكرارا في حديثنا ، وهو ان العالم قد تغير ، وما من شعب يستطيع ان يعيش فيه بمعزل عن الشعوب الاخرى ، وبالتالي فان السياسة اللغوية يجب ان تستهدف توفير فرص اخرى اوسع للتخاطب .

جـ . أ . — الا ترى ما يحصل يا عزيزي فائز ؟ كلما تحدثنا عن شيء قادنا الحديث الى قضية التغيرات العالمية والضرورة القصوى لتحليلها بحكمة وتعقل . فالجزئي خاضع للكلي على اي حال . والفارق الجذري بين العصر الحاضر وكل العصور السالفة هو بالطبع الحقيقة المرعبة التي لا مراء فيها : البشرية قادرة اليوم على تدمير نفسها .

ف . ا . ف . — ويجب ان يخضع نشاطنا كله للمهمة

الرئيسية ، وهى الحيلولة دون هلاك البشرية . ويجب ان نتذكر دوما ان علينا جميعا ان نعيش معا مهما اختلفت مواقفنا السياسية والايديولوجية والدينية وان اية مشاكل لا يمكن ان تحل بالقوة .

جـ . أ . — ان البشرية التى تنهشها التناقضات والمقسمة الى اجناس وطبقات وانظمة وتكتلات سياسية والمتواجدة فى اصعدة زمنية متباينة فى الوقت ذاته ، هذه البشرية مهددة بخطر مشترك . ففى اى يوم يمكن ان تقوم مجزرة نووية لا تبقى ولا تذر ، ويمكن ان يحدث ما لا يقبله العقل مهما فكر فيه ، واعنى اتلاف الحياة على الارض . وذلك يعنى انه سيموت معنا كل الاحياء وان المستقبل لن يولد . ولربما سيخرج الفكر الفنى الآن برؤية واضحة بعد ان يتناول الهزة المنقطعة النظير التى تعرضت لها النفوس والعقول لاحساسها بالخطر الداهم وشعورها بالمسؤولية المشتركة وفهمها لاستحالة التخلص من تلك الهزة بسرعة وضرورة التخلص منها فورا .

ف . ا . ف . — هذا صحيح ، ولكن فكرة تلاحقنى ولا استطيع منها فكاكا . انت ، ياجنكيز ، اصغر منى كثيرا ، وانا اتذكر جيدا الثلاثينات عندما رفعت الفاشية رأسها لاول مرة وادرك القسم الطليعى من البشرية مدى الخطر الذى تحمله للعالم . وانا الآن اعنى ليس فقط الجبهة المناهضة للفاشية ، بل الجو الشعورى العام فى تلك السنوات وحاجة كل انسان سليم العقل الى العمل والنضال ضد الطاعون البشع .

ان الخطر المخيم علينا الآن افظع بمرات من خطر الفاشية ، بل ليس هناك مجال للمقارنة . ولكننى اتساءل دوما : هل استطعنا ان نضفى مثل هذا القدر من الحماسة على

الجو الشعورى للمقاومة الشديدة لخطط الحقد على البشرية ؟ وانا ارد على نفسى بمرارة : كلا ، لحد الآن . فهل استطعنا من الناحية الشعورية والابداعية ان نخلق قيما فنية ، نتاجات ادبية ، ذات مفعول شعورى يضاهى الادب المناهض للفاشية فى السنين الماضية ؟

جـ . أ . — طرحت سؤالا صارما ، ولكنى لا اجادل فى وجود مبرر لطرحه . فلنحاول شرحه . ان الفاشية رغم بشاعتها وفظاعتها ظلت مع ذلك فى اطار التصورات عن الشر . وكانت الفاشية ملموسة يمكن استشفافها والحقد عليها والقول باننا لن نسكت عليها ابدا . لكن البشرية اجتازت الآن عتبة جديدة فى المعرفة واتضح انها غير مستعدة لها لا من الناحية الاجتماعية ولا من الناحية الاخلاقية . فقد استلمت البشرية طاقة كونية هائلة وهى تهدد نفسها بهذه الطاقة . ومما يثير الرعب ان القوى التى تعلن صراحة عن استعدادها لضرب المجتمع «الرافض» بقوة السلاح النووى اخذت ترفع رؤوسها فى الغرب . فهى مستعدة للقيام بذلك من اجل الحفاظ على مرتكزات وجودها ، ولكن ما من مبرر «للمرتكزات» عندما يدور الكلام عن الحياة نفسها . . . وليس بالامكان التفكير بصورة تجريدية فى احتمالات هذه الكارثة . فحتى المعلومات الجافة تثير الانفعالات . وربما كان من الصعب ترجمة طابع هذه الانفعالات الى لغة الفن التصويرية . فان تصاعد التظاهرات المناهضة للحرب يدل على نضوج ادراك الناس للخطر الذى يهدد العالم . اما بخصوصنا ، نحن الفنانين ، فعلينا بالفعل فى هذا العصر المرعب ان نجد الوسيلة التى نبلغ بها قلوب الناس ونقنعهم باستحالة السكوت على اتلاف الحياة نفسها .

ف . ا . ف . — لقاؤنا الخريفى فى طشقند يجرى تحت شعار «الكاتب والعالم المعاصر» وسيشغل موضوع الحرب والسلام ، بلا ريب ، المرتبة الرئيسية فى هذا المؤتمر الذى يجسد بحث الكتاب الابداعى عن سبل ابعاد الخطر عن كوكبنا .

١٩٨٣

ملحمة المآثر

الملاحم دوما هي كلمة الشعب التي يضمنها امانيه المنشودة وحكاية مصيره . وزماننا ، زمان الشخصيات المبدعة ، ليس استثناء من هذه القاعدة . ان ملاحم القرن العشرين هي مجمل الظواهر الفلسفية والاخلاقية والفنية العميقة التي تمتد جذورها في اعماق وجود الشعب وتاريخه وثقافته والاهتمامات الملحة للواقع الحي . وترتبط الملاحم المعاصرة بالحدث الهائل الذي عايشه الشعب السوفييتي ابان الحرب الوطنية العظمى . وتتجلى حماسة هذه الملاحم في النصر . فالنصر هو مصيرنا . انه كل ما عانيناه واستوعبناه وكسبناه ابان اقسى معركة دامية ضد الفاشية . . . وبالمقارنة معها تبدو حرب طروادة التي انشد هوميروس ملحمتها في «الالياذة» حادثا طفيفا جدا مع انها كانت باعثا على التأمل والتفكير طوال الاف السنين من تاريخ البشرية .

بذلك بالذات ، بعظمة الملاحم الجماعية المعاصرة فكرت وانا في ساحة جينيش آيانت الجديدة ، ساحة النصر في مدينتي فرونزه . فقد قرأت هنا ، او على الاصح رأيت تعبير الملحمة الشعبية الجديدة ، وبتأثير هذه الانطباعات احاول الحديث عن جوهر هذا الحدث المشهود . . .

ولكنى سأتحدث فى البداية عن نفسى وزمانى الذى يتعين على ان ابدأ منه حساب حياتى الواعية . فالانسان لا يتفهم الملاحم رأسا ، وفهمها يأتيه بمر السنين . اننى اعتبر نفسى من جيل زمن الحرب ، مع اننى لم احارب . ولو استطالت الحرب عاما آخر لتعين على ان التحق بالجبهة . ولكننى اتذكر الحرب بتجربتى الشخصية من اليوم الاول عندما عرفت قريتنا الكبيرة «شكر» بهذا الخبر من رسول مجلس القرية (كان مسرعا على ظهر حصان من حوش الى حوش) وحتى آخر يوم — ٩ ايار (مايو) ١٩٤٥ الذى كنا ننتظره ونحسب حلول النصر ليس بالايام ، بل بالساعات ، والكل فى توقع وانتظار الكل ينتظرون الاعلان عن نهاية الحرب وعن يوم النصر . فقد انتشرت اشاعة بهذا الخصوص كالريح . وفرح الجميع وشنفوا الاذان وكأنهم لا يصدقون بما سمعوا . فهم يريدون الحجة والدليل . وفى تلك الاثناء اجتمع فى مركز اقليمنا سارى — كوبين رسل يمتطون افضل الجياد ارسلوا خصيصا من كل كولخوز وهم على استعداد لنقل هذا النبأ باقصى السرعة الى الشعب الذى عانى الامرين ، حالما يتحول المتوقع الى خبر حكومى رسمى . لم تكن فى القرى آنذاك تلفونات واجهزة راديو . (اقول ذلك لشباب اليوم والا فلن يفهموا) . ولذا عرفت القرى القريبة من مركز الناحية بالنبأ قبل غيرها بقليل . وكانت قريتنا شكر ابعد القرى فى الناحية ، ووراء قريتنا تمتد الجبال بسلاسلها الثلجية الشاهقة . وقال كل الجنود العائدين من الجبهة ان اول ما رأوه خلال العودة هو جبالهم . وعندما رأوا تلك الجبال انفرطت دموع الفرحة .

فى ذلك اليوم كنا واقفين على التلة ، وقريتنا واقعة على

احد الانجاد . تجمع جمهور كبير من الصغار والكبار فى انتظار الرسول . ومفهوم اننا اجتمعنا قبل وقت طويل . فالنساء اللواتى تركن فى البيوت ابقارا ولدت حديثا اسرعن لحلبها وعدن من جديد الى التلة . وعندما لمحنا فى الطريق غبار الحصان هللنا فرحين وهرعنا للقاء الفارس . وكنا نعرف ولا يخامرنا شك بان النصر جاء ، جاء النصر اخيرا . واتذكر كيف ركضت معلمتنا . كان ابنها مدفعيا طوال الحرب . ركض الجنود الجرحى على قدر المستطاع ، وحتى بالعكاز . ركضت الامهات والارامل والزوجات والخطيبات اللواتى ينتظرن الاحبة ، بالطبع ركضنا نحن الصبية فى مقدمة الجميع ، نحن اطفال الحرب ، نحن فلاحى تلك السنين العصيبة . . وفيما بعد حاولت ان اتحدث عن ذلك فى قصتى «الكراكى المبكرة» . ولكن ذلك كان فيما بعد . اما فى ذلك اليوم فقد هرعنا للقاء رسول النصر .

هناك ، فى برلين المغلوبة ، انتصرت قوتنا وحقيقتنا على الفاشية الهتلرية . فما اكثر الالام والعذابات التى تكبدها فى سبيل ذلك كل منا بلا استثناء ، كل شعوبنا وكل مجتمعنا السوفييتى المتعدد القوميات . واذا كان المرء جزءا من الشعب ، والشعب هو عالمه الذى لا يمكن العيش بدونه ، فليس هناك فرحة اعظم من فرحة انتصار الشعب على العدو .

افليس ذلك هو الشعور بواجب الابناء الذى تحدثت عنه من زمان ملحمة «ماناس» القرغيزية القديمة :

. . . الق نظرة على شعبك
قبيل المعركة الرهيبة

الق نظرة عليه
فى ساعة الهزيمة
وفى ساعة النصر المجيد
الق نظرة عليه
اثناء الحملة الكبرى
عبر سلاسل الجبال
وانت تسير
مع الذين ستعيش معهم
على جبل واحد
الق نظرة عليه
مع الذين تودعهم
قبيل الممات
فهل تنتظر مصيرا افضل ؟ . . .

وفيما بعد كنت غالبا ما ارى فى المنام كيف ركضنا للقاء رسول النصر . فكل ما عايشناه وعانيناه فى تلك السنوات ، وكل ما انغرز الى الابد فى الروح والذاكرة ، كل الامور صغيرها وكبيرها ، تومض في الذهن وتبرق كما تومض آلات التصوير السينمائى الخفية . وارى كيف غادر المجندون القرية واكياسهم على ظهورهم ، وكيف تعالت النداءات فى صف الجنود فى باحة دائرة التجنيد ، حيث كانت النسوة ينشجن بتشنج ويتهامس عندما يسمعن اسما عزيزا عليهن يتلى فى القائمة ، وكيف جرى توديع الجنود فى المحطة بقطارات الليل التـــــى حملتهم الى الجبهة دون رحمة ، وكيف اجتاح اقليم قرغيزيا كله اول نبأ عن اول بطل للاتحاد السوفييتى من ابناء منطقتنا

سارى — كوبين وهو شولبونباى توليبيرديبف البالغ من العمر تسعة عشر عاما والذى حقق فى نفس الوقت الذى حقق فيه الكسندر ماتروسوف مأثرته البارزة فى جبهتين مختلفتين ، حيث سد ببدنه فوهة مدفع للعدو فى ضواحى فورونيج . وصرنا نأتى لنتطلع الى المنزل الذى كنا فى السابق قد تعودنا على المرور به بلامبالاة . وكان مثل سائر المنازل مبنيا من الطوف بسطح مستو مطلى بالطين وبنوافذ صغيرة . وكنا نشفق على ام شولبونباى العجوز الوحيدة ، ونفتخر به فى الوقت ذاته ، وكنا نقسم باسمه مثل اسم ماناس ، فهو ايضا استشهد دفاعا عن موطنه وشعبه ضد الاعداء . وفى الملحمة مرثية طويلة للبطل الشعبى ماناس ، وهى مرثية وداعية يعرفها الجميع ، وصارت هذه المرثية فى اذهاننا مرتبطة بالمأثرة المنقطعة النظير التى حققها ابن ناحيتنا الفتى شولبونباى الذى لم يكن يكبرنا الا ببضعة اعوام . لقد انطبعت ملامحه فى ذاكرتنا مدى العمر من صورته الفوتوغرافية وهو جندى . فما اروع هذا الوجه الملهم حقا لهذا الفتى الرائع . وقد غدا بالنسبة لكل منا اخا وشقيقا . وحالما يذكر اسمه يمتلىء الفؤاد بالعزة والجرأة . واتذكر كيف كنا نستقبل كل جندى جريح عائد من الجبهة وننصت بتلهف الى كل كلمة يتفوه بها . واتذكر فظاعة ايصال اشعارات الوفاة الى منازل القرية وكنت مضطرا للقيام بذلك . ففى الرابعة عشرة من العمر صرت ، لعدم وجود الكبار ، سكرتيرا لمجلس قرية شكر ، ورأيت ما رأيت وسمعت ما سمعت منذ نعومة اظفارى من نحيب الارامل وصراخ اليتامى ، فى حين كانت الحرب مستمرة ، وانا مضطر ، بحكم واجبات الخدمة القاسية ، الى جباية ضرائب الحرب من السكان المساكين الذين كانوا يقدمون

آخر ما يملكون من اجل تجهيز طابور جديد من الدبابات لطرد الغزاة الفاشيست باسرع ما يمكن حتى يعود الجنود من الجبهة بسرعة . . .

وما اسرع ما مرت حياة اجيال الحرب التى تحملت كل اعباء المعركة العالمية ضد الفاشية . ها هى الاحتفالات جارية بمرور اربعين عاما على النصر ومع ذلك يخيل الى ان هذا حدث بالامس واننى لا ازال اركض للقاء الفارس المبشر بنهاية الحرب وحلول النصر ، فى حين مر عصر كامل ترك اعمق الاثر فى ملامح العالم المعاصر .

بديهى ان الامور تبدلت كثيرا منذ ذلك الحين وان احداثا مختلفة للغاية جرت على مرأى منا ، بما فيها احداث لم يسبقها مثيل فى تاريخ الجنس البشرى ، ولكن ما من شيء بقادر على حجب ما عاشته شعوب الارض في ٩ مايو المشهور من عام ١٩٤٥ الذى لا ينسى . فنحن وانا واثق من ذلك مدينون للنصر بافضل ما لدى الناس المعاصرين وبافضل ما فى العالم المعاصر . ونحن المعاصرين خلقنا جميعا من النصر ، من ذلك الحد الذى رسم بداية مرحلة ما بعد الحرب فى التاريخ العالمى للبشرية جمعاء .

ان الملاحم هى قصة الزمن الاصيلة ورواية الشعوب العظيمة التى لا تنتهى ، وكل عصر يسجل كلماته فى الملاحم . وقد تأكدت من ذلك مرة اخرى قبل حين قبيل افتتاح ساحة النصر فى فرونزه . وتمشيت هنا امدا طويلا وانا متأثر منفعل اتطلع فى خاتمة الاعمال . وكلما ارتسمت ملامح هذه التشكيلة المعمارية الفنية الفريدة وتجلت تعبيريتها البليغة ترسخ اعتقادى بان الفنانين استطاعوا ان يدركوا بعمق جوهر مصير

الشعب في ابعاده الملحمية .

وسط المدينة ، في مكان السوق القديم الذى لم يبق له اثر ، ظهرت ساحة النصر التي هي حقا ملحمة النصر منحوتة في الحجر والبرنز تكريما لحماة الوطن .

وكما هو الحال في اية ملحمة مأخوذة من اعماق الشعر الشعبى نجد الشخصية الرئيسية في التشكيلة هي صورة الام التقليدية ، الوطن الام . ولكن صورة الام في هذه الحالة سامية تبلغ درجة الاهمية الشمولية لجميع امهات ارضنا من قضين نحبهن ومن بقين على قيد الحياة . فالام العظيمة الخالدة بخلود الطبيعة تنتظر الجندى المنتصر ، تنتظر الذين ظلوا على قيد الحياة ملوعين بالحرب وهم يتوجهون الى امهم ، الى ديار الامومة . وهى في الوقت ذاته الشعلة الخالدة المندلعة تكريما لاولئك الذين لن يعودوا ابدا . فرحتها مكبوتة في نفس الوقت ، فالكثيرون من ابنائها ظلوا هناك في ساحة الوغى . الام بطيبتها اللانهائية وبسالتها الخارقة تنتصب في مقدمة الساحة على خلفية من جبال الاتو البيضاء المطلة على المدينة . وتظلل رأس الام قبة خيمة من ثلاثة اعمدة رخامية مقوسة تنحنى عليها وتشكل هيكل الخيمة القرغيزية التقليدية . وفي هذه التشكيلة ترمز الام والخيمة الى الحياة في ارض الوطن .

هذه التشكيلة من تصميم النحات القرغيزى الشهير تورغونباى صديقوف . وهو واضع تشكيلة تماثيل الجنود والاطفال الذين استقبلوهم . وكلهم ملتفتون الى الام التى تنتظرهم قرب الخيمة . ويلوح العمق الملحمى والثقة والجرأة والهدوء من تماثيل الجنود الذين اجتازوا المحن القاسية في المعارك . .

الا ان عصب البنية التصويرية للنصب يكمن فى منحوتة اخرى تمثل جنديين سائرين ايضا صوب الام . وتلك تحفة حقا اطلق عليها اسم تحفة انيكوشين فى الارض القرغيزية . جنديان من رماة الرشاشات من نحت الفنان الشهير ميخائيل انيكوشين ، وهما عبارة عن مقطع حى من واقع الجبهات القاسى . ويلوح من هذين الجنديين اللذين يحملان رشاشا مفككا لفح النار والبارود والتعب الشديد . وهما يكتسبان البسالة والجرأة على مرأى منا فى هذا التوتر البالغ لكل القوى البدنية والروحية . وتتميز هذه المنحوتة بتعبيرية درامية نادرة . ويصعب على المرء ان يتطلع اليها دون ان تحدوه الرغبة فى الوقوف جنبهما . . وانا مسرور جدا لان احدى تحف انيكوشين موجودة الان عندنا فى ارض قرغيزيا . وفى هذا العمل المشترك لفنان روسى وفنان قرغيزى فى انشاء نصب النصر البطولى فى العاصمة القرغيزية يتلخص ما يعتبر الجوهر الفكرى الرئيسى لهذه التشكيلة التذكارية الا وهو تكريس الاممية الحقة الملازمة لطبيعة مجتمعنا وللمواطنين السوفييت فى العمل والكفاح . وليس من قبيل الصدفة ان تماثيل الجنود فى ساحة النصر بوجوه روسية وقرغيزية . تتلخص احدى ابرز الخصائص التاريخية للحرب الوطنية العظمى فى ان مفهوم الوطنية السوفييتية قد اكتسب فى ساعة المحن القاسية اسمى اهمية يعترف بها الشعب بأسره — فنحن نفتخر بان كل شعوب وطننا هبت كرجل واحد للذود عن الدولة الاشتراكية معتبرة ان ذلك واجبها الوطنى والثورى الصميمى وانه ضرورة حيوية مطلقة ، ضرورة وطنية واممية فى وقت معا . وهذا ما تحدثنا عنه ملحمة النصر فى ساحتنا .

ولئن كانت الملاحم فى الاراضى القرغيزية موجودة سابقا

بشكل شعرى شفوى فقط ، فانها الان غدت مرئية ملموسة — ففى هذه الساحة يلتقى الماضى الازلى بالحاضر الحى فيشكلان جسرا للتواصل الروحى بين الاجيال .

ها هم الجنود قادمون والام تنتظرهم فى الديار . . .

٥ ايار ١٩٨٥

العقل فى طوق
الحصار النووى

لقد تعودنا على حساب الايام والاسابيع من عام ١٩٨٥ الذى اثارت بدايته مشاعرنا قبل قليل بعبق شجرة رأس السنة . فقد مضى عام آخر من حياتنا وصار فى طى الذكريات الصرف مثل نقطة تبتعد فى اللانهاية . وخيل الينا ان ذاك العام مرق بلمح البصر ، مثلما مرقت ، بالمناسبة ، كل الاعوام السابقة . وها هو الوقت يتسارع من جديد ، ليواكب التاريخ الحديث ، ويركض فى جولة جديدة . وسيظل الحال على هذا المنوال مدى الدهر . . .

وكل مرة ، عندما تتبدل السنون بارادة الميكانيكا السماوية ، يتنبه الناس متسائلين : ماذا ينتظرنا هناك ؟ وينطلق تساؤل الروح البشرية المنشود هذا ليس فقط من الرغبة التقليدية عند كل انسان فى اقتناص السعادة لنفسه وللمقربين اليه . بالمناسبة فان التصورات عن السعادة تعتمد لدرجة كبيرة على قيم الفرد والمجتمع . وينطوى التساؤل فى عتبة تجديد دورة الزمن على شىء اكبر من تلك التصورات ، ويمكن القول انه ينطوى على كل موجودات الواقع الفعلى بمختلف مظاهرها وابعادها اعتبارا من قضايا الوجود الجذرية وعظمة الافعال والامنيات وانتهاءا بالمشاغل اليومية المتكررة وكسب القوت . .

ولعلى تأخرت فى الكتابة عن هذه الامور . فالايام تمر سراعا ، لكننى آمل بان التقويم اقل اهمية من جوهر التأملات . . . .

ومن هذه التأملات ان عام ١٩٨٥ دخل سجل القرن الحالى ولم يبق سوى ١٥ عاما على حلول سنة ٢٠٠٠ . خمسة عشر عاما . عجيب ! لا اظن ان فى هذا العدد قوة سحرية ، ولكن يمكننا ان نتصور فعلا ان الصبيان الذين هم فى الخامسة عشرة الان سيبلغون الثلاثين فى عام ٢٠٠٠ ، وامامهم افضل واروع عمر ، وسيجتازون عتبة الالف الثالث . ولا اخفى عليكم انى احسد واغبط مسبقا اولئك الذين سيبلغون الثلاثين عندئذ . ذلك توافق فريد ، بل وسحرى حقا ان شئتم . ولن يطول الانتظار اذا انتظر العالم هـذا الحد التاريخى الهام للغاية دون ان يتعرض لكارثة ماحقة شاملة .

فهل قدر للبشرية ان تجتاز عتبة الالف الثالث مكللة بعظمة العقل ومنجزات الحضارة ؟ هل ينبغى التفكير فى ذلك من الآن ؟ لم لا ؟ واذا اخذنا بعين الاعتبار مجمل الوجود الواعى للنوع البشرى على الارض فان حساب التاريخ فى هذه الحالة يعد ، نسبيا ، «بالساعات» و«الدقائق» . وقطار عام ٢٠٠٠ يقطع المسافة الاخيرة ونحن نرى معالمه ، والطريق مفتوح امامه . ومن هذه المسافة يصعب ان نكبح سؤالا طبيعيا فى نفوسنا — كيف ستكون حياة الناس فى القرن الحادى والعشرين ؟

بديهى ان الحديث لا يدور عن التاريخ الحسابـى الذى لا يتوقف على ارادتنا ، بل عما يخبئه لنا القرن الجديد

وما نعده نحن لانفسنا فيه . وقد اخذ الناس يفكرون فى ذلك . وهذا ما حدث مؤخرا فى اجتماع اكاديمية العلوم والفنون والاداب الاوربية التى انا عضو فيها ، وقد عقد الاجتماع هذه المرة فى استوكهولم . وتضم هذه المؤسسة العلمية الدولية غير الحكومية رجالات العلم والثقافة . وقد انعكست فى خطب اعضائها — من علماء ومفكرين — «تخمينات» علمية وتصورات مستقبلية بشأن عام ٢٠٠٠ فى حياة سكان المعمورة . وهكذا فالابواب مفتوحة . فكيف نواجه الغد ؟

هناك سنة اولية معترف بها من قبل الجميع ومجربة بمجمل سير الوجود ، وهى تؤكد ان الاتجاه الدائب فى الحياة هو النمو والتكاثر . وفى هذه الحركة يتفوق الوجود الحى من كل بد على قوى الفناء فى كل اشكالها . وبذلك يكمن المنطق الرفيع لطبيعة الاشياء والذى يتلخص فى خاصية البروتين البيولوجية التى لا تنفد ، خاصية البقاء . وبهذا القدر من البداهة يتجلى قانون الوجود فى الحياة الاجتماعية ايضا — انه ارادة الجماهير المنظمة المناضلة فى سبيل السلام وتشوق الانسان الى العيش والاستمرار فى تواصل الاجيال .

ان النزعة العسكرية الوقحة تتطاول الان على اسس الوجود . وتعتبر مخططات الحكام الاميركان لشحن الفضاء الكونى بالسلاح للاغراض الدفاعية كما يزعمون ، رغم دعوات الجانب السوفييتى ، نوايا شريرة شاملة ضد كوكبنا كله . وذلك لان الشرير يمكن ان يجد تبريرا لكل الشرور . ان تطوير التكنولوجيا الحربية السريع لاجل الفضاء هو دستور الشر النهائى . فما من شر بعده ، ولم يبق امامهم الا التطاول على الخالق نفسه مع انهم يدعون الايمان به .

ذلك ما نضطر للتفكير فيه عندما يدور الكلام عن الدعوة التى تنطق بها افواه كثيرة وغدت شعارا معتادا ، ان لم نقل امانة فى الرقاب ، فى كافة ارجاء الارض التى يقيم فيها البشر ، وهى الدعوة الى الحفاظ على السلام فى العالم اجمع . حافظوا على السلام . ما ابسط هذا النداء المقتضب الصادق وكأننا نرجو السلام ونلتمسه من انفسنا . يا لسخرية الاقدار .

اننى لا اريد ان اخوض فى اسباب وتفاصيل الازمة النووية العالمية ، فهى معروفة جيدا . كل ما اريده هو لفت انتباه الاجيال الحالية التى يتوقف عليها فى اخر الامر البت فى المشكلة ـــ البقاء ام الموت ـــ الى امور ينبغى ان تغدو ، فى رأيــى ، هموما شخصية لكل انسان فى كل مكان الى جانب كسب القوت اليومى . وهى الاعتراف بقضية العصر المطلقة التى لا جدال فيها على جميع اصعدة البنيـــات الاجتماعية القائمة ، واعنى مهمة درء الحرب النووية الحرارية بين الغرب والشرق ، تلك الحرب التى تهدد فى حالة اندلاع صدام عالمى بتقويض الحضارة والقضاء على الحياة الواعية كشكل للمادة .

ان كل ما حققته البشرية على امتداد الاف الاعوام من تطورها الثقافى الفريد من نوعه فى مجرتنا يمكن ان تقطع الحرب النووية حبله الى الابد ويعنى ذلك بالتالى آخر عمل يقوم به النوع البشرى ـــ الانتحار . ولذا حان وقت البحث عن وفاق شامل بين الشعوب والدول على اساس تخلى جميع الاطراف بصورة قاطعة عن صنع واستخدام السلاح النووى . وفى حالة بلوغ هذا الوفاق العالمى على تخوم الالفين

الثانى والثالث سيكون ذلك اعظم تركة نخلفها «للغد» ، واعظم «مكسب» وهدية منا للاجيال الحالية والقادمة .

وهنا اسائل نفسى : الا يدل هذا الكلام على انى من دعاة السلام المستكينين والمثاليين السذج ؟ فليس من السهولة اطلاقا فرض الحظر النووى فى عالمنا المتصارع الهائج ، فى جو الصراع الايديولوجى اللاهب بين متضادين بلا هوادة — نظام الاشتراكية ونظام الرأسمالية . ان بلوغ الوفاق الاستراتيجى بين الغرب والشرق يستغرق سنين طويلة من المجادلات المتوترة والاتهامات المتبادلة والشكاوى والدعاوى والمفاوضات . فهل يعقل ان الطريق مسدود حقا لدرجة تحول دون العثور على حل ابدا ؟ وهل يعقل ان مأساة الروح البشرية لا مخرج منها حقا لدرجة تجعل اكتشاف التركيب العنصرى للمادة ، تركيب الذرة ، هو آخر خطوة فتاكة فى الكشف عن اسرار تكوين العالم لمجرد ان الطرفين لا يتمكنان من العثور على اصوليات سياسية لنظام عالمى مقبول لدى الجميع ؟ وهل يعقل ان الجنون اسمى من العقل وان رسالة العقل انتهت ؟

هناك اسطورة ، وربما ليست اسطورة ، تقول ان ١٢ من علماء الفيزياء الاوربيين تمكنوا قبيل الحرب العالمية الثانية من الاتفاق على اخفاء نتائج الاكتشافات الذرية عن الاوساط الاجتماعية العالمية ، بل وحاولوا القيام بذلك . كان ذلك فى بداية الدراسات قبل ان تخرج من جدران المختبرات . الا ان هؤلاء الاثنى عشر لم يتمكنوا من الاتفاق على شىء ، كما تزعم الرواية ، وذلك لاسباب مختلفة . كيف لا وتعقد نواة الذرة ينحسر امام تعقد الطبائع البشرية الفظيع ؟ ! ومهما يكن من امر فان تلك واقعة تبعث على

الاسف دوما ، وهى بالمقارنة مع مضامين الانجيل حدث يضاهى صلب المسيح .

وحتى الان يأسف بعض المثقفين بصدق لان هؤلاء العلماء الفيزياويين لم يوقفوا دراساتهم ولم يسدوا الطريق باحكام والى الابد امام هذا الاتجاه فى الفكر العلمى ، بل قدموا حافزا لتطور الاحداث الخطير فى العالم . وحتى لو لم تكن تلك اسطورة ، فمن الصعب الموافقة جديا على مثل هذا الرأى ، لان من الصعب تقييد التاريخ فى «دورق مسدود» . ان التعويل على سير الاحداث بهذه الصورة لا خير فيه ، بل هو مغرق فى الرجعية .

ان عقل الانسان هو سلاحه الجبار فى كل المواقف . فالعقل قادر على كل شىء وهو معين لا ينضب فى معرفة العالم اللانهائية وفى تحويل الوجود وتكييفه لحاجات الانسان اللانهائية . فى اعتقادى ان موارد العقل الابداعية تضاهى موارد الطاقة الشمسية . هناك قول مأثور رائع : الجمال ينقذ العالم . واضيف ان القول الفصل للعقل مع ذلك . افليس ذلك ما يشير اليه كون العقل الجماعى فى عصرنا ، فى ظل الحركات الانسانية العامة ونضال الشعوب من اجل السلام وضد القنبلة النووية وضد سباق التسلح ، يكتسب فى «مفاعل» النضال وفى «معجلات» وسائل الاعلام خصائص جديدة من الوعى الاجتماعى المعاصر لم تكن موجودة فى سالف الزمان ؟ ان الحركة الطويلة الامد فى سبيل السلام ودرء الكارثة النووية الحرارية تفتت «التكنولوجيا» التقليدية للفكر العسكرى التى نشأت عند الاجيال طوال مئات والاف السنين وتخلق لدى الناس فلسفة صيانة الحياة على وجه البسيطة ، الامر الذى

يعتبر عاملا جديدا ذا اهمية تاريخية عالمية لم يعد بالامكان تجاهلها او التمسك بالصمت ازاءها من قبل اى سياسى يتحلى بالعقل السليم .

اننا نعوم فى بحر القلق والامل وشكوك القرن العشرين ونبحث عن شاطىء ارض جديدة . لقد اكتشفنا ذلك الشاطىء ، وهو مكتظ بالناس . انه ميلاد الروح البشرية الجديـــدة والاخلاقيات التاريخية الجديدة والنزعة الانسانية الشاملة الجديدة التى يعلن مبدؤها : «لا تقتل» ، بل ولا تفكر بمقولات القتل ، حتى تؤمن سلامة الجميع وتحافظ على الاجيال . ففى رأى العقل لا توجد ولا يمكن ان توجد فى عصرنا اهداف ومهمات سياسية يسمح احدما لنفسه من اجلها ان يبادر الى تسديد الضربة النووية . لقد التزم الاتحاد السوفييتى امام البشرية بعدم المبادأة فى استخدام السلاح النووى . واذا استخدم احد الشانتاج النووى لاغراض سياسية او ، احياء ، مثلا ، الميول الانتقامية بغية اعادة النظر فى الحدود القائمة التى دفع ثمنها الباهظ بضحايا الحرب العالمية الثانية او عمل على تخويف الرافضين من ابناء البشر فان تلك الاعمال اجرامية تنطوى على افدح الاخطار . ويمكن ان تغدو بداية لرد فعل متسلسل قادر على ان يتحول الى مجزرة نووية شاملة على الارض . تلك هى فى الاونة الراهنة ظروف الحياة على الارض ، وهى ظروف لم تظهر برغبة احد ، فهى الشكل الممكن الوحيد للتعايش ، ويجب التكيف لها على اية حال .

ان التفكير الجديد فى العصر الذرى ثمرة التأملات فى شؤون الحياة ومراقبة وتحليل الواقع الدولى من جانبه الجغرافى السياسى . ومما له دلالته ايضا ان افكار الاشتراكية فيه

ليست معزولة ، — فهو يتناولها فى ترابط وفى مجرى التاريخ المعاصر كله بكل ما فيه من انطلاقات ومصائب وتعقيدات . والى جانب ذلك يؤكد هذا التفكير بكل وضوح ان الاشتراكية بطبيعتها هى من العوامل الاساسية التى تشترط ، بحكم المبدأ الذى اعلنته ، مبدأ التعايش السلمى بين مختلف الانظمة السياسية ، انتقال البشرية من الوعى «الجماعى» التكتلى الى الفهم الشمولى لوحدة الحياة على الارض والى التفكير الكونى فى مواجهة الخطر النووى المتزايد على وجود الشعوب .

ان العقل هو املنا . ولكى يتحول الانجاز الذهنى الى واقع يجب ان يبذل الناس والشعوب جهودا بالغة ، وارادة منظمة واعية فى البحث عن توجهات معترف بها من قبل الجميع للتطور البشرى المعاصر وقوانين ومعايير اخلاقية على طريق فهم مكانة الانسان فى العالم «النووى» وتحليل المستوى الجديد لدوره ورسالته فى العصر المرتقب .

واتصور ان فكرة الاستقبال الانسانى الشامل سنة ٢٠٠٠ يمكن ان تكون اساسا مقبولا لدى الجميع لكل قوى السلام ولكل البلدان وكل الاتجاهات والمشارب بما فيها التيارات الدينية من اجل اتخاذ اجراءات واسعة النطاق من الناحية الدولية وذات طابع سلمى شامل يمكن ان تكون لها اهمية انسانية وثقافية كبيرة بالنسبة للاجيال الحالية والقادمة . ان نظرية «الالفين» ، بوصفها انتصارا للمثل الانسانية العليا ويوبيلا تاريخيا فى تطور الثقافة البشرية واستعراضا لمنجزات الحضارة العالمية وخطوة للانتقال الى الالف الثالث من عصرنا ، يمكن ان تكون وسيلة للبحث عن جواب عن تساؤلنا المشترك :

ما الذى ستجىء به البشرية مع بداية الالف الثالث

من النواحى الاجتماعية والثقافية والعلمية والتكنيكية وما الذى يستحق ان تأخذه معها ليغدو مرتكزا لمواصلة تقدم البشرية وسعادتها فى العصور القادمة ؟

ويمكن لهذه النظرية ، اذا ابدت الشعوب ارادة منظمة ، ان تغدو ، اخيرا ، بمثابة وسيلة لمخرج شامل من الطريق العالمى المسدود ، حيث العقل محاصر يرزح فى طوق الحصار النووى .

واننا اذ نتطلع الى المستقبل من مواقع التفكير الجديد المولود فى العصر النووى نستطيع ويجب علينا ان نقــول لانفسنا اليوم وغدا :

ـــ الى عام ٢٠٠٠ بدون صواريخ وبدون سلاح كونى .

ـــ الرخاء لكل اسرة فى عام ٢٠٠٠ . . . .

١٩٨٥/٢/٤

نبكي راكعين
وننهض ساخطين

كل شيء في العالم نسبـي ، ولكن ليس كل ما فيه قابلا للمقارنة . . هذه الفكرة تخطر على بالى كلما اتذكر هيروشيما وناجازاكى . واليكم السبب .

لم يصلنا عن الطوفان الرهيب الذى اجتاح الارض فى زمن ما ، حسبما تفيد به معطيات العلم الحديث غير المباشرة ، الا اساطير دينية عن سفينة نوح . ان الجوائح المرعبة التى حدثت فى الماضى (ولا يستبعد ان تحدث فى المستقبل) واسفرت عن ضحايا بشرية هائلة وخسائر جسيمة ، كالزلازل والبراكين والاعاصير ، تفقد حدتها بمرور الزمن بالنسبة للمتضررين وتتحول بالتدريج الى حكايات او ينساها الناس عموما فى دورة الزمن .

تلك هى الحكمة فى ماهية الذاكرة البشرية — كل ما تفعله الطبيعة تتضح مبرراته آجلا ام عاجلا ، وكل ما تسببه الطبيعة يواجه من كل بد بالرضوخ والاذعان بشكل او بآخر ، لان الطبيعة غير مسؤولة امام الانسان .

اما الشرور التى يقترفها البشر بانفسهم فلها حساب آخر . وتسرى فى هذا المجال قوانين العلاقات البشرية . ومما

يؤسف له ان الفواجع البشرية التى يسببها الناس ولا تزال ترافق مصيرهم باشكال متزايدة وعلى نطاق متسع انما هى فواجع ناجمة عن العنف والعدوان . وهذه الفواجع تجتاح حياة ومصير ووعى الشعوب بشكل افعال متعمدة ضارة تدمر اصول الوجود الفردى والجماعى ، وبشكل ظواهر تؤدى ، بمتوالية هندسية ، الى مضاعفة مصائب الناس عندما يولد العنف عنفا جديدا والشرور شرورا جديدة كالثأر الذى يعمى البصيرة ، وعندما يهدد ازهاق الارواح البشرية المتزايد بشطب امكانية تكاثر الجنس البشرى ، وعندما يدعو افضل مفكرى مختلف العصور بصوت واحد يائس الى تقديم الخد الايسر للذى يصفع الخد الايمن على امـل التخفيف مـن اوار الغرائز المنفلتة ويطرحون كل مرة ، تحت وابل الملامات والشتائم ، نظرية غير منطقية وغير مقبولة لدى المغامرين ، نظرية تنادى بعدم مقاومة العنف بالعنف . حدث ذلـك عـلى الارض اكثـر مـن مرة ، والتاريـخ شاهـد عـلى ما اقول .

ومع ذلك فالعقل البشرى قادر على نسيان الكثير من اجل المستقبل ومن اجل صيانة الحياة السلمية لقطع حبل العنف الفتاك واطفاء جمر الحزازات التى يمكن ان تستعر فى اى وقت ويندلع منها حريق جديد يصعب اطفاؤه . وحدث ذلك ايضا على الارض اكثر من مرة ، والتاريخ شاهد على ما اقول .

وحتى فى واقع الحال هذا الذى نشأ فى سياق تطلعات الروح البشرية من خلال العذاب والالام الطويلة جرى الان تبدل مبدئى يهدد بعواقب وخيمة ويشطب كل الخبرة السابقة

لوجود المجتمع البشرى فى ظل النزاعات المتواصلة والصدامات الحربية فى العهود السالفة .

ان الحرب النووية التى تتجاوز اجرأ التصورات عن اهوال وفظائع نهاية العالم قد فتحت لها حسابا عالميا عندما وضعت الجنس البشرى امام خيار واحد : فاما الموت واما البقاء ، فى ذلك اليوم المنحوس ، فى السادس من آب (اغسطس) ١٩٤٥ .

مر على ذلك اربعون عاما . وبهذه المناسبة نلتفت الى انفسنا ، فلا احد غيرنا نلتفت اليه ، ونخاطب جميع البشر ذوى التفكير السليم فى قارات وجــــزر الارض . تنبهوا يا ناس ، واحذروا . الى اين نسير وكيف ينبغـــى ان نسير ؟

ساعة التاريخ تدق مشيرة الى حقبة كاملة مرت على ذلك الحدث الاجرامى الشنيع الذى لم تشهد له مثيلا كل الحروب بين الدول والشعوب . مر اربعون عاما على القصف الذرى لهيروشيما وناجازاكى الذى استهدف ابادة جميع الاهالى المسالمين فى هذين المدينتين اليابانيتين المكتظتين بالسكان . وفى ثوان معدودات ازهقت مئات والاف الارواح فى لهيب الانفجارين النوويين الكاسحين مثل الجائحة الكونية الاولى ، وهلك الناس فى آلام تفوق الوصف على امتداد سنين طويلة بعد ان اصيبوا بالاشعاع الذرى الفتاك . مر على ذلك اربعون عاما . وخلال كل هذه الاعوام الاربعين تحاكم البشرية المفجوعة بلا انقطاع مجرمى السياسة الذرية . وكلما مر الزمن تكشف واتضح بطلان الحجج التى تصرف القضية عن الاسباب الحقيقية التى تاجرت بها الحكومة الاميركية آنذاك

فى محاولة لتبييض صفحة هذه الضربة الذرية التى لا معنى لها . مر اربعون عاما ، الا ان نفوسنا لا تهدأ ، وهذه المحاكمة ستستمر قدر بقاء الحاجة لدى الاجيال والاحفاد كى يتذكروا ويحذروا ويناضلوا ويذودوا عن الحياة دون قوى الرجعية العالمية المهووسة والامبريالية المعادية للخير دومـا بطبيعتها اللاانسانية .

وبجهود الاوساط الاجتماعية العالمية وبفضل وسائل الاعلام بالدرجة الاولى خلال هذه السنين تكشفت وثبتت بالادلة امور كثيرة فى تاريخ اعداد واجراء اول قصف نووى فى العالم . ولكن جانبا من جوانب هذه القضية التى يجب ان لا ننساها ، وهو فى رأيـى يمثل تواصل الجريمة ، انما يتلخص ، ويا للعجب ، فى كون الامبرياليين الامريكان قاموا دون اى تردد ، بهما لم يتمكن من القيام به زعماء الرايخ الفاشى ابان الحرب العالمية الثانية بعد ان بذلوا كل الجهود لصنع واستخدام السلاح الذرى ولم يتسن لهم تحقيق ذلك لاسباب عملية صرف . قام الامبرياليون الاميركان بذلك وتجاوزوا الحد المحظور ، باعتقادى ، فى اجتثاث منشأ العقل . فعندما استخدموا السلاح الذرى عمليا فتحوا باب الاستهتار على مصراعيه . فحتى فى حالة الحرب هناك حدود لما هو مسموح به ، وهناك اعتبارات للرأفة بالبشر ككائنات ولدت من اصل بشرى واحد ، واخيرا هناك سماحة النفس والرحمة عند الغالب ازاء المغلوب ، وهما سجيتان موجودتان عند جميع الشعوب منذ القدم . ولم يبد الاستراتيجيون الاميركان حتى مجرد ضبط النفس البسيط ، مع ان الجميع كانوا يعرفون تماما ان الحرب العالمية الثانية تشرف على الانتهاء ولم يبق

للعسكرية اليابانية سوى ايام معدودات . لن يكل الناس فى القرن العشرين عن التساؤل : هل هناك ضرورة تحتم انتقام الولايات المتحدة الاميركية بالسلاح الذرى من بسطاء الاهالى فى هيروشيما وناجازاكى ؟

واذا كنا اليوم نتذكر هيروشيما وناجازاكى فان ذلك هو عمل التاريخ وابداعه الدؤوب فى صنع ذاكرتنا ومعتقداتنا من صور الماضى ، وهى ضرورية لنا اليوم كى نرى المستقبل . ولذا من المهم جدا ان نفهم قيمة هيروشيما بالنسبة لنا اليوم . اننا ندرك اليوم اكثر فاكثر ، وعلينا ان ندرك حتى النهاية ان هيروشيما اكبر من الشر الغيبى واكبر من الانتقام اللامعقول او النبض المنفلت للتفوق العدوانى التدميرى واكبر من التعطش الشاذ لقتل كل ما يمكن ان يقتل . ان هيروشيما حساب شيطانى تلعب فيه ضحايا القصف الذرى دور الهدف غير المباشر لاحراز هدف جغرافى سياسى آخر ابعد مدى . ان تخويف البلدان المستقلة والاقاليم والبشرية جمعاء بالرعب الشامل وفرض السيطرة العسكرية والروحية الشاملة على العالم المعاصر كله ، وبالدرجة الاولى على البنى الاجتماعية المغايرة ، بواسطة الشانتاج النووى — ذلك هو الهدف النهائى لاولئك الذين كانوا يحتكرون السلاح الذرى آنذاك ، اولئك الذين تجرأوا على اقتراف هذه الجريمة البشعة . وبموجب خطة حرب نفسانية وضعت بدقة وباعصاب باردة اعد لمئات الالاف من الناس الذين ليست لهم اية علاقة بالشؤون الحربية مصير ضحايا القنبلة الذرية من حرق وقتل فظيعين . واخطر ما كان فى هذه الفعلة الشنيعة هو الضربة المرسومة والموزونة مسبقا ذات الطابع الجغرافى السياسى الطويل الامد .

ان هذه الملابسات وهذه الضربة المرسومة وفقا لمبدأ الغطرسة الامبراطورية والتى سددت الى هيروشيما وناجازاكى يجب ان يفهمها اليوم كل الناس ، كل الناس بغض النظر عن مدى ابتعادهم عن الشؤون السياسية ، لنكون جميعا ، فى هذه النقطة من التفكير المناهض للسلاح النووى ، موحدين مثلما نتنفس الهواء بشكل واحد . ويجب ان نفهم ذلك لان اية موعظة مهما كانت حماسية قوية انما تبقى عاجزة امام المخططات المرسومة باعصاب باردة . وليس هناك غير خصم قوى واحد لهذه النزعة النفعية الوحشية ، الا وهـو عقل البشرية الشمولى المنطلق من الاغلبية الساحقة لسكان الارض الحاليين والذى يجسد وحدة الرؤية الواعية والخير . النزعة الانسانية لا تتسم بالقوة الا اذا كانت نافذة الرؤية ومنظمة وهادفة ، تفهم ان القضية لا تنحصر فى المهووسين ولا فى القوى والمصالح الاجتماعية اللامعقولة . من المنتفع من ابادة هيروشيما وناجازاكى بالقصف الذرى ؟ من المنتفع من تأجيج التوتر النووى فى الاونة الراهنة ؟ تلك هى المسألة التى يجب ان ترد عليها النزعة الانسانية بدقة اذا كانت تريد انقاذ البشرية من الهلاك النووى وليس مجرد تخويف الجمهور والاشفاق عليه .

ويجب ان نطرح هذه المسألة على مرأى ومسمع من الجميع دون تملص — من هم الذين تفوق منافعهم من التوازن على شفا الكارثة وتتجاوز الخوف الطبيعى وتتجاوز حتى بقايا الضمير ؟ من هم الذين يؤملون فى ابقاء بل وتعزيز مواقعهم العالمية بعد مثل هذه الحرب ؟ يجب اليوم بالذات محاكمة هؤلاء الاشرار الذين يتنكرون للتعايش السلمى بين

الشعوب والبلدان ، وعنوانهم معروف للجميع ، انه بالدرجة الاولى المجمع الصناعى الحربـى الاميركى وكل ما يرتبط به . واذا عجزنا عن ان نضفى على رأينا الاجتماعى العالمى اهمية العامل الرئيسى فى التاريخ الحديث ، واذا عجزنا عن ادانة مجرمى الحرب اليوم اعتمادا على الاغلبية التى فى يدنا فاننا قد نفقد هذه الامكانية غدا .

وامامنا عبرة هيروشيما وناجازاكى المنحوسة الكبيـــرة الدلالة .

لقد مر اربعون عاما على ذلك اليوم . وقد فتحت القنبلتان الذريتان الاميركيتان اللتان قصفت بهما هيروشيما وناجازاكى الباب على مصراعيه امام سباق التسلح النووى الذى شهده العالم بعد ذلك وغدت تلكما القنبلتان فاجعة مرعبة ليس فقط على الشعب اليابانى ، بل فاجعة شاملة دفعت بالمجتمع المعاصر الى عهد تصعيد الاستعدادات والتهديدات النووية التى تنطوى على كارثة مهلكة للحياة على وجه البسيطة ، واسفرت عن تشويه بشع لمغزى الحضارة البشرية ، حيث صارت ماهية وجود الدولة والامة ، فى تصورات المجمع الصناعى الحربـى ، تقتصر على الذين يكدسون المزيد من انواع السلاح النووى ويوزعونها باسرع من غيرهم فى كـل المجالات الممكنة على الارض وفى الجو وفى الماء ، كما يوزعونها الان فى الفضاء الكونى المحيط بعالمنا ، ويبلغون بذلك اوج الشرور المدفوعة بفكرة التفوق الوحيد الجانب على الانظمة الاجتماعية الاخرى ، وبالدرجة الاولى على الاتحاد السوفييتى الذى يذود بثبات عن افكار السلام على مرأى من جميع الشعوب .

فهل يعقل ان العالم المشحون باكداس الاسلحة واحتياطيات قتل البشر هو ذلك العالم الذى يجب ان نعده للاجيال القادمة التى ستدشن انشط حقبة من حياتها فى مطلع الالف الثالث من عصرنا ؟

وهل تلك هى الاهداف الانتحارية التى ينبغى ان يتوخاها عقل الانسان ، تلك الخميرة الحية الخالدة التى تشبعت بالاف السنين من التاريخ والتطور ، واغتنت بماضينا وحاضرنا وتصميم مستقبلنا ؟ فنحن نمثل ما نتذكره وننتظره . . .

مر اربعون عاما على استخدام البشر للسلاح الذرى ضد البشر . ان القصة الحربية اللانهائية ، قصة هيروشيما وناجازاكى المفجوعتين اكثر من اية مدينة فى القرن العشرين ، يجب ان تكون بالنسبة لجميع الاحياء فى قارات وجزر الارض نذيرا محذرا وتذكارا حزينا واعترافا شاملا . . .

ونتوصل اكثر فاكثر الى الاستنتاج الممكن الوحيد المنطلق من كل تعقيدات ومشاكل وتناقضات الواقع العالمى ومن خبرة الماضى المريرة والامل فى المستقبل . ويقول الاستنتاج ان ارادة البشرية المعاصرة التى ترفض اية صيغة اخرى للحياة على الارض انما تطالب بالغاء السلاح النووى ، الى الابد ودون رجعة ، من مقومات الحياة ومن جوهر الوجود نفسه ، كيلا يبقى فى اى مكان على وجه البسيطة ، وفى اية بيئة واى بلد ، وفى اية جهة من جهات الارض ، اثر لهذا السلاح الفائق الفتاك بالنسبة للحضارة والمعلق فوق رقابنا جميعا مثل سيف ديمقليطس . ففى الغائه خلاصنا جميعا ومصيرنا جميعا ، وفى ذلك سعادة الوجود على الارض .

اننا نبكى ونتألم راكعين امام رفات الالوف من قتلى القصف الذرى فى هيروشيما وناجازاكى ، لكننا ننهض ساخطين ، وفى نظراتنا يقدح شرر الحقد المشروع ، اننا نرفض الشر ونلعن مرتكبيه امام ذكرى الماضى والايمان بالمستقبل . ستبقى هيروشيما الى الابد ، ولن تتكرر مأساتها ابدا .

١٩٨٥

محتويات

الى القراء

ان دار التقدم تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول موضوع الكتاب ، وترجمته ، وشكل عرضه ، وطباعته واعربتم لها عن رغباتكم .

العنوان : زوبوفسكي بولفار ، ١٧
موسكو— الاتحاد السوفييتي

الرياح تطهر الارض

جنكيز ايتماتوف

«اننا نعيش جميعا على كوكب واحد . . واذا كان شعب ما ، بل وحتى شخص ما ، يعانى من مصيبة فلا يجوز للاخرين ان يقفوا متفرجين لاابالين» .

(فلنبدد غلالة التحيز والشكوك .) ١٩٨٢

«هل يعقل ان رسالة العقل انتهت ؟ . . . فى اعتقادى ان موارد العقل الابداعية تضاهى موارد الطاقة الشمسية» .

(العقل فى طوق الحصار النووى) ١٩٨٥

فى هذا الكتاب يستعرض الكاتب السوفييتى الشهير جنكيز ايتماتوف (من مواليد ١٩٢٨) صفحات من سيرته الذاتية ونتاجه ويقدم صورا ادبية لعدد من رجالات الثقافة الكلاسيكيين والمعاصرين ، ويتناول دور المثقفين اليوم فى درء الكارثة النووية .

علي مولا